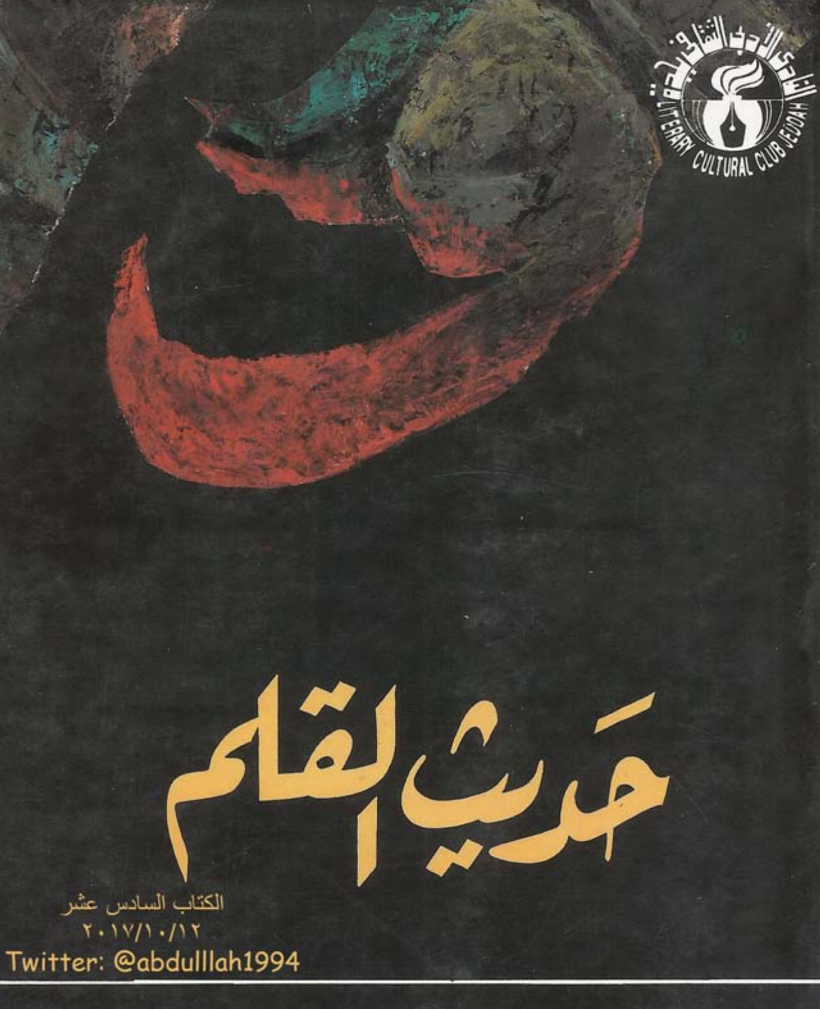


الدكتور محمد رجب البيومي

الدكتور محمد رجب البيومي





١ / ١ / ١٤١١ هـ
الموافق
٢٣ / ٧ / ١٩٩٠ م

المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لرعاية الشباب
النادي الأدبي الثقافي بجدة
ص . ب : ٥٩١٩ ـ ت ٦٨٣٤٦٦٢



مقدمة

نشرت كثيرا من البحوث الأدبية في شتى صحف العالم العربي ومجلاته ، ورأيت بعض الأفاضل من قراء هذه البحوث يطلبون صورا لبعض هذه الدراسات ، مع تشتت مصادرها وعجزي عن الرد في بعض الأحوال .

لذلك رأيت أن أجمع ما يتيسر من هذه البحوث ، مقدما ما تحت يدي دون جهد في البحث ، ليكون الحصول على هذه الآثار مجموعةً أيسر منها متفرقة .

وهذه الدراسات قد كتبت على فترات متباعدة ، وكل دراسة تمثل الصدق الواقعي لاتجاهي إبان كتابتها ، فإذا لحظ الناقد أني جئت برأيين مختلفين في بحثين متباعدين ، فذلك لأني أزاول النقد الذاتي لبعض ما أكتب ، وفي هذا الاختلاف - إن وجد - ما يدل على أن التصحيح الدقيق لمختلف الآراء لا يقف عند حد ، لأن الكلمة الأخيرة في كل بحث لم تقل بعد ، وليس معنى الاختلاف في الحكم ، أن يكون أحد الرأيين خطأ لا صواب فيه ، بل معناه أن أحدهما أقرب إلى الصواب في منطق الباحث عند تسجيله الرأي الجديد ، ومن يدري فلعل الزمن يوحي بترجيح ما ثبت ضعفه في فترة ما ، وهذا ما نلمسه عند كثير من كبار الباحثين ، إذ تتعاقب آراؤهم المختلفة في المسألة

الواحدة ، ولا عليهم مادام الفكر المتحرر يؤدي دوره في الترجيح والتعديل ، ولن يكون الاختلاف في هذه المجموعة التي أقدمها في (حديث القلم) بل فيما كتبت من دراسات أخرى ، إذ حرصت أن تتصل الحلقات متواكبة متساوقة دون نشاز في هذا الكتاب ، لتتفق له وحدة فكرية منسجمة ، وشكرا للنادي الأدبي بجدة حين تشرق هذه السطور من أفقه المنير ،

د. محمد رجب البيومي

المازني يتبرأ من شعره

نعرف أن كثيرا من الناس يدّعون أنهم شعراء ، ويرون فيما ينظمونه من الكلام المتفق مع الوزن العروضي نمطا رائعا من الشعر يرتفعون به أمام أنفسهم وحدها ، فإذا سمعوا ناقدا مهذبا يبدي رأيه الصادق فيما يقولون ضاقوا به ورموه بالهوى المغرض ، نعرف هؤلاء المدّعين ، ولكننا لا نعرف غير الشاعر الكبير ابراهيم عبدالقادر المازني شاعرا جياش العاطفة ، صادق الوجدان ، جيد التصور والتصوير ، بارع الصياغة ثم هو مع ذلك كله ينكر أن يكون شاعرا له مقامه الأصيل ، والمازنيُّ - بعد - ناقد أدبي كبير يعرف معادن القول ، ومَنازِعَ الارتفاع ، ومواضع الانحدار في البلاغة الشعرية ، وله في النقد الأدبي فصول رائعة كانت إحدى اللبنات القوية التي علا بها الصرح النقدي المعاصر ، أفيجوز لمثله أن ينصف غيره محللا روائعه ، ومفسرا ميوله واتجاهاته في صدق صائب ؟ ثم يجور على نفسه هذا الجور ! وهل يجوز لنا معشر القرّاء أن نقرأ شعره الأصيل فنشيح عنه لأنه تبرأ منه ! لقد كان موقف المازني من نفسه غريبا في بابه ، وموضع تساؤل نحاول أن نجيب عنه ، وفي أصدقائه من تبرع بالإجابة وليس أقرب إليه من زميله في النضال الأدبي ، وصاحبه في أحرج

عواصف النضال الأستاذ عباس محمود العقاد ، حين يقول بصدد هذا الاتجاه في حفلة استقبال المازني بمجمع اللغة العربية ـ ببعض التصرف : «لم أر أحدا يجور على المازني كما يجور المازني على فضله وقدره ، وقد طاب لـه منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعملـه والاستخفاف بجدواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية ، وأنكر غناء ما يكتب وينظم ، وقد غالطته أحيانا فقلت له إن هذه البدعة منه ضرب من المكر الحسن ، الذي لا يستغرب ، كأنه أراد أن ينزل عن مكانه ليجلسه الناس عليه ، وأن يجحد حقه ليثبته له الناس .

والأرجح أني غالطته حين استفززته بمثل هذه التهمة البريئة ، وأن حقيقة الأمر في هذه الخصلة أن المازني يستخف بعمله ، وبغير عمله أحيانا ، لأنه يستصغر حياة الإنسان في جانب آماد الخلود ، ومصاير الأقدار ، ولأنه ينظر إلى أعلى ، ولا ينظر إلى أدنى ، فيقيس ما عمل بما أراد أن يعمل ، فإذا هو دون ما أراد ، وإن كان فوق ما أراده عاملون آخرون» .

فالعقاد يعترف أنه يغالط المازني حين يستفزه بأنه يتبرأ من شعره ، وينزل عن مكانه ليُجْلِسَه الناس عليه فهو إذن صاحب حيلة ماكرة في هذا الاتجاه ، أما العلة الصحيحة لدى العقاد فهي أنه يقيس ماقال بما كان يجب أن يقول فيرى نفسه مقصرا ، وفي كلام المازني ما ينبيء عن

ذلك ، ولكن الأدباء جميعا ـ إلا من حطمه الغرور ـ يقيسون ما قالوه بجانب ما يتمنون أن يقولوه فيجدون الفرق بعيدا ، لأن الآمال واسعة ، والجهود محدودة مهما بلغت مبلغها من الاتساع ، فلماذا لم يتبرأوا مما يقولون كما تبرأ المازني من شعره في إصرار .

لقد وجد كلام العقاد صداه القوي في نفس الشاعر المبدع الأستاذ محمود عماد رحمه الله ، فكتب تقديما شعريا لديوان المازني الذي قام على مراجعته وضبطه وتفسيره بعد وفاة الشاعر بتكليف من المجلس الأعلى للفنون والآداب ، قال فيه :

نظم الشاعر هذا الشـ
ـعر يوما وارتضاه
وبيوم آخر أنكر
ه ثم نفاه !
قال إن الشعر فن
ما له عندي أداه
والذي سطرت منه
دون ما قلبي وعاه
وأوى لا ينظم الشـ
ـعر إلى يوم الوفاه
قلت ما أنصف إبر
اهيم فيما قد أتاه

أين مَنْ بــالنــظم يــومــا
قـــد تقضى مبتغـــــاه
إن للنفس كــــلامـــــا
لا تؤديـــــه الشفـــــاه
خيـر شعر الشاعـر السلس
التـــوافي مـــا عصـــاه

فعماد يوافق العقاد في رأيه أن المازني يرى أن ما سطر دون ما وعى ! وهذا حق ، ولكنه ليس العلة المانعة ، ولكنها ظروف تتابعت ، وأزمات تلاحقت ، فتركت سحبها الغائمة في نفس صافية شفافة ، فكدرت نظرتها ، وعكست اتجاهها ، إذ رأت السلامة في البعد ، والراحة في السكوت .

أوليات المازني

اتجه المازني في مطلع حياته إلى الشعر ينظمه ويكتب عنه ، وكان مع رفيقيه شكري والعقاد ينتحـون وجهة جديدة تعطي مفهوما طـريفا للشعـر غير متـداول بين الجمهرة العامة ، فالشعر كما يقول المازني : يحلق بالمرء فوق الحياة ، ويرغمه أن يحس ما يرى وأن يرى ما يحس ، ويجعل القبح جمالا ، ويزيـد الجمال نضرة وجـلالا ، ويفجر في النفس ينابيع الألم والأمل والفزع والسرور ، ويُذهب مياه الموت المسمومة المتدفقة في عروق الحياة ، فلا

جرم كان الشاعر أحس الناس و أعمقهم حكمة ، و أجمعهم لخلال الخير ، وخصال الفضل ، هذا هو الشعر كما عناه المازني ، أما الشاعر فهو من يقول عنه أيضا :

يـرى من ستور الغيب حتى كـأنمـا
يـطالـع في سفـر جليـل المـراقم
لـه خـاطـر يقـظان ليس بنـائم
يجيش بـأصـداف الـلآلي الكـرائم
ولحظ كـأن البـرق ريش سهـامـه
يضيء حـواشي كـل أغبـر قـاتم
وروح كـأن الكون من فـرط رحبهـا
بهـا قـطرة ، من زاخـر متـلاطم
كـأن ريـاضـا في مثـاني حـروفـه
أَرِجْنَ بـأنفـاس الثغـور البـواسم
وما الشعـر إلا صـرخة طـال حبسها
يـرن صـداهـا في القلوب الكـواتم
يـرقـرق أنـداء العـزاء عـلى الأسى
ويضـرم طـورا خـامـدات العـزائم

هذا هو الشعر وهذا هو الشاعر في رأي المازني ، وقد هيأ نفسه أن يكون منذ تخرج من مدرسة المعلمين العليا هذا الشاعر المرموق ، و أخذ ينقد ما لايراه متفقا مع مذهبه من أقوال الكبار من معاصريه ، جريئا غير هياب ، وكـانت الوظيفة الحكومية حينئذ أثمن شيء يحرص عليه ذوو

الدرجات الرسمية من خريجي المدارس العليا ، ولكن المازني رأى أن حملته على الشاعر الكبير حافظ ابراهيم غيرت عليه نفوس رؤسائه في وزارة المعارف ، فكانت تضحيته الأولى من أجل حريته الشعرية أن يستقيل من التدريس بمدارس الوزارة ؟ وأن يلاقي مصاعب العيش في التدريس الحر بالمدارس الأهلية التي لم تكن ذات أجر دائم أو مكافئ ، ولكن صاحب الرسالة الأدبية شاء أن يكون حرا في رأيه غير عابيء بغضب أحد ، وهي حرية أرهقت نفسه ، وأقلقت معاشه ، وكان هذا أول بلاء واجهه حين اعتنق مذهبه الشعري الجديد !

أما البلاء الثاني فمعاداة الصديق الأثير ذي الميل المتفق ، والرأي المتشابه ، لقد كان المازني يتصور أن خصومه سيكونون من مخالفي اتجاهه الشعري ، وهو حينئذ لا يعبأ بهم ، إذ أن لكل وجهة هو موليها ، ولكن صديقه وأستاذه وزميله في آن واحد الشاعر الكبير عبدالرحمن شكري قد قرأ شعر المازني فوجد في الجزء الأول من ديوانه قصائد مترجمة عن الانجليزية لم تنسب إلى قائلها ، مع أنه نبه المازني إليها ، وأشار عليه ألا يضمها إلى ديوانه حين يهم بطبعه ، فكتب نقدا صريحا لصديقه ، نشره في مقال ثم كرره في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ، والمازني لا يعبأ بنقود خصوم مذهبه التجديدي من شعراء البعث ومن يؤيد منحاهم الشعري ، ولكن النقد حين يوجه

من شاعر يؤمن به ، ويكتب المقالات النقدية في تقدير أدبه ، فهو حينئذ لافتة خطر ذات ضوء باهر تنذر بالسقوط ! وليس المازني رغم هدوئه الظاهري بالذي يسكت عن الأذى مصيبا كان أو مخطئا ، ولكنه إنسان يفرح ويألم ويغضب ويعتب ، ويمدح ويهجو ، وقد رأى أن يرد على نقدات شكري فقال في مقدمة الجزء الثاني من ديوانه من كلام متصل .

«أما ما اتُّهمنا بسرقته مما ورد في الجزء الأول من ديواننا ، فقصيدة «فتى في سياق الموت» ، وهي ثمانية أبيات ولقد راجعنا قصيدة الشاعر (هود) فوجدنا في قصيدتنا أبياتا ليست له ، ونحن ننزل عن القصيدة كلها راضين ونبرأ إلى الله من تعمد أخذها والإغارة عليها ، وقصيدة (قبر الشعر) وهي خمسة أبيات نكلها إلى حظ أختها ، ولقد راجعنا الجزء الأول قصيدة قصيدة لنميط عنه الأذى ، وراجعنا دواوين الشعراء التي عندنا فلم نعثر على شيء يجوز من أجله اتهامنا بالسرقة إلا أبيات في (رقية حسناء) وهي «لشلي» والجزء الأخير من قصيدة (أماني وذكر) وهو (لبيرنز) وأول هذا الجزء «ياليت حبي وردة» ولو أن ما أخذ علينا وما نبهنا القراء إليه من تلقاء أنفسنا حذف ، لما أنقص ذلك من قيمة شعرنا فإن في ديواننا الأول نحو ألف بيت ، وليس ما أخذ علينا خيرها ولئن كان هذا دليلا على شيء فهو دليل على سعة الاطلاع وسرعة النسيان وهو ما يعرفه عنا إخواننا جميعا» .

هذا اعتراف صريح اضطر إليه المازني ، دون أن يشفع له قوله «ولئن كان هذا دليلا على شيء فهو دليل على سرعة النسيان وسعة الاطلاع ، لأن التعلة بالنسيان تكون في تشابه معنى ، وتماثل فكرة ، أما أن تكون في قصيدة مكتملة فالتبرير بالنسيان لا يكفي .

خصومة أليمة

قد يقدم الإنسان على حرب لا مفر منها ، وهو في أعماقه يلعن ظروفها وأسبابها ، وهذا الشعور وحده يجعله كالنادم في كل إصابة يوقعها بغريمه ، وهكذا اضطر المازني إلى أن يشن الحرب النقدية على شكري ، وهي حرب شاقة عسيرة ، لأن شكري زميل الاتجاه الفكري ، ورفيق المذهب الشعري ، وإذا كان الهجوم على شوقي وحافظ له أسبابه الداعية من اختلاف وجهة النظر بين شعراء البعث وشعراء الديوان ، فكل ما يوجهه المازني إلى شكري هدم لما اشتركا معا في بنائه ! إن الرجل يسير على الشوك في هجومه على صاحبه ، ولن يستطيع السكوت إزاء رميه بالسرقة ، لاسيما أن شكري كرر الصيال في مجلة المقتطف مرة ثانية ، وهبت مقالات الشامتين تشنع بالمازني ، وكان عجيبا أن يصدر كتاب الديوان ، وبه مقال للمازني عن شكري تحت عنوان (صنم الألاعيب) وموضع العجب أن الهجوم على شكري تحطيم لكل ما تقدم به المازني والعقاد معا من آراء

عديدة في الحقل الشعري ، والمهمة كما قلت عسيرة ، ولكن الغضب يُورِث الافتيات ، ومن هذا الافتيات الظالم قول المازني إن شكري قد تكلف لجهله مالا يحسن إذ أراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الأول ، وظن أن الاجتهاد يغني عن الاستعداد فلاهو بلغ إلى درجة مما طمع فيه ولا هو قنع بميسور العيش ، ولا نقول إن شكري مجنون ، ولكننا نقول إنه متجه إلى هذا الجنون وأن فكرته مالئة لجو حياته ، والخوف منه منغص عليه كل لذاته ..

وهكذا دار هجوم المازني في أكثره حول شكري لا حول شعره ، وإذا كنا نعرف عن شكري شدة الانفعال وضيق الصدر فقد تأثر بهجوم المازني تأثرا دفعه إلى الاعتزال الأدبي حقبة طويلة ، فقضى أكثر من سبعة عشر عاما في أوج مقدرته الذهنية ، وقوته العاطفية لا يكتب ولا ينظم ، وهو معروف بشدة مراقبته لنفسه ، وتحليله لمشاعره ، وقد أفصح عن هذه المشاعر في قصيدة رائعة عدها الاستاذ العقاد من أقوى ما قيل في الشعر العربي بعامة ، إذ أنحى شكري على نفسه باللائمة كما أنحى على صديقه ، واعترف بنوازعه الشخصية التي لم يستطع أن يسلم منها حين كرر الهجوم على صاحبه ، ولم يرحم زَلّتَه الأدبية حين أخذ كلام سواه ، وجمال شكري الرائع في صدقه الخالص من كل شائبة ، لأن هذا الصدق الدقيق أتاح له أن يصور النفس الإنسانة في شتى اتجاهاتها تصويرا بارع الريشة محكم

الأداء ، كما يرسم الضعف الإنساني لدى البشر عامة حين تتحكم العاطفة السريعة في موازين العقل فيشتعل الضرام آتيا على أعواد ناضرة تحمل جمال الزهر ، وعبير الروض .
يقول الاستاذ عبدالرحمن شكري منصفا :

حنـــوت على الـود الـذي كـان بيننـا
وإن صـــد عنه مـا جنينا عـلى الـود
ولا أكـــذبن النـــاس قلبي كقلبـــه
لـــه آنــة ميـــل عن النصف والقصـد
كـــلانــا جنى شـــرا فعـــاد إخـــاؤنـا
محالا حكى ذكرى الشباب على بعد
أيلتئم الصخــــران في اليم بعـــدمـــا
تـــردد مـــوج اليم بـــالصـــدع والهـــد
وكنــا عـــلى مـاكـــان من قـــرب أنفس
كنهـــرين في وادي النضـــارة والـــورد
هـــو البغض مثل الحب لحظ فمنــطق
فنـــار لهـــا بين الأضـــالـع كـــالـوقـــد
فيـــاليت أني قـــد غفـــرت جفـــاءه
ونبـــوتـــه حتى يصــــد عن الصـــد
أبعــــد بـــــلائي العيش أبغي مبـــرأ
وكيف ونفسي لي كمـا الضـــد للضـــد !

والحق أن المازني منذ اعتزل شكري مجال الأدب ، كرر

اعتذاره في مقالات شتى ، وأكد اعترافه بسبق شكري ، وفضله في توجيهه الأدبي ، وقال فيما قال عنه : ومن طول ما عرفته ، وفرط ما ملأت نفسي به صرت على البعد والقطيعة أستطيع أن أستوحيه ، فكأننا ما تباعدنا ولا تجافينا ، ولقد تنمرت له وغدرت به ، ولكني والله ما كرهته ولا انطويت له في أحلك ساعات النقمة إلا على الود والإكبار .

وقد كان في مثل هذا التودد ما يجر إلى الصفاء بعد الجفاء ولكن شكري استبعد أن يلتئم الصخران في البحر بعد أن يصدعهما الموج بضرباته المتتالية فيحدث الانشقاق ، وهكذا نظر المازني في أمره مع صديقه ، فعرف أن الشعر كان سبب القطيعة ، فكان عاملا آخر من عوامل هجره ، واتجاهه إلى فن سواه .

أعباء الحياة

يحتاج الشعر الرائع في نظمه إلى تؤدة واستقرار ، فإذا كانت الانفعالات النفسية ، والخواطر الوجدانية مما يتدفق في نفس الشاعر ، فإن صياغة هذه الخواطر الرائعة لدى شاعر كبير كالمازني يحتفل بالبيان الرصين ، والفصاحة السلسة الشفافة ، تتطلب هدوءا واتئادا ، وقد كان المازني قبل أن تزحمه أعباء الأسرة الكبيرة يملك هذا الهدوء ، فنظم ديوانين كبيرين نسبيا ، ولكنه مع زحمة

الحياة ، وضرورة الكسب أخذ يرهق نفسه بالكتابة في الصحف ليعيش ، فهو يكثر من المقالات والقصص في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية ، ولا يكاد مع هذا الجهد الجاهد يبلغ كثيرا مما يريد ، يقول الدكتور أحمد أمين في معرض رثاء المازني : «لقد ظل يحمل مشعله ، ويؤدي رسالته زهاء أربعين عاما ، يغذي الفكر العربي ويرهف شعوره ، وهو في ذلك لا يمل ، ولا تكاد تفتح عينيك كل يوم من غير أن ترى مقالا ينشره أو كتابا ، ولذلك كان دائما مضطرا أن يكتب ليعيش وتعيش أسرته ، يعاني المرض والألم ويحس الحاجة القصوى إلى الراحة ، ولكن أنَّى له ، والعيشة لا ترحم ، والحكومة لا ترحم ، والأغنياء لا يرحمون ، تتدفق الأموال على الراقصة الخليعة ، والمغني المهرج ، ويعيش الأديب عيشة سوداء كحبر قلمه ، ومن مجرى ضيق كشق قلمه !» .

ومن كان في هذه الدوامة الهائلة فله العذر أن ينفض يده من القصيدة .

على أن المازني كتب عدة مرات عن مهزلة الخلود الأدبي وكيف اعتقدها في بدء حياته الفكرية وسعى إليها جاهدا ، ثم مضت الأيام وخلود الذكر وَهْمٌ يتراءى دون أن يكون حقيقة واقعة ، لأن ذاكرة التاريخ تطمس أكبر الجهود ، ومن تسمح بذكره وترداد آثاره لا يجاوز معشار من يغمرهم النسيان ، بل إن المأساة كل المأساة أن تسمح ذاكرة الزمن

أحيانا بذكر الخامل على حين تسحب ذيل العفاء على النابه المطبوع من أساطين البيان فالخلود أسطورة - في رأي المازني - حاكها الأدباء لأنفسهم ، وكثر ترداداها حتى كأنها حقيقة ، أما المازني فقد عرف السر الخالص ، وتحدث عن نفسه حين قال يرثي ذاته :

أراد خلود الـــذكـــر في الأرض ضلة
فـــأورده النسيـــان شـــر المــــوارد
فــلا تنـــدبـــوه إنـــه ليس بـــالأسى
حقيقـــا ولا أهـــل الهمـــوم العـــوائـــد
وخلوه للديـــدان تـــأكـــل لحمـــه
وذاك لعمـــري خـــطب كـــل البـــوائـــد

هذه بعض العوامل التي دفعت المازني إلى أن ينكر شاعريته معلنا ذلك لقرائه ! ولكن السؤال الذي يجب أن نسأل المازني عنه هو : أصحيح أنه يعتقد في أطوائه أنه غير شاعر ؟ وهل يجوز له أن يصدر حكما تقوم الحيثيات القاطعة على نفيه القاطع ؟ وديوانه الرائع دليل هذه الحيثيات !!

نبضات من قلب جوته

عاش الشاعر الألماني الكبير «جوته» حار العاطفة ، جياش القلب ، وقد امتد به العمر إلى ما بعد الثمانين ، وهو يتنقل من هوى إلى هوى دون أن تهدأ لواعجه الساخنة ، ولئن استشعر قلق المحب وألم المهجور في بعض فترات حياته ، فإن هذا الشعور الممض المبرح قد ألهمه أبدع روائعه الأدبية ، فلولا ما تدفق في وجدانه من أحاسيس الصبابة ، ماترك هذه الآثار العاطفية التي جاوزت وطنه إلى شتى ربوع العالم ، فترجمت إلى اللغات المختلفة شرقا وغربا ، ولو لم يتسمع الشاعر الكبير إلى نبضات قلبه في أحلك ليالي الألم ما استطاع أن يخلد ذكره هذا الخلود ، وأن تظل روائعه مهوى الأفئدة الجريحة في كل زمان ومكان ! أجل ، لولا ما تدفق في وجدان هذا العاشق الكبير من أحاسيس الصبابة ، لكانت آثاره العلمية وحدها ذات ذيوع محدود ، في زمن محدود ولتوارت بالحجاب حين يكتسحها ما يعقبها من فتوح تجعل السابق ذكرى عابرة تسنح قليلا كبرق سريع في غيم متكاتف ! ولكن الشاعر العاشق قد وجد في شرايين دمائه وهجا حارا ، أقلق نومه ، وشرد أمنه ، فأخذ ينفس عن لواعجه بما ترك من فرائد وجدانية في عالمي القصة والشعر ، وقد سعد قراء العربية

بكثير من روائعه العاطفية حيث نقلها إلى لغة الضاد ، طائفة من كبار الأدباء ، وكان هذا من حظ القراء ، لأن القصة الممتازة تحتاج إلى مترجم ممتـاز يحلق في أوج جوته ، ويعيش في أفقه العالي ، دون أن تخذله قوته فيهوى إلى مستوى يفقد معه روح الفنان وإيماضه ، وقوة دفقه ، وسطوة إيحائه ، كما نرى في بعض المترجمات التي أساءت إلى الأصل فأظهرته متضائلا يتوارى في أحقر الأسمال .

عاشق متقلب

على أن أعجب ما في حياة جوته الوجدانية أنه لم يصبر على طعام واحد ، بل كان دائم التنقل من مائدة إلى مائدة ! وأكثر هؤلاء المتنقلين لا يحملون من جذوات الصبابة ما يوقد الشجى بين الضلوع فلا يصدرون في نتاجهم الأدبي عن صدق مؤثر ، ولكن جوته كان من القلة التي صدقت وأخلصت في كل طريق عبرته ، إذ كان الحب يغزوه في وقت ما ، فيتجه إليه بكليته ، إذ يملأ شعاف قلبه . ويسري تياره الدافق بين دمه ولحمه ، فيصبح قلقا مضطربا كطير وقع في قفص لا يتسنى له أن ينفلت من حديده ، وهو مابين الأغلال يرسل أغاريده الحارة نابضة متوهجة ، فإذا فتح القفص بعد أمد طال أو قصر ، وانطلق الطائر لفضائه الفسيح ، فإن أغاريده السابقة قد وجدت مكانها المطمئن في القلوب ، وإن سامعها ليلمس فيها من وهج الاخلاص ما

يجذبه إلى معاودتها في إكبار وولوع ، وهكذا كان الحب المتعدد فيضانا يكتسح روح الشاعر في مواسم متتالية لم ينقطع عنه في أمد دون أمد بل صحبه حتى بلغ به فترة الشيخوخة ! والناس يعجبون لعاشق شيخ يتأوه ، كما عجبوا لعاشق متعدد الطعوم متنقل الهوى ، حتى إذا قرأوا جذواته المشبوبة حمدوا الله أن وجدوا نفوسهم اللاهفة في تلافيف ما يقرأون ويسمعون ، ورجعوا إلى العاشق الكبير بالثناء والتقدير .

ففي السادسة عشرة من سنه ، دخل الغلام اليافع جامعة «ليبسك» ليدرس الحقوق ، ولم يستطع أن يفرغ لدراسته الجادة حيث شغل بهوى فتاة أسماها في شعره (آنيت) كانت ابنة لصاحب حانة يعتادها ، وقد شغفته ولوعا فكتب فيها أولى نبضات فؤاده ، وظل يلاحقها حتى استجابت إلى ندائه ، ثم طاف به طائف الملال فتركها ، ورأى من لوم أصدقائه ما أحرج موقفه ، فاضطر إلى الدفاع عن نفسه ، فألَّف قصة تحت عنوان (مزاح المحبين) ولم تصادف اعجاب من عرفوه ، لأن المؤلف نظر إلى عواطفه المتقلبة ، دون أن يقدر غدره بمن لهج بها وجعل يطاردها حتى وقعت في الشرك ، ثم أعلن الجفاء دون أسباب ، وكذلك كان شأنه في جامعة (استراسبورج) حيث اهتدى إلى شابة فاتنة كانت ابنة لقس من رجال الدين ، تدعى (فريدريكا بريون) فكلف بها كلفا شديدا ، ونظم في حبها قصائد

جديدة ، انتقلت به من دور الطفولة الفنية إلى دور اليفاعة الناهضة ، وناقدو الأدب الألماني يعدونها نمطا طريفا من الإبداع الشعري ، وقد استجابت الفتاة إلى هواتفه حين لمست تولهه الضارع ، وما كاد عام يمر ، حتى عزف عنها ، واتجه إلى التأليف الروائي فأصدر (جوتس فون) التي جذبت الأنظار إلى الفتى الناهض وجعلت حديثه يتردد بين الأدباء .

أما الحب اللاهب ذو الدوي الرنان حقا ، فهو ما وقع له بعد أن ترك الجامعة ، وتهيأ لمزاولة المحاماة في (فتزلار) إذ أحب (شارلوت بوف) بطلة قصته الرائعة (آلام فرتر) وهي قصة ترجمها الأديب البليغ الاستاذ احمد حسن الزيات إلى العربية ، وطبعت ثلاثين مرة ، ورحب بها الناقدون في مصر ، فقال الدكتور طه حسين عنها (ماكان لهذا الشعب - شعب مصر - أن يجهل كتابا كآلام فرتر عرفه الناس جميعا في أوروبا فأحبوه وكلفوا به ، حتى إنك لا ترى فتى أو فتاة في السادسة عشرة من العمر إلا قرأه وقرأه ، وحاول أن يفهم معانيه ، ويتأسى بما فيه ، وخيل إليه أن هذا الكتاب لا يصف ما جال في نفس خاصة من فكر ، وما ملكها من هوى ، وما أثر فيها من عاطفة ، إنما هو يصف الحياة النفسية لكل شاب وشابة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وعلى تباين الأحوال والظروف) .

وما قاله الدكتور طه حسين قاله نقدة الآداب العالمية إذ

انتشرت آلام فرتر بين الخاصة والعامة ، وذكر الناقد الانجليزي (ادوارد شانكس) أن الرواية استحدثت مدرسة جذبت مناهجها أتباعا لا حصر لهم ، بل إن آلاف الشباب في أوروبا كانوا في وقت ما يجهدون أن يرتدوا من الثياب مثل ما كان يرتدي فرتر ، وأن نابليون قرأها سبع مرات ، واستصحبها طوال أيام إقامته في مصر ، ثم دعا الشاعر إلى لقائه فيما بعد ، وحدثه عنها طويلا ، وموجز القصة يدل على تعرف جوته بحبيبته (شارلوت بوف) في فتزلار ، حيث اختلط بأسرتها ، وبادلها الهوى عن صدق ، ولكنه ارتطم بخطيبها ألبرت ، إذ وقف عقبة دون اقترانهما ، وكان البرت سمحا فلم يضق بصديق حبيبته ، وحاول أن يكون أخا مخلصا له ، وهو وضع ليس من الطبيعي أن يستمر ، وكان لابد أن يختم باختيار أحد الشابين ، وقد آثرت شارلوت خطيبها ، وأدرك الشاعر حرج موقفه فانسحب على أشد حالات الكمد ، ليكتب قصة غرامه مسجلا وقائعها المشتركة عن صدق واندفاع ولكنه جعل الخاتمة مهولة مزعجة حيث دفع بفرتر إلى الانتحار !

طارت القصة في كل مكان حتى أحرجت شارلوت نفسها ، إذ ذكر عن عواطفها الدفينة ماجعلها موضع النقد في مجتمعها ، وجائز أن يكون جوته قد كتب ما توهمه صادقا دون أن يكذب ، لأن الهوى قد غطى على بصره فأفهمه مالم يكن ، إذ لو كانت تتجه نحوه أكثر من سواه لآثرته في

النهاية ، كما كان جوته مشتطا حين قسا على «ألبرت» فقال عنه دون مواربة ، ما ننقل بعضه من ترجمة الزيات : «إن جسمي لتستقله الرعدة إذا ما أدار ألبير - ألبرت - ذراعه حول قدها الرشيق ، وإن كلمة تتردد على شفتي ، فهل ينبغي أن أقولها ، إنها لو كانت معي لكانت أسعد نفسا ، وأرغد عيشا منها معه ، ليس ألبير بالرجل الذي يقضي حاجة هذه النفس ، ويحقق مراد هذا القلب ، لقد تعوزه الحساسية ، إن قلبه لا يخفق مع قلبينا ، إذا ما قرأنا فصلا من كتاب ممتع ، تجد قلبي وقلب شرلوت يتقابلان ويمتزجان ، وقلبه عما نحن فيه بمعزل ، ولطالما دار الحديث بيننا عن إنسان ، فنذكر ما نحس له من عاطفة ، ونشرح ما نرى في عمله من رأي ، فنتفق أنا وشرلوت إلا ألبير فيقف منا على النقيض ، لا جدال في أنه يحبها من صميم فؤاده ، وهل جزاء هذا الحب إلا السعادة !» .

ولا أدري لماذا لم يغير جوته اسميْ صاحبيه ، لينأى بعض الشيء عن مؤاخذة لائميه ، يخيل إليّ أنه أراد بهذه القصة أن تكون رسالة خاصة يضعها في يد شرلوت ، لتفصح لها عن وجدانه العميق ، فتدرك ما يلتطم بداخله من موج ! صراحة دون مواربة ! وقد أخطأ فيما أراد ، لأن ذلك كان مما يتيسر أيضا ، لو طرح الأسماء ، إذ أن صاحبته ستفهم كل الفهم ما يعنيه ، ثم يفسح لها مجال العذر كي تقول إنها غير المقصودة بكل ما قال ، وإنما جمع

الشاعر شتى تجاربه ليصبها في إناء واحد ! لقد سد جوته باب العذر فقوبل بعاصفة من مجتمع (فتزلار) وكانت شرلوت أول من جابهته بالإنكار ! وحق لها .

عود على بدء

تطلع جوته إلى الجديد أيضا وهو دائم التطلع إليه لا يكاد يغمض عينيه ، فقد انتقل إلى فيمار ، وتعرف بأكبر رأس بها وهو الدوق كارل أوجست ، وهو ذو موهبة أدبية ، ووالدته أيضا من نوابغ الأدب لعهدها ، وكان في هذه البيئة المثقفة ما يرتفع بعواطف الشاعر إلى نمط أعلى في أفق الصبابة ، ولكنه انجذب إلى زوجة ضابط من ضباط القصر ، وقد أنجبت سبعة أولاد ، ولم تلهها الأسرة الكبيرة عن الهيام بالأدب والشعر ، وكان ذلك مدخل جوته إلى عقلها وحده ، لأنها أوصدت قلبها دونه فالتهب متأججا ، وأخذ يراسلها مستعطفا ، وكأني بها ـ وقد قرأت آلام فرتر وما سبقها من مذكراته العاطفة أدركت تقلبه ، وانتقاله من صبوة إلى صبوة ، وهي بعد تكبره سنا وتجربة ! فما زاده إعراضها غير الحنين والتلهف ، وهي الوحيدة التي ظل يراسلها بعد رحيله اثنتى عشرة سنة ! وكان صدودها الحاسم دافعه السريع إلى التقاط من تقع على الطريق ، إذ اتصل بفتاة تدعى كريستين فولبيوس ، وتمنعت عليه حتى احرجته ، فاضطر إلى الزواج منها ، على رغم اعتراض

عارفيه ، إذ قارنوا بينها وبين من كتب فيهم جوته روائعه فلم يجدوا وجها واحدا من وجوه الشبه ! إذ كيف يخبر الذائق الفنان ألوان الترف العاطفي من لدى غانيات مثقفات موهوبات ! ثم ينتهي به المطاف إلى زوجة أمّية جاهلة تكون أم ولده ، ولعل الشاعر قد تعب من صدماته القاسية ، وعز عليه أن تتوالى الصدمات فآثر الراحة إلى حين ، وأقول إلى حين لأنه سيرتطم في خاتمة حياته بحب كبير يتوجه إلى ملاذه في شيخوخته بعد أن فقد أسلحته الماضية كما سنشير إليه عن قريب .

إن خيال جوته المجنح كان الدافع الأول لتقلبه العاطفي ، لأنه كان يرى حواء بوهمه قبل أن يلحظها بعينه ، كان يسبح في أجواز هذا الوهم ليتصور فاتنته حورية أسطورية ، فإذا وصفها فإنما يصف ما قام بذهنه من تصور ملائكي لا حقيقة لوجوده ! وحين يتم اللقاء ، وتتكرر مواقفه ، وتتعدد مناسباته ، تظهر حواء على حقيقتها مجردة من كل خيال ، فيدب السأم إلى نفسه ، ويجد من العوامل ما يبعث على الخلاف فالهجران ! وكأن جوته قد عبّر عن هذه الخيبة القاسية تعبيرا رمزيا حين قال :

«لدى حلولي هذا المكان كنت كلما أجلت النظر في هذا الوادي الجميل من أعلى الربوة أشعر أن نفسي نزاعة إلى كل جهة من جهاته ، أرى الغابة الصغيرة هناك فأشتهي أن

أتفيأ ظلها الوارف ، وألمح قمة الجبل البعيد فأتمنى لو علوتها ، وأبصر الهضاب المتسلسلة والوديان المنعزلة ، فأود لو أضل في شعابها ، وأجول في رباها فإذا ما ذهبت اليها طائرا عدت أدراجي غير واجد ما كنت أرجوه وآمله ، وهكذا أمر الغد ، ظلام متكاثف أمام النفس ، يخوض في أحشائه القلب ، ويضل فيه ضلال البصر في المنظر البعيد ، ويذيبنا الشوق إلى الانتقال إليه لنحظى بالشعور الفرد ، والسرور المحض ، والعيش الرفيع ، فنركب إلى الوصول إليه كل صعب وذلول ، حتى إذا تمثل الغد ، وتحقق المرجو ، واقترب البعيد وجدنا كل شيء على حاله الأولى ، حياة سيئة ، ومعيشة ضنك ، ومستراد حرج ، ورأينا أنفسنا الصادية تحن عبثا إلى الشراب البارد العذب الذي فاتها ، ثم يعاودها الأمل فتأمل» .

تأمل هذه الصورة واجعل حواء مشبها والطبيعة مشبها به ، تدرك ما يعني الكاتب اللهيف .

زليخا وحاتم

عاد جوته إلى مسقط رأسه وقد جاوز الخامسة والستين من عمره ، وتطلع إلى مرابع طفولته ومسارح صباه تطلعا بعث به وقدةً من الحنين ، فتأكد أنه سيقع في حب جديد سيكلفه كثيرا ، إذ فقد أسلحته الساحرة التي كان يمتّع بها في شبابه ، فكيف يخوض المعركة أعزل في هذا الزمن المثبط !

توقع الشاعر أنه سيقع في الحب لا محالة لأنه يعرف أن حصون قلبه واهية تسلم أبوابها لأول طارق ، بل إنه يعتد ابتعاده عن الحب موتا حقيقيا لنفسه ! فبه يحيا ، ومن هوائه يتنفس ، وبنوره تهتدي عيناه ! وقد وضع يده على رأسه متحسرا لما يكلله من الشيب الأبيض ، ثم نظر إلى الأفق فرأى خيوطا بيضاء تشق طريقها بين الغيوم ، وتؤلف بينها نطاقا أبيض كأنه وشاح على خصر حسناء ! فتفاءل بينه وبين نفسه ، وقال مبتسما لقد حسن منظر اللون الأبيض في عيني ، فقد يحسن شيبي في عين حسناء ، وما لبث أن نزل ضيفا على كبير من رجال المال يدعى (فون فيلمر) وكانت له زوجة شابة تتذوق الفن وتعشق الموسيقى وتجيد الشعر ، وقد سمعت بالشاعر وقرأت روائعه قبل أن تراه ، وامتدت فرص اللقاء فكلف بها جوته كعهده ، ورأته بطلا من أبطال الأدب العالمي فجاوبته ، وقد أحست بلهيبه دون أن ينطق ، فابتدأت بمكاشفته ، وبعثت له ببعض الرسائل ، ولا تسل عن فرحة الشيخ الكبير وقد سقطت في كفه أنضج فاكهة من أجمل دوحة ، ولكن تجارب الأيام قد علمته ألا يصرح بما في مكنونه كما فعل في رواية فرتر حيث أسخط شرلوت ! فآثر أن يكنِّى دون أن يسفر عن خفاياه الدفينة كأمسه البعيد ! ولو استطاع السكوت لفعل ، ولكن عواطفه الجائشة تتطلب المفيض ، وكان لا يزال يؤلف ما عرف في مؤلفاته باسم «الديوان الشرقي ، فكتب

مقطوعات رائعة تحت عنوان (زليخا وحاتم) وهو شيخ واهن يكذب واقعه ما يريد ، فاختار حاتما ، وأوقع نقاده في حيرة من اختياره فما كان حاتم بالصب العاشق ، ولكنه جواد ضرب به المثل ، أترى جوته قد تشبه بحاتم في كرمه إذ بذل قلبه سخيا دون جزاء ! هذا ما يقوله بعض الكاتبين ، ولا أراه يطمئن في موضعه الصحيح ! وننقل شيئا مما ترجمه الأستاذ عبدالرحمن صدقي عن كتاب (زليخا وحاتم) حيث قال جوته :

حاتم : يا للغدائر الخلابة التي تيّمتْني ، لقد أوقعتني شباكك في أسر هذه الطلعة الأسيلة الجلواء ، وليس عندي أيتها الأفاعي السود المحببة ما يضارعك ، ليس إلا قلبي وهو كعهده يتملأ ويتفتح كالزهرة اليانعة ، إنه تحت الثلج الأشهب ، والدجن المخيم ، بركان مسجور يجيش بحبك ، لقد علت وجهي منك حمرة ، كما اصطبغت من الفجر مراقي الجبال الوعرة ، وآنس حاتم في نفسه مرة أخرى نفحة الربيع ووقدة الصيف .

زليخا : والله لا أرضى لك التلف ، فإن الحب يذكي الحب ويؤكده ، فابق بصبابتك زينة لصباي وما أشدني زهوا بمحبتك كلما سمعت إطراء الناس

لعبقريتك ، فإنما الحب الحياة وعبقرية الذهن حياة الحياة ..» .

شد ما تباعد جوته عن أمسه ، كان في آلام فرتر يقرن شبابه وجماله ونضرته بشباب شرلوت وجمالهـا حتى ليغدوان متماثلين ، وهو الآن يعاني البرحاء تحت الثلج الأشهب ، والدجن المخيم ، ثم يعلل نفسه بعبقرية الذهن لأنها حياة الحياة ! وعبقرية الذهن لا تفيد شيئا مع الخطو المرتعش ، والانحناء الواهن ، والنظر الكليل .. أليس كذلك ؟

المنفلوطى :
بين طه حسين والمازنى

ازدهـــرت مؤلفـــات الكـاتب الكبـير مصطفى لطفي المنفلوطي في الجيل الماضي ازدهارا رائعا حيث أرضت حاجات القراء فأكبوا عليها تذوقا ونهلا ، ورأوا عواطفهم الصادقة فيما ترقرق في معينها من بيان حي ، ترن موسيقاه في النفوس رنين الأوتار المغردة ، وتميل معانيه بالأرواح ميْلا مؤثرا يهبها أرق المشاعر ، ويرتفع إلى أفق ساحـر الطلعة ، متعدد الألوان ، وقد حفلت الكتب المدرسية إذ ذاك بنصوص مختارة من أدب الكـاتب ، كانت مهـوى الطلاب فخفت على ألسنتهم ، ورسمت أمامهم نمطا من التعبير يستشرفون إليه مشوقين ، وكثيرا ما أكبوا على استظهار هذه النصوص مؤثرين إياها على ما يقدم اليهم من نماذج البلغاء في القديم والحديث لأن روحها الشفافة قد خلصت إلى أعمق الأعماق من نفوسهم ، وإذا سألت عن انحدار الأسلوب في بعض ما نطالع من آثار الكُتّاب في هذه الأيام فلأن كثيرا منهم لم ينشأ بين رياض المنفلوطي فيقرأ مجدولين والشاعر وفي سبيل التاج والفضيلة كما قرأها السالفون من قبل ، لقد كانت هذه الروايات الرائعة فردوسا للناشئين يطالعهم بأبهج ثمار الأدب من عاطفة حيـة .

وتصوير أخاذ ، وتعبير صاف مسترسل ، ولا يعنينا أن تكون هذه القصص صورة دقيقة من أصلها الأوروبي ، فسواء أضاف الكاتب ما رآه مناسبا أم وقف عندما قال صاحب القصة ، فإن المنفلوطي لم يتبوأ مقعده الأدبي مترجما ، ولكنه رزق نعمة البيان فعبّر عن ذاته في كتاب النظرات بأجزائه الثلاثة ، وأجرى يراعه فيما نقل إليه من صحف الغرب ليقدم آثارا إنسانية ملكت نفوس القراء ، وتعددت طبعاتها حتى بلغت الأربعين ، وجذبت أبناء العربية في كل مكان ينطق أهلوه بلغة القرآن ، وقد خسرنا كثيرا حين حرمنا الناشئين من أدب المنفلوطي ، وتركناهم إلى قصص بعضها مرتفع ، وأكثرها منخفض ، وفي هذا الأكثر مالا يتصل بالبيان بسبب ، ولفظة البيان هذه بغيضة ذميمة لدى أناس لا يرتقون إلى التعبير الأدبي الصحيح فيما يؤلفون من قصص ، وقد أحسوا بعجزهم الشائن عن مستوى أدباء الجيل الماضي ، وبدلا من أن يعملوا على الارتقاء بأسلوبهم أخذوا يضائلون من نفاسة البيان الحي ، ويعدونه صنعة ذهنية ، وموصلا غير جيد ، وقد انتشرت مؤلفاتهم الركيكة بين الناشئين من قبل ، فانخفضت بمستواهم العام ، فإذا سمعت متكلما كبيرا يتلجلج ، أو قرأت مقالا مفككا لمسئول يبدي وجهة نظره ، فاعلم أن هذا الطراز لم يجد من وَجهّه في مدرسته إلى الأدب الصحيح فأصبح عامي العبارة ، مضطرب الفكرة ،

وأُصِرُّ على وصفه باضطراب الفكرة ، لأن البيان المؤثر سمة بارزة لفكر قوي متماسك ، فهو إناء نظيف لماء نقي شفاف !

اسلوب واسلوب

كان أكثر المقالات الصحفية في أوائل هذا القرن يعالج مسائل السياسة والاجتماع معالجة من يهتم بالمعاني المسرودة مبديا وجهة نظره في حديث يجمع الحقائق ، ولا يعنيه أن يرتفع بالتعبير ، ولكن جريدة المؤيد ظهرت فجأة بنمط من البيان النثري له تأثير الشعر في استمالة النفوس ، لما يخاطب به العواطف الإنسانية من إلهامات تجد صداها المتغلغل في أعماق النفس ، وإذا كانت المعاني طيَّ هذا البيان لا تتغلغل دقة واستقصاء ، فإن قراء الأمس لا يهشّون لمثل هذا التغلغل ولا يصبرون عليه ، إنما يبهج نفوسهم أن يلمسوا أحاسيسهم المكظومة مغردة على يراع كاتب مبين ، ولعل الأستاذ أحمد حسن الزيات أجاد وصف الواقع الأدبي حين صور تأثير المنفلوطي الكبير في قرائه ، وهو بَعدُ خليفته في منحاه البياني ، ومكمل رسالته الفنية متأثرا لا محالة باتجاهه ، وإن ظهرت بعض الفوارق الأدبية بين قلم وقلم ، لعل الأستاذ الزيات أجاد وصف الواقع الأدبي حين قال :

«أشرق أسلوب المنفلوطي على وجه المؤيد إشراق البشاشة ، وسطع في أندية الأدب سطوع العبير ، ورن في

أسماع الأدباء رنين النغم ، فرأى القراء الأدباء في هذا الفن الجديد ، مالم يروا في فقرات الجاحظ ، وسجعات البديع ، ومالا يرونه في غثاثة الصحافة ، وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد العذب .

وكان هذا النّفر الأيفاع من المتأدبين يجلسون في أصائل أيامهم الغريرة أمام الرواق العباسي يتقارضون الأشعار ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون المؤيد ، ليقرأوا مقال المنفلوطي خماس وسداس وسباع ، وطه (يريد طه حسين) مرهف أذنيه ، ومحمود (يريد محمود الزناتي) مسبل عينيه ، وفلان (يريد نفسه) مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف ، وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطي الذي اصطفاه الله لرسالة الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتي تلميذه المختار» .

وإذا كان مؤرخو الأدب المعاصر قد تحدثوا عن ريادة المنفلوطي بما يحدد مكانته الأدبية ، وتأثيره في استقلال البيان المعاصر ، وخلوصه من وَضَر الصنعة ، وغثاء الركاكة ، فإن فريقا من ناقدي العصر قد أبدوا رأيهم في أسلوب المنفلوطي متأثرين بوجهات خاصة ، منها المعتدل ومنها المتحامل المشتطّ ، وفي إيضاح بعض هذه الوجهات ما يعين على تمحيص الرأي ، وجلاء الصواب .

طه حسين

نشأ الدكتور طه حسين ثائرا متحفزا ، لا يرى من وجه الحياة غير صفحة النقد ، ولا يرتاح لغير الصراع المحتدم مادام يترك خلفه الشهرة والضجيج ، وقد ذكر الاستاذ الزيات من قبل كما ذكر عن نفسه أنه كان يطرب لأدب المنفلوطي ويقبل على تشربه خماس وسداس وسباع ، ولكنه انقلب فجأة يهاجمه في ضراوة تصل إلى درجة السباب دون أن يقدم من الحيثيات ما يدل على أن الناقد يهتدي بمقياس حيادي منصف جعله ، ينتقل من ناحية التقريظ إلى وجهة التجريح ، ومن الانصاف للدكتور أن نذكر أنه لام نفسه أعنف اللوم على موقفه هذا ، ووصفه بالسخف وما هو أكثر من السخف ، ولن نكون أكثر منه حرصا حتى نتعاطف معه في موقف لا يجد الشفيع من نفسه ، وإنما وجد منه شجاعة قوية ، دفعته إلى أن يقول في الجزء الثالث من الأيام :

«وعلى الشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل ، من ثقل هذه الفصول السمجة الطوال التي كتبها الفتى فشغل بها الأدباء والمثقفين حينا ، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها ، وضيقه بها ، وخجله منها كلما ذكرت له ، وكان موضوعها نقد نظرات المنفلوطي رحمه الله ، وكان عنوانها «نظرات في النظرات» .

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة ، ولم ينس الفتى مقالا دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبدالعزيز جاويش فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له ، وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب ، على من يحضر مجلسه ذاك ، وابتهج حين سمع الثناء وأحس الإعجاب ، ثم لم يذكر بعد ذلك أول المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه ، وسأل الله أن يتيح له التكفير من ذنبه ذاك العظيم ، وكان بعض تبعة هذا السخف يقع على الشيخ عبدالعزيز جاويش» .

وأنا لا أدري كيف يتباهى الدكتور فيما قبل هذه السطور من الفصول السابقة بكتاب الأيام باستقلاله الفكري ، ونشوزه كل النشوز على أساتذته الأزهريين ، ومجابهته إياهم في تطاول ، ثم يحاول أن يطمس هذا الاستقلال حين يجعل نفسه تابعا للشيخ عبدالعزيز ، وحين يحاول أن يلقي بعض التبعة عليه ، أين هذا الطموح الشامخ المترفع من التبعية ، ولم لم يشذ عنها ـ لو كانت ـ كما شذ على غيره فيما حكاه ! لقد هاجم طه المنفلوطي بعد عودته من فرنسا ، وبعد استقلاله كل الاستقلال من أثر الشيخ عبدالعزيز ، هاجمه ظالما غير منصف ، وأعلن أنه لا يحبه ، فهل استغفر الله من ذلك أيضا ؟ وهل بحث عن جاويش ثانٍ يُلقي عليه تبعة ماكان !! لقد اعترف طه بتأثير جاويش وتوجيهه الأدبي والعلمي لتفكيره ، ولكنه لم يشيعه بكلمة رثاء ، ولم

يكتب عنه عشر معشار ما كتبه عن أحمد لطفي السيد ، لأن أستاذ الجيل كان صاحب منزلة سياسية وجامعية فيجب أن يذكر له مكانه ، أما عبدالعزيز فقد ودع الحياة غريبا عنها بعد أن ذاق آلام الجوع والتشرد والمرض في ألمانيا مجاهدا في سبيل وطنه ، ورجع ليعيش متواريا في عمل أصغر من مواهبه ، فلماذا يحفل به التلميذ الطموح كما حفل بلطفي السيد !!

لقد ذكر طه فيما ذكره من نقداتِ «النظرات» أن المنفلوطي أبعد الناس عن الحقيقة وأحبهم لاصطناع الخيال ، وهذا خطأ لأن المنفلوطي كغيره من أساطين البيان يتخذ الخيال مرآة لتصوير الحقيقة ، فوظيفته قوية في إيضاح ما يريد من المعاني ، حين يظهرها ساطعة واضحة ذات نفاذ في النفوس .

كما ذكر أن المنفلوطي مولع بالسرقة ، وهو ما عجز عن إثباته ، إذ لا يكفي في تحقيقها أن يكون اسم النظرات قد ذكره الرافعي من قبل ، إذ كان على الناقد أن يعمد إلى فصل من فصول النظرات ، فيذكر معانيه المسروقة ، وأفكاره المغتصبة ليكون المنفلوطي سارقا بالدليل المفحم ، والبرهان الملجم ، أما أن نقول إنه سارق وكفى ، فهو اتهام باطل لا يقف على قدم ، بل يتداعى كالهباء .

ثم أخذ عليه أنه ذو معان تتكرر وتتردد ! وهو مأخذ غير دقيق ، لأن المنفلوطي كاتب اجتماعي يعالج أمراض

العصر ، وقد يضطر إلى تكرار علة يجد أصولها تمتد إلى علل مماثلة فيكرر بعض ما قال ، ليصل الحاضر بالماضي ، وسبيل الداعية أن يلح على استئصال الداء وتشخيص الدواء ، فإذا تركنا الفصول الاجتماعية إلى غيرها من فصول النظرات فلا نجد أثرا للتكرار في المعاني ، أما إذا أراد طه حسين أن يشير إلى حرص المنفلوطي على استعمال بعض الألفاظ التي تكاد أن تكون خاصة به ، فهذا شأن الكاتبين جمعا ، والدكتور طه نفسه ذو ألفاظ تتكرر ، وأساليب تلتصق به وتعد لازمة من لوازمه ، ولم ير في ذلك ما يوجه إليه على سبيل المؤاخذة ، فلِم يؤاخذ الكاتب الكبير على طبيعة أدبية تلزم أكثر الكاتبين ، وتلوح لدى الناقد نفسه في أسطع مرآة .

والعجيب أن المنفلوطي قد ساق عن الكاتب الكبير محمد المويلحي ثناء مستطابا ، وقال إنه تلقى من أخيه المويلحي كتابا أشار إلى مضمونه ، أفيدري القاريء ما موضع النقد لدى طه فيما قال صاحب النظرات ، إنه يقول : جعلت الرجل أخاك ، وما علمته من الرياء بحيث يدعوك أخاه الكريم ، ولم يرك إلا مرات ثلاثا» ولو رجع طه إلى محفوظه من كتاب الله لعرف أن المؤمنين إخوة ، بل لو رجع إلى ذاكرته الواعية لأسعفته بقول أبي تمام في صديقه علي بن الجهم :

أو لم يكن نسب يؤلف بيننـــــــا
أدب أقمنـــــاه مقام الـــــوالـــــد !

وإذا استكثر طه على المويلحي أن يكون أخا للمنفلوطي زعيم البيان في عصره ، فإنه بلا شك سيستكثر على المويلحي أن يكون أخا له هو أيضا ؟ وما أظنه يطيق صبرا على ذلك في تعاليه !

دعا المنفلوطي إلى إصلاح اللغة ، ورأى من حق الكاتب أن يمدها بتوسعة وافية عن طريق الاشتقاق والتعريب ، وتلك بدهية لا تقبل الجدل ، ولكن طه يلج في العناد حين يذكر أن اللغة ليست في حاجة إلى ما يريد صاحب النظرات ، فهي لم تضق عن حاجات العرب ، وإنما جهل المنفلطوي فادعى !

هذا نمط من نقد طه ، أكبر هادم له هو طه نفسه حين اعترف بسخفه وسماجته ، وحاول أن يلقي تبعته على رجل مظلوم ، مع أنه رئيس تحرير يفسح جريدته للمؤيد والمعارض معا ! ولو كتب طه في موضوع آخر لرحب به عبدالعزيز ، وكثيرا ما فعل ، وقد شجعه على نشر فصول حيوية أخرى يفتخر بها طه ، أفيعود فضلها إلى جاويش !!

ثم هاجم الدكتور طه المنفلوطي مرة أخرى بعد عودته من أوروبا ، وقد صار أستاذا بالجامعة ، هاجمه حين أصدر رواية الشاعر ، فصادفت ارتياح الكتاب ، وكتب الدكتور منصور فهمي كلمة منصفة في تقديرها ، فذكر أن الكاتب الكبير قد أدى صورة حية بلسان عربي مبين نقلها عن البلاغة الفرنسية الفائقة ، ولكن منطق الدكتور منصور

فهمي لم يعجب صاحبه فاندفع طه حسين يعلن أن له رأيا في المنفلوطي قديما لا يتحول عنه ، وأن ما قام به من تحويل التمثيل إلى قصة مَسْخٌ لا يرضاه غير من لا يقدرون الفن قدره ، ولم يسكت الدكتور منصور فهمي فكتب يقول إنه يرى من الخير أن تكون عندنا في اللغة العربية فكرة صغيرة من أدب جديد ، فذلك أفضل من أن يهمل هذا الأدب ، ولو لم يكن ذلك ، لما نقل الفرنجة كتاب الله ، ولما قرأنا بالعربية شعر هوميروس ، كما أن الدافع للنقل من لغة قد يكون في إجمال الموضوع وليس في تفصيله ، وقد يكون في المعاني وليس في ثوبها التعبيري ، وتلك وجهة نظر قابلها الدكتور طه بهجوم عاصف حين قال للدكتور منصور فهمي : أعيذك ألا تكون مقالاتك مشجعة للمفسدين على إفسادهم ، وللأدعياء في الأدب على أن يسرفوا في ادعائهم ، وإن أحسن أثر للفلسفة إنما هو تقدير الأشياء وإقرار الأمور في نصابها ، وذلك شطط قابله الدكتور منصور فهمي بقوله : إنك مهما تشددت في النقد فلا تجد ما يبرر ذكر المنفلوطي مع الأدعياء ، وإني مهما تساهلت في الفن فلا أستكثر وصف الكاتب الأديب حين أذكر المنفلوطي ، وانك تقول إن قراءة الموضوع أسهل على الناس في تركيبه القصصي منه في تركيبه التمثيلي ، فهلا ترى أن المنفلوطي وقد حافظ على الأصل أدى خدمة للجمهور إذ سهل عليهم قراءة هذا الموضوع الجميل ، أم ترى تسهيل الأدب والفن والعلم على

العامة إنما ليس له في ساحة غفرانك نصيب ، فإذا كنت ترى بدعة تحويل الرواية إلى قصة فتلك بدعة صالحة لا يستهجنها الذوق السليم ، ويستحق المبتدع عليها كل حمد وثناء ، وإذا كان أسلوب المحاورة والتمثيل ، يتمشى مع بهاء اليونانية والفرنسية فإن العربية يتمشى مع روائها أسلوب القصص ، ولم يكن المنفلوطي ليمسخ الفن أو يشوهه كما تقول بل حرص عليه حين حوّله إلى فن عربي صميم !

هذا ملخص ضئيل يشير إلى أهم مادار بين الدكتورين الكبيرين ، ونجد طه غير منصف حين عدّ المنفلوطي من الأدعياء ! وإذا كان يرى في عمله تشويها ، فلماذا أباح لنفسه أن ينقل التمثيليات الفرنسية الطويلة ملخصة مبتورة في كتابي (صوت باريس) و(لحظات) ولو فعلها سواه لقال إن الفن الروائي عمل متكامل يشوه بالتلخيص ، وليس أفكارا علمية توجز وتختصر ، لأن جمال الفن في طريقة التناول ، وتسلسل العرض ، وهذا ما يشوه العمل الأدبي ويمسخه ! لقد جاوز طه صنيع المنفلوطي حين لخص المسرحيات الفنية في صفحات مبتورة ، ورأى في ذلك نفعا للقاريء العربي ، على حين وجد المسخ والتشويه لدى المنفلوطي ، حين أخرج صفحة رائعة من صحف البيان متشبعا بما قرأ من حوار تمثيلي صار على يده تحفة أدبية ذات نفاذ وتأثير .

المازني

كان المازني في شبابه غيره في كهولته ، فهو في شبابه ثائر مخاصم صوّال ، يستلذ الخصام الجارح ، ويجوف الحصاة حتى ليحسبها الناظر جبلا وهي حصاة ! ولهذا خاصم حافظ ابراهيم وعبدالرحمن شكري ، ومصطفى لطفي المنفلوطي في ضراوة لا تعرف الهوادة ، ثم هدأت ريحه فمال إلى المهادنة ، وصار حربا على أدبه هو ، يضائل من أثره وهو كبير ، ويستقل فنه وهو كثير ! وقد لحظ المازني هذا التحول فبدأ قصته (ابراهيم الثاني) بقوله ، تحت عنوان ايضاح :

«ابراهيم الثاني ، هو ابراهيم الكاتب ، أو كأنه على أصح القولين ، ثم تغير جدا ، بحيث لو أمكن أن يلتقي الابراهيمان لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف ، ثم ذكر من شعره قوله :

إني أراني قد حُلْتُ وانتسخت
مع الصبا سورة من السور
وصرت غيري فليس يعرفني
- إذا رآني - صباي ذو الطور

ولـــــو بـــــدا لي لبت أنكــــره
كـــــأنني لم أكنـــــه في عمـــــري
مـــــات الفتى المـــــازني ثم أتى
من مـــــازن غيـــــره عـــــلى الاثـــــر

وفي عهد (ابراهيم الكاتب) سطر ابراهيم عبدالقادر المازني نقده العنيف للمنفلوطي بالجزء الثاني من (الديوان) فبدأه بكلمة تحت عنوان (أدب الضعف) يعلن فيها أن الادعياء في الأدب كثيرون ، وهم يستولون على القراء لجهلهم وقصور مداركهم ، وهو بهذا يمهد لما تلاه من هجوم على صاحب النظرات ، وقد تحدث المنفلوطي عن نفسه بما يشبه ترجمة موجزة لفترة من حياته ، ذكر بها نسبه المنتمي للحسين ، وهو أمر حقيقي يكشف عن معان خاصة دفعت صاحبها إلى سلوك خاص ، ولكن الناقد يصيح به ، ما للقراء وأجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت في سماجة ما كتبت ، لقد قرأنا لجيته شاعر الألمان الضخم كتابا في تاريخ حياته لم يذكر فيه اسم أبيه ، وجال الناقد في تكرار هذا المعنى ، ولعله في دور الكهولة لو ألمّ بما كتب لراجع نفسه ، إذ أن حديث الكاتب عن أجداده يلقي الضوء على اتجاهه ، وقد تحدث المازني عن بشار بن برد في كتابه ، فوقف متئدا أمام أصله الأعجمي ، واستدل به على منازع سببت كثيرا من مواقفه الأدبية ، بل إن المازني تحدث عن والده الذي رحل وهو

صغير ، وعن والدته التي نهضت بتربيته حديثا تكرر كثيرا كثيرا ، واستطابه القراء غير لائمين ، فكيف أباح لنفسه ما أنكر على سواه ؟

وجاء الباب التالي ، ليصف أدب المنفلوطي بالنعومة والأنوثة ، والقول بأن أدب المنفلوطي ذو أنوثة خَطلٌ يجانب الصواب ، ولم يستطع الناقد أن يقدم برهانا قويا يسند منحاه ، وقد استشهد عليه بقول المنفلوطي :

«الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات ، علهم يجدون في بكائي تعزية وسلوى» .

فيالله ! أين الأنوثة في هذا التعبير ، وكيف قال المازني إن هذه المعاني تقتل الرجولة ! إن الأجدر بوصف هذا المنحى أن نقول إنه أدب الرحمة ، والرحمة قوة لا ضعف فالرحيم كما يقول العقاد رجل فسيح النفس ، يتسع مداه لتحمل المآسي ، أما الباطش الناقم فضعيف مهما تجبر لأنه لم يجد من نفسه قوة تردعه عن الانتقام ! وإذا كان المنفلوطي متشائما جعل الحياة سوداء في عيون الناس كما ذهب الناقد إلى ذلك مؤاخذا ، فليس المنفلوطي وحده في هذا المضمار ، فأبو العلاء المعري رأس المتشائمين في الأدب العربي ، ولم يكن تشاؤمه مدعاة انحدار لأدبه في رأي المازني ، بل كان موضوعا للتحليل النفسي والاجتماعي !

وكان في طوق المازني أن يكشف عن مصدر هذا التشاؤم لدى المنفلوطي ، وهو يعرف أنه يتحدث عن مواجع وطن محتل يرهقه الفقر والجهل والمرض فوق بلاء الاستعمار ، والسائل من لون الإناء .

ثم انتقل إلى قصة (اليتيم) في كتاب العبرات ، ليجعلها أنموذجا لأدب المنفلوطي وقد تسنم مكانته الأدبية باعتباره كاتب مقال ، لا منشيء قصة ، فاختيار قصة من قصصه للحكم على أدبه بعامة تعمد مقصود لتوهينه ، ونظرٌ قاصر لأدبه ، وأوجع ما انتقصه المازني في هذه الأقصوصة هو روح المأساة التي اكتنفت بطل القصة ، فقد صار المنفلوطي بكاء ندّابة لأنه صور هول مصابه ! واستطرد المازني يقول : إن «جيته» الألماني ألّف قصته الحزينة (آلام فرتر) ثم مات وهو لا يندم على شيء كما ندم على وضع هذه الرواية ، ولا يخجل من شيء خجله لذيوعها حتى تمنى لو استطاع أن يجمع نُسَخَها ويلقي بها في النار !

وفي هذا الكلام مغالطة صارخة لا أدري كيف استساغها ناقد هادف كالمازني ، إن جيته العظيم لم يخجل من (آلام فرتر) لأنها صورت مأساة حزينة ، فجرت الدموع ، وصعدت بالآهات ! إنه خجل من الرواية لأنه تحدث عن وقائع عاطفية تسيء إلى حبيبته (شارلوت) أمام الناس بعامة ، وأمام زوجها (البرت) بخاصة ، وقد انتقص الزوج لا لشيء سوى أنه غريمه ، فهاج عليه النقد لأنه تحدث عن

أسرة سعيدة بما يبذر روح الشقاق في حياتها ، وكانت (شرلوت) أول من ثار على هذا الذي صورها أمام الناس باسمها وصفتها بما يزعزع وفاءها الخالص ! وقد أدرك الشاعر العاشق مهواة ما انحدر اليه ، ورأىٰ من صرخات المنكرين ما أزعج هدوءه ، فود أن تمحى القصة من الوجود باعتبارها مصدر نقد صارخ لسلوكه النفسيّ ، وحين مضى جيل (جيته) أخذت القصة مكانتها الممتازة بين عيون الأدب الغربي ، فليس استشهاد المازني بها في موضعه ! وإذا جاز له أن ينكر آلام فرتر لروحها المأسوية فلينكر الكثرة الكاثرة من قصص الانسانية في القديم والحديث ، وليضف إليها قصة (اليتيم) في العبرات .

وقد كان المازني غير جاد حين تحدث عن أسلوب المنفلوطي في هذه القصة ، فذكر أن الكاتب مولع بالمفعول المطلق ، وسجل له سبعة وعشرين نصا تحمل هذا المفعول ، وهو اتجاه غريب لو سلكه كل ناقد لوجدنا من يقول إن العقاد قد كتب في مقاله ثلاثين نصا تحمل (الحال) وأن المازني قد كتب في مقاله خمسين نصا تحمل (الفاعل) ، ولا يفوت المازني أن للمفعول المطلق أثره في توضيح المعاني ، وإلا ما وُجد ، وإذا أكثر منه المنفلوطي فقد جاء به في موضعه ، وكتاب الله أبلغ كتاب في العربية ، وهو مليء بالمفعول المطلق عند التأكيد والتثبيت ، واللجاجة في هذا المنحى مدعاة هزل لا جد .

قلت : إن المازني قد كتب نقده للمنفلوطي في مرحلة (ابراهيم الكاتب) ويقيني الجازم أن (ابراهيم الثاني) يقف من سلفه موقف المعارض المؤاخذ لهذا الاتجاه الذاتي في الهجوم والتجريح ، وليس المنفلوطي بمنأى عن النقد ، فله مؤاخذاته الواضحة ، ولكن النقد شيء ، والتجريح شيء سواه وقد تعمده المازني وطه حسين معا لحاجة في نفسيهما .

على الجارم
«سفير مصر فى محافل العروبة»

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن الشعر العربي قد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأول من هذا القرن ثم أخذت شمسه تنحدر نحو المغيب ؟

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن الذين وصموا هذا الشعر ظلما بالخطابية والتقريرية ، قد عجزوا عن أن يأتوا بما يسد الفراغ الموحش بعد حملتهم عليه ، فانصرف الجمهور عن الشعر والشعراء ، وأخذ الديوان الشعري في هذه الحقبة الحاضرة يتوارى في المنحنيات والسراديب !

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن قصائد شوقي وحافظ ومطران ومحرم كانت تتصدر الصحف الأولى من الجرائد اليومية فتجذب الأنظار أكثر مما تجذبها خطبة زعيم سياسي تنشر معها في عدد واحد ! ويظل الجمهور مشغولا بما أبدع الشعر مابين نقد وتقريظ ، حتى تأتي قصائد جديدة لتلقى كل احتفاء !

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن زيارتيْ شوقي لبيروت ودمشق ، كانتا عيدين سعيدين في ديار الشام ، فالحفلات تقام ، والندوات تعقد ، والتصفيق يدوي ،

وكذلك كانت زيارة حافظ ، وسفارات علي الجارم المتعددة في ربوع الضاد ! فهل تغير الشعر وتغير الناس !؟

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن فريقا من نقاد اليوم خافوا على أنفسهم أن يتهموا بالقصور فاندفعوا إلى تأييد من يقول الشعر الآن ، فيأتي بالرموز المفتعلة ، والخيالات المغتصبة من فتات الغرب ، والشذوذ المضطرب في نشاز التفعيلات ، ليصبحوا بعد هذا التأييد معاصرين مواكبين ، وشاركوا بما يصنعون في انصراف الجمهور عن كل قصيدة تقال ، وإذا احتفى فريق من هؤلاء بأنفسهم ، فهو احتفال المسجونين في حجرة ضيقة يتحدثون لأنفسهم دون أن ينتقل الصدى إلى سامع ذواق .

قد يقال إن القصة والمسرحية قد انتشرتا فأخذتا الانتباه ! ولكن انتشار هاتين ، لا يمنع أن يزدهر الشعر كما كان ، ولكل كوكب أفقه الفيّاح !

نترك هذه الخواطر لنتحدث عن سفارة الجارم في ربوع العربية ، ولنتفجّع على مجد أدبيّ قد ازدهر فينانا ثم عاجله الذبول !

اوليات الجارم

تقدم علي الجارم إلى الأمة العربية بعلمه قبل أن يتقدم بشعره ، فقد عرفته ربوع الضاد بمؤلفاته الرائعة ذات الأجزاء المتعددة في البلاغة والنحو ، لأن ما كتبه الجارم في

هذين العلمين كان فتحا جديدا جعـل الصعب سهلا ، والبعيد قريبا ، لذلك تعددت طبعات (النحو الواضح) حتى بلغت الخمسين ، وقُررت أجزاؤه في مدارس الشام والعراق والأردن والسعودية حينا طويلا من الـدهر ، وليت هذا الكتاب الرائع في منهجـه العلمي وأسلوبـه التربوي ظل مقررا للآن في مصر ، ولكن الذين خلفوا الجارم في التوجيه الفني أرادوا أن يؤلفوا كما ألّف ، فحجبوا شمسه ، ولم يسدوا مسده ، وحين انتقل شوقي إلى دار الخلود تألق الجارم شاعرا ، كما تألق عالما ، فصار ممثل مصر في محافل العروبة ، والجارم قوي البيان ، مكتمل الأداة ، بارع الإلقاء ! كان الجارم أحد الفرسان الصائلة في ميادين الفصاحة الباهرة ، حين كـانت البلاغـة مهوى النفوس ، وحين كان الجمهور ذوّاقاً يلمّ بشذور من روائع الأدب في القديم والحديث ، فلما مثل مصر بشـاعريتـه الحافزة ، وديباجته العربية الناصعة ، جذب الأسماع لما يقول ، لقد كان الحفل الجهير يضم أفذاذ الشعر من كل وطن عربي ، ولكل شاعر منزلته الرفيعة دون ريب ، ولكن الجارم يقف في الطليعة بين شعراء كبار ، فتكون قصيدته مجال التقدير والملاحظة ، ويعود إلى مصر وكأنه عاد من فتح حربيّ بعد أن سجل بطولة الانتصار ، وإذا كان المصريون قد تعودوا حينئذ سماع روائعه بالاذاعة المصرية إلقاءً وترجيعا ، فإن بغداد وبيروت والخرطوم عرفت الجارم

الشادي المغرد حين هتف في ربوعها كرّة بعد كرّة ، فأوقد جذوات الحماسة ، وأشعل حمية العروبة وأعاد مجد السابقين من فرسان البيان ! وكان صادقا حين افتخر بوحيه الشعري فقال مخاطبا بلدته المصرية (رشيد) .

هـذا وليـدك جـاء ينشـد شعـره
ما كـل ماتحـوي الخيـوط نـظام
أصْغَى لـه الـوادي وغنت بـاسمـه
بغـداد ، واهتـزت إليـه الشـام

والوادي يشمل مصر والسودان ، وبغداد عاصمة العراق ، وبيروت إحدى حواضر الشام ، وكان الشاعر مجلجلا بصوته في محافل هذه البلاد ، وإليك بعض ماكان في بغداد فحسب ، إذ لا يفي مقال واحد بحديث لغير بغداد .

الجارم في بغداد

للقصيدة العربية موسيقى آسرة تهز من يصغي إليها ويشعر بها كل سامع على قدر استعداده ، مهما كان غريبا عن تعمق المعاني ، واستشفاف الخواطر ، فإذا كان من ينشد القصيدة عالما بفن الالقاء ، وتجويد الكلام ، وكان ذا صوت لؤلؤي الإيقاع فإنه يبلغ بتأثيره النقّاذ مالا بُعْدَ وراءه من التأثير ، وكذلك كان الجارم ، وقد لُقّب (بالصنّاجة) لموهبته الالقائية ، فإذا جمع إلى هذا التغريد

الساحر ، عذوبة البيان ، ووضوح الديباجة ، وملك التعبير عن الخواطر المكظومة ، والهواجس الدفينة حتى كأنه ينطق عن أغوار الناس في موقفه الإلقائي ، فإنه يهز الحفل هزّا ، والذين ينكرون ارتياح السامعين لما يبهرهم من الشعر ، ويعدونه من قبيل الخطابيات ، ينكرون الشعر العربي منذ وجد إلى عصرنا هذا ، وعليهم أن يقطعوا الصلة بين الطريف والتليد حين يأتون بضباب حائر تبدده الريح .

لقد زار الجارم عاصمة الرشيد ثلاث مرات ، فكانت كل زيارة له موسما شعريا لا ينقطع صداه عدة شهور ، زارها ممثلا للمجمع اللغوي في المؤتمر الطبي ببغداد سنة ١٩٣٨م فأنشد قصيدته الذائعة :

بغداد يا بلد الرشيد
ومنارة المجد التليد

وفيها تحدث عن سجل المجد الخالد ، إذ كانت بغداد مضرب المثل الشرود ، وأنصع سطر للعروبة خُطّ في لوح المجد ، ولا يُنْبيكَ عن بغداد مثل الجارم حين أخذ يناديها متسائلا :

بغداد يا دار النهى
والفن يا بيت القصيد
نبت القريض على ضفا
فك بين أفنان الورود

سرق التدلل من (عنان)
والتفنن من (وحيد)
بغداد أين البحتري
وأين أين ابن الوليد ؟
ومجالس الشعراء في
بيت ابن يحيى والرشيد ؟
أين القيان الضاحكا
ت يَمِسْنَ في وشي البرود
الساهرات مع النجوم
الآنفات من الهجود
يخطرن حتى تعجب الأ
غصان من لين القدود
وإذا سفْرن فأين ضوء
الشمس من شفق الخدود
يعبثْن بالأيام والأيا
مُ أعبث من وليد
خبأ الجمال لهن كنزا
بين سالفة وجيد

ويترك الشاعر مظاهر الترف والنعيم إلى مواقف القوة والسلطان فيتحدث عن الجيش الزاخر بالآساد ، والبهو الفسيح الحافل بوفود الدول ، فالرُّسل تتلو الرسل من بيضٍ صقالبة وسود ، والجو يسطع بالسيوف ، والأرض تزخر بالجنود .

حتى إذا رجعـــــوا بـــــدا
بجبـــــاههم أثـــــر السجـــــود

أما عواطف الشاعر الذاتية فهي عواطف كل عربي مثقف شاعر ، يقرأ التاريخ ، ويجمح بالخيال إلى أبعد مراميه ، فيجوز القرون النائيات ، ويفكّ أسرار العقود ، ويهتاجه الطيف البعيد فيصبو إلى ظل الجاه والعزة في زمان المجد الغابر ، وينادي أمّة اليوم أن تعيد مجد الأمس ، فاليوم يوم السباق والعدو ، لا التقهقر والنكوص ، والمجد يدعو ذويه للصعود فلانكول ، كل هذه المعاني وجدت متنفسها العاطر في قول الجارم :

بغـــــداد يـــــا وطن الأديب
وأيكـــــة الشعـــــر الفـــــريـــــد
جـــــددت أحـــــلامي وكنت ،
صحـــــوت من عهـــــد عهيـــــد
جمـــــح الخيـــــال فمـــــا اطمـــــأ
ن ولا استقـــــر إلى خلود
جـــــاز القـــــرون النـــــائيـــــا
ت وفـــــك أســـــرار العقـــــود
ذكـــــر العهـــــود فـــــأن للذ
كـــــرى وحنّ إلى العهـــــود
واهتـــــاجـــــه الـــــطيف البعيـــــد
فَجُنّ للطيف البعيـــــد

يـــــا أمــــــة العــــــرب اركضي
مــــلء العنــــــان ولا تهيـــــدي
المجـــــــد أن تتـــــــوثبي
وإذا وثبت فــــــــلا تحيــــدي
وتحلقـــــي فـــــوق النجـــــوم
بـــــلا شبيـــــه أو نــــديـــد
وإذا شـــــدا الكـــــون المفـــــا
خـــــر كنت عنـــــوان النشيـــد

أما أثر القصيدة في الحفل الحاشد بعلمائه وأدبائه ومفكريه ، فقد عبَّر عنه الدكتور زكي مبارك ، ولم يكن صديق الجارم إذ كانت بين الرجلين شوائب العمل المشترك ، ولكن المبارك خلص للحق حين قال في كتابه (ليلى المريضة في العراق) مخاطبا الجارم .

أيها العدو المحبوب ، تذكر أنك كنت حقا وصدقا شاعر مصر في المؤتمر الطبي العربي وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق .

هل تعرف مصر أنك رفعت رأسها في العراق ، وأنك كنت خليفة شوقي في المعاني ، وخليفة حافظ في الالقاء ، إنني أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك ، وهل أنصفتني مصر حتى تنصفك ؟

يرحمني الله ويرحمك ، فعنده وحده جزاء المجاهدين !

وكلام زكي مبارك اعتراف تقريري تجرد من الوصف

التصويري ، ولكن الأستاذ عبدالمنعم خلاف وكان أحد شهود الحفل أجاد الوصف الدقيق الشامل حين قال : نقلا عن مجلة الرسالة .

«ثم وقف الجارم يُرسل قلبه في صوته المعهود ، الذي يُخيّل إليّ أنه كله آهة عميقة من فرط الشجو و إثارة المعاني التي لاتظهر إلا إذا تلا لها ساحر رقية ، أو عزف لها عازف برنة ، أو شدا لها شادٍ بِحنهِ ، أو خيل لها مُخيّلٌ بريشة .

وقف ـ الجارم ـ يقلب وجهه في السماء والأرض والجهات الأربع ، في قلق وغيبوبة شاعر ، ويمسح على أبصار الجمع بحركاته ، ويرسل نشيده ، فيخيل إليّ من سحره ، أن كلماته أجسام تسعى ، أو أمواج تطغى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الحادة ، ثم بالفخر النافخ ، ثم بالضحك المرسل ، ثم بالعزم الدافع ، ثم بالأمل القريب ، وكنت أرقب خِلْسة وجهيْ طبيبين أوروبيين ، أخذا مجلسهما بجانبي يستمعان في غير فهم إلى ما يقال ، ويريان صداه ، صفق كف بكف ، وتلاقى هتاف بهتاف فأعرف ما يقولان» .

زيارة تالية

اشتعلت الحرب بين قبائل شمَّر والعبيد في بادية العراق ، ورأى شيخ العرب المصري ، والمجاهد السياسي المعروف حمد الباسل باشا أن ينهض بالصلح بين القبيلتين العربيتين ، وبذل من الجهود المباركة ما كُلِّلَ بالنجاح ،

فاحتفلت السفارة المصرية ببغداد بهذه المناسبة الرائعة ، وتصدر حمد الباسل مجلسه بين شيوخ القبيلتين ، وأعيان الدولة من الوزراء وذوي الشأن ، وكان الجارم حينئذ ببغداد ، ينوب عن وزارة المعارف في حفلة تأبينية كبرى لراحل عظيم ، وأتيح له أن يشهد مع حمد الباسل الجلسات الأخيرة للصلح ، حتى إذا أثمر المسعى ، وقامت السفارة المصرية بحفلتها المهنئة ، كان الجارم شاعر الحفل ، فدعا للسلام ، وطاف بذهنه زهير بن أبي سلمى حين هنأ العرب مباهيا بالصلح السعيد بين عبس وذبيان ، فأشاد به وتمنى أن يكون بين القوم ببغداد .

فليت زهيــرا بيننـــا بعـــدمـــا خبت
لظى الحرب وانجابت غيوم القساطل

على أن الجارم في قصيدته قد كان موهوبـا ملهما إذ استهول أن يقتل الأخ أخـاه ، وهو درعـه الـواقي في النوائب ، وإذا مسه الخطب فداه ، دمه من دمه فيا ويل ما صنعت يده إذ همت لترميـه ! ولعلنا في مـآسي العرب والمسلمين اليوم بلبنان وخيام الفلسطينيين ، وبالعراق وإيران نردد ماقال الجارم ، إذ صاح :

أخي أنت درعي إن ألمت ملمــــــة
وإن فــدحتني عـابســات النــوازل

أخي أنت من نفسي ، دماؤك من دمي
«فـإن كنت مأكـولا فكن خيـر آكـل»
أأرمي أخي يـاويل مـا صنعت يـدي
فيــاليتهــا كــانت بغيــر أنــامــل !
إذا مسنى خـــطب فـــأول راكب
يخـــوض لي الجـــلى ، وأســـرع نـــازل
أكلت دمـــا إن لم أذد عن حيــاضـــه
كــريما ، وأدفــع عنه كيــد الغــوائــل
وأبسط كفّي نحــوه غيــر جــافــل
ويبسط نحــوي كفّــه غيــر جــافــل
إذا البيـــد لم تنبت نبــاتــا فحسبهــا
فقـــد أنبتت فينــا كــريم الشمــائـــل
ألسنـــا الكـــرام الغــر من آل يعـــرب
لـدى الـروع أو عنـد التفاف المحــافـل

وقد انتهى الحفل ، وخرج المجتمعون يرددون شعر الجارم ، حتى الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون من شيوخ العرب في شمّر والعبيد ، طربوا للشعر ، وطلبوا عدة نسخ من القصيدة ليقرأها الأولاد في المدارس وماكان لديهم من المدارس حينئذ إلا مدرستان ابتدائيتان تُعلمان عددا محدودا من التلاميذ في بيدائهم المترامية ، ولكن نفاذ الشعر وقوة تأثيره مما لا يُرَدّ !

أما حفلة التأبين الكبرى لرأس العراق فقد جمعت صفوة الشعراء في العالم العربي ، إذ أرسلت كل دولة من يمثلها من كبار الشعراء ، كان الجارم وشبلي ملاط وبدوي الجبل ، وفؤاد الخطيب من فرسان المحفل ، ولكل شاعر جناحه الصاعد وأفقه الفسيح ، وقد وصف الشاعر المصري روابط الود بين النيل والفرات ، وقَوَّى أواصر الإخاء حين عقدها على اللغة والإسلام ، وخاطب حمامة الرافدين بأرق ما يقوله شاعر حزين ! قال :

حمامة وادي الرافدين ترفّقي
بعثت الجوى ماكان منه وما جدّا

ففي النيل أرواح ترف خوافق
تقاسمك التاريخ والدين والودا

ظمـاء إلى ماء بدجلة سلسل
تود بنور العين لو رأت الوردا

إذا مست البأساء أكناف دجلة
قرأت الأسى في صفحة النيل والكمدا

وإن طُرِفت عينٍ ببغداد من قذى
رأيت بمصر أعينا ملئت سهدا

إخاء على الفصحى توثق عهده
وشدت على ايمان أطرافه شدا

لنا في صميم المجد خير أبوة
زهينا بها أصلا ، وتاهت بنا ولْدا

وقد قوبلت القصيدة بوقار الخشوع ، وهزة الاعتبار ، لأن جو الرثاء لا يخرج عن هذا النطاق .

في تأبين الزهاوي

ذهب الجارم أول ما ذهب إلى بغداد مشتركا في تأبين الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي ، وللزهاوي منحىً في الشعر يخالف منحى الجارم ، كما أن تهجمه في بعض شعره على الغيبيات مما يرفضه شاعر محافظ متشدد كالجارم ، وكأني به وقد حار فيما يقول ، أو فيما ينبغي أن يقول ، ليوفق بين اتجاهين يكادان يتعارضان ، لذلك كان الجارم ذكيا غاية الذكاء حين رثى الشاعر بالمعنى العام لكل سباح في أجواز القريض لا بالمعنى الخاص الذي ينحصر في شخصية الزهاوي ، فقد بدأ القصيدة بما يقرب من ثلاثين بيتا يتحدث فيها عن روضٍ باسم غادره طائره فأقفر ، وارتمت مصوّحةً أزهاره ، فذوى نبته بعد البشاشة وانقطعت ترانيمه المشجية فوق الأغصان وكانت :

إذا أرسلت ألحـــــانهـــــا في خميلة
تــواثب زهـر الــروض واهتـز عــاطـره

وإن هتفت بـــالــدوح مــال كــأنمــا
يســـايــرهـــا في لحنهـــا وتســـايــره

ألمت بــأســرار النفــوس فتــرجمت
كمــا فســر الحلم المحجب عــابــره

هذا ما كانت ، أما بعد أن رحلت ، فقد مضى الغدير العذب ، وجف الروض المزهر ، وأصبح قابضا موحشاً :

تــدور بــه جم البــلابــل مــطرقــا
ولم تــدر أن الــدهــر دارت دوائــره
وتصغى فــلا تجتــاز سمعــك نغمــة
ســوى أنّةٍ يلهى بهــا الحزن قــاهره
وتدعو فلا تلقى مجيبا ســوى النوى
تــطارح مــطوى الأسى وتحــاوره
وقفت بــه ، والقلب يحبس وجــده
فيــطغى ودمــع العين ينهــل بــادره
أرى مــا أرى : إلا غبــارا أثــاره
خميس الليــالي حينمــا ثــار ثــائــره
مضى الطائر الصداح فالأفق موحش
حزين النواحي عابس الوجه باسره

وكان الجارم مهذبا لَبِقاً حين أشار إلى حيرة الشاعر وتردده بين الشك واليقين ، أشار إلى ذلك إشارة لبقة مهذبة لأن مجال التأبين في قصيدة شعرية ، وفي حفل أُعِدّ للتأبين لا يسمح بغير الإشارة المهذبة التي جاءت في قول الجارم :

حنانا لـه ، كيف استقرت بـه النوى
وكيف ثـوى بعـد التهلف حـائـره
وهـل بعـد ليـل في الحيـاة مؤرق
كثيـر التظني أبصـر الصبح سـاهـره

قال ذلك بعد أن وصفه بالجرأة مادحا ، وبعد أن ذم المرائين المخادعين ، إذ يعيشون بنفوس شتى ، فترى احدهم مع النساك في خلواته ، وفي الحانِ قد أتى بالموبقات .

ثم انتقل الجارم إلى الأوج الفسيح حين ترك الزهاوي إلى العراق وماضيه الزاهر ، ولا يبدع في هذا المجال غير شاعر كالجارم مليء الصدر بتاريخ العراق سياسة وحضارة وأدبا وعلما وفنا وثقافة ، وإنه ليتحدث عن بعض ذلك فيقول :

سموت إلى بغداد والشوق نحوها
يسـاورني حينـا وحينـا أسـاوره
كـلانـا نـأى عن أهله وعشيـره
ليلقـاه فيهـا أهله وعشـائـره
حبيب إلى نفسي العـــراق وأهله
وسـالفـه الـزاهي المجيـد وحـاضـره
ديـار بهـا اسـلام أرسـل ضـوءه
فسـار مسير الشمس في الأفق سـائره
ومـدت بها الآداب ظـلا على الـورى
تسـاوت بـه آصـالـه وهـواجـره

إذا شئت مجـد العـرب في عنفـوانـه
فهــذي مغــانيــه . وهــذي منــائــره

وقد كرمت العراق شاعر مصر الكبير علي الجارم فمنحته وسام الرافدين ، كما كرّمه لبنان فمنحه وسام الأرز ، أما مصر فقد منحته وسام النيل ثم أهدته الرتبة الثانية ، وذلك بعض ما يستحق .

ديوان الجارم

ظهر أخيرا ديوان علي الجارم محتفلا بطبعه و إخراجه في أجمل مظهر ، وقد قام نجله الكريم بمجهود مشهود في جمع ما تناثر ، و إذا شاء أن يتصل بي فسأرسل له عدة ملاحظات نقدية على بعض الشروح المدونة للأبيات ، كما أُرسل إليه قصيدة ممتازة نسى أن يلحقها بالديوان كانت مدحة صادقة لزعيم مصر الكبير مصطفى النحاس ومطلعها :

أبت أعــــلام مجـــــدك أن تُســــامىَ
وعــــزّتْ همّـــــة لــــك أن تــــرامى

لتكون إلى جوار أختها التي صدرت بالديوان ص ٥١٥ وهي من عيون الشعر العربي الأصيل .

المدح في شعر علي الجارم

كان الشاعر الكبير الاستاذ علي الجرام رحمه الله ملء السمع والبصر في حياته ترن قصائده في العالم العربي

فتلقى من الاحتفاء والترحيب مالا مزيد عليه ، ولكن ستارا من النسيان بعدوفاته قد باعد ما بينه وبين الشبيبة من أبناء هذا الجيل ، وكنت أعجب كيف تعمد كثير من الدارسين تجاهله عن قصد مريض ، وأتساءل متحيرا عن سر هذا التجاهل ، فأسمع من المبررات مالا يثبت على التحقيق ، لأن زملاءه الذين نهجوا نهجه شكلا وموضوعا قد وجدوا من الدراسات التحليلية مالم يُتح لشعره الرصين ، وقد كتبت عنه عدة بحوث في الأديب اللبنانية والثقافة والهلال والتضامن الاسلامي ، وشاركني الحديث عنه نفر من تلاميذه ولكنها صيحات لم تجد التجاوب المنشود ، وحين تلقيت هذه الدعوة الكريمة للحديث عنه ، كان التفكير الدائب في أسباب تجاهله يسيطر على ذهني ، فتعمدت أن أختار موضوعا يذكر كثيرا في مجال الاعتراض عليه ، إذ يقول بعض من يشيحون عن أدبه إنه أكثر من المدائح ، وكأنه بذلك قد انفرد وحده باتهام يستحق عليه الإهمال ، فرأيت أن تكون كلمتي خاصة بهذا الاتجاه .

لقد كان الجارم عريق الثقافة ، واسع الاطلاع ، وقد سافر إلى انجلترا فاتصل بمعاهدها العلمية دارسا متمكنا ، وحذِق لغتها وترجم عنها بعض الآثار العلمية ، فمثله لا يُرمى بضيق النظر واكتناز الأفق ، لأن الجارم قد حدد رسالته الأدبية عن عمد مقصود ، وهي الرجوع بالشعر العربي إلى أزهر عهوده الأولى في عصر بني العباس ،

والشاعر عالمٌ باحثٌ متمكن درس التراث الأدبيّ دراسة الناقد البصير ، ورأى فيه مهوى فؤاده ومثار إعجابه ، فأيقن أن احتذاءه مدٌّ متصل لتيار يجب أن يفيض ويزخر ، ما بقيت العربية تتردد على الأفواه ، ولا يعْني بالاحتذاء محاكاة شكلية تنقل عن الأصل دون إحساس صادق ، بل يعني تسطير عواطفه الذاتية في نهج عربي أصيل ، لأن الشعر في رأيه ميدان يتسابق فيه فرسان البيان ، ولكل فارس حلبته الفسيحة وجواده السابق يوم الرهان .

وإذا كان الموهوبون من سابقي الشعراء قد أجادوا المديح ، فشأن الجارم شأنهم ، ولم يكن منفردا بهذا الغرض في عصره ، إذ أن الأفذاذ من شعراء العصر كشوقي وحافظ وأحمد محرم ومحمد عبد المطلب وأحمد الكاشف في مصر ، وبشارة الخوري وشبلي الملاط في لبنان والزهاوي والرصافي في العراق ، بل إن المجددين منهم كمطران والعقاد وإيليا أبي ماضي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي قد أبدعوا في المديح إبداعا تسجله دواوينهم المشتهرة ، فكيف تكون مدائح الجارم وحدها موضع الاعتراض !

ولو اتفقنا مع مَن يقولون إن المديح قد أضعف الشعر العربي بعامة في القديم والحديث ، فذلك لم يكن شأن الجارم وحده ولكنه مفخر الشعراء جميعا إن عُدَّ المديح مغمزا حين نعلم أن شاعر الأمس كان ككاتب الصحافة اليوم ، يذيع من مناقب العِلْية ما تقوم به الجريدة اليومية

الآن ، والشاعر القديم معذور لأن المدح في أكثر أمره كان الباب الأوحد لذيوع فضله ، وثراء كفه ، وقد مضى هذا العهد فامتنع التكسب بالشعر عن طريق المدائح ، إنما صارت الأمداح في أشعار المعاصرين تقديرا خلقيا للمحامد ، ورسماً مصوراً ما يجب أن يرتفع إليه الرؤساء من مُثُلٍ يقررها الشاعر الكبير ، فهو حين يمدح ، متبوع لا تابع ، وقائد لا مقود .

وحين نقرر أن من النقائص المزرية أن يُسخر الشاعر نفسه في صوْغ معان لا يعتقد وجودها لقاء كسب ماديّ ، فإننا نعلم أن الجارم لم يكن هذا الشاعر على الإطلاق ، فهو لم يتبوأ مناصبه الحكومية بمدائحه ولكن بكفاءته المشهودة ، كما لم يظفر برتبة البكوية لقصيدة قالها في رئيس ، بل لمنصبه العلمي مفتشا أول للغة العربية بوزارة المعارف ، كما ظهر بها السالفون والخالفون من المفتشين الأوائل أمثال حفني ناصف ومحمد شريف سليم ، ومحمد حسين الغمراوي وأحمد العوامري ، ومحمد أحمد جاد المولى ، والجارم في حقله التربوي لم يكن دونهم في شيء ، وربما أسهم أكثر من إسهام الواحد منهم في مجال التربية والتحقيق والتثقيف ، وقد حقق الله أمنيته العزيزة حين قال :

قد تمنيت كل شيء على الله
ـه سوى أن أعيش من أوزاني

فالظن بأن مدائح الجارم وحدها قد عادت عليه بنفع مادي أو أدبي في حياته وهم لا حقيقة له ، إنما الحق كل الحق أنه كان في أمداحه كأبي العلاء المعري يمدح دون كسب ، لأن نفس المعري الزاهدة دفعته إلى تقدير عارفيه ، كما أن كبرياءه الشعرية قد غامرت به في نظم اللزوميات ليؤكد تفوقه الفني على النظراء ، وزهد أبي العلاء المادي لا ينافي كبرياءه الأدبية ، حين يحاول أن يفوق قرناءه في مدائحهم كما فاقهم بما قال في سِقْط الزند واللزوميات ، إذ جعل مِدَحَهُ الرائعة مبعث ارتقاء صاعد ، حين ينزه النفس البشرية عن الضعف البشري الذي ينضح به الحمأ المسنون لدى قوم ، وكذلك صنع الجارم حين جعل المدح باب الفضائل ، ومعراج الممدوح إلى أشرف المثل ، ونحن نقرأ أمداح أبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي فنجد الكثير منها يشرئب إلى تخليد المثل الرفيعة ، وتسجيل وقائع البطولة ، كما نجد الممدوح قد لا يشغل من القصيدة قدر ما يشغلها حديث الشاعر عن نفسه ، إذ يصف شجونه متغزلا ، ويصور رأيه في الحياة والأحياء ناقدا مجربا ممحصا ، فهو إذن لا ينكمش بإزاء الممدوح ، وإذا وجد من تضاءل واستخذى فليس بالشاعر الكبير الذي نعنيه ، وقد عرف الجارم رسالة المدح في التوجيه الهادف . وفي بعث الهمم ، واستنهاض العزائم ، فكانت قصائده الطويلة ذات معان جهيرة يضيئها التصوير البارع ،

ويجلوها البيان المشرق ، وهي بعد وليدة إحساس ناقد ، ونظر غائص ، وقد يؤخذ عليه كما يؤخذ على سابقيه تَنَقُّله من غرضٍ إلى غرض ، وتلك قضية لا نعالجها الآن ، ولكننا نعرف مأتاها لدى الشاعر حين نراه يخلص للنهج القديم ، وإذا فاته أن يلتزم بالوحدة العضوية فقد حافظ على الإطار الشعري العام فجرى ماؤه صافيا في نهرٍ تحده الشواطيء ، وتحرسه الضفاف .

وإذا قرأنا ديوان الجارم وجدنا مراثيه للرجال من ناحية الكم العددي تقرب من مدائحه ، ومعنى ذلك أن الشاعر الكبير مولع بالنابهين من الأعلام يكسوهم المدائح أحياء ويبلل ثراهم بالدموع راحلين ، فإكبار البطولة في شتى ميادينها العلمية والسياسية والاجماعية خُلُق كريمٌ يرتفع بصاحبه ، فإذا كان بين هؤلاء أصدقاؤه ونظراؤه فلك أن تلمس وفاء القلب وسماحة النفس ، وروعة الإنصاف فيما يصور الجارم من مشاهد التفوق ، وهو إذ أكثر من المدائح يعرف اتجاهه الهادف ويعلم أن الإطراء لا يبلغ مبلغه النفسي إلا إذا كان في موضعه الصحيح ، وقد صرح في بعض قصائده بأنه حبس الثناء عمن لا يستحق الثناء ، ومنعه كل مستام يتطلع إليه دون أن يقدم من خلاله الباهرة ما يدفع الشاعر إلى تقديره ، لأن العقود لا تزين الأجياد إلا إذا كانت الأجياد نفسها مزدانة بالحسن ليلتقي الجمال بالجمال ، يقول الجارم :

قد حبسنا المديح عن كل مستام وأجدر بشعرنا أن يصانا
لا تزين العقود جيدا إذا لم يكْ بالحسن قبلها مزدانا
رب در لاقى من الصدر درا وجمانٍ في النحر لاقى جمانا
لو مدحنا من لا يحق له المدح لوى الشعر رأسه فهجانا
الرسول الكريم أنطق حسّانا ولولاه لم يكن حسّانا
وابن حمدان لقّن المتنبي غرر المدح في بني حمدانا
يصدق الشعر حينما يصدق الناس فيشدو بمدحهم نشوانا
وإذا عزّتِ المكارم ولى مطرق الرأس واجما خزيانا

وهكذا ينظر الجارم إلى المكارم العالية والخلال الباهرة نظرة المحب الوامق ، فيشيد بها مطيلا مسهبا ، لأن الجارم طويل النفس طلق العنان ، يجاري الفحول ممن ملكوا عليه لبه ، فيجري معهم في كل مضمار ، وهو يتعمد المعارضات الشعرية في أكثر قصائده لا لأنه يترسم مقلدا ، بل لأنه يرى في المعارضة مجال الموازنة لدى الدارس

وموضع الصدارة لدى القائل ، فإذا رأيناه في مدائحه يسير مع المتنبي وشوقي والبحتري وأبي تمام فلما يراه في نفسه من مقدرة على المباراة ، وثقة الجارم في شعره أكبر من أن تحدّ ، يجدها الدارس بين السطور واضحة تنادي على نفسها بأعلى صوت ، كما يراها لدى نظرائه من النابغين في القديم والحديث ، ولن تكون هذه الثقة العاقلة لغير شاعر متمكن يعرف قدره بين النابغين .

لقد شَرُفَ الجارم كل الشرف بمدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصيدتين رنانتين ، كما مدح الإمام محمد عبده والزعيمين الكبيرين سعد زغلول ومصطفى النحاس ومحمد عبدالكريم الخطابي وعلي ابراهيم وأحمد لطفي السيد وأحمد شوقي وعلى توفيق شوشة ، وغيرهم من أفذاذ الشرق العربي ، والحق أن الجارم منذ التحق بالأزهر الشريف كان مفتوح العينين على أحداث عصره يراقبها في تطلع ويأمل أن يكون في غده بين من يسير لهم ذكر في الناس ، وقد أعجب الطالب الناشيء بإمام العصر محمد عبده رحمه الله .. ورأى فيه وهو ربيب البيئة الدينية في رشيد ونجل قاضي الشرع بالفيوم ، مثلا أعلى للطالب الأزهري ، والفتى في طور اليفاعة ينسج الأحلام الوردية متطلعا إلى غد منير ، وقد دفعه الاعجاب بالأستاذ الإمام إلى اطرائه فكانت مدحته إياه أول ماعُرف عنه في هذا المجال ، والإعجاب بالبطولة حربية وأدبية دافع قوي إلى ترسم

خطاها فكأن الجارم حين قرظ شمائل الإمام كان يحلم في صباه بأن يتمتع بهذه الشمائل حين يتنفس به العمر ، ويغدو رجلا ذا شأن ، ومهما تكاثف الظلام من حوله ولاحت شبهات اليأس تجسد الصعاب ، فخيال الأستاذ الإمام يراوح هذا المدلج الحائر ، ليمده بالأمل لأنه كما قال الجارم عنه :

ذكرت عزما من الأستاذ فاتجهت
عزيمتي بين إقدام وتسديد
وسرت مثل قضاء الله ليس له
نقص ولا سهمه يوما بمردود
مولاي علمتني كيف الثبات إذا
لم يترك الرعب قلبا غير مزْءود
علوت فازددت بين الناس معرفة
والنجم يعلو فيغدو شبه مفقود
وأصبح الدين تيّاها بناصره
والضاد تزهى بتجميل وتجديد
دع الحسود أما يكفيك أن له
نفسا تفور ، وحظا غير مجدود

وإذا كان الجارم قد نسج هذه المدحة قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، فإننا نرى أن الغلام الناشيء قد حدد أسلوبه الشعري بهذه الباكورة الناشئة ، لأن طابع القوة البيانية ذات الرنين الآسر ، ظل ملازما للشاعر في شتى

مراحل حياته ، فإذا تنوع أسلوبه فكرا وتصويرا وتعبيرا فهو متنوع التنقيح والترشيح لا تنوع المغايرة والتبديل ، فمجرى الشاعر الدافق ، عُرِف ماؤه عذوبة وصفاء ولونا ، بحيث لا يعجزك أن ترى كثيرا من التشابه بين المنبع والمصبّ، وإذا صوَّر ذلك اتجاهه المحافظ في إبداعه الشعري ، فهو اتجاه كان من الضروري أن يوجد في عصر النهضة الأدبية ، لأن هذه النهضة كانت في حاجة ماسة إلى الشاعر المجدد والشاعر المحافظ على نحو يمنع التضارب بين اتجاه واتجاه ، فإذا اشتط المجدد في سبقه كان المحافظ عامل انضباط واتزان ، كما أن المحافظ إذا اقتصر على القديم فإن المجدد يبصره بما يرفده من الطّارف الحديث ، فكلاهما ضروري لصاحبه ، والذين ينحون باللائمة على اتجاه دون اتجاه يحتاجون إلى أفق أوسع ، لأن التطور في شئون الحياة لا يثبُ وثبا دون تمهيد .

لقد كان الشعر في مطلع هذا القرن ترجمان الأحداث ، ولسان الوقائع الاجتماعية والسياسية ، فما ينشأ أمر ذو شأن في مصر حتى ترى الجرائد اليومية تفسح للشعر مكانا مرموقا ، بحيث تكون المقالة السياسية جوار القصيدة الأدبية في صفحة واحدة ، وبحيث ينتظر القاريء صيحة الشعر أكثر مما ينتظر تحليل النثر ، لذلك كان الشعراء أُولي صلة وثيقة بزعماء النهضة الاجتماعية والسياسية والدينية فمحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وعلي

يوسف يقدرون نفثات الشعر و يعرفون مدى تأثيره ، ولهم بالشعراء صلات أخوية ووشائج فكرية تشبه قرابة الدم ، وأنت تبحث عن شعراء اليوم فلا تكاد ترى لهم صدى يُدوي مع الأحداث ، بل تجد الجريدة اليومية الآن تفرد لألعاب الكرة في العدد الواحد أربع صفحات ، وتضن على الشعر بعمود واحد في الأسبوع ، وإذا كان أحمد شوقي وحافظ ابراهيم وأحمد محرم وأحمد الكاشف قد ترجموا أحداث زمانهم ، فإن الجارم قد جرى معهم بعض الشوط في مطلع حياته الأدبية ، لأنه لم يكن متفرغا للشعر كما تفرغوا له ، بل كان له مجاله العلمي والتربوي تأليفا وتحقيقا وتوجيها ، ولكنه مع ذلك صاحب زعماء العصر ، ونابهي المتقدمين من رجاله ، وأدلى بدلوه مع الأحداث ، وعرف للفاضلين فضلهم فوفّاهم حقهم مديحا ورثاء ، ولعل سعد زغلول كان أقرب هؤلاء إلى قلب الشاعر فهو زعيم الأمة ، ولسانها الهاتف بالآلام والآمال ، مدحه الجارم بعدة قصائد في حياته ، ورثاه أيضا بعدة قصائد بعد مماته ، والشاعر لا يكرر القول مثنى وثلاث ورباع في زعيم ما ، إلا إذا وجد لديه هواتف وجدانه ، ونبضات قلبه ، فهو إذ يمدحه إنما يمدح رمزا مجسدا للآمال ، وحلما من أحلام السعادة ينهض للأمة بالبشارة والأمن والتفاؤل ، فالجارم في مرة أولى يلبي نداءه هاتفا :

لبيـــــك يـــــا مــــلء القلو
ب وأثبت الأبـــطال قلبـــا
نـــاديت قـــومــك للحيـــا
ة فـــأقبلوا عـــدوا ووثبـــا
ورفعت صــــوتــــك والقلو
ب خـــوافق وهـــلا ورعبـــا
والسيف مسلول وسيـ
ـل المــــرجفين يعب عبـــا
والأرض واجفـــــة ومصــــر
تـــرقب القـــدر المخبّـــا
ووقفت فــــانحنت الـــرؤو
س وكنت أعـــلى النـــاس كعبـــا
وخـــطبت بـــالصــوت الجهيــر
فمـــــا امــــرؤ إلا ولبى
وبــــرزت كـــالليث الهصـــور
دعتـه أجيـــــال فلبى
يــــاسعـــــد أنت لهـــا إذا
لهب الجـــدال عـــلا وشبـــا
يـــــا سعــــد أنت لهـــا إذا
مـــا صـــرصـــر الأحـــداث هبـــا

وهو في مرة ثانية يرى فرحة الأمة المصريـة بوزارة سعد ،ويلمس تدفق الحشود لتحية الزعيم الذي انتخبته

الأمة مكبرة جهوده ، ويقرأ بشائر الفرحة في الـوجوه ويلمس دلائلها في القلوب فيترجم بعض ذلك في مثل قوله :

اليـــوم يـــومـــك مصـــر
لله حمـــد وشكـــر
فلن يـــروعـــك رق
ولن يمســـك أســـر
سعـــد يحـــوط بنيـــه
وهـــو الأعـــز الأبـــر
دعتـــه مصـــر فلبى
والـــوجـــه يعلوه بشـــر
في ســـاعـــة ليس فيهـــا
من الفـــرار مفـــر
المـــوت يحصـــد حصـــدا
والسجن للحـــر قبـــر
والأرض تهتـــز رعبـــا
فمـــا لهـــا مستقـــر
يســـري مـــع الليـــل هم
ويخنق الشمس ذعـــر
إذا نـــداء جهيـــر
يهـــز مصـــر وزأر
دعـــوت قـــومـــك حتى
أسمعت من فيـــه وقـــر

وقمت فيهم خطيبا
له على القول أمر
وقُدْتَهُم نحو فخر
لمصر يتلوه فخر
روح من الله هبت
من السماء ونصر
سر بالسفينة هونا
فليس ثمة صخر

ومازال الجارم يترجم عن عواطف قومه في مدائحه ، وقد علا مقامه الشعري بعد رحيل حافظ ابراهيم وأحمد شوقي إذ أصبح ممثل مصر في محافل العروبة ، وشاعرها الصداح في ندواتها المتتابعة ، ولا أجد من الوقت ما يتسع لعرض نماذج رائعة من أمداحه الوطنية لأعلام مصر والعروبة ، ولكني أشير إلى قصيدة رائعة قالها في أخريات أيامه حين عمت الفرحة أبناء مصر بوصول المجاهد الكبير عبدالكريم الخطابي فارًّا من محبسه السياسي ، ومحتميا بكنانة الله في أرضه ، إذ لاقى أهل المغرب جميعا حين لاقى أهل مصر ، وكان تزاحم الوفود حول مقامه بالقاهرة أحد مظاهر الترحيب الشعبي الجارف .

ولا يسع شاعرا كبيرا كالجارم إلا أن يترجم هذه الفرحة بمدحة رنانة بدأها بقوله :

حلق النسـر كمـا شـاء وصـاح
ورمى بـالقيـد في وجـه الـريـاح
وجـلا عن ريشـه العـار كمـا
تنجـلي الأصـداء عن بيض الصفـاح
وأطـاح القفص المشئـوم لا
تعـرف الجن متى أو أين طـاح
وَلَكَمْ حن إلى أوطـانـه
قلق الأضـلاع خفـاق الجنـاح
يشتكي لليـل في وحشتـه
فـإذا غـاب تشكي للصبـاح
ذهب المـاضي مجيـدا حـافـلا
رحمـة الله عليـه ، أين راح ؟

وقد قامت قيامة الحكومة الفرنسية حين فر النسر الحبيس إلى فضاء الكرامة في مصر ، فاحتجت لدى القاهرة مُدعيّة أن الأمير المغربي خان العهد حين فر من المحبس بعد عشرين عاما من الأسر ، وأن على مصر أن ترده من حيث جاء ، وسكتت مصر استخفافا فلم ترد ، ولكن الجارم الكبير قد رد عنها معبرا عن مشاعر أبنائها في صدقٍ آسر حين قال :

أي عهـد يـرتضيـه بـاسـل
عـربي النبـع ريفيّ الجمـاح
أي عهـد ! هـو أن أذبـح من
غيـر سكين ، ولا أشكـو الـذبـاح

هـــو عهـــد الـــذئب يمليـــه عـــلى
شـــاتـــه المخلب والنـــاب الـــوقـــاح
وهـــو القـــوة مـــا أجـــرأهـــا
إن مشت يـــومـــا إلى الحق الصـــراح
كم ســـلاح صـــال من غيـــر يـــد
ويـــد تـــدفـــع من غيـــر ســـلاح

وللقصيدة نظائر متكررة في ديوان الجارم ، تؤكد صدق اللهجة وقوة العاطفة في الثناء ، كما أن الجارم لم يكتف بمدح الشخصيات الإنسانية بل تعداها إلى الشخصيات المعنوية ، فأعد أمداحا رائعة لمجمع اللغة العربية ، ودار العلوم ووزارة المعارف والجامعة العربية واللغة الفصحى ، فليت شعري أتكون هذه المدائح الصادقة صدى تافها لمناسبات عابرة ، أم أنها تاريخ حي لحقبة عامرة من حياة مصر كان الجارم فيها فارس البيان وبيت القصيد .

بقي أن نتحدث عن المدائح الملكية التي احتلت حيزا كبيرا في ديوان الشاعر ، وكانت أظهر ما يؤخذ على الجارم عند قوم ينظرون إلى السطح القريب دون أن يتعمقوا الغور البعيد ، إذ أن من المؤكد المشتهر لدينا جميعا أن الحاكم في عهده لا يظهر من أعماله غير المرضي عنه ، ويعرف عنه أقل مما يجهل ، فكم رأينا من رءوس لقيتْ ضروب الثناء المتنوع في حياتها ، ثم كُشفت الحقائق المؤلمة عنها بعد رحيلها ،

فانصرف عن تأييدها من كانوا يلهجون بذكرها ، ويُعدُّونها مثالا حيا للوطنية النزيهة والاخلاص العميق ، ولم تخل حياة هؤلاء من فضائل ذاعت واشتهرت ووجدت الأقلام مجالا لاطرائها فكتبت الكثير ، وما كان علي الجارم إلا شاعرا يحذو في مدائحه حذو سابقيه حين يشيدون بالفضائل المشتهرة التي لا خلاف عليها عند أحد ، ويتسعون بالقول إلى مطارح تتجاوز المديح إلى ما سواه من الوصف الرائع لمناظر الطبيعة ، وشمائل الفروسية والأريحية والفتوة ، حتى ليكون الشاعر في مدحته مصلحا أكثر منه مطريا ، وواصفا مدققا أبلغ منه مادحا مثنيا ، ولدينا النماذج الدالة على صحة ما نقول .

ففي مدحة الجارم الملكية التي مطلعها :

جمعت من فــرع ذات الــدل أوتــاري
وصغت من بسمــات الغيــد أشعــاري

نجد الشاعر يترك المديح بدءا إلى الحديث عن رسالة الشعر ومدى تأثيره في النفوس ، فهو عاطفة تقتاد عاطفة ، وفكرة تتجلى بين أفكار ، فإن لامس الأرواح ألهبها كما يتقابل تيار بتيار ، وهو مصباح الهداية للسارين ، وأنشودة الفنان يرسلها إلى القلوب فتحيا بعد موت ، وهو همس غصون الدوح ، ودمعة الطل في جفون الزهر .

الشعــــر للملك جيش لا يصــــاولــه
جــــلاد مـــرهفــــة أو فتـــك بتـــار

يغــزو وينصــر لا أشــلاء معــركــة
تــرى ولا وثبــات حــول أســوار
إذا تخــطّر في الأفــواه تنشــده
غض الجفــون حيــاء كــل خــطار
وإن أغــار تنــادي كــل ذي هلع
الى الفــرار وأودى كــل مغــوار
قــد كان حسّــان جيشا في قصــائده
أشــد من كــل زحــاف وجــرار
وكــان ملك بني مــروان في أطم
عال من الشعر يــرمي الشهب بالنــار
وهــل زهت ببني العبــاس دولتهم
إلا بــأمثــال حمّــاد وبشّــار
فقــل لمن راح لــلأهــرام يــرفعهــا
الخلد في الشعــر لا في رصف أحجــار
كم حكمــة فيــه لا تفنى بشــاشتهــا
ومن حــديث عــلى الأيــام سيّــار

كما هو في قصيدته الملكية التي مطلعها :

بين صحــو المنى وحلم الخيــال
سبــح الشعــر في سمــاء الجمــال

يرصد أحداث الدهر وهو طفل يحبو في المهد ، حيث الشمس طفلة ترسل الأضواء فوق الكهوف والغيران ،

وترى روائع الحضارة المصرية القديمة في مهرجان رائع يصدح بالأهازيج ، وينثر الورود والرياحين .

ساطعات الشموس فيه مشاعـ
ـيلُ وأضواؤه بنات الهلال
زحم الأرض بالجياد وغشى
صفحة الجو بالظبا والعوالي
وهفت راية على قبة النجم
ورفت فوق السحاب الثقال
موكب يجمع الشعوب وتمشي
تحت أعلامه العصور الأوالي
سار فيه الملوك من كل جيل
في احتفاء ضافي السنا واحتفال
ذاك مينا وذاك عمرو فتى العر
ب وهذا المعز جم النوال

أما عن مدحته الرائعة التي مطلعها :

اقتبال الربيع في قسماته
نبه الكون بعد طول سباته

فهي من عيون الشعر حقا ، وقد بدأها الشاعر بأجمل أوصاف الطبيعة المصرية في زمان الربيع ، ثم انتقل الجارم إلى حديث الشباب وهو ربيع الحياة لدى كل نفس فقال الجارم صادقا مؤثرا :

هــات عهد الشــاب إن غاص في المــا
ءِ وإن غـــاب في السمـــاء فهـــاتــه
همســـات الشبـــاب في النفس أحـــلى
من حـــديث الهـــوى ومن همســـاتــه
نـــاره تصهـــر العـــزيمـــة سيفـــا
تتـــوقى السيـــوف وقـــع شبـــاتــه
مـــا أحيـــلى وثـــوبــه وهـــو مـــاض
يتحـــدى الـــزمـــان في فتكـــاتــه
نفحـــات الشبـــاب أين تـــولت ؟
لهف نفسي عـــلى شـــذى نفحـــاتــه
قـــدح قـــد حلت أوائله رشفـــا
وذقنـــا المـــرين في أخـــريـــاتــه
مـــا أراني من غيـــره غيـــر ثـــوب
ضم أردانـــه عـــلى عـــلاتــه
رب شيـــخ في عـــالم الـــطب حي
ويـــراه الـــزمـــان من أمـــواتــه
الشبـــاب الشيـــاب نـــور من الله
وريـــح تهب من جنـــاتــه

ومضى الشاعر في مدحته مسهبا ، يخاطب شباب الحمى ، وجنده الأحرار ، كي يُزاحموا في وليمة الدهر أرسالا ، فالطموح الحياة ، وسبيل المجد مضاء واثب ، وعزم باسل .

الـــذراع الأزل والســـاعـــد المفتـــو
ل ذُخـــر الشبـــاب في أزمـــاتـــه
تسخــر الريــح بـالضعيف من النبت
وتخشى القــوي من بـــاسقـــاتـــه
ذهب النـــوم فـــالـــذي يغمض العيـ
ـنين ، يـــاتعســـه ويـــا ويـــلاتـــه
آلــة الفــوز همــة تــطحن الصخـــر
وتسمـــــو للنجم في سبحـــــاتـــــه

والقصيدة تقع في ثلاثة وخمسين بيتا ، منها أربعون بيتا في هذه المعـاني الرائعـة ، ذات الحافـز الدافـع ، والتصوير البليغ المؤثر ، ومن يسقط أمثال هذه الروائع من مطولات الشاعر ويعدّهَا أماديح مناسبات ، فقد خالف الصواب ، وحاول أن يحرم الشباب من مُلهِم حافز ، ودافع نهّاض .

لقد اخترت موضوع المديح عن عمد لأحفظ له مكانه الطبيعي في تراثنا الشعري على مد العصور ، وإذا نشزت عنه أسماع من لم يقرءوه عن دراسة وتحليل ، فالذين درسوه من قبل قدروه حق قدره ، حين أدى رسالته في بعث الهمم واستنهاض العزائم وإذكاء الطموح وقد يكون من الأوفق أن أختم حديثي ببعض ما قاله الجارم في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يناسب أن ندعو به هذه

الايام وقد تألّب المسلمون على أنفسهم وحارب بعضهم بعضا في خزي وهوان .

إليــك رســول الله طــار بنــا الهــوى
وحلو الأمــاني والــرجــاء المحبب
أفضهــا علينــا نفحــة هــاشميــة
تلم شتــــات المسلمين وتــــرأب
وتبعث فيهم مثــل ســعــد وخــالــد
وتــرفــع من رايــاتهم حين تنصب
سنصحــو فقد مــل الطريــح وساده
وفي نــورك القــدسي نسعى ونــدأب

حين يكون الصديق مؤرخا بين جبران ونعيمة

كان الاستاذ عبدالعزيز البشري يحرر في (السياسة الأسبوعية) باب (المرآة) فيجلو بعض ما يعرف من ملامح الكبار في دنيا السياسة والأدب والعلم ، كما كان صديقا حميما لشاعر النيل حافظ ابراهيم ، وجاءت نوبة الصديق العزيز فبدأ البشري مقاله بقوله :

«وإذن فسأجلو حافظا في هذه المرآة ، وأرمي فيه بالقول ، وإني سأدخل في الورطة ، وتحق عليّ الكلمة في كل حال ، ويح نفسي من عنت أهل العنت من القراء ، فإنني إن قلت فيه خيرا ، قالوا : شهادة صديق لصديق فهي متهمة مهدورة ، وإن قلت شرا قالوا ما أنكره للود وما أكفره ، وإني لأعوذ من ألسن هؤلاء بالحق ، فالحق أجدى من مصانعة هؤلاء» .

وقد وقع ميخائيل نعيمة فيما وقع فيه عبدالعزيز البشري حين ألّف كتابه عن صديقه (جبران خليل جبران) إذ قال فيه الخير والشر معا ، وكان على الناقدين أن يرتاحوا لإنصاف صديق آثر الحق على الباطل ، وأن يعدوها مأثرة نزيهة من مآثر الكاتب الكبير ، ولكن القيامة قامت على

الرجل في لبنان ومصر والمهجر ، ورفع الراية في المعركة نفر من ذوي اللسّن والاستطالة ، وفيهم الناقد المر الأستاذ مارون عبود ، والخطيب المناظر الأستاذ فليكس فارس ، والأديب المهجري يوسف البعيني ، واتسعت الصحف والكتب لحوار مديد منذ نصف قرن ، ثم رحل ميخائيل نعيمة ، وقال الراثون عنه ما قالوا ، وبدا لي أن أفيض في شيء من ذكره فأثرت الحديث عن موقفه من جبران .

بين الصديقين

اقترن اسم ميخائيل نعيمة باسم جبران كما اقترن اسم المازني باسم العقاد ، لصحبة أدبية عريقة جمعت بين الأديبين الكبيرين ، وقد رحل جبران مبكرا عن صاحبه ، إذ بقي بعده أكثر من نصف قرن يرفد وينير ويسخو ، وإذا كان جبران رهيف الاحساس ، قوي التصوير ، رائع الوثبة ، فإنه في تقديري الخاص لا يبلغ مبلغ نعيمة في النفاذ الموغل إلى أقصى شعاب النفس ، فأنت تقرأ جبران فتعجب بالوثبة الطائرة ، والريشة المصورة ، والحس الرهيف ، ولكنه بعد ذلك كله يدعك في مكانك حيث أنت ، أما نعيمة فيرجك رجّا ، ويرتفع بك إلى عالم أعلى وأضوأ ، فأنت تتابعه في انبهار ، وتشعر بعد قراءته أن شيئا جديدا طرأ عليك فنقلك من مكان إلى مكان ، وأورثك قلقا روحيا يشغل

خاطرك ، وتظل طيلة يومك تفكر فيما اهتدى إليه نعيمة من بوارق تسطع في أحلك الغيوم ، وقد تخالفه في بعض منحاه ، أو في أكثر منحاه ، ولكنها مخالفة من يحذر المخالفة ، ويقيم لها ألف حساب ، لأنه لا يجد الأدلة الكافية على اليقين ، وإذا لم يترك نعيمة قارئه على صخرة ثابتة مما يقول ، فحسبه أن حرك خواطره ، وأيقظ كوامنه الهاجعة ، وأفاقه من نوم طويل .

لقد عرف الناس قوة الآصرة بين الصديقين الحميمين ، فهبوا بعد رحيل جبران يسألون الصديق عن مشاعر الصديق ، وكتب نعيمة كلمة الرثاء في الصحف ، وأبدى بعض ما يعتقد في إنصاف ومودة ، ثم رحل إلى لبنان عائدا من المهجر ، فرأى حديث الناس عن صاحبه يجعله أسطورة لا حقيقة ، وانتشرت كلمات الرثاء تستشهد ببعض ما قال ميخائيل نعيمة عن صاحبه بعد رحيله في مقالة عن جبران .. وفى كلمة (جبران الشاعر) التي افتتح بها حفلة التأبين فى بروكلين في مجمع أَقَامَته الرابطة القلمية هناك ، ووقع ميخائل في حيرة ، لأنه يعتقد في أطوائه أن ما قاله في مواقف التأبين يتسم بما يتطلب المجال من مجاملة كريمة تصبح زهرة رفافة على قبر راحل ، وليس لصاحب المجاملة أن يكون باحثا يتغلغل إلى الأعماق ، ويكتنه السرائر ، وها هو ذا

صار شاهدا على أدب، جبران ، فلابد اذن من كتابة مؤلَّف يرسم انطباعه الحقيقي عن صاحبه ، ليريح نفسه من تبعةٍ أدبية أوْقَرَتْ صدره ، وليست هذه الراحة وحدها هي الدافع إلى تحرير سيرة جبران ، فإن مع ذلك كله ما يخشاه ميخائيل نعيمة حين يصبح جبران أسطورة تعجز ذوي القدوة من الناشئين ، إذ لو كان كذلك ، ما اشرأب أحد إلى منزلته الأدبية ، فيوئس محبيه بدل أن يكون أملا ينعش ، ودافعا يحدو ، لابد اذن أن يظهر جبران للناس كما كان في عالم الأحياء ، ولن يستطيع أحد الحديث عن حقيقة جبران كما يستطيع ميخائيل ، ولابد أن نعيمة قد عانى حربا نفسية قبل أن يعزم على الكتابة ، إذ تعاظمه حينا أن يُظهر جبران كما كان ، ثم تعاظمه ثانية أن يسكت عن باطل قد ذاع ، وشارك هو في بعضه مجاملة وتكريما ، هذا الصراع الناهض في نفس نعيمة قد انتهى بعد الدفع والجذب إلى وفاق صارم يتجاوز حقوق اللياقة ، منتقلا إلى احترام الكلمة ، و إرضاء الضمير .

كتاب جبران

ألّف ميخائيل نعيمة كتابه عن صديقه على نمط غير معهود ، إذ أن أمثال هذه الكتب تبدأ عادة بالحديث عن الأسرة والمنزل متدرجة إلى وصف البيئة والمناخ ثم تتتبع المترجم مولودا وطفلا وناشئا وكهلا على نحو مترابط يسد

الفجوات ، ويربط النتائج بالأسباب ، وفي خلال ذلك يأتي التحليل الأدبي لروائعه ، ومدى توفيقه في مجاله الفني تعبيرا وتصويرا ، ولكن المؤلف بدأ بالنهاية ، فوصف لحظات الاحتضار وفاجأ القاريء بآلام لا يتوقع الابتداء بها ، ثم انقلب من النهاية إلى البداية فجأة فأرسل لخياله العنان في وصف لبنان وموطن جبران ببشرى ، وسمح لنفسه أن يتصور أحاديث متخيلة بين القابلة والأب مما لا يُعقل أن يلم به الطفل الوليد ليذكره فيما بعد ، ونقطة الضعف في هذه التخيلات أن القاريء يحس اختلاقها ، فينتقل من قراءة ترجمة حقيقية لإنسان مشتهر إلى مسرح قصة خيالية يتفنن أديب كبير في ابتكارها ، ويتساءل هل يعم هذا التخيل ما نُسب إلى جبران من الوقائع فيما يلي هذه الابتكارات ، وبذلك يقف موقف الحذر فيما يرويه الصديق عن الصديق ، والذين يجتذون منحى نعيمة يذكرون أنه يرسم المسرح للأحداث بهذه التخيلات ، فهو يقيم الأعمدة التي تحمل المظلة ، وإذا جاز هذا في قصة ، فما أبعده عن الجواز في سيرة تاريخية ، نقول هذا ونحن نعلم أن الحواجز ليست من الصرامة بحيث تمنع التقاء السيرة والقصة في نطاق واحد ، ولكنها مع هذا الالتقاء تفرض على كاتب السيرة أن يكون واقعيا ، وإذا لجأ إلى الخيال التصويري ، فإن وظيفة الخيال هنا أن يعين على وصف الحقيقة كما كانت لا كما يتخيلها أديب قاص ، فإذا تجاوزنا

هذا المأخذ ، وهو ما نؤيد من ألحوا على تسجيله من الناقدين ، فإننا نلتقي بمأخذ آخر ، هو موضع الجدل الحقيقي الذي اتصل منذ ظهر كتاب نعيمة إلى اليوم ، والذي أغضب نفرا من كبار الناقدين ، وأرضى فريقا آخر ، وإذا رجعنا إلى المقدمة الموجزة التي كتبها نعيمة فإنها تُعلن أن في حياة كل إنسان أسرارا يكتمها عن الناس ، وقد وقف الصديق على بعض هذه الأسرار وفاته الكثير ، وإنه يتساءل : أيليق به أن يبوح ولو ببعض ما يعرف وإذا لجأ إلى الكتمان فما معنى الذي يكتبه ؟ أيخون القاريء ويخون جبران نفسه حين يخفي ما ليس بخاف في سجل الحياة ، وإن لم يكن مستورا عن أعين الناس ، أيصور نعيمة صورة لا وزن بين ظلالها وأنوارها ليرضي بعض من لا ذوق لهم في الفن ، ولا رأي لهم في الحياة ، وحينئذ يجور الكاتب على ذوقه وعلى أدبه فيواري الحقائق الصريحة ، ويغدو ضائق الصدر بمسلكه ، نهبا للصراع بين الحين والحين !

لقد صمم الكاتب على أن يقول بعض هذه الأسرار ، مهما كان موقعها ، والذين يظنون أن نعيمة كان سيء النية في هذا الاتجاه ، عليهم أن يفهموا أن الكاتب الكبير قد تحدث عن نفسه في كتاب (سبعون) فذكر من الأسرار الخاصة به ماكان يجب أن يستره لو اقتدى بمنطقهم الحريص ، لأن نعيمة يرى تعرية النفوس أقرب الوسائل لعلاجها ، وكان يجد لذة فنية في كشف ما استتر من الخوالج والمعاني أو من

الوقائع والأحداث ، لأن اللذة التي يلاقيها الإنسان ـ كما يقول نعيمة في كتابه سبعون ـ إذا هو تعرى أمام الناس تريح نفسه إذ يصير كيانه الداخلي واضحا للعيان وكأن جسده قد استحال بيتا من زجاج يشف عما فيه دون حجاب ، فهل نقول إن نعيمة قد حمل غِلًّا لنفسه ، حين كشف عن نزوات الضعف ، أو نقول إن مبدأ كشف الأسرار قد نزل منه منزلة الحق الصائب ، فالتزمه مع نفسه كما التزمه مع جبران !

بعض المآخذ

حين ظهر كتاب نعيمة عن جبران لم تشتعل الحومة حول آرائه الأدبية في صديقه ، ولم يتوجه النقد إلى هنات خاصة بالتأليف إذ لم يطرد على نسق واحد ، فإن ذلك كله لم يكن من الأهمية بحيث يدور حوله الأخذ والرد في صخب مرتفع ، بل مر النقد عليه في همس يتلمس التبرير ، ويحترم وجهة النظر المقابلة ، ولكن الضجيج الصارخ قد احتدم حول ما سرد نعيمة من وقائع خاصة بصواحب جبران ، حيث ذكر أسماءهن ، وفصَّل أدوارهن ، وكشف المخبّأ عن واقع غير منتظر .

فالذين رفعوا جبران إلى مرتبة مبالغٍ فيها قد ساءهم أن يسجل على جبران ، ارتكاسه في حمأة الرذيلة مرات

متتابعات مع نساء مختلفات ، ولن نجاري نعيمة في ذكر اسمائهن ، فذلك ما كان الأولى أن يكتم ، إذ لا فائدة من ذيوع الاسم لأن التعرية التي يقصدها نعيمة تتحقق دون تحديد الطرف الآخر .

هذا أوجز ما يمكن أن يختصر في هذا النطاق ، وقد صوره نعيمة بما يملك من إيحاء وافتنان ، وكان ما كتبه مفاجأة لبعض قارئيه ، فهبوا لائمين .

رسالة المنبر

كان الاستاذ فليكس فارس أوسع من تعرضوا لنقد ميخائيل نعيمة ، إذ خصّه ببحث ضاف في كتابه (رسالة المنبر) جاوز السبعين من الصفحات ، وكاد يصبح كتابا مستقلا ، والاستاذ فارس خطيب عربي جهير المكان ، لذلك ظهرت روح الخطيب في دراسته ، فاعتمد على الانفعال السريع ، والحماسة الرنانة ، وقد اعترف أنه لم ينعم بصحبة جبران غير سبعة شهور ، وأنهما لم يتحدثا في غير الشئون الفكرية بعيدين عن السرائر والأسرار الذاتية ، وهذا مما يضعف تصديه لرواية صديق عاشر جبران خمسة عشر عاما في مصاحبة دقيقة تلمس موضع النجوى ، وتتوغل في أدق الشعاب المستترة في أطباق الدم واللحم ، ولا أدري لماذا ينكر على نعيمة أن يتحدث عن خوالج صديقه وكأنها شيء محرم ، وإذا أجاز فارس لنفسه

ألا ينتقل إلى منطقة يراها محظورة ، فليس لغيره أن ينحو منحاه في التحليل والتحريم ، وأنا معه في أن ميخائيل أسرف في التخيل إذ ألّم بطفولة جبران ، ولكن هذا لا يعني أنه اخترع أحداثا ، ففرق بين التخيل الموهوم ، والواقع الصريح .

يشك فارس في الواقعة الخاصة بالحبيبة الأولى ذات الزوج البغيض ، ويراها مما لا يصح أن تنقل ، وأنا معه في أنها قد لا تُنقل في منطق من يتحرج ، ولكني لست معه في أنها متعذرة الوقوع ، إذ ليست غير التقاء رجل بامرأة في أمريكا ، وذلك مما يتكرر دائما !

أما الثانية فقد تَعاظَمه أن يقول نعيمة عنها على لسان جبران : لقد اقترنْتُ بها ، لقد جعلت من جسمي وجسمها هيكلا واحدا للحب الطاهر ، وحين تسأله متى تقترن برفيقتك أمام الناس ؟ يجيب جبران صاحبته قائلًا : ما أكثر ترابك وأقل تبرك ، تقولين : الناس الناس ، ما هَمِّي بالناس ، وما يقولون ويفعلون ، هل جمعوا بين قلبين إلا ليفصلوهما ، أو ربطوا متناقضين إلا ليقتلوهما برباطهم .

فتجيبه صاحبته : ولمن ترسم رسومك ياخليل ، ولمن تنظم قصائدك ؟ أليس للناس ، ومَجْدَ من تطلب يا خليل أليس مجد الناس !

فيرد جبران متضايقا : أنتِ منهم ، أنت كذلك ابنة الديدان والأكنان !

ويطرّد الحوار في هذا المنحى ، وإذا جاز للأستاذ فليكس فارس أن يشك فيه ، فأنا لا أشك قيد لحظة لأن جبران قد قال فحوى هذا الحوار في كتاب «الأجنحة المتكسرة» وسجله بقلمه في كتاب أذاعه بين الناس وتعددت طبعاته .

ثم خاطب الاستاذ فليكس نعيمة قائلا : «أيها المفكر الذي يجول في دمه شمم لبنان ، أفما كان الأجدر بك أن تستنير بما فيك من نور ، وبما فيك من كرامة ، وأنت تورد لنا هذه العيوب ، بل هذه الجرائم سواء أكانت الوقائع خيالية أم حقيقية ، إنك تسيء إلى الأدب العربي وإلى الناشئة العربية التي تتطلب من أرباب القلم أن يخلقوا لها المثل العليا لانتهاج سبيل العدل والكرامة والنخوة والمروءة في الحياة» وفارس هنا خطيب داعية ، وماكان ميخائيل خطيبا ذات يوم !

بيت القصيد

فرحت حين علمت أن الاستاذ ميخائيل نعيمة قد تحدث عن سيرته الذاتية في كتاب رائع هو «سبعون» إشارة إلى عمره الزمني حين أصدر هذا الكتاب ، وأنا أعلم منحى الكاتب الكبير في تعرية النفوس ، والكشف عن الدفائن المستورة دون حرج ، ولابد لمن قطع في بيداء العمر سبعين عاما أن تهب عليه أعاصير عاصفة ، تجبره على الاستسلام تارة ، وتدفعه إلى المقاومة تارة أخرى ، فالإنسان ضعيف

الحول مهما اصطنع القوة ، وله من غرائزه الآدمية سباع ضارية تثور عليه مسلحة بالأنياب والبراثن ، وقد هبت هذه الأعاصير على المحارب الباسل فانتصر وانهزم ، وسعد وشقى ، وفي حالة انتصاره لمعت البسمة في خاطره ، فسجل تأبّيه على الغريزة في موقفين ، أولهما في حفل موسيقي تيسر فيه السبيل للهو فاستعصم الأديب الشاب ، ولكنه لم يشأ أن يستسلم ، وميخائيل انسان ، فليس من الطبيعي أن يطول امتناعه بل من المتوقع أن يهوي في مآزق متتابعة ، تحدث عنها بإفاضة ، مرة في روسيا ويجد القاريء حديثها في «سبعون» ص ١٣ ، وما بعدها ، ومرة في أمريكا ويجد القاريء حديثها في ص ٢٥٦ وما بعدها ، وثالثة بنيويورك يجد القاريء حديثها في ص ٢٣١ ، وقد سرد الكاتب ملابسات هذه الجرائر وعيّن الأسماء كما عينها في حديثه عن مواقف جبران ، وليس من شأننا أن نفصِّل هذه النزوات ولكننا نشير إليها لنؤكد أن الميزان الذي وزن به صديقه وأثار عليه الثوائر هو نفسه الميزان الذي وزن به نفسه ، فإذا ظن أحد به خبث الطوية في كتابه عن جبران ، فقد تبدد هذا الظن بعد أن سجل الرجل على نفسه ما سجله على صاحبه ، إلا إذا غالى مكابر عنيد فزعم أن ميخائيل كان خبيث الطوية أيضا حين سرد عن نفسه مالم يشأ أن يحجبه عن الناس ، ولا يسعنا حينئذ إلا أن نقول له ، لك أن تفهم ماتشاء ، ولكن ليس لك أن تفرض شططك على المتزنين .

جحا الساخر
بين العرب والفرس والترك

سماه الأستاذ عباس محمود العقاد جحا الضاحك ، وكتب عنه مؤلفا ممتازا بهذا العنوان ، وفي رأيي أن جحا مضحك ، وليس ضاحكا ، فلا يلزم أن يكون هذا الذي يفجر الضحك من الأعماق ذا ضحكة رنانة ، فالرجل ساخر يرسل في ابتسام شاحب فكاهته ، وقد يعاني من الألم النفسي حينئذ مالا طاقة له باحتماله فيكون تطبيقا عمليا لقول الأستاذ علي الجارم :

وأشد الآلام أن يُرسل الثغر ابتساما والقلب رهن اكتئابه !

وما راجت نِكاتُ جحا وانتشرت على هذا النحو الشاسع في رحاب الارض إلا لما تحمله من السخر الهازيء حين تصور الوضع المنقلب ، والقزم الذي أصبح عملاقا ، والقمة التي هوت إلى السفح ، وهي أمور تتكرر وتتوالى فيتكرر تبعا لها ما قال جحا ، ونحن نعرف أن جحا لم يكن مصريا ، ولكنه بطل شعبي في مصر ، تؤلف باسمه النوادر ، وتُعزى إليه النكات ، فعندنا طرائف مصرية خالصة عن «ساقية جحا ، وعن ثور جحا الذي هو أولى بلحمه ، وعن مسمار جحا ، وعن بيت جحا ، وكلها ترمز إلى أوضاع عرفت في مصر ، ولم يكن الرجل العربي الأمويّ في أكثر حياته ممن يتصلون في

تاريخهم البعيد بمصر بوشيجة من الوشائج ، بل لعل اسمها لم يجر على لسانه ، ولكنه بقوته الاسطورية قد شق الغيوب حتى تمكن من إحساسها النابض قرنا وراء قرن ، وحتى رأينا ساخرا كبيرا كالأستاذ عبدالعزيز البشري يخترع الدعابة الساخرة لنفر من أصدقائه فتنسبها مجلات الفكاهة حينئذ لجحا ، مع استحالة صدورها عن الرجل الأمويّ زمانا ومكانا ، لقد كان شيخ العروبة أحمد زكي باشا يخوض معركة أدبية مع الأستاذ محمد الهِهياوي في العشرينيات من هذا القرن ، فقال البشري لبعض منادميه : إن زكي باشا لو تحدث حديثا وديا مع الاستاذ الههياوي فلا بد من حضور البوليس ، أما إذا كان الحديث بينهما حديثا علميا فلابد أن تتدخل أساطيل الدول الكبرى ، قال البشريُّ هذه الطرفة ، فظهرت لتوها في صحف الفكاهة ـ وما أَذْيَعَهَا حينئذ ـ منسوبة لجحا ، واتصل البشري بالصحيفة ليسأل ساخرا عن عنوان جحا كي يحظى بمعرفته !

جحا العربى

لم يكتب التاريخ العلمي عن جحا العربي شيئا ذا بال ، بل إن كتب الأدب العربي غير كتابين فقط لم تُعن بتسجيل شيء من نوادره فأنت تقرأ في صحف التراث الكثير من نوادر أشعب ، ومزيد وأبي دلامة وأبي نواس وأبي العيناء

وأشباههم ولكنك لا تقرأ من نوادر جحا في صحف الأدب الرصين غير القليل مع أن اسمه من الشهرة بحيث يكتسح هؤلاء جميعاً، فقد فرض نفسه فرضا أكيدا على الألسنة في الشرق والغرب ، ولكنها ألسنة المتكلمين في الأسواق والمتاجر والأندية ينتقل حديثها من عصر إلى عصر دون عائق ، وفي كل زمن ينمو هذا الحديث ويتزايد ويمتد ، وكأنه جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإذا أراد المتطلع أن يعرف ما بقي من تاريخ جحا العربي موثوقا منه ، فلا يجد إلا أن اسمه أبو الغُصن دُجين بن ثابت ، وأنه نشأ بالكوفة ، ولم يبارحها إلا في زعم من روى عنه نوادر تتعلق بحجّه ، وذهابه إلى مكة ، وهي نوادر تنسب إلى غيره كما تنسب له ، فليس حديثها عن مكة ، بدليل يرجح انتقاله اليها ، أما كيف شغل الرجل أهل الكوفة بسخريته فذلك ثمرة نبوغه الناقد ، لأنه وقف منهم وقفات المؤدب الواعظ ، الذي لا يرسل النقد في خطبة رنانة ، أو قصيدة مؤثرة ، ولكن في موقف هزلي هو أشبه بالصور الكاريكاتيرية .

لقد قامت الدولة العباسية بجهود أبي مسلم الخراساني ، وانزعجت الكوفة لما يُروىَ عنه من الغرائب المذهلة التي تضاف إلى سيرته ، وكأنه جبار من جبابرة الجن ، يملك أن يطوي الأرض ، ويصل ما بين الشرق والغرب في لحظات ، وأبو الغصن يسمع الخوارق فيزنُها

بميزان عقله فلا يصدق ، فإذا ناقش هذه الاساطير في هدوء احتشد حوله الغوغاء ليسّفهوا كلامه ، ثم رأى أن يستخف بهم في أمر يظهر سذاجتهم السطحية دون معاناة ، فأعلن أنه سيطير من فوق المئذنة في عصر الجمعة القادم ، وذاع النبأ في أنحاء الكوفة ، فتجمع الناس عصر الجمعة حول المئذنة ، يرتقبون طيران جحا ، وحضر الفنان الساخر ، وصعد إلى أعلى مكان بالمئذنة ، وأخذ يُلوّح بيديه ، كأنه يهم بالطيران ، حتى إذا مل الحاضرون موقفه ، صاحوا به لِمَ لا تطير ؟ فقال جحا : وكم عددكم ؟ فقالوا فوق خمسمائة ! فقال : وكلكم عقلاء ، فقالوا نعم : فقال وقد صدّقْتُم أنّي سأطير ، كما صدقتم أن أبا مسلم جبار من الجن يطوي الأرض ، ويصل مابين الشرق والغرب ، فانصرفوا دهشين .

وذهب رجل كوفي إلى أبي مسلم فأخبره بما صنع جحا ، وزعم أنه يعرف أبا الغصن ، فوجّه أبو مسلم بمن يدعوه ، وأحس جحا بالخطر ، فمال إلى التّباله ، وادعى الجنون ، حين قدم على القائد الغضوب ، وأخذ يكلم الواشي كأنه أبو مسلم ، فقال أبو مسلم : أنت لا تعرف هذا ، فصاح معاذ الله أن أجهل القائد الخطير ، ونجا بالتباله .

وكان بالكوفة والٍ لا يعرفُ العدل ، وأراد جحا أن يكشف مستوره على الملأ ، فدخل عليه هائجا وهو يقول : مولاي إن ثورك الأحمر قد نطح ثوري الأسود فشق بطنه .

فقال الوالي : وما شأني ؟ وأي تبعة تقع على الحيوان الأعجم !! ولكن جحا بادره قائلا : عفوا سيدي عفوا ، لقد تذكرت : إن الذي نطح هو ثوري الأسود ، وأن ثورك الأحمر هو المشقوق المنطوح ودمه يسيل !

فانزعج الوالي وقال : ويلك ! لقد تغيرت المسألة ، فَتَغيَّر الحُكم ، عليك بالعوض السريع ! والناس شهود ، والجمع حافل ، وهكذا أظهر جحا بما لايقبل الشك انحراف الوالي وفقا لما يرضيه .

وشاعت النوادر أن تجعل أبا الغصن قاضيا يحكم بين الناس ، ولكنه لم يكن بالقاضي الجائر ، بل كان الحَكَم المدرك البصير .

تقدم إليه مختصمان يدّعي أحدهما ، أنه صاحب مطعم تفوح من رائحة الشواء ، وأن غريمه مرَّ على مطعمه ، ومعه قطعة من الخبز أكلها على رائحة الشواء دون أن يدفع الأجر .

فسأل جحا : وكم ثمن ما شمَّ من الشواء ؟ فقال المختصم : ربع دينار !

فأخرج جحا ربع دينار من جيبه ، ورنَّه على الخشب ، فسمع له صوت واضح ، وصاح القاضي : انتهينا اذن ، لقد سمعت صوت الدينار كما شمَّ رائحة الشواء ! فاذهب ومعك حقك .

واتفق رجل مع حامل أحطاب أن يساعده في رفع صندوق

على كتفه ، فقال له الحطَّاب ، وماذا تعطيني ؟ فقال الرجل : لا شيء !

وظن الحطاب أن لا شيء مال يدفع ، فطالب به ولم يجد السداد ، ورفع الامر إلى قاضي الكوفة أبي الغصن .

واستمع جحا إلى الشكوى ثم سأل الحطاب أتريد اللا شيء الذي وعدك به ، فقال نعم .

قال القاضي : ارفع هذا الكتاب فما ترى تحته ؟ فرفعه الحطَّاب قائلا : لا شيء .

فابتسم جحا وقال خذه إذن فهو ما تطلبه !

ولا يمكننا في هذه العجالة أن نتابع ما يُروى عن جحا العربي ، ولكننا نذكر أن عشرات من أمثال هذه الطرف قد خلدت ذكره ، بل إن مئات من أمثال هذه الطرف قد نُسبت إليه وأصبحت من آثاره الخالصة دون أن يدري عنها شيئا ، كما نُسبت مقطوعات من شعر الغزل إلى قيس وليلى دون أن ينظمها وكما نسبت بعض النوادر الماجنة لأبي نواس دون أن يقولها ، إذ أن أمثال جحا وقيس وأبي نواس لم يكونوا أعلام أشخاص فحسب ، بل أصبحوا أعلام أجناس .

جحا الفارسى

ذُكر جحا في الأدب الفارسي ، ورُويت نوادره الجديدة موسومة بخصائص البيئة الفارسية ، ولم يشتهر شخص

فارسي معين باسم جحا ، كما اشتهر جحا العربي وجحا التركي ، ولكن كبار المؤلفين هناك قد نحلوه نوادر كثيرة ، وأذكر أن الدكتور عبدالوهاب عزام ذكر من هؤلاء عبيد الزاكاني الشاعر المؤلف ، ومولانا جلال الدين الرومي في مثنويّاته الفارسية ، وعبدالرحمن الجامي الشاعر الصوفي ، ولعل أقرب هؤلاء جميعا إلى شخصية جحا هو عبيد الزاكاني إذ جمع بين الجد والهزل في مؤلفاته ونوادره جمعا يلحقه بجحا العربي ، وأهم فرق بين الجحويْن العربي والفارسي ، أن أباالغصن كان محدثا مسامرا فحسب ، يرمي بالطرفة الساخرة عفوا لساعته ، دون أن يجهد في تأليفها ، ودون أن يحرص على ذيوعها بعد أن تقال ، أما عبيد فقد أصدر عدة كتب تجمع بين الهزل والجد ، وقد كان شقيا بحياته إذ ركبه الديْن ، ولازمه الفقر ، وذوو النباهة من الأدباء والمؤلفين أمثال الزاكاني يهولهم أن يقاسوا لواعج الحرمان روحا ومادة مع ما يتمتعون به كثيرا من مواهب أدبية راقية ، على حين ينظرون فيجدون من ذوي الجهالة من يتمتعون بالجاه والمال والصحة والسلطان دون موهبة ، وهنا تتدفق على ألسنتهم النوادر الناقدة في المجالس متحدثين ، وفي الكتب مؤلفين .

ذهب جحا الفارسيّ (عبيد الزاكاني) للقاء أمير شيراز أبي إسحاق ، ليقدم له مؤلفا في (المعاني النفيسة) وكان يظن أن

الأمير سيسمح بلقائه حين يعرف أنه مؤلِّفٌ أديب يحمل إليه ثماره الفكرية ، وهي من النفاسة في رأي المؤلف بمنزلة عالية ، ولكن الزاكاني قد حُجب عن اللقاء ، وقيل له إن (المسخرة) عند الأمير يُضاحكه ولن يفرغ له في هذا الوقت ، والمسخرة بمجالس الأمراء في هذه الأزمان بهلوان يهرج بالطرائف والسخائف ليُضحك الأمير ، ويرّفه عن خواصه من الندماء ، فدهش الزاكاني وصاح : لقاء السلطان مُيَسّرٌ للمساخر كل حين ، والعلماء يُطردون ، وطارت الكلمة إلى أبي اسحاق ، وأحضر الزاكاني ليناقشه الحساب فقال له : إن العبارة ليست من انشائه ولكنها تنسب إلى جحا !

ثم غربت شمس الأمير ، وحل مكانه سواه ، فأنشا الزاكاني رباعية شعرية تَرْجَمَتُها عن الفارسية كما يلي : «لا تكن مثلي عالما فاضلا ، لئلا تكون مثلي لدى الأمراء حقيرا ، إن تُرد أن تكون مقربا عند أهل الزمن فكن سُخرةً أو راقصا أو زامرا» ويذكر مؤلفو التاريخ الأدبي أن للزاكاني كتابا مضحكا تحت عنوان (ريش نامة) وهو حوار هزلي بينه وبين لحيته ، كما أن له كتبا هزلية أخرى ، وأخرى تتسم بالجد ، ولن يكون الهزل في مؤلفاته إلا تنفيسا عن أوار حبيس ، ومما يُروى من طرائفه الجحوية ، أن رجلا من أهل قزوين خرج لغزو الأعداء في جيش كثيف ، وكان مع الرجل ترس كبير ، فلما قرب من حصن العدو أصاب رأسه حجر فأدماه وصرخ ، فسأله بعض أصحابه : ماذا دهاك ؟

فقال يا أخي : أأحارب قوما عُمْياً يرمون رأسي بالحجر ، ولا يرون هذا الترس .

ومن نوادره أن رجلا شاهد إنسانا يجري وهو يؤذن للصلاة دون أن يقف في مكان واحد ، فسأله عن أمره ، فقال : لا تنتقد يا أخي ، لأن صوتي لا يكون حسنا إلا إذا سُمع من بعيد ، وهأنذا أبتعد ليحسن الصوت !

أما جلال الدين الرومي فيكتفي بذكر هذه الطرفة التي نسبها إلى جحا في الدفتر الثاني من المثنويات حيث قال والترجمة للدكتور عبدالوهاب عزام بتصرف :

«مشى صبيٌّ في جنازة والده يبكي ويضرب رأسه ويصيح ، يا أبت ، إلى أين تُحمل ؟ أتوضع تحت الثرى ! وتُحبس في دار ضيقة مقفرة ، ليس فيها سجادة ، ولا حصير ، ولا سراج بالليل ، ولا خبز بالنهار ، ولا سقف ولا باب ولا جار مؤنس ، وكان جحا يسير مع ابنه في المشيعين ، فقال لولده : يابني أظن هذا الميت سيذهب إلى دارنا ، فالأوصاف مطابقة .

وللجامي نوادر عن جحا نذكر منها أنه كان مدينا لبعض الناس بمائة درهم ، فشكاه الدائن للقاضي ، حيث لا شاهد ، فطلب القاضي من جحا أن يحلف ، فقال له جحا : إمام المسجد عندنا مستعد أن يحلف مكاني فابعث إليه ، ليطمئن هذا المدّعى !!

جحا التركى

كان نصر الدين خوجه أحسن الثلاثة حظًا ، لأن أدباء الأتراك قد اهتموا بجمع كل شاردة تنسب إلى جحا شرقا وغربا ثم نسبوها إلى جحا التركي ، لذلك نجد دائرة المعارف الإسلامية ، تذكر صريحة أن ما عُزِيَ إلى نصر الدين خوجه التركي إنما هو ترجمة لنوادر عربية قديمة كانت منتشرة بين الناس وتدور حول شخص من قبيلة فزارة بالكوفة يُدعى جحا ، وورد بعضها في الميداني وفي فهرس ابن النديم ، ثم تُرجمت جميعها إلى التركية ونُسبت إلى شخص يشك في وجوده .

هذا ما جاء في دائرة المعارف ، والصحيح منه أن أكثر ما نُسب إلى جحا الكوفي قد نُسب إلى جحا التركي ، والخطأُ الواضح منه هو الشك في وجود نصر الدين خوجه لأن تاريخه مسجل محفوظ ، وله قبر يزار في مدينة (آق شهر) .

وقد تلقَّى علومه الدينية بتوسع ، ثم عُين إمام مسجد ، يعظ الناس ، فاشتهر بالتقوى وذلاقة اللسان ، وشغل منصب القضاء في ضواحي قونية حتى مات سنة ٦٨٣ هـ ، والناس يتبركون به ، ويزورون قبره ، وقد انتهز خادم الضريح عقب وفاته إقبال الناس على الزيارة المتكررة ، فكان يدخل القبر من مكان خفي ، ويحيي الزائرين والزائرات موهما القوم أن الوليّ الدفين صاحب كرامات ، وأنه حي يتحدث في قبره ، ويتبع ذلك كثرة الزائرين ،

ومعهم النذور الوفيرة ، وبها يثري خادم الضريح .

وإذا كان الشك في ولاية جحا العربي للقضاء أمرا يتردد ، فإن ولاية نصر الدين خوجه لا تقبل الشك ، ومؤهلاته العلمية والخلقية ترشحه لذلك ، وإذا اعتقد الناس فيه الولاية والعلم في الحياة أفلا يكون من السهل الهين أن ينصب قاضيا .

ومن طرائفه أن بعض التجار من ذوي الحظوة لدى الحاكم أراد انتقاصه على رءوس الأشهاد ، فقال له : أنت قاض وعالم وتُخطيء في قراءة القرآن ، فقال جحا على البديهة : لقد أخطأت مرة واحدة ياسيدي إذ قرأت قول الله «وإن التجّار لفي جحيم» ، والآية تقول : «وإن الفجّار لفي جحيم» ، فصفق الحاضرون ، وذاعت النادرة .

وفي المجموعة المنسوبة إلى جحا التركي نوادر طريفة للرجل مع الطاغية الجبار تيمور لنك ، تزعم إحداها أنه ذهب لزيارة الطاغية ، فوجده يجلس مادّاً رجله لعاهة بها ، فجلس جحا غير بعيد ، ومدَّ رجله كما فعل تيمور لنك ، فصاح به الطاغية أنت حمار ، وهنا تقول النادرة : إن جحا أجاب بقوله ليس بيني وبين الحمار غير ذراعيْن ، وهما المسافة بين تيمور لنك وجحا ، فتعجب تيمور لنك من سرعة جوابه .

وتزعم رواية أخرى أن تيمور لنك ذهب إلى الحمّام مع نصر الدين ، وائتزر كل منهما بإزار ، وأخذا يستحمّان ، فقال له تيمور لنك : تعلم أني فاتح عظيم فإذا عُرضت للبيع

فبكم تشتريني ؟ فقال نصر الدين أشتريك بأربعين فلسا ، فقال تيمور : إن إزاري وحده يباع بأربعين فلسا يارجل ! فقال نصر الدين أردت شراء الإزار ، وما أفعل بمغولي مثلك !!

وثالثة أخرى من هذا الوادي ، وأنا لا أتردد في القول باختلاق هذه الثلاث ، لأن تيمور جبار لا يرحم ، وقد قتل مئات العلماء لهفوات يسيرة لا تتعلق بشخصه هو ، أفيصبر على من يطعنه في عظمته تارة ويصفه بالحمار ثانية ، والمجلس حافل ، والقوم شهود ! إن فقيها كبيرا طاحت رقبته بأمر تيمور لنك لأنه لم يُعلِن كفر معاوية !!أفيسكت الجبار عن هذا الهجو الشنيع ، ثم ماهي الصداقة العريقة التي تجعل فاتح البلاد غصبا يأذن لقاض متواضع أن يدخل معه الحمام ، ليستحما معا ، وأين الحاشية وكبار القواد والوزراء !

وإذا جاز لنا أن نشك فيما دار حول تيمور لنك من طرائف ، فلن نشك في ما يُعقل أن ينسب إلى جحا من المعقولات ، وليس الذنب ذنب نصر الدين فيما كتبوه عنه بعد رحيله ، ولكن الذنب لدى من اختلق الغرائب العجيبة ، واعتقد أنه يُسجل أحداث التاريخ ، وغرائب تيمورلنك .

هذه إلمامة يسيرة بتاريخ جحا الساخر ، على تعدد أشخاصه ، واختلاف مواطنه ، وتشابه غرائبه ، وفيها مجال للتحليل النفسي ، والتشريح الاجتماعي ، والنظر النقدي ، لمن يريد .

نجيب محفوظ ناقد مثقف

غدا الأستاذ نجيب محفوظ في إشراقه الأدبي مثالا نادرا للموهبة الأصيلة ذات الاطلاع الثقافي المثمر ، وقد اهتدى إلى طريقه الجاد في أول خطواته الفكرية ، فلم يتعثر في الشعاب المترامية مضطربا هنا أو هناك ، لا يتبيّن مشرق الضوء ، بل عمد إلى الهدف المنشود متئد السير ، نشيط الأمل ، لأن صاحب الفكرة المحددة يشعر بشتى الحوافز الدافعة مهما قامت الصعاب ، وإذا أدركته عوامل الشك اليائس ، فهي لا تُثنيه عن مسيره ، لأن الشك في منحاه الفكري أمر طبيعي لابد أن يحدث ، ولكن ريثما يتغلب عليه اليقين ، لقد فاجأ القراء في مطلع شبابه بمقالاته الفلسفية في المجلة الجديدة ، وهي تنحو المنحى الفلسفي وفق تخصصه الجامعي ، ولكن قارىء هذه المقالات يلمس شخصية الفنان كما يلمس شخصية الباحث ، بل إن كثيرا من هذه المقالات كانت سراجا يضيء للفنان حين يهتدي بعمق الدارس ، وبُعد غوره ، وفي إحداها رسم جيد لِخُطّتِه المستكنة في عالم الغيب ، وكأنه بما نشره بالعدد الثامن من المجلة الجديدة (أغسطس سنة ١٩٣٦) تحت عنوان (الفن والثقافة) يحدد موقفه حين يتساءل : أينبغي للفنان أن تبقى أعماله خالصة لوجه الفن بريئة عن التغلغل

الفكري ، أم يجوز له أن يطرق الموضوعات العقلية والأفكار الفلسفية !! ثم يُجيب على هذا التساؤل بأن الفنان إذا أراد باطلاعه الثقافي أن يزيد آفاقه وأن يهيىء لنفسه شعورا بالتسامي الفكري مُعبرا عن خواطره الذاتية في ضوء معرفته الهادية فإنه بذلك يخلص لفنه ، ويأتي في عالم الإبداع بما يعجز عنه سواه ، أما إذا أراد الفنان بالاطلاع الثقافي أن يشرح عن طريق فنه نظرياته العلمية فقد ضل عن غايته وتنكّب طريقه ، لأن الفن هو التعبير عن الشعور ، والشعور امتزاج للوجدان والفكر معا !

هذا لُبابُ ما اهتدى إليه نجيب محفوظ في خطواته الأولى ، وعلى ضوئه سار في إبداعه القصصي ، إذ كانت إحاطته الفكرية بدروب الفلسفة في شتى اتجاهاتها منارا يضيء له ظلمات النفس البشرية ، ويكشف له مسار التيار الاجتماعي في عالمه ، فهو يرى الأحداث بمنظار مكبر يُشهده أدق الخفايا ، ويهديه تلقائيا إلى البواعث الكامنة دون اعتساف ، لذلك كان الفنان الكبير ناقدا ممتازا ، وإذا كانت آراؤه النقدية سياسةً واجتماعاً ودينا ، مما يتسع المجال لتحليله في كتب مستقلة ، فإنّي في هذا المقال سأخصُّ أراءه الأدبية الخالصة ، بعيدا عن جو الابداع القصصي ببعض التعقيب ، لأن في هذه الآراء ما يساعد الناقد على الاحاطة بفكر هذا الفنان المبدع ، وهو فكر حي منير .

زعماء الأدب

كان نجيب في دور التكوين يعي كل الوعي ما يحيط به من تيارات فكرية ، ويخص باهتمامه زعماء الأدب في مصر ، إذ هم أقرب المُثُل الناهضة أمامه في ميدان الإبداع ، وكان ممن تصدروا القيادة الأدبية عباس محمود العقاد وطه حسين وابراهيم عبدالقادر المازني ومصطفى صادق الرافعي وسلامة موسى ومحمد حسين هيكل وعبدالعزيز البشري ! وطبيعيٌّ أن يقرأهم نجيب وأن يعرف اتجاهاتهم الإبداعية ، وقد اختار أن يتحدث عن ثلاثة بالذات هم عباس محمود العقاد وطه حسين وسلامة موسى حديث من نفذ إلى أدق الشعاب في نتاج هؤلاء ، ومن المعقول أن يُغفل نجيب الحديث عن الرافعي والبشري وهيكل ، ولكني عجبت كيف نسى المازني ، وهو رائد القصة حينئذ ، لأن الدكتور هيكل لم يصل الحبل بعد قصة (زينب) ، ونجيب قد يكون غير متفق مع اتجاه المازني التصويري في إبداعه الفني ، ولكن ذلك لا يعني عدم التأثر به في فن هو منه موضع الاحتفاء والاقبال ، أتراه خشى أن يقسو عليه بخلاف لا داعي لإثارته ، إن عهدنا بالمازني أن يحتضن مؤيديه ومعارضيه معا ! مهما يكن من شيء لقد تحدث نجيب عن العقاد وطه وسلامة حديثا جمع إلى إيجازه ما يراه من السمات الدقيقة لهؤلاء ، وقد بدأ بالعقاد فذكر أنه رجل البداهة ، ويقصد بها الفطرة البصيرة ، أو الاحساس

الصـادق ، أو الطبع السليم ممـا ينفـذ بـه إلى صميم الحقـائق ، وتلـك درجـة من الكمـال يبلغهـا الصـوفي باجتهاده ، ويحوزها الفنان بفطرتـه ! هكذا يقول نجيب ، ولا أدري لماذا لا يكون الصوفي ذا فطرة أيضا ، وتكون هذه الفطرة باعثة له على الاجتهاد الذي يصل به إلى مستواه ! والعقاد عند الناقد شاعر فنان قبل كل شيء ، فشعره ليس قشورا لفظية ، ولكنه معنى عميق نذوقه ونحسه ونعرف فيه روحا يكاد يتحرك ويتغير كلما قُرِيء ، والتجديد لدى العقاد ليس ثورة على القديم ، ودعوة للجديد ، ولكنه تحـرير للعقـل والشعور معـا ! اعقل بعقلـك واشعـر بشعورك ! ومثل هذ المبدأ يتناقض مع الدعوة إلى مذهب معين ، لأن الدعوة إلى هذا المذهب نوع من التقليد ! وهذا الفهم دقيق في بابه ، وصادق كل الصدق في انطباقه على العقاد ، ولكن أليس تحرير العقل والشعور معا ! مما يعتبر مذهبا خاصا ينتحيه العقاد ، ويعمل على تطبيقه ما استطاع فهو إذن صاحب مذهب معين ! وقد يريد الناقد بنفي المذهبية عن صاحبه ، عدم تمسكه بمذهب غربي محدد يتابعه خطوة ويصبح من حوارييه ! وذلك صحيح .

أما الدكتور طه حسين فهو رجل الذكاء في بساطتـه وسخريته ، ومن مظاهر هذه البساطة أنك تقرؤه فلا تعثر على كلمة شاذة أو فكرة غامضة أو جملة معقدة وإنما تفهم

ما يريد الكاتب وأنت مرتاح سعيد ، وليست هذه السهولة مما يدل على سهولة الموضوع أو على ابتذاله ولكنها أثر الذكاء الناقد ! وهذا حق في بعض مراميه ولكنه ليس كل الحق ، لأن الدكتور طه لا يُعالج من البحوث الدقيقة ما يعالجه العقاد ، بل يؤثر في أكثر اتجاهاته أن يكون أديبا فحسب ! ولذلك جاءت هذه السهولة الممتعة حقا ! أما إذا تغلغل في الظلمات الداجية فهذا مالا يلتئم مع منحاه ، ولذلك بقي سهلا عذبا .

والسخرية واضحة لدى طه حسين ، وهي كما يرى نجيب محفوظ في ماهيتها جمعٌ للمتناقضات عن طريق الإشارة الخفية واللمحة البعيدة ، وقوامها قوة الملاحظة ، والذكاء يؤدي إلى الشك ، والشك أساس البحث عند طه حسين ، وأقول : وعند سواه من قبل ومن بعد !

وسلامة موسى يمتاز عند الناقد بتفكير عملي ومن شأن هذا التفكير ألا يكترث كثيرا للنظريات ، وألا يركن إلى النظر المجرد ، والتأمل الفني ، لأن همّه منصب على الحياة وعلى الكمال في الحياة ، وأهم شاغل له هو الإصلاح الاجتماعي فله جولات كثيرة في سبيل التجديد المتنوع ، وتحرير المرأة ورقي الفلاح والعامل !! وهذا مسلَّم لاشك فيه ، ولكن القالب الذي يصب فيه الأستاذ سلامة موسى آراءه الإصلاحية ، ما سماته ؟ وما خصائص الأديب التي تُستنبط منه ؟ لقد سكت نجيب عن ذلك ، فبقي السؤال في حاجة إلى جواب .

العقاد والقصة

كان نجيب يتابع المعارك الأدبية بذهن ناقد ، ولحظٍ بصير ، وكان له رأيه الذي يحتفظ به لنفسه ، أو يدلي به لجلسائه دون أن ينزل إلى الجلسة ناصرا بعض الاتجاهات ، لأنه التزم بفنه الروائي التزاما جعله المسرح الأوحد لإيضاح آرائه ، وهو في اقتداره الفني يناقش أعقد الأمور وأدسمها في بساطة سهلة ، بساطة الحوار المتجاذب بين رفيقين يتسامران وفي أيديهما قدحا الشاي ! ولكنه اضطر إلى مواجهة العقاد مواجهة يقظة تحمل معنى التخطئة دون لبس ، حين وازن العقاد الكبير بين الشعر والقصة ، فأكد أنه لا يقرأ قصة حين يسعه أن يقرأ كتابا أو ديوان شعر ، لأنها ليست من خير ثمار العقول ، بناء على قضية جزم بها العقاد عن يقين ، وهي أنه كلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والإسفاف ، وما أقل المحصول وأكثر الأداة في القصص لأن خمسين صفحة من القصة لا تعطي المحصول الذي يعطيه بيت كهذا البيت :

وتلفتتْ عيني فمذ خفيت
عنّي الطلول تلفّت القلب

وأمثلة أخرى من الشعر استشهد بها العقاد .

هذا رأي العقاد ، وقد عورض من أقلام كثيرة ، ولكن

اكثر المعارضين كانوا يستشعرون هيبة داخلية تجعلهم يتحدثون في همس مهذب فلا يكادون يهاجمون الرأي حتى يشفعوا القول بتحفظ هو أقرب إلى الاعتذار ، ولكن نجيب محفوظ صمم على النقد الصريح دون جّمْجمة ، فبدأ نقده بتعريف للفن في شتى اتجاهاته ، مؤكدا أن الفنون جميعها تتفق في الغاية وتتساوى في السيادة إذ تعيش في وفاق تام لا يكدره مكدر ، ولكن العقاد عمد إلى دنيا الفنون المطمئنة ، فرمى بحيرتها الساكنة بحجر ثقيل كدرها تكديرا ، وهو في نظرته إلى القصة خصم لا حكم ، لأن القصة التي تتضاءل مكانتها في مكتبة العقاد تكون موضع الكراهية ، فالحكم إذن عن هوى .

أما اتخاذ الأداة والمحصول مقياسا للتفضيل ، فموضع المؤاخذة لدى نجيب لأنهما شيء واحد في كل فن رفيع ، ففي الشعر الجيد كما في الأداة الجيدة تتحد الأداة والمحصول ، وقد يكون هذا المقياس صالحا للتمييز بين الجيد والرديء ، في فن واحد ! ولكنه لا يصلح للموازنة والتفضيل بين فنين كالقصة والشعر ، وكأن العقاد بذلك يعد التفاصيل في القصة زيادة في الأداة ، وهي في جوهرها لا ترمي لمغزى موجز ، ولكنها صورة للحياة وفي كل جزء منها ما يمثل ناحية منها حرفا وكلمة وجملة ، ونمو القصة نتج عن نمو العلم ، لأن العلم هو الذي وجه الانتباه إلى الأجزاء والتفاصيل ، بعد أن اهتمت الفلسفة بالكليات !

أما قول العقاد : إن قُرّاء الشعر أرقى طبقة من قراء القصة ! فهو قول وجيه في الظاهر ، ولكنه لا ينتج شيئا هاما ، لأن الموسيقى تنتشر في جميع الطبقات ، والنحت لا ينتشر إلا لدى طبقة خاصة هي رواد المتاحف ، فهل يقال إن فن النحت أرقى من فن الموسيقى الذي لا يتذوقه غير القليلين .

هكذا استمر الأستاذ نجيب في دفاعه عن مكانة القصة ، وهو دفاع مؤيد بالمنطق الجاد ، ويخيل إليّ أن الناقد الكبير قد فهم أن العقاد يَهْوي بالقصة مستهينا برسالتها ، ولكن الواقع أن العقاد يقدر رسالة القصة ، وقد كتبها في أرفع مجالاتها التحليلية ذات العمق النفسي حين كتب قصة (سارة) ، ولكنه يوازن بينها وبين الشعر ، ليجعلها دونه فحسب ، لا ليجعلها تهوي إلى الحضيض ، والمسألة لديَّ ليست مسألة قصة وشعر ، ولكنها مسألة إبداع وافتتان ، فالقصاص الممتاز أفضل من الشاعر المتوسط ، والشاعر الممتاز أفضل من القصاص المتوسط ، فإذا اتفق الاثنان في جوهر الموهبة ، فهما على حد سواء ، على أن العقاد قد رد على كثير من معارضيه في هذه القضية ، ولم يشأ أن يُعقب على نقد نجيب ! وكأنه رآه أعز لديه من أن يقارعه الحجاج .

التصوير الفنى للقرآن

تولى الشهيد الأستاذ سيد قطب تحرير باب النقد في مجلتيّ الرسالة والثقافة أمدا غير قصير ، وقد حظيت روايات الأستاذ نجيب محفوظ باهتمامه الجاد ، وقطب رحمه الله كان ضنينا بالثناء لا يجازف به دون استحقاق ، وهي سمة أخذها عن العقاد ، وكان لها الأثر القوي في ذيوع فصوله النقدية ، واهتمام المثقفين بها ، حتى الكبار ممن تسنموا الصدارة الأدبية كانوا يتابعون ملاحظات الشهيد في يقظة واهتمام ! وحين أصدر كتابه (التصوير الفني في القرآن) فاجأ القراء بنمط غير معهود من أنماط التحليل القرآني ، ونجيب محفوظ لم يغفل عن الجديد الطريف في كتاب التصوير ، فكتب مقالا نقديا عنه ، في صورة خطاب وجهه إلى المؤلف الناقد ، يُصرح فيه بأن كتاب التصوير كان تفسيرا لهذا الذي نحس به دون ان ندرك مأتاه حين رأيت أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المجسمة المتخيلة ، عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، والحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذاً المعنى الذهني هيئة

وحركة ، وإذاً الحالة النفسية لوحة ومشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، وبعد هذا التمهيد الجيد توجه نجيب بسؤالين دقيقين للمؤلف ، أولهما أنه تحدث عن التصوير والتخييل والتجسيم والتنسيق الفني ، وكل أولئك روح البيان ولبابه قبل كل شيء ، أفلم يخطر للمؤلف أن يحدد نوع البيان القرآني في ضوء هذا الاتجاه ؟ أما السؤال الثاني فعن الفصل الذي خصَّه الشهيد سيد قطب للنماذج الإنسانية حيث استشهد بآيات كريمة تدل على الطبائع البشرية لا النماذج البشرية ، لأن النموذج الإنساني بمعناه العلمي أشمل من هذا ، إذ يحوي الكثير من الطبائع كما يحوي غيرها ، والنماذج الإنسانية محدودة معروفة ، أما الطبائع فلا حصر لها ، لعل المؤلف أراد الطبائع لا النماذج .

ولقد عقب عليها الشهيد بقوله : إن اختيار كلمة نماذج أقرب إلى ما يفهم من طبيعة التعبير القرآني حين يقول مثلا : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة ، انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾ ، وحين يقول : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويُشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل﴾ ، فقوله : «من

الناس» يعني «وفريق من الناس أو صِنْفٌ من الناس ، أو نموذج من الناس» .

وفي رأيي أن القرآن جمع النماذج والطبائع معا ، فهو في اللقطات القصيرة الموجزة يشير إلى الطبائع ، وهو في المشاهد المكتملة يشير إلى النماذج ، فقصة ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ تدل على أنموذج شاخص وآية ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ تدل على طبيعة محددة ! والأمر قريب من قريب .

أصول الترجمة

نجيب محفوظ يتسم دائما بالهدوء في حواره القصصي ، فقد يكون الموقف مما يتطلب الفرقعة الصاخبة ، ولكن القصّاص ما يزال به تلطيفا وتهدئة حتى تَخفُتَ بواعث الضجيج ، إلا إذا كان البطل شاذا لا حيلة للكاتب في تحويل مجراه ، فهنا تنبعث الضجة على لسان نجيب ، وكأنه في ذلك يسلم أمره لله ، أقول ذلك لأني شاهدت لدى نجيب الناقد موقفا ارتفع فيه صوته أكثر مما كان ينتظر من مثله ، فقد قرأ ترجمة مختصرة لكتاب (الوسائل والغايات) لألدوس هكسلي ، ولم يكن مترجمه الأستاذ محمود محمود ملتزما بالنص الحرفي ، ولكنه حذف واختصر ولخّص ، ونجيب ممن يحبون البحث الفلسفي ، ويزيد له حبا إذا كان كاتبه من طراز ألدوس هكسلي فما كاد يقرأ الترجمة المختصرة حتى انبعث على صفحات الرسالة ينحو باللائمة على الأستاذ المترجم ، ويقول إن روح الأمانة الدقيقة يجب أن تسود النص ، وبخاصة إذا كنا نستقبل نهضة علمية ذات تأثير ، والمترجم حر فيما يختار من الكتب ، ولكنه إذا اختار فلابد من أداء الأمانة على وجهها ، وإلا صار عمله افتياتا وتشويها ، ثم إنه حذف ثلاثة فصول ذكر أنها تتضمن مباديء هدامة ، وهي أشد فصول الكتاب خطرا باعتراف المؤلف الدوس هكسلي ! فكيف نحرم القاريء مما قال !؟

هذا لُبابُ ما قاله الأستاذ نجيب محفوظ ، وقد رد عليه المترجم الفاضل ، فذكر أن الترجمة في شتى اللغات إما أن تكون حرفية أو تكون ملخصة ، وقد اختار الثانية وأعلن عنها في مقدمته دون خفاء ، وقد كان مضطرا للاختصار مراعاة للحجم الذي لا يتجاوزه الناشر ، وليس المترجم ببدع في منحاه ، فالمترجمون الانجليز ينقلون عن اليونانية بتصرف شديد ، ولم يقل أحد إنهم تجنوا على الأصل .

وأرى أن نجيبا كان مثاليا فيما نشد ، وكان الأستاذ محمود محمود واقعيا ، وقد حذف الفصول التي تثير القاريء العربي المسلم ، وهو احتياط له ما يبرره ، وإذا كان القاريء لم يلم بجميع أفكار الكاتب ، فقد ألمَّ بالكثير منها ، وأحب أن أضيف أن الترجمة في البحوث العلمية تحتمل التلخيص ، ولكن الترجمة الشعرية والروائية لا تتحمل ، ومع ذلك فقد رأينا في الفرنسية والألمانية من لخص روايات شكسبير ، لأن شيئا أفضل من لا شيء .

مثل يحتذى

بعد هذه الشذرات الدالة ، نقرر أن نجيب العملاق أصبح مثلا يحتذى ، فهو بدراساته الفلسفية والعلمية قدم لروائيي اليوم مذهبا واجب الاحتذاء ، حيث امتلأت المكتبات بروايات لأسماء لامعة ، خاوية المغزى ، ركيكة العبارة ، ضيّقة الخيال ، وقد راجت أكبر رواج ، وتعددت

طبعاتها حتى ظن أصحابها أنهم على شيء ، ولِمَ لا يظنون ، والقصة - على تهافُتِها - تُطبع ، ويتكرر طبعها ، وتُعدّ للسينما ، وتُحوّر للمسرح ، والجمهور يقرأ ويشهد ، ثم لا تجد ناقدا يعترض ، أو جرسا يصلصل ، إن هؤلاء جميعا في حاجة إلى أن يأخذوا دروس الجدية الهادفة ، والكفاح الجاد ، عن عملاق سبّاق هو الأستاذ نجيب محفوظ .

تولوستوى وشعراء مصر

نال تولستوي أبعد حدود الحظ في ميادين الشهرة والثراء والأدب والإصلاح ، إذ نشأ فنانا موهوبا وَورِث المال والجاه عن أسرة نابهة ، وكتب القصص الرائعة ذات المرمى البعيد ، ونهل أفاويق السعادة زوجا ووالدا وعاشقا ، وكان المظنون بمن لقي حظوظه السعيدة أن تطرد حياته على نحو عذب هنيء ، ولكن الفنان الحالم قد امتزج بالمصلح الثائر في روحه امتزاجا أورثه الحيرة والقلق ثم قذف به إلى نار الألم حين أخذ يوازن بين حياته المترفة الناعمة ، وما يدعو إليه من إصلاح ديني واقتصادي ، إذ تعاظمه أن ينتشر البؤس القاتل في آلاف الأكواخ مسلطا أسلحته الفاتكة من فقر ومرض وجهل على السواد الأعظم بين الناس ، وأن يذوق هؤلاء غُصَصَ الحسرة القاتلة حتى يريحهم الموت ، على حين يخلد الكاتب الفنان إلى نعيم رافه يُغاديه بالسعادة ، ويرواحه باللذة والنشوة ، لقد وازن بين سعادته وشقاء من حوله فاعتصر الألم قلبه اعتصارا ، وصمم على أن يفرق أرضه وماله وقصوره على الجائعين العارين من ذوي الألم والمرض والحرمان ، فقام في وجهه أقرب الناس إليه ، ونفرت منه الزوجة وضايقته بما أنغر جراحه ، وسوّد عيشه ، ولم

يجد بدا من الفرار الهائم على وجهه دون هدف ، وهو يحمل أعباء الشيخوخة الواهنة ، تتقاذفه الخرائب والسبل حتى لفظ أنفاسه وحيدا في محطة قُروية لا يعلم أحد من ساكنيها من هو الميت الفقيد ! وكانت خاتمته رائعة مفجعة لفتتْ الناس في كل مكان إلى تضحيته الهائلة ، وجعلت منه مشعل طريق ، وقائد دعوة ، ولم تكن مصر العزيزة بمعزل عن ركب الإنسانية المتطلعة إلى مشارق النور حين أسفت مع الآسفين على رحيل الكاتب المصلح فقام شعراؤها وكتّابها بتأبينه وتعداد مواقفه ، وواسى الشرق أخاه الغرب في مأساة مصلح رائد حفظ حق القلم في الرعاية والتوجيه ، وأعطى المثل الحسن في التجرد والتسامي والإيثار !

لم تكن مصر إذن بمعزل عن حركات الإصلاح العالمي كما يزعم ظلما من يحاول أن يطمس لألاءها الساطع ، بل كان النابهون من أبنائها يواكبون حركات الإصلاح ، ويقدرون للمجاهد كفاحه ، ويعرفون للظالم خِسَّته وانحداره ، كانت مصر تنعم بأمثال محمد عبده وعلي يوسف وقاسم أمين وفتحي زغلول وأحمد شوقي وسعد زغلول من ذوي البصائر النيّرة ، والنهوض المتوثب إلى أرقى آفاق الحرية ! وكان محمد عبده رائد الإصلاح الإسلامي في مصر أول من توجه منهم إلى تولستوي بالتحية في حياته ، إذ أُعجب كثيرا بموقفه من الإصلاح الاجتماعي ورأى فيما كتب الكاتب الروسي عن المسيحية ما يعضد وجهته في الإصلاح

الديني ، فكتب إليه أن بني الإنسان ذوو رحم واشجة مهما تباعد المكان وأن ذوي الفكر من بني الإنسان طيور تصدح على شجرة متعددة الأفنان .

من محمد عبده إلى تولستوي

كتب الأستاذ الإمام إلى تولستوي يقول :

«أيها الحكيم الجليل :ـ

لم نحظ بمعرفة شخصيتك ، ولكننا لم نحرم التعاون مع روحك ، إذ سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ، ألّفتْ بين نفوس العقلاء ونفسك ، إذ هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر اليها ، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود ليَنْبت بالعلم ، ويثمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح اليه نفسه ، وسعيا يبقى به ، ويرقّي جنسه ، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنّةِ الفطرة ، ولما استعملوا قواهم ـ التي لم يُمنحوها إلا ليسعدوا ـ فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت إلى الدين فجرّحت حجب التقاليد ، ووصلت إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ماهداك الله اليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم اليه ، فكما كنت بقولك هاديا للعقول ، كنت حاثا للعزائم والهمم ،

وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون كان مثالك في العمل إماما يقتدى به المسترشدون» .

شعراء مصر

وتحليل خطاب الأستاذ الإمام يتطلب مجالا آخر ، فقد أوجز مناحي الإصلاح لدى تولستوي إيجازا يحتاج إلى تفصيل ، وحين مات الفنان الروسي بعد عشرة أعوام من خطاب الأستاذ الإمام ، ضجت عليه صحافة مصر ، فظهرت أنهارها تتدفق بمآثره ، وتجيش بفصول مؤثرة من كتاب حياته ، وقد ظهرت «الجريدة» بمقال افتتاحي كتبه محررها الاستاذ احمد لطفي السيد تحت عنوان (مات الرجل) فأحسن الإلماع إلى مواقف تولستوي في دقة ورصانة تُعهدان عنه ، وكان شوقي غير غائب عن فجيعة العصر في تولستوي ، فاندفع إلى رثائه اندفاع القادر البصير ، فجاءت مرثيته مع نبضها العاطفي وايقاعها الوجداني ، وشجاها الدامع الحزين ، جاءت قصيدته مع هذا كله تحليلا بصيرا لألمع الخوافي في حياة الراحل ، وجاء بها من الومض الكاشف ، واللمح الساطع ماكشف النور عن شعاب رحيبة تعمر آفاق تولستوي ! وشوقي أروستقراطي بنشأته ومنصبه ، ولكن روح الإنسان الراحم تترقرق في شعره ، فأنت إذا طويت مدائحه الرسمية ، ونظرت إلى معدنه الفني رأيت روح الإنسان

المعذب بمصائب البشر تصرخ في أعماقه ! هذه الروح هي التي دفعته إلى رثاء تولستوي حين لمح دموع الباكين من البائسين تنهمر خلفه ، وحين رأي الفلاحين في الأكواخ يتاوّهون على من أخذ بناصرهم حين فقدوا النصير ، ومن نطق بمآسيهم وعَمِلَ على محوها حين نادى بحقهم في الحياة السعيدة ، وهم في مجموعهم كما عناهم شوقي حين قال مخاطبا تولستوي :

ويندب فلاحون أنت منارهم
وأنت سراج غيبوه منير
يعانون في الأكواخ ظلما وظلمة
ولا يملكون البث وهو يسير

وقد كانت زوجة تولستوي بعض مآسيه ، ولكنها ندمت على ما أسلفت حين تلقّت منعاه ، فبكته بكاء حارا عبّر عنه شوقي حين قال :

ويبكيك ألف فوق (ليلى) ندامة
غداة مشي (بالعامريّ) سرير

وهي إشارة مهذبة تدل على ذوق أمير الشعراء ، وقد غاب مغزاها عمن انتقد شوقي فتساءل ؟ وما دخل ليلى وقيس هنا ؟ وكان عليه أن يتعلم قبل أن يتهكم ؟

ولم يفت أمير الشعراء اعتزازه بشعراء لغته ، إذ أحب ان يُقارن بين تولستوي وبين عظيم من ذوي الفكر

يُساميه ، فاختار أبا العلاء المعري اختيارًا صائبا ، فكلا الحكيمين قد عرك نوائب الدهر ، وتحمل مصائب الإنسانية بقلب باك ، وضمير ثائر ، وقد شاء شوقي أن يصف زيارة تولستوي لحكيم المعرّة في عالم الذكرى ، وأن يجري على لسان الحكيم الروسي اعترافا يقدمه لحكيم المعرة قائلا في تواضع :

إليـــك اعتـــرافي لا لقس وكـــاهنٍ
ونجـــواي بعـــد الله وهـــو غفـــور
فـــزهدك لم ينكـــره في الأرض عـــارف
ولا متعـــالٍ في السمـــاء كبيـــر
سلكت سبيـــل المتـــرفين ولذلي
بنـــون ومـــال والحيـــاة غـــرور
أداة شتـــائي الـــدفء في ظـــل شـــاهق
وعـــدة صيفي جنـــة وغـــديـــر
ومُتعت بـــالـــدنيـــا ثمـــانين حجـــة
ونضـــرَ أيـــامي غنى وحبـــور
تســـائلني هـــل غيـــر النـــاس مـــا بهم
وهـــل حـــدثت بعـــد الأمـــور أمـــور
أنـــاس كمـــا تـــدري ودنيـــا بحـــالهـــا
ودهـــر رخى تـــارة وعسيـــر
وَحِـرْص على الدنيا وميل مع الهوى
وغش وإفـــك في الحيـــاة وزور

لقد صار شوقي متشائما ! وكأن المعرّي قد أعداه بل كأن مأساة تولستوي حين هجر الأنس والصفو ولاقى الموت في مكان موحش قد أعدته بهذا التشاؤم ! وإلا فأمير الشعراء في كثير من قصائده متفائل ذو ارتياح وهو الذي عاتب المنفلوطي متسائلا في رثائه :

مَنْ شـوه الـدنيـا إليـك فلم تجـد
في الملك غيـر معـذبين جيـاع
مـا هكـذا الـدنيـا ولكن نقلة
دمـع القـريـر ، وعبـرة الملتـاع

وأهون ما يقال عن شوقي في هذا المجال إنه ينطق بلسان تولستوي لا بلسانه ، أو أنه كان في لحظات ضيق !

قصيدة حافظ ابراهيم

وما كادت قصيدة شوقي تتألق في الصحف حتى بارَاها حافظ بقصيدة قال في مطلعها مخاطبا تولستوي :

رثاك أمير الشعـر في الشـرق وانبـرى
لـمـدحـك من كتّـاب مصـر كبيـر
ولست أبـالي حين أرثيـك بعـده
إذا قيـل عني قـد رثـاه صغيـر
فقـد كنت عـونـا للضعيف وإنني
ضعيف ومـالي في الحيـاة نصيـر

وقد انتقد الكاتب الكبير الأستاذ علي أدهم هذا المطلع ، فقال : إن شاعر النيل بهذه الأبيات التي تنم عن شيء من الضعف ، وعدم الثقة بالنفس قد ظلم نفسه ، ويُخيّل إليَّ أن الأستاذ أدهم رحمه الله نسي أن حافظا قال هذه المرثية قبل أن يُوظف بدار الكتب ، وكان وجه الحياة كالحا في عينه فصدق التعبير عن نفسه حين قال إنه ضعيف ، وماله في الحياة نصير ، وإذا صدق الشاعر في تصوير عاطفته فكيف يُلام ؟ على أن أدهم أصاب شاكلة الصواب حين انتقد قول حافظ :

ولست أبـــالي حين أرثيـــك للورى
حـــوتْــكَ جنـــان أم حـــواك سعيـــر

لأن ذكر السعير هنا مستبشع ! وإن كانت قسوة أدهم في نقد البيت تدل على انفعال حاد لا نعهده في نقداته الصائبة ، وقد تابع شاعر النيل أمير الشعراء ، فأجرى لقاء بين تولستوي والمعري ، واندفع إلى جفافٍ ذوقيّ لم يقبله الأستاذ أدهم أيضا حين قال حافظ مخاطبا تولستوي :

إذا زرت رهن المحبسين بحفـــــــرة
بهـــا الـــزهـــد ثـــاو والـــذكـــاء ستيـــر

فقف ثم سلم ، واحتشم إن شيخنـــــا
مهيب عـــــلى رغمْ الفنـــاء وقـــور

فالأمر بالوقوف والسلام والاحتشام ! مما لا يجوز أن يُملي على تولستوي ! وقد كان شوقي أدرى بمقتضى الحال حين قال مخاطبا تولستوي :

إذا أنت جاورت المعري في الثرى
وجاور (رضوى) في التراب (ثبيرُ)

وأقبل جمع الخالدين عليكما
وغالى بمقدار النظير نظيرُ

جماجم تحت الأرض عطرها شذىً
جناهن مسك فوقها وعبير

ولكن حافظ قد تيقظ لنفسه بعد هذه العثرة ، وأجرى على لسان المعري من دقائق الحكم ما يعدُّ وليد نبوغ متأصل في فكر حافظ ، إذ شاء شاعر النيل أن يكون المعري واسع النظرة ، رحيب الأفق ، صادق البصر في غور الحياة إذ يراها حربا دائمة لأن سنة العمران توجب التناحر ، فالشر اصل أصيل في الحياة ولولا امتزاجه بالخير ما بعث الله النبيّين الهداة ، ولما انبعثت الهمم العالية إلى الإصلاح ، ولما عشق العلياء حر ، وساد كريم ، ورجا الثراء فقير ، فَرُبَّ نقمة تجلب نعمة وكم في طريق الطيبات من شرور ! هذه نظرات حكيمة وجهها المعري إلى تولستوي على لسان حافظ ابراهيم إذ هتف :

حياة الورى حرب وأنت تريدها
سلاما ، وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تناحرا
وكدحا ولو أن البقاء يسير
تحاول رفع الشر والشر واقع
وتطلب محض الخير وهو عسير
ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم
دليل على أن الاله قدير
ولم يبعث الله النبيين للهدى
ولم يتطلع للسرير أمير
ولم يعشق العلياء حر ولم يَسُدْ
كريم ولم يرج الثراء فقير
ولو كان فينا الخير محضا لما دعا
إلى الله داع ، أو تبلج نور
ولا قيل هذا فيلسوف موفق
ولا قيل هذا عالم وخبير
فكم في طريق الشر خير ونعمة
وكم في طريق الطيبات شرور
إذا هُدّمت للظلم دور تشيدت
له فوق أكتاف الكواكب دور !

وجريان الحديث على هذا النحو الرائع كان في حاجة إلى تتمة تؤكد ضرورة السعي في الإصلاح ، ولعل الذي دعا

شاعر النيل إلى إهمال هذه التتمة أنه يتحدث على لسان المعري ، وأبو العلاء متشائم يائس ، فلا يجوز أن يدعو إلى الخلاص من الشر في حياة يعتقد أنها بُنيت على الأكدار ! وللخروج من هذا المأزق كان على حافظ أن يُصدر حكما تاليا على حوار أبي العلاء ، يفتح فيه باب الأمل أمام المصلحين ، ولكن حالته النفسية التي أشرنا إليها من قبل ، حالت دون هذا التفاؤل ، وقد قال عن القصصي الروسيّ ما أوحت به عاطفته الذاتية ، وحسبه هذا .

أحمد نسيم

كان للشعر في الثُّلث الأول من هذا القرن صولة ظافرة ، فما يكاد شاعر من شعراء الصف الأول يبدع قصيدة في غرض مؤثر حتى يجاوبه غيره من ذوي الإبداع الشعري ، وهكذا بدأ شوقي وثنى حافظ ، ثم جاء أحمد نسيم ليحذو حذوهما ، ونسيم أقرب في منحاه الأدبي إلى حافظ منه إلى شوقي ، إذ كان يدور في فلك شاعر النيل ، وقد لقّب نفسه بشاعر الوطن حين رأى الصحافة المصرية تنعت حافظا بشاعر النيل ، كما كَبَا حظه حين مدح المستعمر في الفترة الأولى من عهده بالشعر ، ثم أدركه المتاب فأقلع عن خطئه ، واتجه وجهة الوطنية الصحيحة مخلصا صادقا ، والتاريخ لا يرحم إنسانا ، لأنه لسان الحق ، يحصي المثالب ويعدد المحاسن ، وحين نشر الشاعران رثاءيْهما في تولستوي ، انطلقت شاعرية نسيم تردد ماجاش بصدر صاحبها في هذا الموقف ، وقاريء نسيم يشعر أنه يحبو نحو حافظ حبوا دون أن يقترب منه اقتراب النظير للنظير ، وكان نسيم يعلم ذلك من نفسه ، وكأنه قلّد حافظا حين قال في مطلع مرثيته :

تُلستوي أبشر قد رثاك ثلاثة
صغيرهم في النابغين كبيرُ
ولولا النهى ماثار شوقي وحافظ
ولا كاتب جم البيان قدير

وما بينهم يوم الفخار تفاوت
فكل بما يثني عليك فخور

واندفع أحمد نسيم يسجل خواطره نحو المصلح الفنان ، وقد غضب لثورة خصومه ، وندد بمن قاوموا فكره الديني ومذهبه الاجتماعي ، وأنذرهم بعذاب قاصم ينزل بساحتهم بعد حين ، كما أعجبه ما حاوله تُلستوي من تقسيم ثروته على الفقراء ، وميله إلى الزهد طمعا في مساواة تشمل الناس جميعا ، وحديث نسيم عن الفيلسوف حديث المتأثر لا الدارس ، فليس له عمق شوقي ، ولا بُعد نظره ، وقد وسّع الشاعران جوانب الموضوع حين أدخلا المعري طرفا في قضية تولستوي ! وكان على نسيم أن يُبدع مثالا جديدا يُضيف إلى تراثه الشعري بعض الجدة ، فإذا عزَّه ان يجد الجديد ، فليتعمق حديث الشاعرين عن المعري ، ليستهدي به في توليد أفكار لم تُتَحْ إليهما ! ولكن الشاعر اكتفى بعفو الخاطر حين قال :

تلستوي هوّن إن ربك عادل
خبير بظلم الظالين بصير
فلولاك ما حنت إلى العدل مهجة
ولا كان للقوم الضعاف شعور
خرجت إلى الدنيا فعلّمت أهلها
إذا رغبت في السلم كيف تسير

فعــادوك لمــا رمت غيــر مــرامهم
وقــد أوغــرت منهم عليــك صــدور
فنم نــومــة تهــدأ الجــوانــح بعــدهــا
فخيــر بيــوت الــزاهــدين قبــور

وكانت خواتم القصيدة أقوى من مطالعها حيث دعا نسيم شوقي وحافظ إلى رثائه ، فهو في نظر نفسه دفين مقبور لا حي يتنفس ، والشاعر صادق في إحساسه إذ كان إبّان قوله هذا تائها ضائعا يعيش في كنف الأديب الكبير محمد ابراهيم هلال ، دون أن يجد بابا للرزق ، ثم واتاه الحظ بعد ذلك فعُيِّن بدار الكتب ، لذلك أجاد التعبير عن نفسه حين توجه إلى الشاعرين الكبيرين قائلا :

خليلي هــل جــل الأسى فبكيتمــا
جهــارا أم الخــطب الملم عسيــر
ألا فــارثيــاني في الحيــاة فــإنني
دفين ، وحــولي منكــر ونكيــر
حــطمت يــراعي وابتليت بــوأده
ولكنني رغم الخــطوب صبــور

لقد عاش تلستوي في أذهان الصفوة من شعراء مصر ، كما عاش في ذهن شاعر مجيد لم يكتب عنه قصيدة ، ولكن ألّف عنه كتابا كان أجمل ما صدر في العربية عن هذا الرجل العظيم ، ذلك هو الشاعر الكاتب المؤرخ الفقيد الأستاذ محمود الخفيف !

زعماء مصر
بين العقاد وعبدالرحمن الرافعى

كتب الأستاذ عبدالرحمن الرافعي تاريخ مصر الحديثة في مجلدات حافلة ، وجدت طريقها إلى القراء في يسر وترحيب ، وقد ذكر المؤرخ الكبير أنه لقي عناء شديدا في تأليف هذه الموسوعة وفي طبعها ، أما من حيث التأليف فقد قدر عليه أن يكتب تاريخ الأسرة الحاكمة ، وهي لا تزال صاحبة الأمر والنهي وضميره العلمي لا يسمح له أن يتنازل عن تدوين الاخطاء ، فكان ذا شجاعة حاسمة في مواجهة الموقف الدقيق ، ولم يكن كغيره ممن ملئوا جيوبهم وخسروا نفوسهم ، وأما مِن حيث الطباعة فقد ظل المؤرخ اكثر من عشرة أعوام يقوم بالنفقات من ربحه المهني مضحيامحتسبا ، حتى أذن الله ، والتفتت مكتبة النهضة إلى مكافأته فأزاحت عن كاهله ما يرهقه ، وانتشرت الطبعات المتعددة لأجزائه المتتالية ، فكانت دليلا حاسما على مثوبة الجهاد ، وعاقبة الصبر ، ونحن نعلم أن الرافعي أراد باديء ذي بدء أن يكتب تاريخ الزعيم الوطني مصطفى كامل ، فبحث في الأصول الهامة لتاريخ صاحب اللواء فوجد حركته القومية تمتد بجذورها البعيدة إلى عهد الحملة الفرنسية ، التي تعد المحاولة الأوروبية الأولى

لاحتلال مصر ، فلابد من متابعة هذه الجذور في نموها الطبيعي بدءا من غزوة نابليون ومرورا بمحمد علي وخلفائه حتى يأتي زمان مصطفى كامل ، والرحلة شاقة عسيرة ، فلابد من التضحية بالجهد والوقت والمال حتى يصل صاحبها إلى ما يبتغيه ، وقد انفرجت الساحة بعد مصطفى كامل إلى حيث توالت جهود محمد فريد وزعماء الثورة المصرية وما أعقبها حتى ثورة يوليو ، وكُتُبُ الرافعي ذائعة لامعة ، وليس من همنا الآن أن نتحدث عن منهجها العلمي ، ولكننا نمهد بما قدمناه ، لحديثنا عن وجهات النظر المختلفة أحيانا ، والمتفقة حينا بين عبدالرحمن الرافعي وعباس محمود العقاد .

والحق أن الوقوف المتئد أمام مؤرخ مصطفى كامل ومؤرخ سعد زغلول ، مما يفسح مجال النظر الشامل للجوانب المتعددة ذات الوجوه المختلفة ، وهو في الوقت نفسه يكشف عن طبيعة مستترة في خُلُقِ العقاد قد تخفى على بعض دارسيه ، فقد عُرف عن العقاد عنف المناظرة ، وسطوة الصّيال ، حتى حُسب هذا العنف خَلّةً ذاتية لديه لا محيص عنها ، والحق أن العقاد لا يلجأ إلى العنف إلا حين يلمس من معارضه شططا والتواء ، فهو حينئذ يرمي بالقفاز في وجهه ليصارعه في ميدان النقاش صراع الأسد الجموح ، أما حين يأنس في معارضه نزاهة المقصد ، وخلوص السريرة ، واستقامة الرأي ، فهو حينئذ يبادله

الحجة في هدوء ، ويخالفه في سماحٍ رحب ، بل ربما التمس له من العذر ما يُقيم له وجه السداد فيما انتحاه ، ونحن نعلم مكانة سعد لدى العقاد ، ونعرف أن الرافعي قد نال من سعد بما لا يطيق أن يصبر عليه العقاد ـ كما سنلم بذلك عن قريب ـ وكان المظنون بالعقاد أن يرتفع صوته بالضجيج صاخبا ، ولكنه عرف خلوص النية لدى الرافعي ، فناقشه بالتي هي أحسن ، وقرأ الرافعي ما كتبه صاحبه ، و آثر الصمت بعد أن كتب ردا طواه ، وحفظته اوراقه الخاصة في مكتبته ، ولعله عرف أن النشر من جانبه سيُعقب الرد السريع ، والعقاد هو العقاد ، فالصمت اولى ، وليس معنى هذا انه توقع الشطط من مناظره ، فقد عرف عنه الاعتدال معه في النقاش ، ولكنه أخذ بالحزم دون العزم .

مصطفى كامل

ونبدأ بالحديث عن مصطفى كامل ، فنذكر أن الرافعي كتب عنه مؤلفا رائعا كان أنشودة حب ، ونفحة وفاء ، لأن عبدالرحمن طالب مدرسة الحقوق قد اتصل بالزعيم الشاب ، وظفر بتشجيعه ، وفسح له مكانا طيبا بجريدة اللواء ، ولن يعيب كتابه أن يصدح بمآثر مصطفى ، فلابد لمن يكتب الترجمة التاريخية أن يتغلغل إلى سرائر صاحبها ، كما أن تعاطفه معه أدعى إلى تفهم بواعثه ، واستشفاف مراميه ، ولن يُصبح مصدر خطر على الحقائق إلا عند من تدفعهم العاطفة الجامحة إلى تناسي الحقائق ، وتلفيق الأوهام ، وما هكذا كان الرافعي .

وقد استقبل العقاد كتاب الرافعي عن مصطفى كامل استقبالا رصينا أمينا من وجهة نظره ، فبدأ حديثه بتقدير المؤلف الكبير فهو في رأيه جدير أن يسمى بحق مؤرخ النهضة القومية الحديثة إذ تابعها في أدوارها المتتالية ، ونهجه في كتابه عن الزعيم شبيه بنهجه في الكتب السابقة من حيث الطريقة والوجهة ، فهو يتتبع الحقائق ، ويستقصي ما احتاج إليه من الأسانيد وينصف في الحكم على الرجال والحوادث مع ميل يسير إلى تخفيف التبعات ، أو تجميل المحاسن في بعض الجوانب ، وسهولة في التعليل

والتعليق لا تَثْقُلُ على ذهن القاريء ، ولا تكتفي مع ذلك بالظواهر دون ما يلازمها من الأسباب والعواقب .

وهذا الكلام من العقاد يدل على إنصاف معتدل ، فالناقد الكبير حين يقرر أن الرافعي متتبع مستقص منصف لا يترك منفذا للّوم ، كما أنه حين قال إن الرافعي ذو سهولة في التعليل والتعليق لا تثقل على ذهن القاريء ، ولا يكتفي مع ذلك بالظواهر دون البواعث قد صدم من حاولوا أن يجعلوا من كتب الرافعي مجرد أحداث جمعت من الصحف والوثائق ، لحاجة في نفوسهم لأن العقاد أدرى منهم بالحكم حين يرى غير مالا يرون ، وهو يعرف مناخ كل مؤرخ ومواضع ارتفاعه وانحداره ، وليس ذا تعسف مريض .

ولكنه قرر في وضوح أن المؤرخ لم يتحدث عن موقف مصطفى كامل من الخلافة العثمانية إذ كان الزعيم الشاب ـ وقد وصفه العقاد بأنه زعيم الوطنية في عهده ـ مِن أنصار السيادة التركية ، مع الاستقلال الداخلي لمصر ، وقد كان الإنصاف التاريخي يقضي ببيان هذه الحقيقة ، ولا يمنع المؤرخ أن يفصل أعذار المعتصمين بالسيادة العثمانية في ذلك الحين ، بل يوجب عليه أن يذكر هذه الأعذار ، وأن يذكر معها صواب المخالفين ، ولكن الرافعي قد أغفل الموضوع كل الإغفال ، ولو تحدث عنه لأقر الحقائق في نصابها ، وأتاح للقاريء أن يُلم بمعاني الحركة الوطنية من جميع نواحيها ، وأن يستخرج العبرة المقصودة

بالتاريخ من صواب أو خطأ لكل فريق ، وما من فريق واحد ،لديه كل الخطأ أو الصواب !

هذا ما قاله العقاد ، وحين نقرر أن حديثه عن موقف الزعيم من السيادة التركية حق لا شبهة فيه ، نقرر من ناحية ثانية أن مصطفى كامل كان يحارب انجلترا ، ويراها العدو الأول لمصر ، مستندا إلى معاهدة سنة ١٨٤٠ التي قررت حق الخديوي الممثل للسيادة المصرية في نطاق السيادة العثمانية ، وهو بذلك يريد أن يضمن تأييد الخلافة له في مواجهة بريطانيا ، لأن بريطانيا نفسها سعت إلى تأييد الخلافة لها في مجابهة الثورة العرابية ،لتضمن ما تتوهمه من كسب عالمي وداخلي ، فإذا رأى مصطفى ألا يحارب في جبهتين مختلفتين في موقف واحد ، فله وجهة نظره ،كما أن تركيا حينئذ لم تكن ذات تدخل فعلي في شئون البلاد بل كان الأمر كله في يد المعتمد البريطاني ،كما كانت العلاقة الاسلامية بين مصر والخلافة الإسلامية ذات قوة ونفاذ ، فهي أَوْلَى أن تكون سلاحا حاسما في خصومة المحتلين ، هذه وجهة نظر مصطفى ، وأعرف أن العقاد يدركها تمام الإدراك ، ولكنه في مجال التاريخ لزعيم الوطنية في عهده يرى من الضروري أن يُلم الرافعي بها ، وأن يذكر مبرراتها وعذر المعتصمين بتركيا ، ووجهة نظر المخالفين ،ليتم التاريخ الحقيقي للزعيم الشاب على وجهه الصحيح .

سعد زغلول

كان الرافعي أحد أقطاب الحزب الوطني ، وللحزب نظرته السياسية لمن يخالفه في الاتجاه ، ولم يكن سعد زغلول في أكثر أحواله موضع الرضا من زعامة الحزب أيام مصطفى كامل ومحمد فريد ومن تلاهما ، وقد رحبت اللواء بسعد زغلول حين تولى وزارة المعارف ، ولكن سياسته المعتدلة كانت موضع نقد لدى المتشددين ، وفي مجال التاريخ السياسي لمصطفى كامل تعرض الرافعي لسعد ليُحصي عليه أشياء ، يراها العقاد بعيدة عن الصواب ، والرافعي ليس وحده صاحب هذه النقدات ، ولكن نفرا من خصوم سعد دأبوا على نقده قبل زعامته للثورة وبعدها ، وليس سعد العظيم فوق النقد فهو سياسي ماهر ، يخطيء ويصيب ، وإذا كانت عين الرضا عن كل نقد كليلة فإن عين المراقبة ولا أقول عين السخط قد دفعت الرافعي إلى تسجيل وجهة نظره في سعد حين كان ناظرا للمعارف أيام مصطفى ، وحين تزعم الثورة المصرية في عهده الأخير .

ففي عهد نظارته للمعارف أخذ عليه الرافعي في كتابه عن مصطفى كامل أنه انسحب من رئاسة الجامعة المصرية تحقيقا لرغبة الاحتلال كي يحبط المشروع ، كما أنه دافع عن سياسة الاحتلال في التعليم حين أحل اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية .

وفي عهد زعامته للثورة المصرية ذكر الرافعي في تاريخها أن سعدا لم يكن الحافز الدافع لها ، وأنه لم يطلب الاستقلال التام في أول الأمر ، وهذه المآخذ لم تجد ارتياح العقاد فهبَّ لتفنيدها ، وقد تحدث أكثر من مرة عن خطأ الرافعي فيما حاوله من انتقاص سعد ، وكان مقاله الصادر بجريدة الأساس ٢٨/١٢/٥١ من أجمع مادار حول هذا النطاق ، وقد جاء بجريدة الجمهورية الصادرة في ١٣/٢/١٩٨٦ أن الرافعي رحمه الله كتب ردا على مقال العقاد ، وُجِدَ في مسودته ، وقد كتب عليه «لا داعي لنشره» ، وإذا لم يجد الداعي للنشر فلماذا كتبه إذن ؟! لعله حذر صيال العقاد ، وهو في هذه الناحية ذو منطق وبرهان .

يذكر العقاد بصدد النقد الأول أن ولاية سعد لوزارة المعارف لم تكن إجحافا بالجامعة بل كانت خدمة لها من الوجهة المادية والأدبية لأنه فتح لها في الميزانية اعتمادا بعشرة آلاف جنيه وهو مبلغ ذو قيمة آنذاك ، ولولا هذه الخدمة المادية ما استقام للجامعة وجود .

أما الخدمة الأدبية فهي اعتراف الحكومة بشهادات الجامعة الأهلية ، ولولا هذا لانصرف الطلاب عنها وأصبح شأنها شأن أندية المحاضرات ، وإذا كان سعد قد انتقد نظام الجامعة فهو انتقاد الغيرة عليها ، والحرص على كمالها ، إذ كان يريدها معهدا للمتخصصين الذين يبتكرون ولا يقلدون .

أما أن سعدا قد اعترض التعليم باللغة العربية فهو زَعْمُ لا أصل له ، لأن سعدا هو الذي أوفد عشرات الطلاب إلى أوربا ليعودوا إلى مدارس مصر فيعلِّموا التلاميذ باللغة العربية ، والذي يقول إن نقل التعليم من لغة إلى لغة لا يتم في يوم واحد لا يُحارب لغة بلاده ولكنه ينتظر من يستطيع التأليف باللغة العربية والتدريس بها قبل تقرير التعليم باللغة العربية ،. وما نظن خبيرا يمتري في ذلك !

أما النقد الخاص بموقف سعد من الثورة فقد عجب له العقاد ، لأن فضل سعد في ثورة ١٩١٩ لا ينكره أحد بدليل معقول ، لأن الأمة بغير زعيمها لا تعرف كيف تتحرك ، بل إنها تحار وتضطرب مالم تتفق على زعيم يملؤها بالثقة والرجاء ، وتشعر بقيادته شعور اليقين والإيمان ، وقد كان سعد هو الزعيم المنقذ ، وقد عَرفت الأمة المصرية ذلك في أعماق وجدانها فكان اسم سعد على كل لسان ، وملء كل ضمير ، وعجيب أن تتفق الأمة على الإيمان برجل ، ثم يقال إن الرجل لم يعمل شيئا ، وإن ما عمل كان خليقا أن يتم على غير يده ، أما أن سعدا وإخوانه لم يطلبوا الاستقلال التام ، فهو أعجب ما يُكتب في تاريخ الثورة لأن مقابلة سعد وزملائه للمندوب البريطاني قد تمت في الثالث عشر من نوفمبر بعد إعلان الهدنة بيوم واحد ، وقد رواها المؤلف وذكر أحاديثها ، وفيها إصرار على الاستقلال التام ! وكلام العقاد صائب سديد .

أحمد عرابى

كان مصطفى كامل قاسيا أشد القسوة حين هاجم أحمد عرابي ، ودمغه بالخيانة على صفحات اللواء ، ولم يكن من المنتظر أن يصدر هذا العنف الظالم من زعيم مخلص يعرف أقدار المجاهدين ، ولنفرض أن أحمد عرابي قد تورط في مدح الانجليز بعد رجوعه شيخا محطما مكدودا من منفاه ، وأن الزعيم الشاب قد استاء من هذا المدح ، أفما كان الأجدر به أن يتعمق البواعث النفسية التي دفعت الرجل الأعزل المضطهد إلى محاولة العيش في سلام بعد أن ذاق بلاء النفي والتشريد والمرض والشيخوخة ! وإذا كان عرابي خائنا في منطق مصطفى كامل أيكون وطنيا في منطق الاحتلال ، مهما يكن من شيء فإن عبدالرحمن الرافعي لم يَخْلَصْ من تأثير مصطفى كامل حين تحدث عن الثورة العرابية ، فأخذ يبحث عن المساويء بحث المتتبع الحريص ، وقد تكون مساويء في رأيه فحسب ، وقاريء ما كتبه عن أحمد عرابي بالذات يلمس ما يشبه التناقض ، فالرافعي في حديثه عن مقدمات الثورة وأسبابها يقول عن زعيمها الباسل : إنه كان في مقدمة هذه الأسباب فهو الذي بث في نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور ، وكانت

هذه المطالب فاتحة الثورة ، فهذه الجرأة كان لها أثر كبير في ظهور الثورة ولو لم يظهر عرابي ، ولو لم تكن له تلك الشخصية التي اجتذبت إليه صفوف الضباط ، وبثت فيهم روح التضامن والإقدام لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية أو لظهرت في زمان آخر .

فإذا انتقلنا إلى ما كتبه الرافعي تحت عنوان لماذا أخفقت الثورة العرابية فإننا نجده يقول : ولو كان على رأس الثورة قائد كفء لتغير مصير الوقائع الحربية بها ، ولكنها مع الأسف لم توفق إلى قواد أكفاء ... ثم ينعي على الزعماء قلة البطولة والتضحية فعرابي ذاته لم يشترك في المواقع الحربية ثم سلّم نفسه للانجيز ، وكان مع زملائه قدوة سيئة في الخضوع والاستسلام والضعف النفسي .. إلى آخر ماينحو هذا المنحى .

وقد تحدث العقاد عن الثورة العرابية في كتابه (١١ يوليو وضرب الاسكندرية) فأنصف عرابي وأشاد ببطولته ، وقال : إن الجيش المصري لعهده لم يوجد به من هو أقدر منه ولا أحق منه بعرض مطالبه والدفاع عنها ، وقد استمر يقاوم في ميدان الدفاع بما عنده من وسائل المقاومة إلى ما بعد ضرب الاسكندرية ، ولم يكن نجاحه في صد الجيش الانجليزي ميئوسا منه ، بل كان على نقيض ذلك أملا راجحا ، لولا الأوامر التي صدرت بمساعدة الجيش الانجليزي ، ولولا خيانة المأجورين على هداية ذلك

الجيش في دروب الصحراء ، ولولا إعلان السلطان عصيان عرابي بإلحاح من الانجليز ، فمن شاء أن يلوم عرابي فليلمه لأنه طلب الإصلاح وتعرض للانتقام ، أو فليلمه لأنه رفض الدسائس والذرائع المختلفة من الدول الأجنبية وليقم الدليل القاطع على أن الخير في ذلك الملام» .

هذا قول العقاد في عرابي ! ولم يسقه في مجال الرد على الرافعي ، ولكنه في موضع آخر لم يغفل مواجهة الرافعي معارضا منحاه في الحديث عن الثورة العرابية حين ذكر في مقالة بجريدة الأساس أن المؤرخ الذي يعلم عواقب الحوادث بعد زمانها يجب أن يذكر أن المشتركين فيها لم يعلموها ، ولا يجوز لنا أن نطالبهم بعلم الغيب أو السيطرة على منافذ القضاء ، وليس للمؤرخ الذي يعيش في القرن العشرين فَضْلٌ في علمه بما انتهى إليه الأمر في القرن التاسع عشر ، فإنه لو عاش مع أبناء القرن التاسع عشر لصنع كما صنعوا ، وتوقع الحوادث كما توقعوا .

ثم قال العقاد : «فالأستاذ الرافعي قد عقّب على الثورة العرابية ، وما قبل الثورة العرابية ، فلام أُناسا لأنهم عملوا ، ولام أناسا لأنهم لم يعملوا ، ولم يُدخل في حسابه قط أنهم يستطيعون أو لا يستطيعون» .

الحق أن العقاد كان قاضيا عادلا في حكمه السديد .

محمد فريد

جهاد الزعيم محمد فريد كان موضع الدهشة البالغة لدى كل دارس ، لأن المجاهد الشهيد قد ارتفع بفدائيته إلى مستوى القداسة ، وهنا نجد الرافعي والعقاد معا لا يختلفان في تقدير قداسته الرفيعة ، وإذا صار الرجل قديس الوطنية لديهما فإن كل ما يقال عنه يتضاءل في تسجيله إذا قيس بحقيقة واقعهِ ، وقد أصدر الرافعي مجلدا حافلا ينطق بأمجاد هذا الصابر المحتسب الفدائي المضحّي بنفسه والجاه والمال والصحة ، والأسرة في سبيل مصر ، كما رثاه العقاد بقصيدتين أولاهما تعد من أعظم ماجاء في دواوين العقاد من شعر ، بل من أعظم ما نضج به فكر العقاد شعرا ونثرا ، وقد رحب العقاد بكتاب الرافعي عن محمد فريد ، وخصَّه بافتتاحية في صدر مجلة الرسالة قائلا إن الوطنية المصرية لم تعرف من زعمائها من هو أحق من فريد بلقب القديس الوطني ، لأن فداءه البالغ لا مجال للخلاف فيه ، فقد ترك الوظيفة الرفيعة والجاه العالي والمال الوفير ، واللقب اللامع ، واحتمل مكايد السلطان العثمان ، والخديوي المصري ، والمعتمد الانجليزي في شجاعة ومقاومة ، وبلغ الذروة العليا من المفاداة حين واجه الموت البطيء أَنَفاً من أن يواجه التسليم ، فقد ثقل عليه الداء في أوربا ، وضائقة العالم بعد الحرب محكمة ،

وليس أثقل من مرض وغربة وفاقة وشقاء بعد صحة ودعة ويسار وقدرة على التنقل بين الأجواء ، فأثر التلف البطيء الذي لا تخفى غائلته ، ولا تخفى عقباه ، على أن يشتري السلامة بالخضوع والتسليم !

وهكذا اتفق الرافعي والعقاد كل الاتفاق في تقديرهما لفريد ، واختلفا في تقدير غيره ، ولن تطلب الحقيقة من كاتب واحد ، ولا من كتاب واحد ، ولكنها تطلب بعد الاطلاع الشامل ، والموازنة البصيرة بين الآراء المتقابلة ، والتنزه عن الهوى ، ثم لا مانع من الاختلاف بعد ذلك كله ، فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين .

من أسرار العلائق
بين شوقي وشعراء عصره

نصان مختلفان :

قال الاستاذ طاهر الطناحي في كتاب (حياة مطران) بصدد الحديث عنه وعن زميليه شوقي وحافظ : «كان الأدب بين الشعراء الثلاثة أقوى في رابطته من النسب ، ولم نجد أهل صناعة واحدة ، أو فن واحد ، ارتبطوا برباط المودة والمحبة ، كما ارتبط شوقي وحافظ ومطران ، فلم نسمع يوما أنهم تنازعوا أو اختصموا أو انتقد بعضهم بعضا نقدا جارحا ، أو قال أحدهم في صاحبه ما يسيئه ، أو ما يضعف مودته على ماكان بينهم من اختلاف في التعبير والأسلوب»[١] .

قرأت هذا الكلام ، فوقفت عنده طويلا ، لأني أعرف من قراءاتي الكثيرة ما يعارضه ، بل إني قرأت للأستاذ طاهر الطناحي نفسه في كتاب (شوقي وحافظ) بعض ما يعارضه ، ثم مضيت في قراءة كتاب (حياة مطران) فرأيت الأستاذ الطناحي ينقل عن الأستاذ عباس محمود العقاد مقالا عن العلاقات بين الشعراء الثلاثة يقول فيه :[٢]

---

(١) حياة مطران للطناحي ص ٣١٥

(٢) حياة مطران للطناحي ص ٣٣٦

«تزاملوا مدى الحياة ، ولكنهم لم يتصادقوا جميعا في غير حدود المجاملة ، إذ حالت المنافسة بينهم دون اتصال الصداقة القلبية على أتمها وأصفاها ، ولكنها كانت منافسة في غير الشعر ، وغير الشهرة الأدبية ، لأن ميدان الشعر العربي قد اتسع لهم ، وظل متسعا لهم ولمن بعدهم مدى الحياة إلى أن قال :

«وكثيرون من أبناء هذا الجيل لم يسمعوا بتلك الشفويات المتبادلة بين شاعر الأمير ، وشاعر النيل مما يُنقل ويُروى ، ولكنه لا يُطبع ولا ينشر ، وأصلحه للنشر من قبيل قول شوقي :

وأودعت إنسانا وكلبا وديعة
فضيّعها الانسان والكلب حافظ

أو قول حافظ :

يقولون إن الشوق نار ولوعة
فما بال شوقي أصبح اليوم باردا

ومضى العقاد في نحو ذلك .... وقد رأيت أن أُشير إلى أسرار من العلاقات بين شوقي وأنداده من كبار شعراء العصر ، تصلح مجالا للدراسة النفسية لدى من يهمهم أن يحيطوا بالحياة الشعرية في بعض نواحيها ، وأن يفسّروا بعض ما يقرءون على وجهه الصحيح .

بين شوقي وحافظ

كان حافظ ضابطا بالجيش المصري في السودان ، وقد ضاق بمقامه البعيد ، ورأى من مضايقات الانجليز ما وتَّر اعصابه وأزعج مشاعره ، فكتب يستغيث بالأستاذ الإمام - رسالة مأثورة يعرفها أكثر الأدباء ، ثم جدَّ من الأحداث ما أوجب فصله ، ورجوعه إلى القاهرة ، تسبقه شهرة بالشعر تجعله في طليعة شبابه الناهضين من تلاميذ البارودي ، وكان حافظ معجبا بشوقي ، يراد شاعر الشباب المرموق ، وصاحب الحظوة لدى الأمير ، فأخذ يتقرب إليه منوها مباهيا ، وجعل ينشيء المدائح في عباس مشيدا بعبقرية شوقي ، ليجذب قلبه اليه ، فهو في مطلع قصيدةٍ عباسيةٍ يقول مهنئا بعيد جلوس الخديوي ، ومجردا من نفسه شخصا يخاطبه :

ماذا ادخرت لهذا العيد من أدب؟
فقد عهدتك رب السبق والغلب
لم يُبق أحمد من قول أحاوله
في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب

ويقول في مطلع قصيدة ثانية مهنئا بعيد الفطر :

مطالع سعد أم مطالع أقمار
تجلّت بهذا العيد أم تلك أشعاري

الى سـدة العبـاس وجهت مـدحتي
بتهنئـة شـوقيـة النسـج معـطار

ويقول في قصيدة ثالثة وقد رصدت جائزة شعرية للفائز الأول من الشعراء :

قـل لـلألي جعلوا للشعـر جـائـزة
فيم الخـلاف ألم يـرشـدكم الله؟
إني فتحت لهـا صـدرا تليق بـه
إن لم تحلوه فـالـرحمن حـلّاه
لم أخش من أحـد في الشعـر يغلبني
إلا فتى مـالـه في السبق إلّاهْ
هـذا الـذي حكمت فينـا بـراعتـه
وأكـرم الله والعبـاس مثـواه

وكان المظنون في منطق حافظ أنه بعد هذ التنـويه المتكرر ، سيصبح صديقا حميما لشوقي ، وسيفتـح له القصر أبواب ترحيبه ، ولكن الجرائد أخذت تطلق على حافظ شاعر النيل ، وأخذ شعره في مقاومة كُرومر وأذنابه يتردد على الأفواه ، بينما لا يستطيع شوقي أن يجاريه في محاربة الاحتلال لصلته بالقصر ، وكل ذلك قد أزعج شوقي حقيقة ، فجعل يحول دون توطيد العلائق بين حافظ وولي الأمر ، واتخذ من صلته بالأستاذ الإمام دليلا على انحرافه عن عباس ، وأحسَّ حافظ بما يقوم به غريمه ، وفي حافظ ـ

أيام شبابه ـ حميةٌ وانفعال ، فبرح به الغيظ ، وأعلن هجاءه الصريح لشوقي في مدحة عباسيّة ، ذكر فيها أنه صاحب اللآلِيء الفريدة في الشعر ، وأن الحاسد الشانيء ـ يريد شوقيا ـ قد هاج هائجه حسدا ، وأنه رام مكانة حافظ ، فلم يظفر بشيء ! وهذا يُناقض ما سلف أن أشاد به في المدائح السالفة ، ولكن أوار الغيظ قد احتدم في نفسه ، لاهبا ، فرأى أن ينفّس عنه بمثل قوله في عيد الجلوس :

يا عيد ليت الذي أولاك نعمته
بقرب صاحب مصر كان أولاني
صغت القريض فما غادرت لؤلؤة
في تاج كسرى ولا في عقد بوران
شكا عمان ، وضج الغائصون به
على اللآلي ، وهاج الحاسد الشاني
كم رام شأوي فلم يدرك سوى صدف
سامحت فيه لنظام ووزان

وإذن فقد برح الخفاء ، ولم يبق مجال للمواربة ! وطبيعي أن يظل حافظ مشغولا بصاحبه ، وأن يعاود النقمة عليه شعرا ونثرا ، وقد ألمَّ ببعض ذلك في كتابه ليالي سطيح إذ ذكر أن شوقيا لم يغادر معنى من معاني الشرق والغرب إلا سلخه ومسخه ، وأنه مهزول اللفظ ، غامض المعنى ، يحتاج قارئه إلى تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم ،! وقل في الغضب ماشئت .

مضت الأيام في سيرها ، واضطر الشاعران المتنافسان إلى المهادنة ، وكانت كياسة شوقي ذات أثر في إلهاء حافظ ، ولكنه تألم في مرارة حين أقيمت له حفلة تكريم بمناسبة الإنعام الخديوي عليه ، ورأى المحتفلون أن تُسند رآسة الحفلة إلى شوقي تأكيدا للمودة الظاهرة ، وانتظر حافظ أن يسمع من رئيس الحفلة قصيدة في تكريمه ، كالمعتاد في مثل هذه المواقف ، ولكن شوقيا لاذ بالصمت ولم يتكلم ! وكان في مقدوره أن يقول :

لقد تعرض الأستاذ احمد محفوظ في كتابيه عن شوقي وحافظ إلى تسجيل بعض ماكان بين الشاعرين ، وهو مما يطول تلخيصه فنكتفي بالإشارة اليه ، ولكننا لا نقدر أن نغفل رواية مزعجة ذكرها الأستاذ محمد فهمي عبداللطيف في كتابه (فلاسفة وصعاليك) إذ أن دلالتها ـ لو صحت ـ ذات مغزى أليم .

قال صديقي الأستاذ محمد فهمي (حدث في مرة أن فكر رجال الحاشية في الخلافة العثمانية في أن يجعلوا حافظا شاعر الخليفة في مصر ، كما كان شوقي شاعر البلاط الخديوي ، وجاءت هذه الرغبة إلى رجال السراي ، فساءهم أن ينال حافظ هذا التقدير ، وهو المعروف بأنه من حزب الإمام محمد عبده الذي يناويء السراي ، وحرص شوقي وأعوانه على ألا تتحقق هذه الرغبة ، فاتصلوا بإبراهيم المويلحي لعله يلتمس لهم سبيلا يصرف رجال البلاط في الخلافة العثمانية عن هذه الرغبة ، وماكان الأمر عسيرا على المويلحي في سعة حيلته وتدبيره

تصوير شعري :

كان الشاعر اللبناني الكبير الأمير أمين بك ناصر الدين من زعماء الديباجة البيانية الرائعة الذين لم يأخذوا حظهم من الدراسة التحليلية ، وقد شاء خياله البارغ أن يرثي شوقيا على لسان حافظ ابراهيم ، حيث ألمّ بمشاعر الرجلين إلماما صادقا ، أحسن تصويره في مرثيته التي بدأها ـ وهي على لسان حافظ ـ بشكر شوقي حين رثى شاعر النيل بقصيدته الشهيرة :

قــد كنت أوثــر أن تقــول رثــائي
يـــا منصف المــوتى من الأحيـــاء

فبدأ يفتخر بما قيل فيه ، ويعلن أنه قد نال ميّتا من إطراء شوقي ، ما فاته في حياته إذ كان يتوق إلى سماع شيء من شعر شوقي يُقال عنه ، وأسهب ناصر الدين في إيضاح هذه الخوالج إسهابا يجد بعضه القاريء في مثل قوله :

أشــدت بــذكــرى حين قلت رثــائيــا
فيــالي مــرثيــا ويــالــك راثيــا
ولكن أبي عــدل الــردى أن يفــوتني
من المجــد ماقــد فــاتني في حيــاتيــا
ولــو رد تــأبين عــلى الميت روحــه
إذن لــرأوني حــول نعشــك جــاثيــا
طلبت المنى حيــا فعــز نــوالهــا
ومِتّ فــأولاني رثــاك الأمــانيــا

مــددت يدا نحــوي بمــا قــد رثيتني
وما أنــا ممن يجحــدون الأيــاديــا

ومن روائع القصائد في وصف شعر شوقي :

تجـــلّى نقي المستشف مسلســـلا
كمـا سال فــوق الفضة المـاء جاريـا
أمـــالت أفـــانين الأراك فنـــونـــه
وأسكنتِ السحــر العيــون الســواجيـا
إذا ما الغواني استقبلت رونق الضحى
حسبن الضحـــا مما وصفت الغــوانيـا

وإنصافا لشوقي أذكر أني عثرت على مقطوعة صغيرة مدح بها حافظا ، ولم ينشرها في الشوقيات ، إذ رواها الأستاذ حسن الجداوي في هامش ص ٦٩ من كتاب «الأدب الجديد» بعد مؤاخذة عنيفة بسلوك شوقي نحو أنداده ، وفيها يقول شوقي مادحا حافظ ابراهيم :

قـــالــوا حبيب أنت تــطري شعــره
مَنْ ذا الــذي لم يُــطر شعــر (حبيب)
من كـــان في ريب فـــذا ديـــوانـــه
راح العقـــول ، وكـــأس كـــل أديب
كم فيـــه من مَثَـــلٍ يسيـــر وحكمـــة
تبقى عـــلى الــدنيـــا بقـــاء عسيب
يـــا حـــافظ الآداب والبـــطل الــذي
يُـــرجى ليـــوم في البـــلاد عصيب

لا تسألوا الأصداف ماذا أودعت
في هذه الأوراق كل عجيب

بين مطران وشوقي

خليل مطران شاعر إنسان ، قضى عمره الأطول نبيلا رقيقا ، لا يُؤذي ذبابة ولا يقتل فأرا ، وكانت علاقاته مع الشاعرين والمتشاعرين جميعا في غاية بالغة من اللطف والتشجيع والاحتمال ، وقد مدح شوقيا وحافظا معا ، وبادله الثاني مديحا بمديح ، وصفاء بصفاء ، أما شوقي فقد مدحه في المحفل الرسمي لتكريمه إذ كان تحت رعاية الخديوي ، وتحت رئاسة الأمير محمد علي شقيق عباس ، مدحه بقصيدة موجزة لم يقل سواها شوقي مع تعدد ما قاله مطران عن شوقي نظما ونثرا !! إذ كان مطران موهوب القلم في الصناعتين ، وجل من كتبوا عن علاقة شوقي بمطران قد وقفوا عند السطح ، إذ نسوا طابع المجاملة الزائدة عند مطران ، ولكني آنست فيما قرأت ما يدل على كظم متكتم يعتمل في صدر الخليل ، وأول ما قرأته في ذلك ما كتبه ابن عساكر بمجلة الرسالة[1] عن رأي مطران في مسرحية مجنون ليلى لشوقي ، إذ حكى الناقد المسرحي عن مطران قوله عن الرواية إنها مجموعة أناشيد تختلف بالأوزان والقوافي وأن الحوار فيها هزيل سقيم ، وأن الباعث على

---

(١) العدد ٢٨٣ : ١٩٣٨/١٢/٥ (الرسالة) ص١٩٩٨

تأليفها نزوة قامت برأس شوقي بك في أيامه الأخيرة لتأليف الروايات الشعرية البعيدة عن بساطة الطبيعة ... وقد يكون هذا رأيا أدبيا لا صلة له بشخصية شوقي ، ومن حق الخليل أن يفصح عنه في مجال النقد الفني دون اعتراض !! ولكن حادثا آخر يشي بشيء كبير مما بين الرجلين ، فقد كان شوقي يمدح عباسا وأولاده ، الأمراء أيام كان الخديوي صاحب الأمر والنهي ، ثم أسدل الستار ، وتغير المسرح ، ونُفي عباس وأفراد من أسرته إلى أوربا ، وتوفي ولده الأصغر الأمير عبدالقادر ، وصمم والده على أن يُدفن بالقاهرة ! وكان من المصادفات المؤسية أن يصل الجثمان يوم الاحتفال بعيد الجلوس الملكي لفؤاد ، وقد أقيمت الزينات وارتفعت أقواس النصر ، وسار موكب الجنازة تحت الأضواء الكهربائية المحتفلة بالعيد ، ومرَّ خاشعا ساكنا صامتا تحت أقواس النصر النهاضة !! وعز على مطران أن يفد موكب الأمير المحزن دون احتفاء ، فنظم قصيدة حارة في رثائه قال فيها[1] :

أرثيك يا ولداه بالحس الذي
هو حس مصر وكل قلب شاعر
ولقد ترى وجه اعتذار للألى
حبسوا الدموع فأنت أكرم عاذر

---

(١) نشر الاستاذ عادل الغضبان بمجلة الرسالة اللبنانية السنة الثالثة ايار ١٩٥٧ مقالا تحت عنوان خليل مطران الحليم الغضوب كان مصدرنا في هذا الموضوع .

الخلف أبعد ما نظرت مسافة
في الشرق بين أسِرّة وسرائر
لو مت في زمن مضى لعلمت كم
من ناظم فيهم وكم من ناثر
تعدو البهارج، كل زور تحتها
وتمر بالزينات مِرالساخر

والبيت الأخير ذو شجاعة مفرطة، وقد ثار لأجله الملك فؤاد ثورة منتقمة، إذ صمم على طرد الخليل، لولا أن رئيس تحرير الأهرام(٢) قد شاء أن يحتاط هو الآخر لنفسه فسعى إلى القصر ليعلن أن المراد بالزينات ليست زينة عيد الجلوس، ولكنها مظاهر الفرحة عند الأغرار ممن لا ينظرون إلى عواقب الحياة، وحاشا للأهرام أن تتورط في نشر ما يُشمّ منه أيّ انتقاص لصاحب الأمر في مصر! أما قول مطران :

لو مت في زمن مضى لعلمت كم
من ناظم فيهم وكم من ناثر

فهو طعنةٌ صريحة لشوقي الذي لم يشارك في استقبال نجل سيده! فانتظر حتى عادت أم المحسنين والدة عباس من تركيا ونظم قصيدة في استقبالها، وألّم بمعاني التعزية في حفيدها، وقال يرد على مطران في غيظ :

---

(٢) نشرت القصيدة بجريدة الأهرام ٢٢/١٠/١٩٢٣ وهي مما لم ينشر بالديوان.

لا تــرومي غيــر شعــري مــوكبـا
إن شعــري درجــات الخـــالـــدين
كـــل حمـــد لم أصُغــه زائـــل
خــالــد الحمــد بمــا صغت رهين

وهو غرور نعرفه في شوقي ! فالحمد الصادق لا يخفى على أحد ، وقد سبقه مطران فشجعه على النظم بعد أن سكت ، والفضل للسابق لا للمحتذي على كل حال .

وثانية أقولها ، فإن لمطران أقوالا عن شوقي في حياته تختلف في مغزاها عمّا قاله بعد وفاته ، واختلاف الرأي النقدي للقائل الواحد ، لا اعتراض عليه ، إذ قد يعن للناقد ما يدفعه إلى تصحيح رأيٍ أدلى به بعد أن ظهرت أدلة فنية توجب التصحيح ، ومع هذا فإننا نجد من الضروري أن نشير إلى رأيين مختلفين لمطران في شوقي ، قال في الأول[1] .

يجيئه المعنى على مرامه أو على أبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة ، إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب وفلسفة الحقوق ، وغرائب السير ، وحقائق التاريخ التي يحفظ منها غير يسير إلى مشاركات علمية ، وتنبيهات استفادها من مطالعة في صفوف الكتب واتخذها عن ملحوظاته ومسموعاته ، في جولاته بين الشرق والغرب ،

---

(١) خليل مطران ـ أروع ما كتب للدكتور محمد صبري ص ١١٦

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحتري ومن صياغة أبي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار ، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، هي أنه نظم شوقي ! ذلك نظم العبقرية والتفوق» وقال في الثاني إجابة عن سؤال وجهته مجلة المعرفة[٢] إليه بعد رحيل شوقي وحافظ .

«وأنت لو حاولت تلَمّس القصائد الطوال في المعنى الواحد ، والغرض الواحد ، في المناسبات السياسية ، فلن تظفر من ذلك بشيء يجدي ، وليس ذلك عيبهما [شوقي وحافظ] وحدهما ، وإنما هو عيب الشعب كله ، فقد كان يرضيه في نهضته السياسية البيت الواحد ، فيصفق له ويجعله أنشودة ، أما أغراض الشعر البعيدة المرمى ، السامية المغزى ، وأما استقراء التاريخ العام ، والتحليل للشخصيات البارزة تحليلا دقيقا ، وتناول أروع عواطف النفس بالتصوير والوصف ، وأما تصور المثل العليا ، ورسم الأوضاع الشعرية السامية ، فأشياء لم نعمل منها قليلا ولا كثيرا ، ومرد ذلك إلى أننا لم نتشبع بالروح العربي الخلّاق ، ولا بالروح الغربي الحديث في التصوير والوصف وسوق الأقاصيص ونحوها» .

---

(٢) مجلة المعرفة عدد فبراير سنة ١٩٣٣م جـ١ ص ١١٧٨

وفي قول مطران لم «نعمل» بنون الجماعة ما يدل على تواضعه إذ قرن نفسه بصاحبيه في هذا المجال ، وهو أرجح منهما تجديدا ، ولكن موضع الاعتبار في الرأيين هو ما جزم به في الأول من إلمام شوقي الجامع بأفانين الآداب في لغة الافرنج وفلسفة الحقوق ، وشمول المعارف ، وماجزم به في الرأي الثاني من البعد عن أغراضه السامية ، واستقراء التاريخ العام ، وتناول أروع العواطف والمثل العليا بالتصوير والوصف ! ولغيري أن يفهم ما يشاء إذا لم يتضح له وجه الخلاف .

شوقى والكاظمى

وفد الكاظمي على مصر ، فصادف ترحيبا من أعلامها ، لأن الأستاذ الإمام قَدَّرَ قريحته ، وأشاد به ، وكان الكاظمي جزل العبارة في عهد كانت فيه الصياغة الرصينة موضع المباهاة ، كما رزق طولا في النَّفَس الشعري جعله يمتد بالقصيدة إلى مدىً يدهش ، ولا عليه إذا تنقل من غرض إلى غرض ، لأن مجاراة الشعر العباسي هي السنن المحتذى حينئذ ، وإذا كانت أوليات الكاظمي أفضل من أُخرياته الشعرية فمرجع ذلك إلى ما شغف به من الارتجال الشعري ، والافتخار بسرعة البديهة في الأندية والمحافل ، والمرتجل في أكثر أحواله ينظم ولا يشعر ، وكان على الكاظمي أن يعرف ذلك ، فيتئد في نظمه ليأتي بالمبتكر ، كما

قد يتسنى له في بعض مواقفه حين يطمئن و يتريث ، ومهما يكن الأمر فقد عُدّ الكاظمي من شعراء الصف الأول عند قوم ، وأول شاعر في فريق الصف الأول عند آخرين وكان الأستاذ الإمام محمد عبده يرعاه بماله ، فلما ودّع الحياة وجد نفسه في مهب الريح ، وأخذ يزفر زفرات حارة تمثل لها بقوله :

مـــــات امـــــام فـــــلا حمى
يمضي إليـــــه المحتمي

مـــــات امـــــام فـــــلا فم
يعلو الخصـــــوم بمفحم

مـــــات امـــــام فـــــلا يد
تســـــدي النـــــوال لمعـــــدم

مـــــات امـــــام فقلت مـــــا
تت عصمـــــة المستعصم

مـــــات امـــــام فـأيّ قلب
بعـــــده لم يُضـــــرم

مـــــات امـــــام فـــــأيّ أنف
بعـــــده لم يخـــــزم

من كـــــان يلقـــــانا بقلب الخـــــا
ئـــــف المتلعثم

قـــــد عـــــاد يـــــرمقنـــــا بـــــطرف
الهـــــازيء المتهكم

أبكيـــــه أم أبكي عــــلى آي الكتـــاب المحكم
يـــا للحشـــا من نـــازل
بين الضلوع مخيم
أصبحت بعـــدك يـــا
محمـــد بين شـــدقي أرقم
أصبحت من دهـــري
ولا أدري بـــأي أحتمي

والقصيدة طويلة تبلغ مائة وثمانين بيتا ! وقد نقلت ما يدل على شدة افتقار الشاعر إلى معين مُسعف ، وقد بذل المسعى جاهدا ، حتى أقنع صاحب المؤيد أن يشفع له لدى الخديوي كي يمنحه راتبا شهريا يستعين به ، فحال دون ذلك كيد شوقي .

قال الأستاذ عبدالقادر المغربي عن مقال بالرسالة(١) أعيد نشره بالجزء الثاني من المجموعة الشعرية للكاظمي مقدمة لها .

«وانتساب الشيخ الكاظمي إلى الإمام المفتي ، إن كان من شأنه أن يُحدث فتورا نحوه من نفس الخديوي فما كان قط ليحدث مثل هذا الفتور في نفس الشيخ علي يوسف ، فكنّا ننزهُه عن وصمة الفتور ثم ضاق الشيخ عبدالمحسن ذرعا بالأمر فكلفني أن آخذ من الشيخ علي وعدا بانجاز المسألة

---

(١) مجلة الرسالة العدد الصادر في ٢٠ / ٥ / ١٩٣٥م

مع الخديوي إما سلبا يريح النفس أو إيجابا يزيل العلة .

ثم قال المغربي راويا عن صاحب المؤيد قوله : ماذا اصنع يا أستاذ ؟ أنهيت القضية أمس مع الخديوي ووعد وعدا أكيدا بإصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له ، وخرجت من عنده ، لكنني لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض الناس (ولم يسمّه لي) فقال الخديوي : رأيت فلانا خارجا من عندك فماذا يبغي ؟ قال : قررنا راتبا للشيخ عبدالمحسن الكاظمي ، قال : أنسيت أنه شاعر المفتي ، وقد قال فيه من الشعر كذا ! ، وعرض فيك بكذا وكذا ! قال الشيخ علي : فما كان من الخديوي إلا الشح برفده والنكول عن وعده ، فلما عدت للكاظمي وأخبرته تأثر جد التأثر ، وقال : أتعرف من هو بعض الناس ؟ إنه أحمد شوقي .

شوقى وعبدالحليم المصرى

تشابهت حياة عبدالحليم المصري مع حياة حافظ في بعض الوجوه ، فقد عمل مثله بالجيش في السودان ثم فُصِل وعاد دون عمل ، ورأى أن يتقرب إلى شوقي شاعر القصر ، ليكون وسيلته إلى عباس ، فاندفع في تقربه اندفاعا دفعه إلى ما يُشبه التهور ، حين انقلب إلى مبالغات يمجها الذوق ويأباها الدين ، فأخذ يقرن وحي الله في كتابه بوحي شوقي في شعره ! ويُغرق في الادعاء إذ يقول مخاطبا شوقي :

ذللت آبيـــة البـــلاغـــة فـــاغتـــدت
تمشي بـــطرْســك مشيـــة المتـدلـــل

ثم والى مدائحه متذللا متوسلا ، وكأنه يمدح الأمير ، لا شاعر الأمير ، حتى إذا تدجت ظنونه لم يشأ أن يقطع الأمل ، بل لجأ إلى العتاب الضارع في مثل قوله :

لقــــد أخلصت يـــا شـــوقي ودادي
إليـــــك وأنت تـــوسعني نفـــورا

فخـــذ بيـــدي ، واذكـــرني بخيـــر
إذا مـــاجئت مـــولانـــا الأميـــرا

ولن يُفلح محتال جعل الضرغام بازا لصيده ، فقد أوصد شوقي الباب في وجهه دون مأمل ، واندفع عبد الحليم ناقما فنظم قصيدة ثائرة في هجاء الأمير والشاعر معا ، واحتال بـالتاريـخ مزوّرا الأسمـاء ، ليخفي مراده عـلى رئيس التحرير ، فيجيز النشر ، إذ جعل عنوان القصيدة «جائزة شاعر قدرها خمسون ألف دينار ، بين هرون الرشيد ومسلم بن الوليد» ثم صدرها بمقدمة تعلن أن الخصيب والي مصر في عهد الرشيد قد خصَّ أبا نواس بكل إنعامه ، وأضاع أموال المسلمين عليه ، فذهبت بَدَدا بين والٍ مستهتر ، وشاعر نمّام ! وإذا كانت مصر حينئذ تتبع الخلافة

العثمانية من الوجهة الرسمية ، فالرمز واضح جليّ ، فالرشيد هو الخليفة ، ومسلم هو عبدالحليم الذي لم يحظ بشيء ، والخصيب عباس ، وأبو نواس هو شوقي ! والقصيدة طويلة نجتزيء منها بمثل قوله :

ما للخصيب يُغالي بابن هانئه
ما أعرف المين إلا في المغالاة

يد بعارفة الاحسان يصرفها
إليه كانت سبيلا للغوايات

أشاعر النيل دون الخلق يشربه
بينا يشق الصدى منا المرارات

الى الخصيب تركت النيل عن رغب
يسخر الناس في حمل الجنايات

نعم الأمين على مصر وساكنها
لو يُؤمن الذئب في المرعى على الشاة

قل للخصيب إذا ماجئت سدّته
عليك بالدين فالدنيا لميقات

أصْغرت أمر رجال أمرهم جلل
وبتّ تعمد أصنام الخرافات

وقد اعتقل الشاعر وقُدِّم للمحاكمة فصدر الحكم بحبسه ثلاثة أشهر ، فاستأنف ، واستطاع ابراهيم الهلباوي

الداهية ببراعته أن ينقذه حين واجه المحكمة ، بأنها تريد أن تدين صاحب البلاد بما في القصيدة ، لأن الشاعر نفى أن يكون قد قصده ، فإذا جزمت بأنه قد قصده فمعنى ذلك أنها تعترف بكل ماقال من هجاء وهذا شطط من المحكمة ، واتهام للأمير ! ، واضطرب الموقف ، وزاد الحرج ، فلم تبق إلا البراءة ! ولكن مع طرد عبدالحليم من وظيفته بديوان الأوقاف ! إن موقف الهلباوي ليحتاج إلى مقال خاص فمتى ؟

بين شوقى والكاشف

أحمد الكاشف شاعر حر الضمير ، جريء القلم ، أبيّ النفس ، وكان ذا شجاعة أدبية تدل على همامة نفس ، إذ رأى أن الأمير يوصد أذنه عمن سوى شوقي من الشعراء وهم أنداده فلم يتملق شوقيا كما فعل عبدالحليم ولكن واجه الخديوي بالموقف في صراحة شجاعة ، وقال شاكيا في بعض أعياد عباس مخاطبا إياه :

عيد وماذا سرّني فأنادي ؟
ذهب الرجاء من الحبيس الصادي
مالي إذا لم ألق عندك موضعا
ولهذه الأعلام والأجناد ؟
قرّبت شاعرك الجليل فما اقتدى
بك واحد من أهل هذا الوادي

مــازلت لــلأشعــار تكــرمــه ومــا
لــــك غيـــر ملتفت إلى الأنـــــداد
لا يســـألــونــك مــرة إقـــطاعهم
أرضـــا وحسبهمـــو قليـــل حصـــاد
أيكـــون وردك زاخـــرا متضـــربـــا
ويـــذاد عنـــه أطهـــر الـــورّاد !

وطبيعي أن يتألم شوقي لهذه الصراحة الشجاعة ، ولكن من غير الطبيعي أن يدس للكاشف ، منتهزا موقفه من المنشاوي باشا ، إذ أن الكاشف قد هجاه لطغيانه في قريته ، وما حولها من البلاد ، ونشر القصيدة دون توقيع ، فهاج هائج المنشاوي ، وأخذ يبحث عن القائل متوهما أنه حافظ ابراهيم ، أو إمام العبد ، فتبرع شوقي بإخبار الباشا بأن الكاشف ابن بلدته هو صاحب القصيدة(١) ، فسخط المنشاوي وهدد بالانتقام السريع ، وجاء الخبر إلى الاستاذ الإمام فاستشفع وأرضى المنشاوي بعد مجاهدة ، والموقف احط من أن يُلحق بتعليق .

وحين بُويع شوقي بالإمارة بعد أكثر من عشرين عاما ، أُقيم له احتفال بقرية القرشية وهي بلدة أحمد الكاشف ، وتوقع شاعر القرية أن يُدعى لاستقبال أمير الشعراء مع المستقبلين ، ولكنه أُغفل ، وعاتب من قاموا بالدعوة وهم

---

(١) أحمد الكاشف الشاعر السياسي ص ٨٧ للدكتور محمد ابراهيم الجيوشي

أهل الخطيب ، إذ كان الاحتفال بقصرهم ، على بعد خطوات من منزل الكاشف ، فراعه أن يعرف أن رغبة شوقي هي التي حتمت إهماله[1]، فاكتأب كثيرا وقال من قصيدة نشرها متألما ـ وهي أهون مما كان يُنتظر ـ

سلام على اخوان حلوا بقريتي
وفودا بأوفى ذمة ويمين
فهل ذكروني عند شمل مؤلف
وهل سألوا عن علتي وشجوني
وكان شفائي أن أراهم مسلما
سلام التلاقي والوداع لحين
فما افتقد الداعي ضُحى اليوم جاره
ولا سأل المدعو أين قريني ؟
إذا ضاع قدري عند جاري وصاحبي
فهل أنا في هندٍ أراه وصين ؟

ولله نفس الكاشف ، فقد كان كريما سمحا في عتابه ، ولو شاء الملاحاة لوجد المجال ذا سعة ، على أنه رثى شوقيا باكيا يوم وفاته وقال في مرارة :

مضى زمن لم أنتقل فيه مرة
إليك ، وبي من لاعج الشوق مابيا

---

(١) أحمد الكاشف الشاعر السياسي ص ٩١ للدكتور محمد ابراهيم الجيوشي

مضيت فلم آنس بعتبـــك ســـــاعـــة
ولم أتـــزود من رضـــاك ثـــوانيـــا

وأقولها بصراحة إذا كان شوقي أشعر ، فإن الكاشف أشرف !!

بين شوقى والقاياتى

السيـد حسن القايـاتي شاعـر دقيق الفكرة ، بليـغ العبارة ، يحتفل بالمعنى احتفالا قـرَّبه إلى الخـاصة ، وباعده عن العامة ، وله شعر يرتفع به عن نظرائه ، حين تقام الموازنات الدقيقة ، كما أنه ذو شموخ وصلف تيّاه ، وقد آثره اسماعيل صبري بحبه ، وكان يوالي زيارة شيخ الشعراء عن تقدير ، أما حافظ ابراهيم فقد حدثني أديب الغيوم الأستاذ الشاعر محمد مصطفى البسيوني تلميذ القاياتي ونديمه ، أنه كان عميق الـود ، وطيد الصلـة بالسيد ، وقد دعا القـاياتي ذات ظهـيرةليقدم لـه طبق «المحشي» ، فقال له «ياشيخ حسن المحشي ، حاجة ماهيش في الأزهر ، كُلْ ، كُلْ» وضحكا معا ! ولما أنشد القاياتي قصيدته التي يقول فيها :

لـــو أن المســـاعي تُكسب المجـــد لم يلح
بـــأفق العـــلا إلا أنـــا وأخي البـــدر

قال له حافظ : أبدعت يا أخانا ! يُورىّ بأنه هو البدر !

هذا الشاعر الحسيب المعتز ، زار شوقي في كرمته ، فما وجد منه ما يدل على أنه يعرفه ، وكأن حافظا أغراه بالزيارة عامدا ليكشف له روح شوقي ، فخرج القاياتي هائجا صاخبا ، وجعل ينشر في كوكب الشرق نقدات لغوية وفنية متصلة لشعر شوقي تحت عنوان (العثرات) وأذكر أنه شدد النكير على البيت الذائع (وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت) فقال : إن الأخلاق لا تطلق على الأخلاق الفاضلة وحدها ، بل على كل خلق ، وتحتاج إلى وصف يبيّن ! وظل القاياتي يتعقب شوقيا حتى بعد وفاته ، ومن أهم ما احتفظ به للقاياتي في هذا المجال مقاله الذي يقول فيه[1] .

«هأنذا ، وهذا شوقي ، وتلك أشعاره ، وهذه أشعاري ، فإن كنتم ولابد قاضين له علينا ، فلا أقل من موازنة عفيفة برَّةٍ تلقونها على قصيدة لي ، وقصيدة له ، فإن تكشّفت المقايسة بيننا وبينه عن تبريزه ، كان لكم أن تحلّوه سماءه ، وتُلبسوه تاج الإمارة يأتلق على مفرقه الوضاح ، هذا شوقي طالما جمعنا بينه وبين شاعر مغمور ، من عرض شعرائنا ، وبعثناهما فرسيْ رهان في ميدان ، فأبرّ عليه شاعرنا ، وجاء قبله ثانيا من عنانه نمسح منه وجه جواد سباق .

ومضى القاياتي يقرن أبياتا له بأبيات شوقي كمثل قول القاياتي في أعضاء البرلمان :

---

(١) كوكب الشرق ٢٣/١٢/١٩٣٤ تحت عنوان (إمارة الشعر)

كيف نـــال الكـــرسي للرأي ســـاهٍ
خـــامــد الحس يشبـــه الكـــرسيـــا

وقول شوقي :

دار النيـــابـــة قـــد صفّت أرائكهـــا
لا تجلسوا فـوقهـا الأحجار والخشبـا

وأنا لا أوافق القاياتي على منحاه الجزئي قطعا ، ولكني أوضح كيف كانت المقـابلة السيئـة مقارنـة بمقابـلات اسماعيل صبري ذات عمق أليم لدى شاعر يقـول عن نفسه :

إني لأضخم منَ في مصـــر قـــافيـــةً
لا تجحـــدوني هـــذا ، أيهـــا العجم

بين حفنى وشوقى

ليس عندي ما أقوله عن الرجلين ، ولكن الشاعر الكبير محمود غنيم أفرد كتابا في سلسلة أعلام العرب عن حفني ناصف ، ذكر فيـه أن روح الفتور كـانت هي السائـدة بينهما[1] ، بدليل أن شوقيا كان تلميذ حفني بمدرسـة الحقوق ، وكان من زملائه توفيق نسيم ومصطفى كامل وعبدالعزيز فهمي ولطفي السيد ، وكلهم ممن مدح حفني نثرا أو شعرا سوى شوقي مع أنه أقرب الناس إلى هوايته ، وقد كانت علاقة الود عريقة بين حافظ وحفني ، وشعر

حافظ في حفني مشتهر ، وقد قال حفني في تقريظ ديوان حافظ :

جعلت يـــاحـــافظ كيـــد الـــذي
يشنـــاك في خســـر وتضليـــل
كـــأن ديـــوانـــك في عينـــه
رســـالـــة من عنـــد عـــزريـــل
وكـــل بيت حجـــر قـــد هـــوىَ
عليـــه من أحجـــار سجيـــل
ومن يكن ديـــوانـــه هكـــذا
يُـــدعى بحق شـــاعـــر النيـــل

يقول الاستاذ محمود غنيم : «ولنا أن نتساءل : مَن هذا الذي يشنأ حافظا ؟ فكأن ديوانه رسالة هبطت عليه من عزرائيل ! وكان كل بيت فيه على رأسه حجر من سجيل ؟ أهو شوقي ؟ ربما ، فنحن نعلم أن شوقي كان يثيره أن يطلق على حافظ لقب «شاعر النيل»[1] !» .

وأضيف لما ذكر الأستاذ غنيم ، أن شوقيا لم يشترك في حفلة تكريم حفني التي أنشد فيها حافظ ومطران قصيدتين رائعتين ، كما لم يرث (باحثة البادية) ـ ومصابها قد رمى والدها بالشلل مثلما رثاها حافظ ومطران ، وهي نابغة

---

(١) حفني ناصف للأستاذ محمود غنيم ص ١٨٦

العصر ، ووالدها في حاجة إلى العزاء ، وهو لا يعوز شوقيا ، قريبا بمصر أو بعيدا عنها !

شعراء آخرون

صفت المودة بين شوقي ، وبين شعراء الشام من أمثال شكيب أرسلان الذي يقول فيه شوقي من قصيدة :

صحبت شكيبا صحبة لم يفز بها
سواي على أن الصحاب كثير

ومن أمثال عبدالحميد الرافعي الذي يقول فيه شوقي من قصيدة طويلة :

أما يكفي أباك السبق حتى
أتى بك أطول الشعراء باعا

ومن أمثال شاعر الأرز أمين نخلة الذي يقول فيه شوقي من قصيدة :

وإنما الشعر عبدي
وأنتَ عبد لعبدي

وقد شنّع على هذا البيت الناقد اللبناني مارون عبود بما فيه الكفاية .

وكذلك صفت المودة بين شوقي وشعراء الشباب الذين لا يزاحمونه مثل رامي الذي يقول فيه قصيدة مطلعها :

ديــوان رامي تحت حــاشيــة الصبــا
عـــذب عليـــه من الـــرواة زحـــام

ومثل الشاعر الحزين أحمد العاصي الذي يخاطبـه شوقي بقوله :

تشكــو الشبــاب لنــا فيــالــك يــافعــا
ضــاقت بميعتــه صــروف زمـــانـــه
ولتعلمن إذا السنـــــون تتـــابعت
أن التشكّي كـــان قبـــل أوانـــه

ومثل محمود أبو الوفاء الذي يقول فيه شوقي ـ بعد حادثة معروفة ناله فيها شوقي بما لا يستحق :

سبـــاق غـــايـــات البيـــان جـــرى بِـــلاَ
ســـاقٍ فكيف إذا استقـــل السّـــاقـــا

ولعلّ هناك آخرين .

أما بعد

فقد طلبت مني مجلة الثقافة أن أتحدث عن شوقي في العدد الخاص بالذكرى ، فرأيت أن أجمع ما لديّ من أوراق متناثرة لا أظن أن مثلها قد جُمع في نطاق مكتمل ، ولست ـ بعدُ ـ متعصبا لشوقي ولا عليه ، ولكن الرأي الآخر لابد أن يقال ، وقد يكون في بعض ما ذكرته مالا يتفق والواقع ، والتصحيح هنا واجب مفروض على من يملك التصحيح .

قصة عاطفية

منذ سنوات كنت أؤدي فريضة الحج فسعدت بمجلس ديني في ساحة (منى) يتصدره عالم كبير من أئمة علماء السودان ، رأس أكبر مناصب القضاء والافتاء حينا من الزمن ، وكان يتحدث في أمور تتعلق بمناسك الحج وسط حلقة تضم صفوة من مواطنيه ، وقد عن لي أن أناقشه فيما تعرض له من تعليل رمي الجمار ، ولكنه ابتسم وتلا قول الله عز وجل ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ فسكت متأدبا ، وما كاد ينتهي المجلس حتى أسرع إلى مصافحتي وعانقني ، وقال : إن الخوض في مسائل الفقه ذو حرج ، فنتسامر هذه الليلة في قضايا الأدب ، وظل حديثنا يستطرد من موضوع إلى موضوع حتى جاء ذكر المجنون صاحب ليلى فقال الأستاذ الجليل : إن لدينا في السودان قصة عاطفية لها شهرة قصة المجنون ، وإن الناس يروونها بزيادات كثيرة منذ ثلاثة قرون ! والقصة في صميمها ذات اهداف خلقية تقترب من المثالية ! ثم قال : إن الأمير يوسف كمال قد لخص هذه القصة فيما كتبه عن رحلته إلى السودان حيث سمعها من مصادر كثيرة ، ورأى فيها من عناصر السمو ما جذبه إلى تسطيرها ، وأوصاني أن أبحث عن القصة في رحلة الأمير ، ولم ينس العالم الكبير أن يذكر أن شاعرا سودانيا غاب عنه اسمه قد وضعها في مسرحية شعرية احتذى فيها شوقي

فيما كتبه عن مجنون ليلى وعنتره ، فزادني الشيخ شوقا إلى معرفة هذه القصة ، وسألته عن عنوانها فقال : إنها قصة تاجوج ومحلق ، وتاجوج هي ليلى والمحلق هو قيس .

شاعر كبير

وقد جهدت أن أرى هذه المسرحية التي أشار إليها الشيخ الكبير فلم أوفق ، ولكني طالعت ديوان الشاعر السوداني الشهير محمد سعيد العباسي فوجدت في صدره قصيدة مهداة إلى الدكتور زكي مبارك وفيها أبيات تتعلق بالقصة التي أبحث عنها ، والشاعر محمد سعيد العباسي شاعر كلاسيكي عريق تتلمذ على كبار أدباء مصر وعلمائها من أمثال الأساتذة محمد الخضري وعبدالوهاب النجار وعثمان زناتي حين كانوا أساتذة له في أم درمان ثم وفد اليها واستقر بها حينا من الدهر فأفاد واستفاد ، وقد نظم في تمجيد مصر عدة قصائد جزلة تنحو منحى الشعر العباسي في عصوره الزاهرة فكأن المصادفة شاءت أن يكون لقبه هو وصفه الفني ! أما قصيدته في الدكتور زكي مبارك فقد قال فيها :

فيــــابن المبـــــارك عش ســــالمـــــا
وبـــــورك في زنــــدك الـــــواريــــة
تغنيت حينـــــا بليـــــلى العــــراق
فـــأحللتهـــا الـــرتبـــة الســـاميـــة

فمــــد لنـــــا فضـــــل ذاك العنــــان
عنــــان بـــــراعتـــــك الـــطاغيـــــة
وألم بتـــــاجــــوج واحفــــل بهـــــا
فتـــاجــوج جـــوهـــرة البـــاديـــة
وعلق عــــلى جيــــد تـــــاريخهـــــا
درارى أبحــــــرك الـــــطاميـــــــة

فالعباسي يدعو زكي مبارك إلى كتابة قصة تاجوج كما كتب عن ليلى المريضة في العراق ، وقد قال : إن تاجوج جوهرة البادية ، فالقصة إذن قصة بدوية ! لها شمائل قصص العرب في البادية بما تتضمن من إخلاص وشوق وعفاف ثم حرمان لا ارتواء فيه ولا غذاء ! لقد شوقني الشاعر العباسي مرة ثانية إلى الاطلاع على هذه القصة فحرك ما سكن ، ودفعني إلى السؤال عن أي مصدر عنها ، حتى عثرت بمجلة الرسالة على خلاصة وافية بأحداثها الرئيسية ، فارتحت كثيرا لما قرأت ، وأخذت أبحث ـ ومازلت ـ عن المسرحية الشعرية التي كتبها الشاعر السوداني ، ألا من يدلني ؟

قصة سينمائية

ومنذ أمد غير بعيد سمعت في بعض محطات الاذاعة العربية حديثا تحليليا عن فيلم «تاجوج السوداني» فأشار المتحدث عن مكانة القصة العاطفية ، وذيوعها بين

السودانيين ، وقارن بينها وبين قصة مجنون ليلى وروميو وجوليت ، ثم سرد وقائع شاحبة لا تثير عاطفة ، ولا تهيج حنينا أو اشفاقا ، فليس فيما ذكره من أحداث الفيلم ما يرتفع بإحساس ، أو مايثير أدنى مشاركة وجدانية بين المشاهد وبطلي المأساة ! فقارنت بين ما سمعت وما أعلم مما قرأت عن القصة فوجدت البعد شاسعا أي شسوع ، وقلت في نفسي لعل صاحب الحديث الاذاعي لم يصب التوفيق فيما اختار من الأحداث ، ولعله طوى من الوقائع ما يشبه في مضمونه الوجداني ما قرأت عن القصة ! وعجبت أن يتصدر مثله لتحليل قصة ذات دوي رنان فيحيلها هيكلا شائها باليا لا دم فيه ولا حياة ! وتطلعت إلى مشاهدة الفيلم لأحكم عن عيان ولكن أين أراه ؟ ثم زادت دهشتي حين وقع في يدي العدد ١٣٥٨ من مجلة حواءالصادر بتاريخ ٢ / ١٠ / ١٩٨٢م فأجد به ملخصا للقصة السينمائية يتفق تماما مع ما ذكره المحلل الإذاعي ! وإذن فقد اتفق شاهدان على رواية معينة ، انتهى إليها خيال المؤلف والمخرج ! ولكي يقف القاريء على هزال الفيلم السينمائي فإني أنقل إليه ماجاء بمجلة حواء .

تاجــوج

نشرت المجلة ص ١٣٥ تحت عنوان تاجوج ما يلي :

تاجوج فيلم سينمائي يحكي قصة مثل روميو وجوليت

حدثت من ٣٠٠عام بالسودان لفتاة أحبت شابا وبادلها نفس الحب ، وصارعا من أجل أن يتزوجا ، ولكن حدث أن كان هناك شاب يحب تاجوج فادعى أنه على علاقة بها ، وطلب من زوجها أن يرى علامة ما في جسدها حتى يؤكد له هذه العلاقة ، وعلمت الزوجة بهذه القصة ، وعندما طلب منها زوجها أن تريه جسدها ، وافقت على شرط أن ينفذ لها طلبا تريده ، ووعدها بذلك ، وقد كان ، فلم ير علامة بجسدها ، وطلبت الطلاق حفظا لكرامتها !

هذه خلاصة الفيلم كما رواها المحلل الاذاعي ، وكما لخصتها مجلة حواء والقصة بهذه النهاية التافهة لا تقرن مع قصتي ليلى والمجنون أو روميو وجوليت في نطاق ولا تستأهل أن تكون حديثا شعبيا يتردد على ألسنة السودانيين أكثر من ثلثمائة عام ! لا تستاهل أن يرويها الكتّاب في رحلاتهم وأن يتحدث بها كبار العلماء في سمرهم ، وأن يقوم شاعر مسرحي فيبدع منها درامة نائحة !

القصة كما نشرتها الرسالة

أما القصة كما روتها مجلة الرسالة بالعدد ١٢ في ١٩٣٣/٧/١ بقلم الأستاذ محمد البنداري أحد مدرسي مدينة الخرطوم ، فتتجافى عن الظن السيء بالفتاة ، ولا تجعل لها حبيبا سابقا ، يعرف خبايا جسدها ويشي بها للزوج فيطلب أن يتحقق الأمر بنفسه إذ أن ذلك بعض

الخيال الذي شرد به واضع القصة ، ولو تم هذا لكان من حق تاجوج أن تعرض عن زوج لا يثق في ماضيها ويتطلب الدليل على براءته ! فهي أنثى ذات حمية ، ولها جمال تستعز به وتستطيل ، أما رواية الرسالة فتقول ببعض الإيجاز .

كانت تاجوج أحلى فتاة في البلاد إذ لم ير السودان أعظم جمالا منها ، وكان الناس يهرعون من أقاصي الوطن إلى حماها ليروا تلك التي استفاضت الأنباء عن روعتها الآسرة ، وكان أبوها شيخ القبيلة وله صيت وسلطان ، وقد زوجها من ابن عمها (محلق) بعد أن هام بها ، وفي يوم ما طلب اليها أن تتجرد من ثيابها وتسير أمامه عارية ليشاهد مفاتنها ، فأبى عليها كبرياؤها أن تنزل على رأيه مكرهة ، فامتنعت ، وحين واصل الالحاح قالت له : ماذا تفعل إذا حققت مأربك قال : أحقق لك كل ما تطلبين ، فرغبت أن يقسم بالله على ذلك ، وتجردت وسارت أمامه كما شاء حتى سألها أن تستريح ، ثم قال لها : ما رغبتك حتى أسرع في تنفيذها فسألته الطلاق ، فطار صوابه وأخذ يستعطفها دون جدوى ! وهذا موضع النزق من تاجوج ! وموضع الاثارة في القصة إذ عطفت القلوب إلى الزوج العاشق في مأساته ، هذا الذي نزل مكرها عن أعز من رأى وأحب من عشق ، فهام في الفلوات كما هام المجنون من قبله ثم لقى رداه .

أما تاجوج فقد تزوجت في حياة محلق ، وشاءت الظروف أن تعصف بها على نحو مستفظع مثير إذ غزا قبيلتها جيش من عرب (الهدندوه) فوقعت أسيرة في أيدي الغالبين ، واختلف الظافرون على الاستئثار بها اختلافا دعا إلى حرب أهلية بين الفريق الواحد ، فرأى شيخ الغزاة أن يحسم الأمر فنادى تاجوج وطعنها بالخنجر لييأس منها المتنازعون فلا يطول الشقاق ! وهنا تصبح الضحية مجال عطف كبير من الجمهور ، إذ لاقت حتفها الظالم دون جريرة! ويعود إلى الأذهان مأساة محلق حبيبها الطريد ، فيقرن الناس بين الزوجين البائسين ، ويؤلفان من مأساتهما قصة تهيج الشجن وتستدر الدموع .

مقارنة واضحة

ونحن لو قارنا ما جاء في أحداث الفيلم السينمائي بما دوّنه الكاتبون عن مأساة تاجوج ومحلق لوجدنا الفرق شاسعا لا ينتهي عند حد ، لأن تاجوج لن تكون موضع عطف من أحد ، لو انتهى الأمر بها إلى زوج آخر قضت معه أيام الحياة دون أن تتعرض إلى هذه النهاية الفاجعة ! ولا شك أن الذين رووا قصتها على مدى ثلاثة قرون قد اتخذوا من خيوطها القريبة تكأة لخيال يمتد ، فيروي أحداثا عن حياتها الطبيعية في بيتها الأول وعن ألمها النفسي وشعورها بالندم في بيتها الثاني حين عرفت أنها جنت على

عاشق فارق الحياة من أجلها ! ثم كان لهم من أحداث الغزو المفاجيء ونهايته الأليمة ما ساعد الخيال على تهيئة درامة حية مؤثرة ! جعلت بطليها شهيدين ! والقصة بهاتين النهايتين الفاجعتين جديرة بأن تتناقل على الألسنة مهما امتد الزمان ، كما أنها أيضا جديرة بأن تقرن بقصة قيس وليلى ! لأن الواقع المجرد في قصة المجنون وليلاه واقع محدود باعتبار ما حصل فعلا على مسرح الحياة ولكنه بما أضيف إليه على مدى السنين المتلاحقة قد جعل من ليلى والمجنون بطلين لأدوار كثيرة أخذت تتلاحق وتمتد كما شاء الرواة المتعاقبون ! ولنرجع إلى أصل قصة ليلى والمجنون لنلخصها في أن قيسا كان ابن سيد الحي وقد عشق ليلى وهي فتاة من قومه ما كانت تطمع في مثله لو لم يشد بها في شعره وقد نشآ معا ورعيا الغنم صغيرين ، ثم احتجبت عنه حين يفعت فهام بها وجدا ، وقال في وصفها الشعر الرقيق ففزع والدها ورفض خطبته لها حين جاء مصاهرا ، ومازال يلم بحيها باكيا حتى ضجر أبوها ، وشكاه إلى السلطان فأهدر دمه ، ثم لم تنفعه شفاعة الأمير حين أخذ يسترضي أباها دون جدوى ، وقد عجل الوالد بزواج ابنته ليقضي على كل أمل لدى المجنون ، فجن واختلط وهام في القفار يصحب الظباء والوحوش حتى انتهت حياته شريدا في البيداء ! هذه الأحداث المحدودة اليسيرة ألهمت قيسا بعض القصائد والأبيات العاطفية فتناقلها الرواة ونسجوا على

منوالها ، وجعلوا يضيفون إلى قيس أكثر ما يروون من شعر الغزل ، ويجعلون لكل قصيدة مناسبة ذات قصة ، وما جاء العصر العباسي حتى تضخمت الرواية وأصبحت ذات فصول ومناظر ومشاهد ! وأصبح قيس علم العاشقين .

تطور واستحياء

نعرف جيدا أن صدى قصة المجنون لم يقف عند الأدب العربي بل تخطاه إلى الآداب العالمية الأخرى ، فاستوحى كبار الشعراء هذه الأحداث اليسيرة فكانت نولا لنسيج جديد يختلف في أكثره عن نسيج الحادثة العربية ، فالشاعر الفارسي نظامي قد نظم قصة المجنون لا ليجعله عاشقا ارضيا يهيم بأنثى من بني جنسه بل ليتطور به إلى مرحلة أعلى فيجعله عاشقا ويلم بعلوم المتصوفة فيدرك أسباب الجذب والوصل والفناء ، ثم ارتقى مع صاحبته إلى جنة ذات الزهر المتفتح والثمر المتهدل ، والطير الصادح ، أما الشاعر التركي حمدي فقد تابع نظامي الفارسي في سبحاته الصوفية ، حيث طوع الحادثة إلى رموز الوجد والفناء والشوق والجذب وقد أوتي قدرة نادرة في الوصف والتصوير بحيث أصبحت ريشته ذات ألواح رائعة ترسم مسارح الشروق والغروب ومنازه الرياض والبحار

والمروج بما لا يوفق إلى مثله غير فنان ملهم ، وتلاه الشاعر التركي فضولي فبز سابقيه جميعا فيما اتجه إليه من سبحات صوفية ! وكان فضولي صوفيا حقيقيا فتحدث عن أذواقه ومواجيده ، كما يحسها بتجربته الذاتية وجعل قيسا صورة منه ! ومن هنا كان اهتمامه به أكثر من اهتمامه بليلاه ! ولا نتحدث عن مسرحية شوقي فهي بين أيدي القراء ! وقد صيغت للحب البدوي الخالص بعيدة عن منازع الصوفية ، ولم تتقدم خطوة أخرى لتعالج معضلات ينضح بها عصر أمير الشعراء .

أمل وارتقاب

لعلنا بعد أن ألمحنا إلى موجات التطور في قصة المجنون نرى من أدباء السودان أو من أدباء العالم العربي من يقفز بقصة تاجوج ومحلق قفزة فنية صاعدة ، فيتخذ من أحداثها معارج صاعدة إلى تحليل عاطفي يشرح معاني الحمية والغيرة والقطيعة والانتقام والوحشية والأنانية وغيرها من الصفات التي تزخر بها القصة السودانية ! لأن سطور القصة كما أوجزناها من قبل تتسع إلى تحليل هذه المعاني بما ضمت من أحداث مفاجئة ! ونهاية فاجعة ! وبذلك ننقذ هذه القصة من الهوان الذي لحقها في الفيلم السينمائي ونجعلها قمينة 'بالعناية وجديرة بأن تقرن بقصتي روميو وجوليت وليلى والمجنون .

مي زيادة .. الخطيبة

سيتحدثون عن ميّ ، ويطيلون الحديث عن ندوتها الأدبية التي تلألأت في سمائها نجوم الأدب والفكر في مصر ، إذ كانت ميّ هي البدر المتألق بين النجوم ، وما سطعت هذا السطوع بين أعلام الأدب إلا لسموها الفكري ، ونظرها الموضوعي ، وقيادة الحوار المتشعب إلى حيث لا يجد مجالا للاصطدام ، ولن تبلغ هذه المنزلة غير أديبة ممتازة تدسّستْ إلى أهواء النفوس ، فرصدت الخلجات الدفينة ، واستنطقت الأحاسيس الصامتة ، وشهدت مسار العواطف الغامضة في نبضاتها البعيدة طيَّ العروق ، وبهذه القدرة الفائقة صارت ميّ خطيبة الشرق الأولى ، لأن أول خصائص الخطيب المحلق ، أن يعرف أهواء سامعيه ، وأن يضرب على أوتار قلوبهم بما تتحرك له المشاعر النائمة فتهب من رقدتها على صوت النذير ، هكذا كانت تقف ميّ الشابة الصغيرة في المحفل الجهير ، وقد تَقدّمَها أعلام النثر والشعر من الكهول الوعاة ، فَتُنسي من تقدم ، وتسدل الستار على من تأخر ، ويخرج المستمعون ليتحدثوا عن ميّ وحدها ! لم تكن مي بدعا في جمالها الجسمي ، حتى يقال إن أريج حواء قد عطّر الأفق بعبيرها ! فقد رأينا مَنْ تُماثل ميّ في جمال الصورة ، ثم تتحدث في الجمع ، أو تكتب في

الصحيفة ، أو تؤلف الكتاب فلا تجد معشار ما تبلغه خطبة واحدة من خطب ميّ ، لأن شعاع الحسن الذي تلألأ في عينها ، وطافت هالته الوضيئة بمحياها الأسمر الشفيف ، قد ماثل شعاعا ثانيا في روحها المتألقة ذات الشفافية الرفّافة ، وشعاعا ثالثا في عقلها المكتمل الذي يتعمق المعضلة المظلمة تعمقا يحاصرها بالضوء الكاسح حتى تنجلي بيّنةً ساطعة ، وبهذه المواهب المجتمعة كانت ميّ ساحرة البيان في عصر يزدحم بأمراء البيان ، ولو كان المجال خاليا لقلنا إنها وحدها كانت فارسة الحلبة ، فكسبت الرهان ، ولكن الحلبة صاخبة ، والفرسان متزاحمون .

شهادة صريحة

وقد يتعاظم أبناء هذا الجيل ما نقرر من هذه الحقيقة ، فيظنون أن المبالغة قد عرفت سبيلها إلى هذا القلم ، ولكني أستشهد بسواي ، وإذا كان المستشهد به هو الدكتور طه حسين ، فقد بَطُلَ الظن ، لأن الناقد الكبير لا يغلو في الثناء ، وقد عرفناه شديد المحاسبة في مجال النقد ، فإذا أفصح عن كل ما أريده في وضوح ساطع ، وإذا جاء هذا الإفصاح بعد رحيل ميّ بعشر سنوات ، حين بدأ يكتب الجزء الثالث من الأيام في مقالات نشرت بمجلة آخر ساعة قبل أن تُجمع في كتاب ، إذا أفصح الدكتور طه عن تأثير ميّ الخِطابيّ بما لا بيان بعده ، فكل ما يقال عن تفرّدِها الأدبي ، وسموها الخطابي حقٌّ صريح .

أخذت ميّ تنشر مقالاتها الرقيقة في صحيفة والدها ، لتترك صدى محدودا في نفوس القارئين ، ولكن مناسبة جهيرة فسحت لها الطريق إلى الذيوع الرنان ، حين قامت الدولة بتكريم الشاعر الكبير خليل مطران في حفل رسمي تحت رعاية الخديوي عباس ، إذ رأس الحفل شقيق الخديوي نيابة عنه ، وحضر العلية من الوزراء ورجال الأدب والصحافة والقضاء ، وفريق من وجهاء الشام وشعرائه ، وقد بعث الكاتب المهجري جبران خليل جبران بكلمة كان من حظّه الباسم أن تلقيها الآنسة ميّ ، وأن تضيف إليها تعليقا خاصا بها ، يحمل تقديرها لمطران ، ولثاني مرة ، بعد موقف باحثة البادية في المؤتمر الرسمي بمصر - يرى الجمهور فتاة نابغة تنطق الفصحى في روعة خالبة ، وتؤدي حق الإلقاء إيماءً وإشارة ، وخفوتا وجهرا ، وتمهلا وإسراعا وفق مقتضيات السياق ، مع صباحة الوجه ، وموسيقى الصوت ، ورشاقة القامة ، فإذا انتهت كلمة جبران ، ومضت في إلقاء كلمتها فقد بادهت السامعين بنموذج من التصوير الأدبي الفاتن كاد أن يُخمِلَ حديث جبران ! وقد وقف طه حسين بإزائه موقف الحائر الداهش ، وإنه ليصدق التعبير عن نفسه حين يقول :

«كان شقيق الخديوي الأمير محمد علي رئيسا للاحتفال ، وقد آثر الفتى - أي طه حسين - شهود ذلك الحفل ، وفيه سمع كثيرا من الشعر ، وكثيرا من الخطب ، فلم يحفل بشيء

مما سمع ، لم يعجبه حافظ في ذلك المقام ، ولم تعجبه قصيدة مطران .. لم يرض الفتى عن شيء مما سمع ، إلا صوتا واحدا ، سمعه فاضطرب اضطرابا شديدا ، وأرِقَ له ليلته تلك ، كان الصوت نحيلا ضئيلا ، وكان عذبا رائقا ، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ في خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل ، ولم يفهم الفتى من حديثِ ذلك الصوت العذب شيئا ، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث ، كان صوت الآنسة ميّ التي تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى ، ولم يستطع الفتى حين أصبح من ليلته أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة ـ أحمد لطفي السيد ـ وقد جلس إليه ، فقال له ، وسمع منه ، ثم مايزال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران ، وحتى انتهى إلى ذكر الفتاة التي تحدثت فيه ، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك ، وقد سأله مدير الجريدة عما قالت الفتاة فلم يحسن ردا وأثنى الأستاذ على مي ووعد الفتى بأن يزورها معه ، وابتهج الفتى بهذا الوعد ، وإن لم يُعرب عن ابتهاجه ، وظل يرقب البرَّ به ، ولكن الأستاذ نسيه واستحيا الفتى أن يُذكره ، فحمل نفسه على المكروه ، وأعرض عن ذكر مي» .

من كلمة مي فى مطران

تتحدث ميّ في محافلها الأدبية بلغة الشاعر المصوّر ، وهذا موضع الإبداع في حديثها ، إذ أَلِف الجمهور أن تكون

الخطبة تقريرية تلجأ إلى الإقناع بذكر الحقائق مع تَوْشيةٍ بلاغية للفكرة تميل بها إلى الاستمتاع مع الإقناع ، أما أن يكون الخطيب شاعرا عالي السبح ، بعيد الخيال ، رنان الموسيقى ، فتلك مأثرة انفردت بها ميّ لعهدها ، وعرفها الأدباء عنها ، فهم يترقبونها في المحافل شاعرة دون قافية وبحر ، وهي تعرف مجال التأثير في نفوس أحبت الخطبة الشاعرة ، وكرهت القصيدة الخطيبة ، وقد صدق طه حسين حين قال : إنه لم يفهم عنها ، لأن طرافة منحاها قد فاجأه بما لم يكن يتوقع ! كان يتوقع أن تتحدث ميّ الخطيبة عن مجالي السبق في شعر مطران ، تعبيرا وتصويرا وفكرة ولكنها علّقت على كلمة جبران ، وهي أيضا من منحى ميّ ، تعليق الناقد المصور ، قائلة إن حديثه التصويري مازال يرن على أبواب فؤادها ، مُنبها في أعماقه قوة اكتفت بالإصغاء أولا ثم بالهمس ثانيا ثم بالترنم ثالثا ثم استحالت إلى صوت إنسيٍّ ينقل إلى عالم السمع سرائر التأثيراتِ الوجدانية ،

إن النبوغ شعلة آلهية تضيء الظلمات ، غير أن تلك القوة السامية تذبل وتجف ، وتموت إن لم تجد التأييد ، وينعشها أرباب البلاد ، تنطفيء إن لم تلق نسيم استحسان ، تتغذى من عنصره السري ، وتنمو بجوهره النارّي ، فإذا لم تتح لتلك الشعلة قوة ذاتية تُغذيها وتنميها إلى حين فهي لا تلبث حتى تحرِق نفسها بنفسها

مطفئة لهيبها بدموعها ، مبيدة حياتها بيأسها ، وكانت الشعوب هي الخاسرة .

أيها الشاعر العذب . كم من ليلة غادرت العالم الحسيَّ لأطير معك إلى تلك العوالم البعيدة ، المملوءة نورا وطربا ، كم ليلة قضيتها منحنية على كُلومك الشعرية أرقب دماء أحزانك السائلة أنغاما ، وأستنشق رائحة دموعك ، وأحلل ألوان أشجانك ، ولأشجانك ألوان بديعة ساحرة ، كألوان الشروق والغروب ، ولدموعك أريج عطر مسكر كأرواح الزنبق والفل والياسمين .

لقد فاجأت ميّ سامعيها بهذا الشعر المنثور سنة ١٩١٣ فرن وتر جديد لا يشابه أوتار الخطباء ، ومازال وترها يرن في نمطه المنفرد رنينا مشجيا دفع الشاعر الكبير أحمد محرم أن يقول عنه متسائلا :

مِن أيّ جنس أنت يا طير الربي
إن الطيور كثيرة الأجناس ؟
دنيا من الآداب لم تر مثلها
دنيا أمية أو بني العباس

خصائص خطابية

رفرفت روح الخطابة التصويرية في أكثر إنتاج ميّ ، رفرفت في المقالة الأدبية ، والمقالة النقدية ، بل ظهرت في بعض ما نشرت بالهلال والمقتطف من أقاصيص ، لأن

الشجرة الفارعة اليانعة التي أسقطت هذه الثمار نبتت في أرض واحدة ، وسُقيت بماء واحد ، وأنا حين أقرأ مقالاتها الأدبية أتصور أنها كانت تكتبها بصوت مسموع ، وكانت تعيد قراءة السطر بعد السطر ، كما يعيد الشاعر بيته ساعة النظم لتجعل من أذنيها الموسيقية ميزانا دقيق الإيقاع ، وهكذا جاء بيان ميّ ، عذب التلوين ، شجيّ الإيقاع ، هذا إلى توهج انفعاله البارز أحيانا ، والمستتر حينا آخر ، بحيث لا يغيب عن وعي القارىء الفاحص ، مهما تكدس الرماد فوق اللهيب .

لقد تحدث مؤرخو ميّ عن أسلوبها الخطابي ، وهو أسلوب تندرج تحته المحاضرات التي ألقتها في شتى الأندية ، إذ أن الذاتية دائما تطفو على الموضوعية في أكثر ما تتعرض له من بحوث ، وقد يستنكر ذلك من يظن البحث الموضوعي حجارة يرصف بعضها فوق بعض حتى ينهض بناء يتصف بالمتانة ، وإن بَعُدت عنه معاني الجمال ، ولئن جاز ذلك في البحوث الخاصة بالعلوم البحتة ، فإن الدراسات الانسانية تجبر كاتبها الحساس على أن يُفْصِحَ عن ذات نفسه ، بحيث ينبع الكثير من آرائه متدفقا من تأمله الوجداني ، ومسايرا تأمله العقلي ، ومن هنا ينفرد الباحث بلون لا يتماثل ، وهو في هذا المجال باحث فنان ، وكذلك كانت ميّ ، أجل لقد تحدث مؤرخو ميّ عن أسلوبها الخطابي فأعطوه قسطه من الإيضاح ، فالدكتور منصور فهمي يقول عن ميّ :

«لا أعدُو الحق إذا قلت إنها كانت خطيبة ومحاضرة من أرقى طراز ، ولعل أسبابا اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان ، فقد كان لها في عذوبة صوتها ، وحُسْنِ أدائها ، وحلاوة إلقائها ، ووسامتها وحسن سماتها مُعينٌ على ذلك ، وكانت تميزها حين تقف للخطابة في حفل ، أو للمحاضرة في جمع ، ثقة في نفسها ، واعتداد بشخصيتها ، فما عرفت أنها تهيّبتْ منبرا ، أو خشيت موقفا ، أو غشيتها سحابة من جبن ، أو جلّلتها غمامةٌ من خوف ، بل كانت دائما الواثقة بنفسها» .

وقد نقلت الأديبة الباحثة وداد سكاكيني كلام الدكتور منصور فهمي وزادت فقالت :

على أن أستاذنا المرحوم الدكتور منصور لم يذكر من أسباب تفوقها براعتها في اختيار الموضوع الموافق لوعي المستمعين لها ، ولا ثقافتها الواسعة التي يحتويها موضوعها ، لقد كانت ميّ في خطابها تعرف كيف تتكلم ، وكيف تنتهي من كلامها ، فلا يملّ سامعها ، بل يتطلب في سره المزيد ، أما صوتها الرخيم المنغوم ، في لهجتها المصرية العذبة ، فكان ذا سحر يجتذب الأسماع والقلوب ، وكم من خطيب أو محاضر ، أوتي خصائص الفكر والكلام ، ولكنه إذا تصدى للخطابة أو المحاضرة ، تسلل الخدر إلى الأذهان ، ودب الضجر في النفوس .

ولعل الشاعر الكبير خليل مطران كان أسدَّ بيانا وأدق تحديدا حين قال عن أسلوب ميّ :

أين ذاك الصوت الذي يملك الأسما
عَ في كل موقف تقفينا ؟
فهو آنا يبث بثّاً رقيقا
يملأ النفس رحمة وحنينا
وهو آناً يثور ثورة حُرِّ
عاصفا عصفة تدك الحصونا
بكلام حَوىَ الطريفين تنغيما
كما يُستحب أو تلوينا
قدرته لفظا ولحظا وإيماءً
بما ودّت المُنى أن يَكُونا !

وكيف ننسى قول العقاد !

أين في المحفل مي يا صحاب
عوّدتنا ها هنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب
مستجيب حين يُدعى مستجاب

الموضوعات المطروقة

يضطر الكاتب في أحيان ما أن يتحدث في موضوع كَتَبَ فيه من قبل ، وليس لديه الجديد بشأنه ، فيعمد إلى بعض التكرار ، وقد لا يستطيع الاعتذار لظروف تُلجئه إلى الحديث ، بل قد يكون الأمر من الصعوبة بالغا حدّهُ ، حين

يكون قارئه غير مختلف ، أو يكون الموضوع نفسه مما لا يتحمل الترداد ، لِوضوح أغراضه ، وشيوع معانيه ، وهذا أمر معهود نلمسه في كل حين ، وهو في الوقت نفسه موضع البراعة لدى قلم متجدد ، تنفسح الآفاق أمامه ليترامى إلى أوج جديد ، وقد قُدّر للآنسة ميّ أن تخطب في الجمعيات الخيرية لتتحدث في موضوع واحد هو الإحسان ! ولا أظن حديثا كررته الألسنة ، ولاكته الأقلام ، كهذا الموضوع ، والخطيب المسئول يقع في حرج ، حين يطالع سامعيه في احتفال عام بكلام ساقه من قبل ، ولكن الآنسة ميّ قد استطاعت أن تجعل من هذا الموضوع المنبريّ رافدا جديدا للنظر ، فلها خُطب كثيرة سيقت هذا المساق ، إذ كانت تُسرع لإجابة الداعي دون تلبث ، إذ أن جماعات البر في طنطا والقاهرة وسوريا أهابت بها أن تتكلم ، بل إن بعض هذه الجماعات أهابت بها أن تكرر الكلام في مناسبات متتالية ، وهنا يرى السامع عجبا أيّ عجب ، في استحداث الطريف الرائع ، في موضوع تليد !

فهي في خُطبة أولى ترى الرحمة بالضعيف مجال التقدير الخلقي ، ومناط الارتقاء النفسي ، وترد في قوة على من يقولون إن الأشياء العظيمة تنحدر من الأعالي ، لأن في هذا القول تملقا للكبار ، وازدراء للصغار ، فهناك أشياء رائعة آتيةٌ من الأعماق لا من القمم ، وهل من محيط أدنى مستوى وأعمق قرارا من البحر ، والبحر مستودع اللآليء

والعجائب ، وهو مرضع الينابيع والأنهار ثم هو ينبوع أفيح تمتص منه الشمس ما تعقده في الجو غيوما ، لتهطله على الأرض بركة وخيرا .

فبنت الفاقة ، وبنت الألم لن تكونا ضعيفتين لأنهما في أسفل المحيط ، بل هما البحر الإنساني وفي أعماقهما المجهولة كثير من الكنوز ، ولابد أن نرعاهما ، ولئن ضاعت دموع كثيرة تسكبها الانسانية في الظلام تحت لواحظ الكواكب الصامتة فلن تضيع دموع عرفتها نفوس خيرة فهبت للإنقاذ» .

وهي في خطبة ثانية تدعو إلى ترابط الأقلية مع الأكثرية ، فلابد لذوي الثراء أن يفيضوا بخيرهم على الضعفاء ، ثم تلجأ إلى التصوير البارع فتتساءل :

«ماهو النهر أيها السادة ، لن يكون النهر نهرا إذا انبثق من مصدره ، وانصب في البحر دفعة واحدة ، إنما يتفجر ينبوع النهر من أعالي الجبال ، فيهرول مقهقها على الصخور ، ويتدفق وسط الشواجن الخضراء ، ويجري في الصحاري لتعود رياضا وجنات ! يُرضع الأشجار بتغلغله في صدر الأرض الملتهب ، ويغذي الأثمار بالنمير العذب ، وكلما وزع من مياهه زاد اتساعا وحركة وهديرا ، فيتابع السير إلى مداه في عطاء وكرم ، حتى إذا جلب النفع للكائنات وملأ الديار خيرا وجمالا ، رأى البحر منبسطا لاحتضانه فشهق شهقة الرضى ، وانصبّ في صدر البحر مهللا مكبرا ،

كذلك عاطفة الأخوة لا تكون حقيقية إلا إذا خرجت من حيز القول إلى العمل ، تتفجر عذوبتها على الذرى ، وتجري نهرا كريما بين طبقات المجتمع ، ترفع المسكين من بؤْس الفاقه وتنشر ضياء الرجاء لعيون أظلمتها أحداث الليالي ، فكم من درة في أعماق البحر لم تسرَّ بها النواظر ، وكم من زهرة سطعت في القفز فضاع عبيرها جزافا في الخلاء» .

وهي في خطبة ثالثة تدعو الأخذ بيد الضعيف فتقول في لهفة :

«لقد مرت ملايين الأعوام ، وألوف الدهور ، والطبيعة صماء ، لا تلين لصراخ الضعفاء ، وزفير المتوجعين ونبضات قلبها الكبير لا تضرب إلا على وفق نبضات القلوب المنتصرة ، وكأن أصواتها الكثيرة ، تهتف للصاعد في سلم الغلبة ، وتشجعه فيدوس أعناق المندحرين متخذا من جماجمهم مَراقي يصل بها إلى القمة المنشودة ، هذا هو ناموس تنازع البقاء ، ناموس جائر إلا انه قاهر ، ألا سُكِبَتْ عليك البركات يا قلوبا سمت بكرمها ، فأدركت أن فوق نظام الظلم نظام الرحمة ، وأسبغت عليك النعم ، يا أيدي الشفقة والإحسان ، لأنك تكونين الحلقة الإنسانية الذهبية المتعالية في الطبيعة .

هذه شذرات من خطب ثلاث في موضوع واحد !! شذرات تنبع من عاطفة ثرة لا ينضب لها معين ، بل يظل ينبوعها

يجيش ويتدفق ويهدر ، لأنه يفيض من قلب نبيل ! ينبوع له صفاء البدر ، ونفاسة اللؤلؤ ، ودفء الشمس ، ونفح العبير .

الشفق الغارب

وأعني بالشفق الغارب آخر محاضرة ألقتها ميّ في جمع حاشد من أعيان لبنان بالجامعة الأمريكية هناك ، بعد أن قضت محنتها الدامية متهمة بالجنون ، وبعد أن شربت المرَّ من كأس القريب ، وجفاء الصديق ، وحياد الزميل ، وإن شنيعا كل الشناعة أن ترمي بالجنون فُدْما متوحشا من قطاع الطريق ، وهو عاقل واع ، فكيف ترمى به إنسانة شاعرة بلغت أرق ما تبلغه النسمة العاطرة من لطف شفاف ، لقد كان من نكبات العبقرية أن تُحتجز ميّ في مستشفى العصفورية وهي متقدة الشعور ، قوية الإحساس ، متيقظة التفكير ، تفطن إلى مدبّ الذرِّ فوق حذائها ، فكيف لا تقدحها الكارثة المزعومة وقد أُلصقت بعقلها المنير .

لقد شاءت أن تُثبت للملأ فداحة ما اتُّهمت به فألقت محاضرة ممتازة عن رسالة الأديب في الحياة ، العربية ، واتسع لها المجال قرابة ساعتين لتتحدث في قوة دافقة ، ومقدرة ساطية عن رسالة الأدب في الحياة ، فرسالة

الأديب في رأي المحاضرة النابغة تُعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستبعدها ونستخدمها ، وأنه لا يكفي أن نضغط على الزرّ الكهربائي لننال سحرى النتائج . ولا يكفي أن نمتطي الطائرة لنبلغ أبعد الآماد في ساعات ، لأن الحضارة الآلية التي ألفناها تحتاج إلى رسالة أدبية تدعمها ، تستند إلى الشعور الحي والوجدان المتيقظ ، وترعى تراث الآباء ، باحثين عن الكمال ، نازعين إلى الحس الأدبي ، والجمال الروحي مُناجين المتطور وغير المتطور لنجعل من حياتنا المتناثرة حياة متناسقة متماسكة !

خاطرة من مصطفى عبدالرازق

ظهرت مجلة السفور الأدبية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان محمد حسين هيكل ومنصور فهمي وطه حسين ومصطفى عبدالرازق وأحمد حسن الزيات وعبدالحميد حمدي من صفوة كُتّابها ، وقد تحدثت عنها حينئذ الآنسة ميّ فقالت : أما السفور فجريدة حَرِيّةٌ بكل اهتمام ، ينشر فيها مقالات شائقة كاتبان هما من خيرة كتابنا ومن أدقهم فكرا وأعمقهم نفسا» .

قالت ذلك ميّ ، فدفعت الأستاذ مصطفى عبدالرازق إلى أن يقول : كل من له صلة بالسفور قد اغتبط بشهادة الآنسة الفاضلة ، ولكن الذي تنازعوا فيه هو تلك الزهرات التي نثرتها يد الآنسة على رأسيْ كاتبيْنِ لم تُعيّنْهما .

لقد خفت أن تقع الشحناء بين محرري السفور فيأخذ بعضهم بخناق بعض تسابقا إلى ذلك الفضل العظيم ، فضل الثناء من آنسة مجلة المحروسة .

إن الثناء من الآنسة جدير أن يُرسل الخيلاء إلى أشد الناس تواضعا ، وأكثرهم ورعا ، وجدير بأن يتدافع إليه بالرّاح من لا يتزاحمون على جزاء من الناس !

تلك خاطرة صادقة تبرز قيمة ميّ لدى أعلام الفكر في الأدب المعاصر ، كما أبرز رحيلها العاجل حسرة أليمة لدى من يعرفون معدنها الأصيل .

كثير عزة بين الصدق والافتعال

إذا رأيت حديقة ناضرة الأفنان منسقة الأزهار تأخذ مرائيها المتعددة من نفسك ما يأخذ الحسن المنضّد من نفوس ذوي الذوق الناقد ، والبصيرة الكاشفة ، فإنك تجزم ببراعة غارسها ، وتحمد له هندسته الأنيقة ، وبراعته الفائقة فهو بستاني قدير في رأيك لا يزحزح مكانته من تقديرك أن قادحا يثلمه ، وقد رأيت بعينك ما أبدع من روض وشاد من جمال .

كذلك تقرأ ما أبقت الأيام من غزل كثير فتلمس قوة العاطفة ، ولوعة الحيرة ، وتحس وهج الحرمان يلفحك ويكربك ، فتعتقد أن الشاعر ينقل عن مهجة حرى ، ويصدر عن إحساس صارخ ، فإذا قال لك قائل بعد ذلك أن كثيرا ليس بالغزل الصادق ، أو العاشق الملتاع ، فإن ما قرأت من آثاره الرائعة ، يعفي على كل ما يرجف به الكاتبون في أمر هذا الرجل ! حيث انه ابتلى في القديم والحديث بمن كذبوه في إحساسه ، وأنزلوه عن قدره حين أخرجوه من زمرة الغزلين على غير بصيرة هادية ! وجاء بعض ناقدي العصر الحديث فأكد ذلك تأكيد المتيقن غير المستريب ولكنك تقرأ ما بقي من شعر الرجل ، فتصيح بهؤلاء جميعا : لست معكم ياقوم ، فإن الوثيقة الصادقة الباقية من مأثوره تنطق بغير ماتدعون !

نحن نعلم حديث النسيب في صدور القصائد العربية من قديمة ومولدة ! ونعرف أن كثيرا ممن استفتحوا القصائد بالنسيب قد صدروا عن غير تجربة فاحتذوا وقلدوا ليسيروا على النهج المألوف في القول ، ونحن نقرأ أشعارهم الغزلية مبتسمين عاذرين ، فالقوم يوجدون لكل مقال كلامه ! وقد عالجوا الغزل دون عاطفة جائشة ! فأتوا بما يستطيع الذهن أن يلفقه من كلام تسنده السليقة والدربة والأناة أفكان كثير أحد هؤلاء إذ قال عن غير وجدان ؟

إننا حين نحتكم إلى تاريخ أدبنا العربي نجد أن الشاعر قد يكون زعيم شعراء عصره ، ثم لا تبلغه هذه الزعامة المرموقة أن يحسن الغزل إذ كانت حياته الشخصية لم تسمح لعاطفته أن تتقد بالحب اتقادا ينضح باللوعة فتنهل وراءه قوافي الغزل صادقة حية ! ثم هو مع ذلك يقول النسيب مكثرا مطيلا فلا يستطيع أن يعد من رجاله ، إذ حاكى وتخيل دون أن يصدر عن صدق وأصالة ، ولديك المتنبي في القديم وشوقي في الحديث فكلا الشاعرين زعيم شعراء عصره ، وكلاهما قد ألم بحديث الحب في كثير مما قال ، ولكنك تدرس غزل الشاعرين فلا تجد له من الحظوة في نفسك مثل ما لغيره من الأغراض الأخرى ! وما كان كثير البدوي في شاعريته بأقوى من المتنبي المطبوع ، وشوقي الملهم ، ولكن غزله الجميل يرتفع إلى أحسن ما يروى للعذريين من الغزل ! فكيف يكون في منطق ناقديه ، كاذب

الاحساس يصدر في نسيبه عن تزوير واختلاق ! أليس قصاراه لو كان كذلك أن يأتي بمثل ما نظم المتنبي في القديم وشوقي في الحديث في باب الغزل ؟ فإذا نطقت آثاره الباقية بأصالته العميقة ، وتجاربه الرائعة ، فكيف تساق إليه الاتهامات الظالمة من عهد ابن سلام الجمحي وأبي عبيدة وأبي الفرج إلى عهد طـه حسين دون أن ننظـر بصدق واخلاص إلى روائعه الجميلة !

لقد ابتلى كثير بمحبوبة خادعة ، لم تشأ أن تخلص له الحب ، أو تقاسمه الصبـوة ، ومن حقها الطبيعي أن تعرض عمن لا تميل إليه ، وأن تتوجه بقلبها حيث تريد ، ولكنها إلى جانب ذلك كانت حريصة كل الحرص على نباهة الاسم وذيوع الصيت ، فهي ترى الأشعار الرقيقة ترن كل رنين في أنحاء الجزيرة العربية بأسماء بثينة ولبنى وليلى ، وتعلم أن الخيال يضفي على أمثال هؤلاء من الاعجاب والتقدير ما يجعلهن مهوى الأفئدة ومتطلع العيون ، وها هي ذي ترزق شاعرا بارع القصيد ، يشيد بمحـاسنها ويتدله في حبها ، ويردد اسمها بين الناس ، فلابـد من مخادعته ببعض القول لتشتعل نيران صبوته ويظن نفسه أمام ما يمتد لعينه من خيوط الأمل بطلا يخوض معركة حارة لم تلبث أن يكتب له فيها النجاح بعد حين ، ولكن نفورها النفسي منه كرجل ـ لا كشاعر ـ كان يميل بها إلى الذبذبة والاضطراب في معاملتها إياه ، لذلك وقع الشاعر في

حيرة من أمره معها ، وأخذ يخلو إلى نفسه خلوات طويلة ليتبين حقيقة موقفها منه في ضوء ما يبدو من تناقض البعد والصد ، والود والبغض والاطراء والسب وانه ليفصح عن حيرته الحالكة حين يقول :

وددت ومـــا تغني الـــودادة أنني
بمـــا في ضميـــر الحـــاجبيـــة عـــالم
فـــإن كـــان خيـــرا ســـرني وعلمتـــه
وإن كـــان شـــــرا فلتلمني اللوائم
ومـــا ذكـــرتـــك النفس إلا تفـــرقت
فـــــريقين منهـــا عـــاذر لي ولائم
فـــريق أبى أن يقبـــل الضيم عنـــوة
وآخـــر منهـــا قـــابـــل الضيم راغم

فأنت تراه يطالع من ضميرها حجابا مستورا لا يشف عن معنى صريح ، والعاشق مهما اشتدت حوالك يأسه فهو يترقب الأمل من خلال اليأس كما ينتظر شعاع الفجر في حندس الليل ، وذلك ما يلوح من قوله فإن كان خيرا سرني وعلمته ، أما لوعة الصراع المرير في انقسام نفسه إلى فريقين مختلفين ، فريق يأبى الضيم وفريق يلعن الاستسلام ، فقد كشفت عن حروب أهلية تدور رحاها بين ضلوع الشاعر العاشق !، حرب لا تفتأ تثور بين الحين والحين ثم لا تنتهي عن غير أشلاء ممزقة ودماء منزوفة ودموع سائلة ، فإذا هدأت قليلا بكلمة معسولة أو بسمة

زائفة فإنها تشتعل من جديد لما تبديه الخادعة من دلائل الصدود وأفانين الاحتيال ، ولك أن تتصور خداعها البارع بما هتف به كثير حين قال :

وأدنيتني حتى إذا مـــــا ملكتني
بقــول يحــل العصم سهــل الأبــاطــح
تنـــــــــاءيت عني حين لا لي حيلة
وغــادرت مــا غــادرت بين الجــوانــح

والعاشق كما قلنا من قبل ، أقرب إلى الأمل منه إلى اليأس فهو يفسر بشعوره الخاص كل تصرف يحتمل وجهين مختلفين تفسيرا يميل به إلى التفاؤل ويظل وراء عاطفته اللاهية متطلعا إلى مستقبل رغد يذوق فيه حلاوة اللقاء ، وها هي ذي عزة تدنيه حتى تملكه بقول يحل العصم سهل الأباطح فإذا ما انتشت نفسه بما هيىء له من أمل وجد القسوة الصارمة حين ليس له حيلة فيما طرأ من صدود . إن كثيرا ليتعاظمه أن ينقطع حديث الأمل فجأة ، ويظن أن الوشاة قد وجدوا سبيلهم إلى قلب صاحبته فحولوه وبدلوه . وما درى أنه قلب مخادع لعوب يعبث به عبث النكباء بالرمال في يوم عاصف مواج ، لذلك يكابد الرجل مأساته حين يضيق به الوجه فيتوجه إلى بيت صاحبته دون أن يستطيع ولوجه ! وأنى وكيف ؟ وهو لا يملك أن يكون صاحب المنزل يلجه كيف يشاء ! ثم هاهم أولاء رواة الزور يتربصون به السوء في كل خطوة ليسودوا صحيفته

أو ليزيدوا سوادها في عين عزة فلا يسعه إلا أن يصد وبه مثل الجنون بعد أن قاده الهوى واستعجلته بوادر الدموع . وهو في مأساته المشتعلة يسأل عن بائع يشتري منه بعض الصبر ليجد تثبيتا لفؤاده في مهب الصراع وذلك ما يفصح عنه حين يقول :

أمنقطع ياعز ماكان بيننا
وشاجرني ياعز فيك الشواجر
إذا قيل هذا بيت عزة قادني
إليه الهوى واستعجلتني البوادر
أصد وبي مثل الجنون لكي يرى
رواة الخنا أني لبيتك هاجر
ألا ليت حظي منك ياعز أنني
إذا بنت باع الصبر لي عنك تاجر

وكأن الرجل ـ وراء أمله الخادع ـ لا ينثني أو لا يريد أن ينثني عن لقاء صاحبته ، فالأنباء تأتيه أنه معرض للخطر إن ألم بديار عزة ، ولكنه يقارن بين خطر اللقاء ، وخطر البعاد ، فيجد المجازفة بالإلمام أجدى السبل إلى تسكين نوازعه وتهدئة ثوائره ، فيدع عنه كل خوف يعترض سبيله ويشل قدميه ويصيح صيحة المجازف غير المكترث فيقول :

يقول العدا ياعز قد حال دونكم
شجاع على ظهر الطريق مصمم

وأقسم لـــو كـــانت أمـــامي دونكم
جهنم مـــــا راعت فؤادي جهنم
وكيف يـروع القلب يـاعـز رائـع
ووجهـك في الـظلمـاء للسفـر معلم
ومـا ظلمتك النفس يـاعز في الهـوى
فـلا تنقمي حبي فمـا فيـه منقم

وإذا كانت جهنم لا تروعه ، وهو يرحب باصطلاء نيرانها طلبا للقاء حبيبته فإنه وراء هذه المخاطرة المتكررة في تعقب عزة لا يفتأ ينتقل من مكان إلى مكان حين يعلم أن ركبها ميمم هذا الطريق أو يقيل في هذا المنعرج ، وانه لتساءل تساءل المتعجب كيف ألف هذه الأمكنة التي ترودها صاحبته ولم تكن له بمألف أو كيف أحب أرضا لم يعهدها من قبل ، ثم تغلبه دموعه فيفتضح أمره بين معاشره ، ويميل إلى المداراة فيعلن أن عينه مريضة فهي تسيل لما بها من القذى لا لشيء آخر يعتمل في أطوائه .. ولعله كابد من نفسه هولا حين أجبر على هذا التبرير جبرا يفضحه واقعه ، ويفهمه عارفوه ، ولكنه مع ذلك يصرح به صراحة من لا يخشى المواجهة بالتكذيب حين يهتف .

وأنت التي حببت شعبي إلى بـــدا
الي وأوطـاني بـلاد ســواهمـا
وحلت بهـــذا حلة ثم أصبحت
بـأخـرى فـطاب الـواديـان كـلاهمـا

إذا ذرفت عينـــاي أعتـــل بـــالقـــذى
وعــزة لـو يــدري الـطبيب قــذاهمــا

فلو تــــذرفــان الــدمــع منــذ استهلتـا
عــلى إثـر جــازي نعمــة لجــــزاهمـا

والبيت الأخير من الأعاجيب ، فالشاعر يعلن أنه لو ذرف تلك الدموع على ذاهب من المحسنين لقام من مرقده ليجزيه الوفاء ! ولكن عزة لا تبالي ما يريق من دمع صبيب ! وصدق الاحساس في كل ما ذكرته من شعر الرجل أوضح من أن يتناول بتوهين ، فإن هذه المعاني الانسانية ما كانت لتفد على خاطر يفتعل ويلفق ، ولكنها جذوات مشتعلة يتقد بها قلب مصهور ، ذلك القلب الذي يحس الاحساس الفطري الهادىء حين يخدعه الابتسام الخلوب في بعض ما يتخيله من أوقات الصفاء ، فيهتف بهذا السهل الممتنع وكأنه تحدر من أعماقه دون أن يجهد في صياغته بعض الجهد !

وهو مع ذلك يعبر عن تجربة ملموسة يعـرفها ذوو القلوب معرفة لا تقبل الجحود ، وذلك حين يقول :

نـــظرت إليهــا نــظرة مــا يســرني
بهــا حمـــر أنعــام البــلاد وســودهــا

وكنت إذا مــازرت سعـــدي بـــأرضهــا
أرى الأرض تـطوي لي ويـدنـو بعيدهــا

من الخفـــرات البيض ود جليسهـــا
إذا مـا انقضت أحـدوثـة لو تعيـدها
هـــل الخلد مـــا دامت لأهلك جـــارة
وهـــل دام في الـــدنيـا لنفس خلودهـا
ولست وإن أوعـــدت فيهـــا بمنتـــه
وإن أوقـــدت نـــار وشب وقـــودهـا
إذا ذكـــرتهـا النفس جنت بـذكـرهـا
وريعت وحنت ، واستخف جليـدهـا
فكيف يـــود القلب من لم تـــوده
بلى قد تـريد النفس من لايـريدهـا
فـأصبحت ذا نفسين نفس مـريضـة
من اليـأس مـا ينفـك هم يعـودهـا
ونفس إذا مـا كنت وحـدي تقـطعت
كما انسل من ذات النـظام فـريـدها
فلم تبـد لي يأسـا ففي اليـأس راحـة
ولم تبـد لي جـودا فينفـع جـودهـا

وقاريء هذه الأبيات يرى فيها تأكيدا آخر لما ذكرناه من هبوب الصراع الهادم في نفس الرجل ، فالنفس التي تتحول نفسين مختلفتين لن تعيش في هدوء ، بل إن اصطخابهما المعتلج بين اليأس والأمل ، والرضا والتبرم ، والاقبال والصدود ، مما يهدم عوامل الثبات ويدفع بالعاشق إلى

حيرة مضطربة كان باعثها الاصيل تناقض ما يشهد من أعاجيب .

فلم تبـد لي يأسـا ففي اليـأس راحـة
ولم تبـد لي جـودا فينفـع جـودهـا

وقد ألمعت إلى سهولة السرد في هذه الأبيات و في غيرها من غزل كثير ، لأتحدث عن شيء هام يتعلق بالشاعر ، إذ أن كثيرا قد يترك السهولة إلى الجزالة في بعض ما ينظم ، وقد ظن الدكتور طه حسين أن ذلك مدعاة إفلاس عاطفي يعتصم بقوة الديباجة وحدها وذلك حين قال في الجزء الأول من حديث الأربعاء «واني أختم هذا الحديث بهذه الأبيات التي تكاد تكون وحدها كل مابقي من غزل كثير ، و أنا أرى أن فيها من جودة اللفظ ورصانة الأسلوب شيئا كثيرا ، ولكنها خالية خلوا تاما من صدق اللهجة وحرارة العاطفة» ، ثم استشهد الدكتور بأبيات من قصيدته الذائعة .

خليـلي هــذا ربــع عــزة فـاعقـلا
قلوصيكمـــا ثم ابكيــــا حيث حلت

و أنا لا أدري كيف يكون ما اختاره الدكتور من لامية كثير هذه يكاد يكون كل ما بقي من غزله !

فأين إذن ما تردد عنه في كتب الأدب الكثيرة وما سجل في ديوانه مما استشهدنا الآن ببعض نماذجه ، ثم لا أدري كيف تكون جودة اللفظ ورصانة الأسلوب في القصيدة

حائلين دون صدق اللهجة ، وحرارة العاطفة وهما من الوضوح بحيث لا يخفيان على ناقد متواضع فضلا عن ناقد جهير كالدكتور طه حسين ! قد تجد في هذه القصيدة الرائعة بعض العواطف المشتركة في مثل قوله :

خليـلي هــذا ربــع عــزة فــاعقــلا
قلوصيكمـــا ثم ابكيـــا حيث حلت
ومــا كنت أدري قبل عــزة مــا البكــا
ولا مــوجعــات القلب حتى تــولت
وكــانت لقــطع الحبــل بيني وبينهــا
كنــاذرة نــذرا وفت فــأحلت
أباحت حمى لم يـرعـه الناس قبلهـا
وحلت قــلاعــا لم تكن قبــل حلت

ولكنك تجد طعم كثير الخاص وعاطفته المنفـردة في أمنيته اليسيرة حين تمني أن يمكث لديها بعض الوقت ثم ينهض ليركب راحلته فيجدها قد شردت ضالة فيضطر إلى البقاء أياما بحجة البحث عن الناقة الضائعة فهو يريد الثواء لديها ، على حين يظن بها مللا من مقامه ، وذلك ما عناه في قوله :

فليت قلوصي عند عــزة قيــدت
بحبــل ضعيف غــر منهــا فضلت
وغــودر في الحي المقيمين رحلهــا
وكــان لهــا بــاع ســواي فبلت

وكنت كـذي رجلين رجـل صحيحـة
ورجـل رمى فيهـا الـزمـان فشلت
أريـد الثـواء عنـدهـا وأظنهـا
إذا مـا أطلنـا عنـدهـا المكث ملت
كـأني أنادي صخـرة حين أعـرضت
من الصمم لـو تمشي بهـا العصم زلت
فـوالله مـا قـاربت إلا تبـاعـدت
بصـرم ولا أكثـرت إلا أقلت
أسيئي بنـا أو أحسني لا ملومـة
لـدينـا ولا مقليـة إن تقلت
يكلفهـا الغيـران شتمي ومـا بهـا
هـواني ولكن للمليـك استـذلت
هنيئـا مـريئـا غيـر داء مخـامـر
لعـزة من أعـراضنـا مـا استحلت

فإن لم يكن صدق العاطفة وحرارة اللهجة مما تنضح به هذه الأبيات فإننا نرجو أن نوفق إلى من يقنعنا بـرأي الدكتور عن برهان ، على أني لا أجد فيما استشهدت به الآن من فخامة الأسلوب ما يقف حائلا دون الصدق ، وقد يكون الأسلوب فخما رصينا كل الرصانة في مثل قوله :

واني وتهيـامي بعـزة بعـد مـا
تخليت عمـا بيننـا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما
تبوأ منها للمقيل اضمحلت
كأني وإياها سحابة ممحل
رجاها فلما جاوزته استهلت
فإن سأل الواشون فيم هجرتها
فقل نفس حر سليت فتسلت
تمنيتها حتى إذا ما رأيتها
رأيت المنايا شرعا قد أظلت

ولكن فخامة الأسلوب ورصانته مما لا يحولان دون صدق العاطفة وحرارتها واخلاصها ، وكم من شعر سهل يفتقد الحرارة والصدق ، ولم تكن الجزالة ضربة لازب على المتكلفين وإنما هي احدى صور النفوس في اتجاهاتها التعبيرية ، وإذا كان كثير أجزل من رفاقه الغزليين فلكل منحاه .

ولعلي الآن بحاجة إلى أن أشير إلى ما أعنيه من اشتراك العاطفة في بعض غزل كثير ، وانفرادها في بعضه الآخر فأقول : إن الشاعر الصادق مضطر أن يسجل عواطفه كما تعتمل في نفسه ، فهو أحيانا يتحدث عن أمور عامة يحسها سواه ، وأحيانا ينفرد باحساسات خاصة يتوحد بمعاناتها ، وسبيله في الحالين أن يفصح في شعره عن شخصية معلومة تنفرد بمذاقها الخاص ولونها الموسوم ولا كذلك أدعياء النسيب فإنهم يفصحون عن العواطف

المشتركة وحدها دون أن ينفرد واحد منهم بحس خاص فلا تهتز لايحائه ، وقد يطالعك بجودة مبناه وإحكام تركيبه ولكنك تتساءل عما وراء ذلك فتخرج صفر اليدين مما تقرأ ، فهل كان كثير كذلك في حديثه عن العواطف المشتركة أولا وفي حديثه عن العواطف الخاصة ثانيا ! أو أنه يسير في غير هذا الطريق ، لقد شاهد عزة ذات يوم تتهيأ للرحيل ولم يستطع لبعض ملابساته أن يصافحها مصافحة الوداع ، بل اكتفى أن ينظر إلى العير المؤذنة بالرحيل على بعد ، وأخذ يحس لذع النار باكيا غير صابر فماذا قال عن هذه التجربة المألوفة تجربة حبيب يرحل دون توديع ! ، لنسمع منه

ندمت على ما فاتني يوم بنتم
فواحسرتا ألا يرين غليلي

أقيمي فإن الغور ياعز بعدكم
إليّ إذا ما بنت غير جميل

كفى حزنا للعين أن رد طرفها
لعزة عيس آذنت برحيل

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا
فقلت البكا أشفى اذن لغليلي

تأوهت محزونا وقلت لصاحبي
أقاتلتي ليلى بغير قتيل

فالندم على فوات الوداع ، ونزوع العيس طائرة بقلب العاشق إلى حيث لا يعلم ، والتخيير بين الصبر والبكاء ؟

وترقب الفناء القاتل بعد الرحيل .. كل ذلك من العواطف المشتركة بين الناس جميعا في مثل هذا الموقف ، ولكن التعبير على نحو ما قال كثير يتضمن لهفة تلمسها في اختيار الكلمات وايحاء المعاني ، وحرارة النبض حتى لكأنك تسمع عاشقا يزفر لا شاعرا يتكلم ومثل ذلك لا يتاح لشاعر كاذب الاحساس فإذا انتقلنا من العواطف المشتركة إلى الاحساس الخاص في القصيدة نفسها ، فإنك تجد عاشقا ذا ميول ذاتية و إحساس منفرد ، فالرجل يرى حبيبته تبخل وتضن وهو مع ذلك موكل بكل بخيل ضنين وهو أيضا لا يرضى لنفسه بالنائل القليل كما لا يرضى لحبيبته تلك القلة في النوال ، ثم يرسم حدود الخليل الذي يرتضيه في أعماقه ! ذلك الوصول غير الملول ! والحريص غير المتساهل ولا ينسى بعد ذلك أن يصور تناقض ما بينه و بين لائميه حين يصدرون في لومه عن عقل ما إليه من سبيل عنده ، فيقول :

فـــلا تعجـــلي يـــا ليـــل أن تتفهمي
بنصـــح أتى الـــواشـــون أم بخبـــول
فـــإن طبت نفسا بـــالعطاء فـــأجـــزلي
وخيـــر العـــطا يـــاليـــل كـــل جـــزيـــل
وإن تبخـــلي يـــا ليـــل عني فـــإنني
مـــــوكلة نفسي بكـــــل بخيـــــل
ولست بـــراض عن خليـــلي بنـــائـــل
قليـــــل ولا راض لـــــه بقليـــــل

وليس خليلي بالملول ولا الذي
إذا غبت عنه باعني بخليل
ولم أر من ليلى نوالا أعده
ألا ربما طالبت غير منيل
يلومك في ليلى وعقلك عندها
أناس ولم تذهب لهم بعقول

فتلك عواطف كابدها الشاعر ضائقا متبرما قبل أن تقيدها الأبيات ، وقد يجول شيء منها في خاطر عاشق غيره ، ولكنه ينتزعها باديء ذي بدء من صميم نفسه ، وكانت من الوضوح بحيث تركها تنساب سهلة ميسرة في نظم لا يحرص على براعة النسج قدر ما يحرص على الصدق في ترجمة الشعور ، وعلى الصراخ المتأوه لما يعاني من أغلال .. ونسأل لماذا كان كثير موضع التهمة في صدقه العاطفي ؟ ومجال السخرية من بعض المتحدثين ؟ إن أمورا كثيرة تعاونت على الارجاف بالشاعر المسكين ارجافا لا حيلة له معه ، فقد كان على نصيب من الدمامة يشيح بالعين عن تقديره الباده . ومن أبعد ما يكون تقدير الدميم في ميدان الصبابة والغزل والعشق والتحبب إلى الحسان ، فالرجل كان قصيرا إلى حد يوحي بالسخرية والتهكم ، يقول بعض من رآه يطوف بالبيت : من حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب ، وكان إذا دخل على عبدالعزيز بن مروان بادره بقوله على سبيل التهكم : تقاصر لا يصب رأسك السقف كما

يروون أنه شاتم الحزين الكناني فمال عليه ورفعه بيد واحدة من الأرض فكان في كفه كالكرة ! وإلى قصره كان قبيح الوجه بشع الدمامة وقد حدث بعض الرواة أنه كان أعور يرى بعين واحدة ، ولم يكن على حظ موفور من المال ، ولا بذي نسب في الفاخرين عريق ، فبأي عين ينظر الناس إلى قصير دميم أعور فقير اليد ، ضعيف الحسب في بيئة تقدر الأصول والأنساب ! انهم يرون أن مثله لا يتهيأ لعاطفته أن تتوهج بالشوق ، فهو كاذب فيما يدعيه ، وأن لسانه لا يمكن أن يجري بالغزل الصادق ، ولو دققوا النظر بعض التدقيق لعلموا أن عيوبه الجسمية أدعى لاذكاء عاطفته واتقاد شوقه وأوحى للسانه بالشعر الصادق ، فالعاشق الممتع برضا حبيبته لوسامة منظره ، وعراقة أصله وثراء يده يبيت في بعض أحواله على هدوء لا تعصف به الأعاصير كما كان عمر بن أبي ربيعة مثلا مع صويحباته . وإذا كان الاستشهاد بعمر المتقلب النزعات المتصنع الأهواء لا يقع موقعه من الاقناع في هذا المجال ، فإن الاستشهاد بجميل بن معمر أقرب وأنسب ، فقد كان صبيح الوجه ، طويل القامة زاهيا يروع من يراه ، وكان به نسب وحسب ، وقد كانت مأساته مع بثينة لأمور لا ترجع إلى شخصه وأسرته وماله ، بل ترجع إلى ما تعورف عليه من بعض التقاليد ، فإذا كان كثير عاشقا كجميل ، وقدر عليهما معا أن يحاربا في غرامهما الصادق ، فأيهما ـ وفق المنطق ـ يكون أكثر لوعة وأوهج حرارة ؟ أذلك الذي يحظى بقبول العامة

والخاصة ويتأكد ابلغ التأكيد من حب صاحبته بثينة ، ثم تتيح لهما الأيام أويقات للشكوى المتبادلة ، واللوعة المتشابهة ، أم ذلك المزدري المجفو ، الذي لا يجد من فرص اللقاء غير هنيهات غامضة لا ينجلي أفقها على وجه صريح ، فهو تارة موضع المهادنة والقبول ، وتارات كثيرة موضع التنقص والازدراء .. وممن ؟ لو كان ذلك ـ كما كان كائنا فعلا ـ من الناس وحدهم لهان عليه ولكنه من ملهمته ومالكة أمره وسالبة نهاه . أي الحالين أدعى للحرارة المشتعلة ، والقلق الممتد ، والكبد المحترقة ؟ لاشك أن مأساة كثير أدمى للقلب ، وأدعى للهياج والاتقاد ، ولسنا بذلك نزعم أن جميلا كان هادىء اللوعة ولكننا نوازن بين رجلين تجاريا في ميدان واحد ، وتحمل أحدهما أكثر مما تحمل صاحبه من بواعث اللهفة والحسرة والأنين ، وقد أحس كثير أتم الاحساس بمحنته الجسمية ، وأخذ يدافع عن نفسه بمنطق إن أقنع ذوي الحكمة والتجربة من الشيوخ فلن يرضي نواهد الغيد وفواتن الحسان حيث يقول :

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه
فيخلف ظنك الرجل الطرير
وقد عظم البعير بغير لب
فلم يستغن بالعظم البعير

يقـــــوده الصبي بكـــــل أرض
وينحـــره عــلى التــرب الصغيـــر
فمـــا عـــظم الــرجــال لهم بـــزين
ولكن زينهم كـــــرم وخيـــــر

أو يقول :

فـــإن أك معـــروق العـــظام فـــانني
إذا وُزن الاقـــوام بـــالقـــوم وازن
واني لمـــا استـــودعتني من أمـــانـــة
إذا ضـــاعت الأســـرار للســـر دافن
وأحمـــل في ليـــلي لقـــوم ضغينـــة
وتحمـــل في ليـــلي عـــلى الضغـــائن !

ثم أنه إلى دمامته الكريهة ، قد أوتي بعض الحمق في قوله وفعله ، ونحن نعترف أن حماقة النفس لا تنقص حظ الشاعر من جودة القول ، لأن الحماقة كالجنون أمر متقطع لا يلبث أن تهدأ ثورته ، وإذ ذاك يفيء الشاعر إلى عقله المتزن فينشيء القصيد الجميل ، وإذا كان جنون قيس بن الملوح لم يمنعه أن يجيد الشعر في أكثر ما قال فإن حماقة كثير لم تمنعه أن يجيد الشعر في كل ما قال بل أؤكد أن حماقته تلك كانت وليدة تفوقه الشعري ، فقد نظر كثير إلى قصائده فوجدها ترتفع إلى اعلى مستوى يراه الناس في عصره ثم لا يكادون يظهرون له من التقدير والاعجاب ما

يكافيء طاقته البارعة ، فاضطر إلى الاشادة بنفسه إشادة لم تجد ما يعصمها من الشطط فأورثته حماقة رعناء .

يذكرون أنه كان يدخل على عمة له برزة فتكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها ، فقال لها يوما ، ما تعرفينني أبدا ولا تكرمينني حق كرامتي ! فقالت بلى والله اني لأعرفك ، قال فمن أنا ، فقالت ابن فلان وابن فلانة وجعلت تمدح أباه وأمه ، فقال قد علمت أنك لا تعرفينني ، فقالت ومن أنت ؟ فقال أنا يونس ، وكان يتيه في مشيته ، ويظهر التكبر والخيلاء ، فتحدث بعض الخبثاء بمسمع منه أنه لتيهه لا يلتفت وراءه ولو نزع رداؤه ، فسر لذلك ثم قام يمشي الخيلاء فاندفع الخبيث ينزع رداءه عنه فلم يلتفت إليه وسار بقميصه وحده ! وقد يكون ذلك صحيحا ، وقد يكون مدسوسا عليه ، إذ أن ما يضاف إلى كل أحمق من القول والفعل أكثر مما يبديه . وقد حكى طلحة بن عبدالله فقال :

ما رأيت قط أحمق من كثير ، دخلت عليه في نفر من قريش ، وكنا كثيرا ما نهزأ به ، وكان يتشيع تشيعا قبيحا ، فقلت له : كيف تجدك يا أبا صخر ؟ فقال أجدني ذاهبا ، فقلت كلا ؟ فقال هل سمعتم الناس يقولون شيئا عني فقلت نعم : يتحدثون أنك الدجال قال : أما لئن قلت ذلك اني لأجد في عيني هذه ضعفا منذ أيام .

هذا بعض ما تنوقل عنه وقد يدحض هذه الرواية ما قيل

في وصف كثير أنه أعور إذ كونه يجد في عينه ضعفا منذ أيام مما ينطق بسلامتها من قبل . ولعل الشاعر أراد أن يتبسط مع صاحبه فجاراه تفكها لا حمقا . ومهما يكن من امر فنحن لا ننكر ما أجمع عليه الرواة من حمقه ولكننا نشك في أنه كله صحيح غير مفترى أو متزيد .

وإذا كان تكوينه الجسمي وحمقه العقلي قد ساعدا على التندر به والتهوين من شعره الغزلي فقد أضيف اليهما معتقده السياسي ، فقد كان يتشيع تشيعا غير معقول إذ يقول بالرجعة وعودة الوصى ثم لا يمنعه اغراقه في التشيع أن يتجه إلى قصور دمشق فيمدح خلفاء بني أمية مدحا مغرقا ، وهم لحصافتهم السياسية يقبلون منه ما يقول ، لأنه يعطيهم وثيقة قوية تثبت أن فريقا من المتشيعين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، بل انهم يرون أن اشادة خصومهم في الرأي بحكومتهم المتمكنة وسلطانهم الممتد ، مما يزيد في قدرهم ، ويعلى من كلمتهم ، والحق ما شهدت به الأعداء ، لذلك كان عبدالملك بن مروان يطرى شعره ويقول انه يسبق السحر ، وهو على بينة من معتقده الشيعي فقد ذكر أبو الفرج ما خلاصته أن عبدالملك حين خرج لحرب مصعب بن الزبير نظر فوجد كثيرا يسير مطرق الرأس في ناحية من عسكره فدعا به وقال له انى لأعلم ما أسكتك وألقى عليك بثك فان اخبرتك عنه تصدقنى قال والله لأصدقنك ؟ قال تقول : رجلان من قريش يلقى أحدهما

صاحبه فيحاربه ، والقاتل والمقتول منهما في النار فما معنى مسيري مع أحدهما إلى الآخر لا آمن سهما عابرا لعله أن يصيبني فيقتلني فأكون معهما ؟ فقال والله ما أخطأت ما بنفسي قال فارجع من قريب وآمر له بجائزة !

وإذن فكثير قد أعان على نفسه بحمقه واغراقه في مبالغات التشيع ، ولجوئه إلى خصوم مذهبه السياسي يمدحهم بقول لا يعتقده ! فوق ما أعانت عليه دمامة الوجه . وضآلة الجسم ضآلة جعلته قزما شأنها بين كثير من العماليق ! فكان لذلك في منطق البعض كاذب الاحساس في النسيب !

نعم ، إن الشاعر كان يجلس إلى غير عزة ويحادثها ، وقد هام في بعض أيامه بأخرى : ولكن ذلك لم يمنع صدق احساسه حين اتجه بعاطفته إلى عزة ، وإذا كان جميل في منطق هؤلاء أصدق عاشق يفصح عن ضمير مخلص فانه قال في بعض ما نظم :

وما استطرفت عيني حديثا لخلة
أسر به إلا حديثك أطرف

فلم يمنعه استطرافه لحديث شائق من خلة غير بثينة أن يكون صادق العاطفة بازائها ، بل قد يكون اللجوء إلى غير المعشوقة بابا للخلاص من كرب يأخذ بالخناق ومتنفسا يحاول أن يجد فيه المجهود مجالا لبعض الفرج مما يغشاه على نحو ما قال المجنون .

تســـلى بليـــلى غيــرهـــا فـــإذا التى
تســـلى بهـــا تغــرى بليـــلى ولا تســـلى

وإن تيار العواطف لأبعد غورا وأعمق قاعا من أن يحكم على باطنه بما يتراءى على السطح الظاهر من سمات وإذا كنا نقرأ شعر كثير فنحس بلظى النار يشتعل متوهجا فى كل ما قال ، أفلا يكون ذلك أصدق دليل على عاطفة يلهبها الحرمان ، ويذكيها الاخفاق مع دلالته على أصالته الشاعرية وامتلاك البيان !

المجلات الأدبية ورعاية الناشئين

أحسنت مجلة الهلال حين أصدرت باب «أنت والهلال» لتقدم فيه بعض آثار المتطلعين إلى المجد الأدبي من شباب المدارس والجامعات ، ولتعقب على بعض ما يوجب التعقيب ، بالتصحيح الموجه ، والتشجيع الحافز ، وعهدي برئيس تحريرها الفاضل الأستاذ كمال النجمي ذا سبق أدبي كريم في هذا المنحى الحميد ، فقد تطوّع بضع سنوات لتسديد أقلام الناشئين في مجلة العالم العربي ، وثبت لعواصف شديدة هبّت عليه لاصراره على نمط بليغ من الشعر والنثر ، كما أذكر أن مجلة الهلال قد أصدرت في بعض سنواتها ملحقا أدبيا للناشئة أسمته بالزهور ولكنه اهتصر قبل أن يؤتي أكله ، وكذلك فعل أخي الدكتور عبدالعزيز الدسوقي حين أصدر نادي الثقافة في بعض صفحات المجلة ، ولكن ضيق بعض الكاتبين به قد عجّل بطيه ، وبقيت الحاجة ماسة إلى توجيه الأقلام الصاعدة ، لأن السكوت المطبق عن أداء هذه الرسالة الحافزة يدفع باليأس إلى قلوب آملة ذات براعم غضة تتلمس طريقها إلى التفتح في روض الفن فلا تجد الندى المسعف أو الشعاع الدافئ ، وقد تتصوح أسفا حين يذوي الغصن ، ويذبل الورق قبل أن يعبق الأريج ، لذلك كان الأخذ بأيدي الناشئة فرضا محتوما على من يملكون الاذاعة والتوجيه .

مجلة الأدب

وأذكر بالخير في هذا المجال مجلة الأدب ، التي قام على إصدارها المغفور له الأستاذ أمين الخولي عدة سنوات ألزم نفسه بقراءة كل ما يفد إليه ممن كان يسميهم الشباب الواعد ، ثم التعقيب على أكثر ما يصل إليه في صفحات تتوالى في سخاء لتظهر توجيه الكاتب الكبير وعطفه ، ولكن الأستاذ الخولي صاحب مذهب أدبي يصر على الدعوة إليه في إلحاح ، ويزن ما يفد إليه بميزان مذهبه ، وقد يقسو في التعليق قسوة توهي العزائم المتطلعة ، إذ يرى القسوة باب الحزم الراشد ، ولو كنت مكانه لأغمضت عن الكثير رغبة في شحذ النفوس ، وبعثا للهمم ، ومهما يكن من تدقيقه فقد أدى ضريبة الأستاذية أحسن أداء ، ولا ننكر عليه وعلى من نهجوا نهجه أنهم ضحوا بكثير من الوقت الطيب مجاهدين لغيرهم لا لأنفسهم ، إذ كان من الهيّن عليهم أن يملئوا هذا الوقت بانتاج خاص يذكر لهم في مضمار التأليف ، ولكن واجب الإيثار قد عصمهم من الأثرة المريضة التي نشاهدها لدى نفر من ذوي الرأي يدورون حول أنفسهم فلا يتجاوزون ، وهم بعد من قادة الفكر وأئمة البيان .

رافدان يجفان

وقد كان للناشئة رافدان حيويان ، يجدون فيهما متنفسا لما يضمرون من الخواطر ، ويكنّون من الأحاسيس ، وهما

الجرائد الاقليمية ، والصحف المدرسية ، ولكن عوامل خاصة قد عطلت رسالتيهما الأصيلة ، وانصرفت بهما إلى حيث يكونان بمثابة نشرات رسمية توهم أنها ملأت فراغا ، مع أن الفراغ لم يُشغَلْ مهما كثرت هذه النشرات ، فالصحف الاقليمية الآن أصبح همها الأول هو الإشادة بالرسميين في المحافظة ، ونشر الأحاديث لكبار المسئولين مُحلاة بصورهم ، ومجاراة الصحف اليومية في الكلام عن مشروعات لم تعرف خطوات التنفيذ على وجه سريع ! وقد كانت صحف الأقاليم من قبل ذات احتفاء بالمواهب الأدبية فجريدة البصير بالاسكندرية كانت تصدر صفحة «الحياة الأدبية» مليئة بالزاد الدسم ، وقل ما شئت في صحف اقليمية أخرى ذات تأثير قوي ، كالإنذار والشفق والمجتمع وأخبار دمياط والنادي وبحر يوسف والإصلاح ، بل إن مدينة صغيرة كبلقاس كانت تصدر ثلاث صحائف هي الوفاق والواجب والنهار ، وكان زعماء مصر إذ ذاك يمدّونها بأحاديثهم فتسارع صحف العاصمة إلى نقلها أو تلخيصها ! ونحن اليوم نرى صحف الاقاليم ذات اعتمادات قوية ، ولكن أكثر القائمين عليها موظفون لا مفكرون وفاقد الشيء لا يعطيه .

أما الصحف المدرسية فقد أصابتها العدوى ، فأصبحت سجلا لنشاط واقعي أو موهوم دون أن تتسع لخواطر الناشئة ، وقد كانت صحف المدارس من قبل حقلا خصيبا

للتجارب العلمية والأدبية ، بل كان من هذه الصحف ما يعدّ مراجع علمية ! لقد أصدرت مدرسة ثانوية بالإسكندرية مجلتها في خمسمائة صفحة لتسجل تاريخ الاسكندرية على مدّ العصور بأقلام الطلاب تحت رعاية أساتذتهم المدرسين ، وكذلك فعلت مدرسة المنصورة الثانوية في بعض سنيها الغابرة ، ووجدت هاتان المدرستان من ناشئة الطلاب من بحث وجمع واكتشف وحقق في ضوء التوجيه الراشد من رجال التعليم ! فهلمّ الآن لنقرأ أكثر ما يصدر من صحف المدارس لنرى أخبار الرحلات وصور مدير الادارة وناظر المدرسة ، ونتفا من مستهلكات الجرائد اليومية ! وإذا رأيت موضوعات ما فهي مفروضة على الطالب لا ليبحث عنها بل لينسخها من مجلة أو جريدة !! ولست أريد أن أبخس جهد العاملين ، فهم قلة إلى جوار المصفقين ، ولابد أن نصف الداء لنصل إلى الدواء .

الثقافة والرسالة

تصدرت مجلتا الثقافة والرسالة في دنيا الفكر والفن أمدا غير قصير ، وكان لهما من النفوذ الأدبي ما رفعهما في نفوس أبناء العروبة ، ولكن موقفهما من شباب الأدباء فضلا عن الناشئين من النبت الجديد كان مدعاة أخذ ورد في نقاش لم ينقطع لأن القائمين على تحريرهما من كبار الأدباء حقا ، ولهم زملاء من ذوي المكانة يأخذون موضع الحظوة

والاحتفاء ، فإذا حاول أدباء الصف الثاني أن يأخذوا مثل موضعهم المتقدم لمحوا مالا يرضون من التراخي الماطل ، وقد ارتفعت الأصوات عاتبة حينا والصيحات غاضبة حينا آخر ، فوجدت من الرد الصريح ما أسفر عن بعض الحقائق ، أذكر أن أحد أدباء كتاب الشباب ، وهو الأستاذ محمود المنجوري كتب للاستاذ أحمد أمين خطابا نشر بمجلة الثقافة العدد (٢١٧) قال فيه : (إن أدباء الطليعة يناشدون شيوخ الآدب أن يعاونوهم في أداء رسالتهم أداء صحيحا ، وألا يحجبوهم عن المسرح ، وإلا شقوا لأنفسهم الطريق ، واشتجرت بين الشباب والشيوخ خصومة أدبية ليس ينبغي أن تقوم في حياتنا الأدبية ، أرجو أن يسع حلم أساتذتنا هذه الآمال وأن يرحبوا بها وأن يعملوا على إيجاد هذا الجو الطيب لإبراز أدباء جدد ، حتى لا تفقر الحياة الأدبية في مصر من الخَلق والابتكار !) .

وقد أجاب الأستاذ أحمد أمين ، ورد عليه ناقده ، فأجاب على الرد ، وكان مما قال صاحب الثقافة (العدد ٢٢٠) «أيريد الشباب أن تكون المجلات والجرائد كراسات إنشاء يتعلم فيها الشباب مايكتب حتى يتم مدة تمرينه ، وقد يكون هذا اقتراحا في محلّه لو أن القرّاء أفسحوا صدورهم وأقبلوا على قراءة موضوعات الانشاء من غير ملل ، ولم ينصرفوا عن المجلة سريعا ، أو يريدون أن يكتبوا ما يشاءون ويملئوا البلاد حُبا مائعا وغزلا ذائبا وأدبا لاهيا ، فإذا قال لهم

الشيوخ جددوا بجانب لهوكم وراقبوا الأخلاق في أدبكم قالوا : إن الشيوخ يحجبونهم عن المسرح» .

وكلام الدكتور أحمد أمين محتاج إلى تعليق ليس هنا موضعه ، ولكننا نأخذ منه ما يدل على ارتفاع صيحات الأخذ والرد حول أدب الشباب وقيام الحوائل دونه . وموقف الثقافة مماثل في ذلك لموقف الرسالة لأن الأصوات حاصرت الأستاذ أحمد حسن الزيات في أكثر من مناسبة حتى اضطر الكاتب البليغ أن يقول بالعدد (٦٤٠) من مجلة الرسالة .

(إن الرسالة بشهادة الواقع مجلة الأدب العربي في جميع أقطاره ، لا تؤثر قائلا على قائل إلا لإجادته ولا تنشر مقالا دون مقال إلا لجودته ، لها مستوى لا تنزل عنه ، ومقياس لا تتسامح فيه ، وهي لذلك لا تؤمن بتشجيع الضعيف ، ولا تقول بمجاملة القوي وفي سبيل هذا المبدأ السليم القويم تعرضت لمكاره الحق من جفاء الكريم وسفه اللئيم وصلف المغتر) .

وهبوب هذا الغبار الثائر لا يمنع أن نقول بلسان الواقع إن كثيرا من الأدب الجيد في ميداني الشعر والقصة كان يصادف الاهمال من مجلة الرسالة ، لأن العدد الواحد لا ينشر أكثر من قصة واحدة أو قصيدتين في الأكثر الغالب ، وقد يأتي البريد مزدحما بعدة قصائد ، على حين يتقدم شاعر من أسرة الرسالة كمحمود اسماعيل أو علي محمود

طه أو ابراهيم ناجي أو محمود غنيم بقصيدة يتسلمها رئيس التحرير بيده فتعفيه من قراءة البريد الشعري جملة ! وما يقال عن الشعر يقال عن القصة ، والرجل معذور لأنه وحده هو الذي يقرأ ويختار دون معين .

أذكر أن قوارص الاحتجاج قد وجهت للأستاذ الزيات شعرا لعدم استيعاب الرسالة لما يفد إليها من القصائد الجيدة ، كما أذكر أن أحد شعراء الشباب عاتب الأستاذ محتدا فقال له في هدوء : عندك أبيات مكسورة ، فخرج منفعلا ليرسل إليه قصيدة مطلعها :

أقصائدي مكسورة الأبيات
ياشد ما ألقى من الزيات

وشفعها بغيرها . ثم دفعه التبرم إلى الهجاء الصريح في مثل قوله الصارخ عن شعره :

سلام عليه يوم جاءك باسما
فقابله من وجهك الجهم بَاسِرُه

أديبان كبيران

وفي الناحية المقابلة للأستاذين أحمد أمين وأحمد حسن الزيات أذكر أستاذين كبيرين كان لهما الفضل الكبير في تعضيد الناشئين ، والأخذ بأيديهم ، والسهر على رعاية كل نبتة غضة لينمو العود ، ويورق الغصن ، هما الأستاذ انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام والأستاذ محمد فريد

وجدي صاحب جريدة الدستور ومجلة الحياة ثم رأس تحرير مجلة الأزهر لأكثر من عشرين عاما !

كان الأستاذ أنطون الجميل يخص نفرا من محرري الأهرام بقراءة الوارد من أدب الناشئين شعرا ونثرا لاختيار بعض ما يصلح للنشر تشجيعا للأقلام الصاعدة ، وقد حرص على أن تصدر صحيفة الآداب والعلوم والفنون يوميا لتقدم الجديد من أدب الشباب بالذات إذ أن اختيار مقتطفات لشاب متطلع كفيل بأن يسير به إلى آخر الشوط حين يرى الأهرام تحفل به وتختار من قوله ! وكان الجميل يراجع ما يمكن نشره من الأدب الناهض ليفسح له المجال للتنويه ، على حين يرجيء نشر كثير من قصائد المشهورين ! سمعت هذا فلم أصدق ، ولكني وجدت الأستاذ أحمد الزين ينشر في ديوانه خطابا للأستاذ الجميل قال فيه : إنه يذكّره بقصيدة الابتسامة التي أرجأ الأستاذ نشرها معتلا بأنها .. متى قدمت كانت أعتق وأحلى ، مما اضطر الزين إلى قوله : «وأحسب أن تلك القصيدة قد بلغت عتقها إذا رأيتم ذلك» ! وقد راجعت قصيدة الابتسامة في ديوان الزين فوجدتها من عيون الشعر العربي ومنها قوله :

يا لَورد تشع فيه الثنايا
بسنا يسحر القلوب ويسبي
لو ضممت الشفاه ضنا علينا
نفذت بالسنا إلى كل لب

يـــاثنـــايـــا كـــأنهـــا في صفـــاء
بَـــرد ســـاقـــطتـــه أنـــداء سحب
فلّجت بينهـــا منـــافســـة الحسن
فـــكل بحـــظه منـــــه ينبي
أبسمي للمقـــل يستصغـــر الكـــو
ن بمـــا فيـــه من ثـــراء وكسب
أبسمي لي إذا ســـــألت لقـــاء
بسمـــة منـــك لـــو تشـــائين حسبي !

ومقدمة الجميل لديوان شاعر البراري تعلن احتفاله بأبيات الشاعر المتواضع حين عرفه مِنْ بريد الأهرام يقول الجميل (وظل شاعر البراري يوافينا الفينة بعد الفنية بأبيات تتراوح بين الخمسة والستة ، وقلما تتجاوز السبعة أو الثمانية ، فتجد دائما لها مكانا للنشر على ضيق المكان بين أخبار الحرب وأنباء السياسة ، فتبدو كالابتسامة الوضاءة بين غيوم هذه وفواجع تلك ، لأن موضوعها كان دائما مستمدا من عذوبة الطبيعة وجمال مناظرها) .

محمد فريد وجدي

كنا ونحن طلاب بالمعاهد الدينية الثانوية نُصدر كتبا صغيرة ، يضم كل كتيّب طائفة من المنظوم والمنثور تصور أحلام المراهقة ومطامح الصبا ، ونفقات طبع الكتيب

الواحد حينئذ لا تتجاوز خمسة جنيهات يجمعها المؤلف من اشتراكات الزملاء حيث يسهم كل طالب بثلاثة قروش ! وصلة هذا الكلام بموضوعنا هو أن المؤلف الناشيء كان يرسل نسخا للمجلات والجرائد ، فتسكت غالبا عن التنويه ، ولكن الأستاذ محمد فريد وجدي دأب على أن يفرد في مجلة الأزهر حيّزاً كبيرا لتشجيع المؤلف فيبارك جهده ، وينقل من عباراته ، ويدفعه للأمام بعبارات ذات أمل واسع ، وتحار حين تجد الأستاذ الكبير يكتب سطورا معدودة عن كتب المشهورين من الكبار ثم يفرد مقالا لطالب ناشيء ! أذكر أني حين كنت طالبا بالسنة الثالثة من المعهد الابتدائي بدمياط ! أرسلت لمجلة الأزهر مقالا تاريخيا تحت عنوان «إسلام هرقل» لخصت فيه القصة المتداولة في كتب السيرة عن إسلامه ، وانتظرت أن يُنشر المقال ففوجئت بخطاب كبير يصلني ، وبه مقالي مع رد طويل كتبه الأستاذ فريد وجدي ليقول لي إن أكثر التفاصيل المشهورة تحتاج إلى دراسة توضح الزائف من الصحيح وجَعَلَ يرد على فقرات من مقالي ، ثم يقول في النهاية إنه لم يشأ أن يهمل الرد على الطالب الموهوب كيلا ييأس ، ولكنه يدفعه إلى مواصلة البحث ليكون من جنود الإسلام ! وليتني حفظت رد الأستاذ لأعتز به الآن ، إذ كنت في سنّي الصغيرة لا أعرف أني أمام وثيقة أدبية وخلقية نادرة المثال !

وثانية أعرفها ، فقد جاءني أحد موظفي مكاتب البريد بالشرقية ، ومعه أكثر من خمس رسائل طويلة كتبها له

الأستاذ فريد وجدي في عدة صفحات ، لأن الموظف المسيحي كان قد اعترض على مقال له ، فبعث إلى مجلة الأزهر بموضوع غير متزن ، يتعرض إلى شئون المسيحية والاسلام ، فكتب له الأستاذ فريد ردّا خاصا ، وألحّ الموظف في اللجاج فراسل الكاتب الكبير فأخذ يرد عليه ! وقد شرّفني الله بمعرفة الأستاذ فريد وجدي فيما بعد فسألته عن اهتمامه بهذا الموضوع ، فقال في هدوء ، إن المرسل أثار منازع ذات تعصب ، ونشرها يحدث البلبلة دون داع ، ثم السكوت عنه ليس من سمات من يتصدر للاقناع ، فرأيت خروجا من المأزق أن أرد عليه في كتاب خاص ! وتابع التعليق فتابعت الرد ليرتاح ضميري ! ماذا أصنع ؟

إن الصحافة المصرية لم تعرف في تاريخها أشرف وأنبل من إنسانين هما أمين الرافعي ومحمد فريد وجدي .

مقترحات

ونحن بعد هذا الطواف السريع ندعو القائمين بالأمر إلى رعاية الناشئين ، إذ نرى من الضروري أولا أن نخصص صحيفة أدبية في كل جريدة يومية تعنى بثمار الناشئين على أن يكون المشرف عليها أديبا ذا فكر وليس موظفا كما نرى - ثانيا - أن تصدر وزارة الثقافة مجلة للشبيبة لا يكون من همها تلافي الخسارة ، بل تفترض الخسارة المادية في مجال يكون فيه الكسب الأدبي أوفى وأبلغ ، وندعو - ثالثا - إلى

مواصلة إصدار (الكتاب الأول) الذي توقف فجأة بعد أن بشر بخير مرتقب ، على أن يقدم كل كتاب يختار للنشر أديب مشهود الرأي يوجّه في رفق ، وينقد في رعاية ، وإذا كان لي أن أقترح على باب (أنت والهلال) شيئا ، فإني أرجو القائمين عليه ألا يهتموا بمن لا يعرف قواعد النحو واللغة والعروض ، بل يتعين الاهتمام بمن جاوز هذا الدور وبدأ المعاناة الأدبية بَدْأً يوحي بموهبة ويدل على موضع خصب للنماء والاثمار ، وفيما تحدثت به عن الصحف الاقليمية والمجلات المدرسية ما يعين على تصحيح الخطأ وتقرير الصواب .

البشرى يتحدث عن حافظ

كان عبدالعزيز البشري وحافظ ابراهيم صديقين متلازمين ، تجمعهما مجالس الأدب و السمر و أوقات النزهة والرحلة ، وكانت طبيعة الحياة في عصرهما تتيح لهما أن يسمرا الليالي الطوال في منازل العِلية من الوجهاء ، إذ كانت مجالس السمر الليلية تتطلب النديم لمؤنس ، ولن يكون غير أديب خفيف الروح ، حلو الفكاهة حاضر البديهة ، وهي صفات راقية اجتمعت في الأديبين الكبيرين على نحو متفق ، بحيث يحار المرء في تفضيل أحدهما على الآخر إذا عَمَرتْ المجالس برواد السمر وطلاب الأفاكيه ، بل كثيرا ما يكون التنادر على حسابهما ، إذ يعمد أحدهما إلى التندر بصاحبه ، فيُلاقي منه كفئا نديدا ، يصاوله في ميدانه أعنف مصاولة ثم تمضي الليلة وقد خرج الصديقان متصافيينْ ! كأن شيئا لم يكن ، ولا أذكر أني قرأت لحافظ قصيدة أو مقالا عن البشري ، ولكن البشري قد كتب عن حافظ كثيرا ، لأن سبْقَه في الرحيل قد فسح لصاحبه مجال الحديث عنه ، وإن كان رواة الأفاكيه وحفّاظ النوادر قد ذكروا على لسان حافظ بعض النوادر المستطابة التي خصَّ بها صاحبه ، فوجدت من تعليقه ما أكمل بهجتها وسيّرها على الأفواه ، كأن يذكروا أن حافظا زار حديقة الحيوان مع البشري وبعد أن تجولا بها قال حافظ لصاحبه وهما خارجان لدى الباب : حاسب

أحسن يُحوشُوك ! فقال البشري على الفور : وأنت مافيش خوف عليك ، عشان منك كثير ! وقد نظر البشري في المرآة ذات مرة فقال له حافظ وِشَّكْ لا يُرى ولكن يُكنس ! فقال البشري دون مهل وَوِشك يشوفه الناس يرمون له عضمه !! مثل هاتين النادرتين كثير !

المقال الأول

ولم يكتب البشري عن حافظ في حياته غير مقال واحد في باب (المرآة) الذي كان يكتبه أسبوعيا في جريدة السياسة الأسبوعية ، ولكنه كتب عن شوقي أكثر من مقال ، وكان ينادي بتفضيله على شعراء العصر جميعا ، ومن بينهم حافظ ، فيسكت شاعر النيل علـى ضيق ، ويقول بعض خلطاء البشري إنه كان إذا تعمد غيظ حافظ أسهب في الحديث عن شوقي ، وبَادر بزيارته ليروي لشاعر النيل ما شاهد هذا في مجلس أمير الشعراء على مبالغة يعرف موقعها المتبرم من صاحبه ، وفي مقال (المرآة) حديث متهكم عن منظر حافظ ابراهيم يقول فيه البشري «جهم الخلق جهم الجسم كأنما قُدّ من صخرة في فلاة موحشة ، أما ما يُدعى فمه فكأنما شق بعد الخلق شقا ، وأما عيناه فكأنما دُقّتا بمسمارين دَقًّا ، وأما لون بشرته والعياذ بالله ، فكأنما عهد بها إلى نقاش مبتديء تشابهت عليه الأصباغ والألوان ،

فداف أصفرها في أخضرها في أبيضها في بنفسجها ، فخرج مزجا من هذا كله لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب ، وإنك لو نضوت عنه ثيابه ، وألبسته دُرّاعة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جبّةً ضافية ، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات ، لخلته من فورك دِهقانا من دهاقين الفرس الأقدمين ! فإذا جردته كله وأطلقته في البر حَسِبته فيلا ، أو أرسلته في البحر ظننته درفيلا ، ولكن اكشف بعد هذا عن نفسه التي يحتويها كل ذلك ، فلا والله ما النور بعد الظلام ، ولا العافية بعد السقام ، ولا الغنى بعد البؤس ، ولا إدراك المنى بعد طول اليأس ، بأشهى إليك ولا أدخل للسرور عليك من هذا ، حافظ ابراهيم !

حديثان مختلفان

قد كتب البشري مقالا عن حافظ ابراهيم غِبّ رحيله في يوليو سنة ١٩٣٢ ، ومقالا آخر عنه بعد ست سنوات في سنة ١٩٣٨ وبقراءة ما كتب أولا وثانيا نجد وجها للموازنة التي تنفرج عن اختلاف في وجهة النظر ، فالمقال الأول كان تأبينا حارا ينضح باللوعة ويفيض بالحسرة حتى ليظن قارئه أن الكاتب يرثي أعز إنسان في الحياة ، لم يأخذ عليه أدنى شائبة في عمر صداقته التي امتدت إلى أكثر من ربع قرن ! والمقال الثاني يتساءل فيه البشري عن حافظ أكان صديقا أم عدوا ، ويذكر من مبررات الصداقة والعداوة معا

ما يجعله شاكّا مترددا لا يحزم برأي في أمر صاحبه ! وقد يكون صوت العاطفة في المقال الأول ذا سيطرة على الكاتب ، لأن فجاءة الرحيل جعلته يُغضي عن مواقف صاحبه فلا يذكر منها إلا الجميل ، أما صوت العقل فقد وجد طريقه إلى قلم البشري في مقاله الثاني ، حيث وقف موقف القاضي الذي يرصد الحسنات والسيئات معا ! ونحن نعرف أن كل صديق لا يخلو من هنات وقديما قال الشاعر :

ومن ذا الـذي تُرضى سجـايـاه كلهـا
كفى المـرء نبـلا أن تعـد معـايبـه

نعرف جيدا أن لكل صديق مرتفعات راقية ، ومنحدرات هاوية ، ولكن جانب المسرة أوفى وأشمل بحيث يتضاءل بجوار جانب المساءة ! وإلا ماكان صديقا يُشتاق إليه ويُتحسّر على فقده ، فإذا بدرت بعض البوادر السيئة من صديق فإنها تضيع وتنماع في تيار من الحسنات المتلاحقة ! ولكن المقال الثاني جعل الحسنات مماثلة للسيئات ! وكأن الكفتين متعادلتان ، ولا أظن أن رجلا تتعادل سيئاته وحسناته يكون صديقا يُضرب بمودته المثل ، ويَصرخ عليه صاحبه حتى ليكاد يشق ثيابه في مقاله الأول : يُخيل إليّ أن البشري في مقاله الثاني أراد أن يرسم صورة لامتزاج الأحاسيس ، وتنقّل العواطف من النقيض إلى النقيض ، وهذا ما نراه كثيرا على مسرح الحياة ، ثم طُلب إليه أن يتحدث عن صديقه حافظ فتذكر من هفواته القليلة ما حبّب

إليه أن يرسمه في مشهدين مختلفين ! والكاتب في أحوال كثيرة يجري وراء القلم كما أراد ، فليس بسيّد للقلم في كل موقف ! بدليل أن الانسان قد يكتب مقالا هيّأ عناصره في ذهنه ، وأعد أهدافه محددة تامة ، ثم يرى قلمه أثناء الكتابة يخرج عما حدد من عناصر ، ويتجه إلى خواطر لم تكن له في ذهن قبل أن يبدأ الحديث ! هذا ما يحدث كثيرا ، وقد ينكره بعض من يدّعي السيطرة العقلية على يراعه ، ولكنه في رأيي واقع ملموس .

المقال الأول

تَظْهرُ اللوعة الكاوية فيما كتبه البشري عند رحيل حافظ ، وللموت صدمة تذهل العدو فكيف بالصديق ؟ لقد استشعر البشري أعنف لواعج الأسى في اعماق فؤاده فانبرى يسكب دموعه على القرطاس حارة لاهبة ، وقد قال الدكتور محمد حسين هيكل في تقدمةِ المقال بالسياسة الأسبوعية (ألححنا على صديقنا البشري أن يكتب كلمة عن حافظ ، وكان بينهما من الصداقة أكثر مما بين أخويْن فاعتذر مخافة أن يحول اضطراب نفسه دون أداء غرضه ، ولكننا أصررنا ، فأجاب رجاءنا ، فكان هذا الوله الذي يحسُّه القاريء مصوغا في عبارته القوية البليغة) .

بدأ البشري يتساءل عن بُعد حافظ وكيف طاب له المقام دون أصدقائه على ظهر الحياة ، غافلا عما يكابدونه من

شجن ، ومضى يتحدث عن نفسه فيقول (هذه شُعْبةٌ من قلبي قد انخلعت لموتك ، ولعلها دُفنت معك ، وما لها لا تفعل ، وقد كنت بعضي ، وكنت بعضك ، فاعجب لمن جمع بين الموت والحياة ومن تقسّمت هذه الأرض شطريه ، فهذا يدبّ على متنها وهذا مدرج في بطنها ! كيف أصنع في سبع وعشرين سنة هي في مساحة العمر ملاعب الصبا ، وهي بين أشواك الحياة زهر الربّى ها ءنت ذا تُدعى فلا تجيب ! وقد كنت الطلاع في كل مهمة ، الندب عند كل ملمة ، الشادي كلّما تفتّح لأملِ هذا البلد زهره ، النائح كلما كرثه أمره ، وتغيّر له دهره ! لقد سافرت قبل أن تتزود لهذا الذي يُدعى بالموت ، وقبل أن أتزود لهذا الذي يُدعى بالحياة بعدك . فهلا جلسنا معا جلسة نتذاكر فيها العيش في تلك الأيام ! أتذكر إذ كان المترفون يقلبون أعطافهم في ألوان المناعم ، وما اصطلح الناس على أنه من ألوان المناعم ، إذ أنا وأنت لا نغبط أحدا على عيشه ، ولا ننفس على امرىء ما وصله الله به من مال وجاه ، مالنا نفعل ، ونحن بحمد الله سريّانِ حق سريين بما رُزقنا كلانا من محبة وصدق ووفاء ! أتندر عليك ماشاء الله أن أتندر لا أرى عليك برماً ولا تعاظما لهذا الذي أصنع بشاعر النيل ، وتتندرني فلا والله ما أحسست قط نعمة في الدنيا تقوم بإزاء هذا الذي أنا فيه ، فما حاجتنا بعد إلى ما يتكاثر الناس به من جاه أو مال» .

لقد كان البشري شاعرا في نثره فهو يتدسس إلى خوافي نفسه ليبرز مكنونها في وشي ساحر من البيان ! وهو ينسج

من ذكرياته ثوبا رائع الوشي جيد التصوير ليعرض صفحة رائعة من صفحات الصداقة في كتاب الحياة ؛ وقد أسعفه محفوظه الشعري فاستشهد بروائع من البيان العربي تنفس عن موجدة ، وتعبر عن ذكرى كقول تميم بن نويرة :

وكنا كندماني جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا
لطول افتراق لم نبت ليلة معا

والبشري علم من أعلام الاستشهاد الشعري في مقالاته ! وقد قلَّ هذا الاستشهاد فيما نقرأ من مقالات اليوم ، ولا أدري أكان ذلك إفلاسا للذاكرة أو ترفّعا عن الانتماء إلى روائع البيان ! مع أن المستشهِد لا يذكر إلا أحسن ما يحفظ ، وفي تداول المأثور من القصيد بعث وحث وحياة .

المقال الثانى

أما المقال الثاني فقد بدأه البشري متسائلا عن حافظ : «أكان لي أصدق الأصدقاء أم كنت له أعدى الأعداء ، هل كان يحبني أشد الحب ، ويضمر لي أخلص الود أو كان يكرهني أشد الكره ، ولا ينطوي لي إلا على أبلغ المقت ، وأنا لا أدري إذا كنت أحبه أشد الحب أو أكرهه أعنف الكره ! أكان يكبرني ويجلّ موضعي وكنت أكبره وأجل محلّه ؟ أم كان

يزدريني و أزدريه و يرى أن لا فضل لي و أرى أن لا خير فيه» .

ويستطرد في مثل هذا المعنى استطرادا يوقع القاريء في حيرة ! لأن مودة الرجلين لم تكن موضع خلاف بينهما ! ولكن البشري يريد أن يعرض صفحتين متقابلتين من صفحات حافظ ، حين كان يعابثه ببعض المحرجات التي تتأزم فيها الأمور ولا تكاد تلتئم ، وحين كان حافظ يفعل ذلك أيضا معه ! وهذا شيء طبيعي بين أديبين ساخرين رُزقا موهبة التندر ، ورضيا حياة اللهو والاستظراف ! وعلماء النفس يؤكدون أنه لا يوجد في الدنيا حبٌّ خالص أو بغض خالص ، فأوفى المحبين يستشعر في أعماقه بعض المؤاخذات ولكن طوفان حبه يغمرها بتسامحه ، وأبغض المبغضين قد يخلو إلى نفسه فيدرك بعض مزايا خصمه ولكن لَدَدَ الخصومة يستر هذه المزايا بنقاب كثيف ! وقديما قال القائل :

وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت نازع

فروح السخرية والاستظراف هي التي توجد بعض الحرج بين الصديقين ، بل هي التي تبعث على البحث عن هذا الحرج إذا بعدت أسبابه ، وهذا ماكان ينبغي أن يذكره البشري كيلا يغمّ عليه الموقف فيتساءل أهما صديقان أم هما لدودان ؟!

يقول البشري حين يعرض صفحة حافظ السيئة «لا أذكر أنه ضمّني به مجلسٌ قط مع بعض من نتحشّم ونعلي قدره إلا تحدث لهذا الجالس عن مداخلي وبين له أكره مكارهي ، فإذا أعوزته المكاره خلقها خلقا ، وارتجلها ارتجالا ، وقد يوغل في الكيد فيشرك نفسه فيما يرميني به من ألوان التهم ، ولو صحَّتْ لأفضتْ بنا معا إلى محكمة الجنايات ! وقد يتوافق رأيي معه في رجل فنذكره بما نحسب فيه من شدة البخل أو الكذب أو الزهو وعَرْضِ الدعوى أو غير ذلك مما يكره الناس ، فيلقاه في سرٍّ مني ويقول له إني أرميه بكذا وكذا من الصفات ، وتعال فاسمع بأذنك ، ويواريه في غرفة مجاورة أو يدسّه تحت سرير أو خلف ستار ، ثم يقبل عليّ فيستدرجني إلى حديثه وما عسى أن أقوله فيه فإذا بلغ ما أراد سلّ صاحبنا من مكمنه فطلع عليّ غاضبا مهتاجا !

لقد كان يعلم مني كراهتي لركوب السيارات ، فيستدرجني إلى نزهة يزعم أن سائق سيارتها بطيء متزن ، وما أركب حتى يغريه بالسرعة المفرطة فيمرق في سرعة الكوكب الهاوي أو البرق الخاطف ما يبالي زحمة الطريق ، ولا يطامِن منه أن يرقى قلعة أو يمشي على حافة نهر حتى امتلئ غيظا !

هذا بعض ما ذكره من سيئاته ، أما ما ذكره من دلائل مودته فمن حديثه أن حافظا لا يكاد يصبر على فراقه فهو لا يستطيب طعاما شهيا إلا كانت يده مع يده ، ولا يطيب

لكليهما نزهة إذا افترقا ، ولا يتم أنس بمجلس سمر إلا إذا اجتمعا ، لا يحقن أحدهما عن الآخر سرّا ، ولا يكتمه من مداخل صدره أمرا إلى ما يدور حول ذلك من معان ، ثم يعترف أنه ماكان يجزي حافظا في المساءة إلا شرا بشر وغيظا بغيظ ، ومع ذلك لا يدري أهو يحبه أشد الحب أم يبغضه أشد الغضب !

على أن الاستاذ عبدالعزيز البشري في سؤاله عن حقيقة صاحبه كمالك الحزين يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه ، فإني أذكر أنه كتب بالجزء الأول من المختار مقالا تحت عنوان «عدو حميم أم ولي صميم» ، ذكر فيه عن بعض معارفه كتابا وجهه إليه متسائلا عن صديق يسلك مسلك حافظ معه ! وكدت أميل إلى أن البشري يذكر أحواله عن حافظ متسترا في افتعال كتاب جاء إليه ! لولا أن بعض صفات هذا الصاحب لا تنطبق على حافظ ! وبعد أن أسهب البشري في عرض المفارقات الغريبة ممن لا يدري أهو وليّ حميم أو عدو خصيم شفع ذلك برد موجز يقول فيه : «يخيّلُ إليّ أن صاحبك ليس بالرجل المفطور على الشر ، ولا بالذي يبتغي لك الأذى ولكن تشتد شهوته إلى مداعبتك والشهوات فنون ، وإني لأقطع بأنه يحبك ويؤثرك» .

فإذا كان البشري يقطع بثبوت الحب في أمر سائله ، فلماذا يتردد فيما بينه وبين حافظ ! والموقفان متماثلان .

مقال ثالث

كل ما ألمعنا إليه من حديث البشري يتجه إلى حافظ الإنسان والصديق ، ولا يمسُّ حافظا الأديب الشاعر في شيء ! وقد قرأت في العدد الخاص بحافظ من مجلة أبولو مقالا للبشري عن حافظ الأديب ، ذكر فيه أن حافظا قد رُزق إلى قوة الطبع و إدراك الملكة خِلالا ثلاثا لا تستوي لكثير هي سلامة الذوق ، ورهافة الحسّ والثانية قوة الحافظة والثالثة نطاقة اللسان ، ومضى يستدل على كل صفة بما يعلم مؤكدا أن حافظا يبهره حسن الصياغة ، ويأخذه جمال التعبير فما يسقط في قراءته في فنون الشعر والنثر على لفظ شريف أو صيغة ناصحة مشرقة ، إلا تهافتت نفسه عليها ، أما قوة حافظته فقد يستشهد عليها بخوارق مما شاهد وعاين ، وفي حديثه عن نطاقة اللسان ذكر أنه كان يُؤلف ويَأْلف إذ يطلب مجلسه المتأدبون متعلمين ، كما كان عظيم التفقد لمجالس الأسمار ، كثير الاطلاع عليها فلا تراه إلا جيَّاشاً بلسانه في المجلس يتنقل في خفة وظرف بين جد القول وهزله ، وهو في أثناء هذا وهذا ينبوع يفيض بالأدب فيضا ، ويأبى إلا أن يدفع في حديثه بأحلى ما وقع له من روائع الصيّغ» .

على أني أعجب للبشري كيف قصر مقاله في عدد أبولو على أدب حافظ وحده ، ثم لم يفسح المجال إلى تحليل بعض شعره ، والاستشهاد بروائع يؤثرها ! لقد تحدث البشري

عن شوقي في أكثر من مجال فاتسع نطاق القول أمامه لتحليل فنونه الشعرية من وصف وحكمة وغزل ورثاء وسياسة ، وقد قال حافظ في أكثر ما قال شوقي من أغراض ، فلماذا لم يخصه في مجال الحديث عن أدبه بتحليل علمي كاشف ! أيجوز أن يتحدث أديب عن أدب حافظ ، وقوة لفظه ، وحرصه على التعبير الرصين ثم لا يستشهد ببيت واحد في مقاله ! قد يكون من حق الإنصاف الأدبي على البشري أن يُؤْثِرَ شوقيّاً عليه وأن يعتده أمير الشعر غير مدافع ! ولكن أليس من حق حافظ أن يستشهد صديقه ببعض ما قال ليُقدم الدليل على صحة ما يتجه إليه من أحكام ! على أن البشري حين جمع المختار في جزءيْن قد أغفل حديثه الأدبي عن حافظ فلم يجمع في مختاره مقالة أبولو ! أفيكون غير راضٍ عنها ؟ ونفترض جدلا أنها لم تحز قبوله فلِمَ لم يُعد الكرة في بحث ممتد ليؤدي حق الصديق !

لقد كان حافظ والبشري مَعْلميْن من معالم الأنس والسمر في هذا العصر ، وقد سبق حافظ صاحبه فأتاح له أن يبسط حديث الذكريات في أكثر من مقال ، وأتاح لنا أن نُراجع ما قال لنُذكر القراء بنابغتيْن عظيميْن كان لهما دورهما البارز في ميدان الأدب الحديث .

شهرزاد في الأدب المعاصر

لشهرزاد شهرة مستفيضة بين الناس ، فقد كانت المرأة الجريئة التي تقدّمت لإنقاذ المئات من بنات جنسها ، وهي لا تتأكد من عاقبة أمرها طاغية جبار ، صمم على أن يسفك كل ليلة دم فتاة بريئة ، لا ذنب لها إلا أنها وقعت تحت يده .

لم تكن شهرزاد في صورتها الأولى فتاة كسائر الفتيات من زميلاتها ، ولكن صورتها في كتاب ألف ليلة وليلة صورة المرأة المثقفة الممتازة التي وعت أحداث العصر ، وقرأت صحائف التاريخ ودرست أجناس البشر ، وطوائف المجتمع ، فهي تطوف بشهريار في كل ليلة طوافا سحريا ، إذ تحدثه بأسلوبها الفاتن عن شتى ممالك الكون ، تمضي معه إلى الشام والعراق والصين والهند ، وتقطع معه الفيافي والجبال تارة ، ويستريحان معا في الحدائق والقصور وعلى شطوط الأنهار تارة أخرى ، وهي بعد ابنة وزير خطير ذي شأن في الدولة قام على تربيتها الأصيلة قيام الوالد المثقف المستنير ، فملأ عقلها نورا ، وأرهف إحساسها رقة ، ودفعها إلى المثل الأعلى ، حتى صممت على الاستشهاد في سبيله ، وشاء الحظ لها أن تملك عصا ساحرة تستطيع بها أن تقتل الوحش الضاري في نفس شهريار وأن تجعله إنسانا يشفق ويحب ، ويعرف تقلبات الأيام ، ورجفات السنين ، وكانت ذات خيال بارع جعلها تطيل

القصص في عذوبة واستهواء ، ليظل سامعها مبهورا بما تحكيه ، عن شتى طوائف الناس ، ومختلف البلاد والربوع ، حتى إذا أسلم لها قيادهُ صارت شريكة حكمه ، وأمَّ أولاده ، وصاحبة الجلالة الملكية في قصره .

إنها لصورة رائعة للمرأة المثالية صاحبة المطمح البعيد ، والعقل الثاقب ، والإحساس الشفيف ، وقد فتنت صورتها الناس في مختلف الأزمان ، وصار لها في أدبنا المعاصر ذكر سيّار ، إذ وقف كبار الأدباء أمام سيرتها ، ليصنعوا لها صورة تأخذ بألباب المعاصرين ، كما فتنت الغابرين ، ونطيل القول لو راعينا ناحية الاستقصاء ، ولكننا نسلك سبيل الإشارة والتلويح .

مع العقاد

لم يؤلف الأستاذ عباس محمود العقاد رواية عن شهرزاد ولكنها كانت عروسا في بعض قصائده إذ كان أول من التفت إليها من أدباء العصر ، وقد تأمل سيرتها ليصفها كما كانت لا ليجعلها فتاة أخرى ترمز إلى طبيعة خاصة ، فشهريار عند العقاد هُوَ هُوَ في صحف الأولين طاغية حقود يضمر الشر لكل امرأة مُذ وجد امرأة تخونه ، وتستهين بمكانة الزوجة الملكة ذات الصيت البعيد ، والجاه المؤثل ، فحق عليه أن ينتقم من بنات جنسها جميعهن ، وهو انتقام جبار باطش يدل على استخفاف بكل أنثى على وجه الأرض ،

ولم يفكر شهريار في أن بين هؤلاء اللاتي يبغضهن أمّهُ وأختهُ وعمتهُ وخالتهُ ، فلو صدقت نظرته في النساء جميعا ، لكان هو نفسه زنيما من سفاح ! إن حقده على الزوجة الخائنة جعله يسلط المِنجل على كل زهرة ناضرة ، بعد أن يشم عبيرها وينهل رحيقها ! وكان في حاجة إلى من يرجع له عقله الذاهب ، وقد عجز الرجال جميعا أن يُغيروا من نظرته السوداء حتى عرفت طبَّ دائه شهرزاد ، فألاَنته بالمقال ، وحدثته عن مِحن الدنيا ، ومآسي الناس ، فلم يرَ نفسه وحيدا في مصابه ، وجنح إلى التوبة والغفران، يقول العقاد عن شهريار :

أضمر الشر للنساء حقودا
وابىَ الحقد أن يكون رشيدا
حقرت عهده فتاة فآلى
لا يصونن للنساء عهودا
فله طلعة بها أجل الغيد
رهين يستنجز الموعودا
زهرات يشمها ثم يبري
بشبا السيف غصنها الأملودا
انفاً أن يمس غير شبا السيف
نحورا يلهو بها وقدودا
عرفت طبّ دائه شهرزاد
فدعته وهو الشقيّ سعيدا

كـــــان فـــــظا فؤاده مغلق النفس
كـــظيمـــا لا يستـــلان عنيـــدا
فـــألانتـــه بـــالمقـــال فـــأصغى
ومِن القـــول مـــا يلين الحـــديـــدا
وأرتـــه أحـــاظي النـــاس من قبـــل
نحـــوسـا مقســـومـــة وسعـــودا
فـــرأى قلبـــه وكـــان فـــريـــدا
لم يغْـــذْ في القلوب قلبـــا فـــريـــدا

توفيق الحكيم

ألّف توفيق الحكيم قصة شهرزاد بعد أن أحدثت قصته عن أهل الكهف دويا رنانا ، وقد اشتهر حينئذ بين القراء بعداوة المرأة ، وراق له أن تتأكد هذه العداوة ، فهو لم يتزوج بعد ، ولم يتذوق إذ ذاك حنان الأسرة ، وشفقة الوالد ، وكان عليه أن يرى ذلك بخياله ، فهو فنان أديب متعمق ، ولكن الولوع بالتحليل النفسي ، والتجريد الذهني ، وإدارة المعارك العقلية في تعاطي الحوار ، قد دفعه إلى أن يجعل من شهرزاد امرأة غير التي يعرفها القرّاء ! وإذا كانت صاحبة ألف ليلة وليلة طاهرة عفيفة ذات أولاد ومنزل ، وذات حرص على الكرامة الإنسانية فإن صاحبة توفيق الحكيم لم تكن الصورة المشرفة للمرأة ، فقد جعلها المؤلف تَهْوىَ عبدا أسود قبيح الصورة قوي

العضلات ، وتتغفل الحراس كل ليلة لتذهب إليه حاملة عارها ! وشاء المؤلف أن يكون قمر الدين وزير شهريار مغرما بشهرزاد ، وأن تعرف عنه الملكة هذا الغرام فتشجعه عليه ، والرجل عذريّ مثالي يهوى العفة والشرف ويحرص على كرامته الإنسانية ، وهو يؤثر أن يتحرق شوقا كل ساعة ، إذ بلغ به الشوق أعنف ما يبلغ ، ثم لا يبدي غير الأدب المحتشم ، وتناقشه شهرزاد في مسلكه كالمتهكمة ولكنه يحرص على شرفه ، وتدركه الرقة في مَجلسها فيرتبك ويرتعش ، ثم تكون نهايته أن يقتل نفسه منتحرا حين يتأكد أن شهرزاد تُدنس نفسها مع العبد الأسود ! وإذ كانت نهايةُ الوزير التي اختارها توفيق الحكيم غريبة في بابها ، فإن نهاية شهريار أغرب وأعجب ، فقد وقف على خيانة زوجته ، وشاهد موقفها الدنيء من العبد ، فلم يفعل شيئا !! لم يقتل العبد ، ولم يغضب على شهرزاد ! لقد صارت القصة شيئا آخر لدى توفيق الحكيم ! وما أظن طبائع الأشياء تبعث رجلا عاديا على السكوت عن هذه الزلّة ! فما ظنك بشهريار الذي فقد ثقته في التجربة الأولى فثار ، وأخذ يقتل امرأة كل ليلة ، حتى جاءت شهرزاد فانحرفت به إلى المجرى الطبيعي في الكفّ عن الطيش والبطش ورفعته إلى مستوى المسئولية الأخلاقية ! أَتزِلُّ هي أمام عينيه وهي أستاذته ومرشدته ثم يقابل الزلة بالامتناع عن أي اجراء حتى مع العبد !!

لقد دارت مناقشات كثيرة حول النهاية التي اختارها الحكيم لأبطاله ، ونَقَدَ الناقدون فأطالوا ، وذهب المؤولون إلى أن القصة رمزية ، وأن الحكيم يشير إلى طبيعة الحياة التي لا تتعفف عن السقوط ، وإذا كانت الحياة طافحة بالشرور ، فلا عيب على الحكيم إذ صوّر مظاهر الشر في قصة بطلتها شهرزاد ، ونحن لا ننكر أن الحياة لا تتعفف عن السقوط ، وأنها حافلة بالشرور ، ولكننا نؤثر أن يختار المؤلف لتمثيل هذه الشرور إنسانا عُرِف بالسقوط والانحدار فيكون تصوير الرذيلة مناسبا لما اشتهر عنه ، وهنا يكون المؤلف قد عبَّر عن الحياة أصدق تعبير ، ولكن الذي نعترض عليه أن تُلْصَقَ الشرور بإنسان مثالي ـ واقعي أو سجلته الأسطورة ـ فنعكس صورته المثالية إلى غير ما هو مرسوم عنها في الأذهان ! وهذا ما تعمده الحكيم حين اختار ملكة مهذبة عاقلة مثقفة فدائية ليجعلها خائنة ساقطة ترتمي كل ليلة في أحضان عبد .

طه حسين

اهتم طه حسين بشهرزاد ، وقرأ قصة توفيق عنها ، فأدرك أن الملكة الطاهرة ناقمة على ماكان من المؤلف حين انحدر بها إلى هذا المستنقع الوبيء ، فألّف مع الأستاذ توفيق الحكيم قصة (القصر المسحور) ليعرض القضية في حوار تمثيلي تحضره شهرزاد ، وتشترك فيه ، فتبدي

استياءها الناقم لما صارت إليه ، ويشرح توفيق وجهة نظره في محكمة الزمن ، ثم يصدر الحكم النهائي بأن من حق الأديب أن يُبدع أشخاصه كما يُريد لا كما يريد الناس ، ومن حق الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يريد لهم فنُّه ، إنما مهمته الأولى أن يعمل على ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير ، وقَبِلَ المتهم ـ توفيق الحكيم ـ ما أعلنته المحكمة فعقّب على الحكم بأنه سيسعى ويطيل السعي لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه .

هذا الحكم الذي انتهت إليه قصة القصر المسحور ، لم يصادف ارتياح نفر من الناقدين ، فقد هالهم أن يقرر الدكتور طه أن الأديب حر في أن يجعل الصالح طالحا والطاهر دنسا ، وأن السعي إلى الكمال الفني يسهل على كل من شاء أن ينفذ منه إلى الخروج عن قواعد الأدب الصحيح ، هالَهُم أن يقرر الدكتور طه حسين ذلك فانبرى الأستاذ محمد فريد أبو حديد ليرد على ذلك في مقال طويل قال فيه : (ولكننا لا نستطيع أن نقبل نظرية طه حسين في أن يسلبنا حق مؤاخذة الأديب ، ويجردنا من كل سلطان عليه ، بحجة أنه يقصد إلى الكمال ، فليقصد الأديب إلى الكمال الفني ، وليحتفظ بكل حرية في تفكيره وأسلوبه ، ولكننا نحن القرّاء ، لسنا حجارة أو حديدا ، بل نحن جمهور الإنسانية ، لنا ما نعتز به من مُثُلٍ عليا ، وما نحيا من أجله من معان في الحياة ، ولنا حق في الحرية لا يقل عن

أن نجهر بالإعجاب إذا أعجبنا ، وما صوت الزمان إلا صوتنا إذا تجردنا من الغايات السخيفة في أحكامنا على الأدباء) .

وقد ظل الدكتور طه حسين متعلقا بشهرزاد ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية وفاجأت الناس بأهوالها المدمرة ، وفظائعها الصاعقة ، فكتب الأديب الكبير قصة (أحلام شهرزاد) لتكون متنفسا لأفكاره الناقمة على جبابرة الحروب وشياطين الطغيان من أعداء الانسانية ، لم يعمد المؤلف إلى هدفه عمدا مباشرا ، وإنما كان التسلسل المشوق في قصصه السهل العذب يشف عن آرائه في تدفق وسطوع وعذوبة نغم ، وأسلوب الدكتور طه حسين في كتاب الأيام وفي كتاب على هامش السيرة هو أسلوبه في أحلام شهرزاد ، وقد ركب جناح الخيال فوصف ملك الجنّ ، صور ما يجري في دولته من أحداث ، وما يصطرع في ملئه من صراع ، ووصل إلى هدفه حين قرر أن الحرب الدائرة في هذا العالم لا تعني الرعية في شيء وإنما هي شهوة جامحة دفعت بالحكام والرؤساء إلى الكيد والبطش ، وما ينبغي أن يغامر الملوك والرؤساء مغامرة تعصف بأمن الناس ، على من يغامر من هؤلاء وأولئك أن يُغامر بنفسه لا أن يشن حروبا طاحنة يكون وقودها الأبرياء ! ومن الواجب أن يلقى من يشعلون الحروب جزاءهم الرادع ، وأن يعترفوا بأن النزوات الشخصية هي الدافعة إلى هذا الدمار ، وليس للإنسانية

نفعٌ فيما يتأجج من لهيب ، أما صورة شهرزاد لدى طه حسين فهي الملكة الهادية الرشيدة ، ذات العفة والترفع ، وهي صاحبة العقل المشرق والنظر البعيد ! لقد وضع الدكتور صورة معارضة لصورة الحكيم ، وكأنه بعد أن أصدر حكمه في قصة (القصر المسحور) شاء أن يُنصف شهرزاد ، حين تأخذ مكانها اللائق في فنه الطريف .

وقد تعمد الدكتور أن يقتبس بعض عبارات الحكيم في شهرزاد ، وكان ذلك مدعاة تحليل نقدي لدى بعض الكاتبين فذهب فريق إلى اتهام الدكتور بالسرقة ، ورأى فريق آخر أن الدكتور كان يجامل توفيق الحكيم حين اختار فقرات من قوله الذائع ، فهو بذلك يعترف بسبقه ، ويُريه كيف خطا بشهرزاد خطوة جديدة تضعها موضعها الكريم .

عزيز اباظة

اشترك الأستاذ عزيز أباظة مع الأستاذ عبدالله البشير في تأليف مسرحية عن شهرزاد ، فكتب الأستاذ البشير المسرحية بالشعر الانجليزي وتقدم بها إلى عزيز أباظة ليجعلها مسرحية شعرية تأخذ مكانها في الأدب العربي ، وروح عزيز أباظة الشعرية تتجلى في كل بيت من سطورها ، وقد قال في المقدمة إنه انتهج في عرضها نهجا رمزيا واقعيا ، فشخوصها ترتدي أثوابا مألوفة ، وتتحدث بأنماط من الحديث ليست غريبة عن وضعنا المعاصر حتى أصبح في

ميسور القاريء أو المشاهد أن يُطلق أسماء معاصرة على أسماء الرواية ، وتتجلى في المسرحية صراعات الإنسان في عراكه الأبدي على وجه الحياة ، ولشهريار في المسرحية صورتان ، تُصور الأولى بطشه ونقمته وطغيانه ، وتصور الثانية تدرجه في سبيل الصلاح خطوة خطوة ليصعد إلى مدارج الرقي في سلم التجارب الإنسانية ، حتى يكف عن بطشه ويركن إلى الإيمان الصادق معتزلا جاه الحكم ، ولائذا بالزهد العازف ! هذا التطور من وضع بالغ السوء إلى وضع بالغ التوبة والندم ، كانت شهرزاد الذكية المخلصة الصابرة الطاهرة صاحبة الفضل فيه ، وقد لقيت أقسى مظاهر التهديد ، وأُنذِرتْ بشر العواقب ، وترصدتها دسائس الحقدة ، ومكايد الأعداء فما رجعت عن خطتها التي رسمتها لتنقذ الوطن بمن فيه ومافيه من كيد شهريار ، وقد عبّرت عن خطتها النبيلة حين قالت لأختها دُنيا زاد :

أختـــــاه قـــــد جئت لأجلو لــــه
في ليله الحــــالــــك قصــــد السبيــــل
حسبي إذا أحسنت تــــــذليله
أن يــــظفــــر الملك بملك نبيــــل
وتتقي الأمــــــة تقتيله
أبكــــارهــــا في حقــــد طــــاغ صئــــول

ويهول والدها نور الدين وزير الملك ماهي مقدمة عليه من خطر محقق ، فيتوسل اليها أن ترجع عن خطتها التي لن

تنتهي بغير هلاكها السريع ، ويحاورها باذلا قصارى جهده كي تُبصر الحقائق ، ولا تتعلق بالوهم ، فشهريار طاغية جبار لا سبيل إلى إصلاحه ولكن شهرزاد تصمم على رسالتها ، وتؤمن بأنها ستنجح حين تنقذ الملك من شروره وتقف دون إراقة الدماء ، تقول شهرزاد لأبيها :

إن أشيــــاء في ســــويــــداء نفسي
مُـــرهصـــات بـبـــاسقـــات الأمـــور
منبئـــــات بـــــأن للملك بـــــرءا
في وشيـــك من الـــزمـــان قصيـــر
إن حـــــربـــا شعـــواء بين زحـــوفِ
الخيـــر والشـــر والهـــدى والفجـــور
تتلظّى في نفســــــه وكــــأني
ابْصِـــرُ النصـــر كـــالصبـــاح المنيـــر

وتستطيع المرأة الذكية ذات الإرادة الجبارة أن تبلغ مرماها بما تسرده من قصص تدعو إلى الاخوة والرحمة والمساواة ، وتجبهُ الرياء والنفاق وممالأة الطغاة حتى تجعل شهريار يقول لشهرزاد :

خُـــذي بيـــدي يـــاشهـــرزاد وحـــطمي
كُبُـــولي فـــإني كـــالأسيـــر أسيـــر
مللت حيـــاتي إنهـــــا كف آبق
مُعنّىَ ، وقبـــر. لـــو علمت. كبيـــر

ويتم النجاح فيغدو الشيطان ملاكا !

كتاب آخرون

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا شهرزاد في أدبنا المعاصر فقد خصَّها الأستاذ علي أحمد باكثير بقصة ممتازة تعبر عن واقع العصر أصدق تعبير ، كما سَلْسَلَ الأستاذ طاهر أبو فاشا حلقات إذاعية في سنوات عدة تصور مشكلات مصر والعالم العربي على لسان شهرزاد ، ولو جُمعت هذه الحلقات لاستطاع النقاد أن يحفظوا لها مكانها الفني ، ولا يزال الأستاذ أحمد بهجت يبدع صورة جديدة في حلقات تليفزيونية شاهدنا بعضها في ليالي رمضان ! كما علمت أن الأستاذ أحمد سويلم أصدر ملحمة عنها ، وكل هذه الأعمال تحتاج إلى دراسة نقدية متأنية تظهر فيها شهرزاد في مواقفها المختلفة كما شاء لها خيال القصّاص ، وفن الأديب .

حسين شفيق المصرى

هو أستاذ لا تلميذ له ، إذ كان أستاذ الشعر المطعم (الحلمنتيشي) ملأ الدنيا به فكاهة وطربا ومرحا ، وساعد على رواج الشعر الفصيح في ملأٍ لا يرقى إلى أوجه ، بما قرّبه من أسلوب سهل يدخل اللفظ العامي مع اللفظ العربي في نظم مطرد فيشجع غير المتعلم على قراءة التراث الشعري ، ويحس في نفسه من السمو ما يدفعه إلى تصفح دواوين الكبار من المشهورين ، كان الأستاذ يملأ الدنيا بأغاريده المطربة ثم ودّع الحياة فسكت الطائر ، وأقفر الدوح ، وسطا الخريف ، ولم يوجد بعده من يحمل الراية من المريدين ويسير على الدرب :

ثم انقضت تلك السنـــــون وأهلهـــــا
فكـــــأنهـــــا وكـــــأنهم أحـــــلام

كلمة الرافعي

لانجد وصفا أدق من قول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في الحديث عن حسين شفيق المصري إذ كان يصدر مجلة (الناس) حاملة نوادر الفكاهة ، وروائع المطربات من نكات مرحة ، ونقدات ساخرة ، في مقامات أدبية ، وقصائد

شعرية ، ومواويل زجلية ، قال فقيد البيان العربي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي :

«الأستاذ حسين شفيق المصري الذي يمتع الأمة بهذه الصحيفة (جريدة الناس) ماجن ظريف ، لو تقدم به الزمن لتهاداه الملوك والأمراء ، فقام على بساط منشدا ، وجلس على آخر نديما ، وتقلب على ثالث مضحكا ، وعربدَ على رابع ، وجُلِدَ على خامس ، ولعل الله أخّره إلى دهرنا رحمة به أن يأمر أحد الملوك فيملئوا فمه دُرّاً بعد أن يفرغ من انشاده المعجب المطرب ، ويشرهَ هو إلى الثروة والغنى فيفتح فمه إلى أقصى الحلق ، فتدخل اللآليء وتخرج الحياة .

إن البلاغة الظريفة الماضية التي بعضها من وخز الإبر ، وبعضها من سياسة الظهر والعصا ، قلما تستجيب ! إلا للعقول المبتكرة ، التي خُلقت متسلطة على النفوس من أقرب جهاتها ، وهذه العقول لا تُسرف القوة الأزلية في خلقها ، بل ترحم الناس بها ، فتجعلها نادرة لتجد منها أهنأ الضحك الذي ينفجر من القلب ، ولكنه إن طال انفجر القلب» .

لقد رزق حسين شفيق المصري هذه البلاغة الظريفة ، لأنه مع موهبته النادرة قد أعان ذوقه الأدبي بالتثقيف الواسع والاطلاع الدائب ، فارتفع إلى مستواه بجهد جاهد قد يخفي على غير المتأمل المتعمق ، فيظن أن الرجل يتكّل على

خفة روحه ، وعذوبة نفسه فحسب ، ولكنه يُغفل شيئا هاما ، هو أن هذا الرجل الفكه صاحب الروح الخفيفة ، قد أرق روحه الليالي الطويلة باحثا منقبا يستظهر روائع الشعر ، ويقرأ أمهات الكتب ، ويدرس تاريخ الظرفاء والثقلاء حتى أصبح شيئا ذا بال ، ويجد المتتبع .. لهؤلاء الساخرين الكبار ، أنهم يريقون مواهبهم في مجالس السمر ليمتعوا الناس بخفة أرواحهم ، ثم يرجعون إلى منازلهم ، وليس لديهم من الجهد ما يبعثهم على القول المتئد ، والفكر الجاد ، لذلك يقل إنتاجهم بالنسبة إلى من يدّخرون كل طاقتهم إلى الجدّ وحده ، لذلك تجد آثار حافظ ابراهيم وعبد العزيز البشري وحسين شفيق المصري قليلة بالنسبة إلى طاقاتهم الأدبية ، لأن المجالس قد استهلكت أكثر جهودهم ، وقد كنّا في حاجة إلى عدة أجزاء من كتاب (في المرآة) للبشري مثلا ، وهو على الإبداع قدير ، ولكن مجالس السمر ، ورحلات الأنس ، وسهرات المنادمة قد طوت الكثير .

أقول ذلك لأقرر إن ثقافة حسين شفيق المصري كانت ذات سعة وشمول ، ولم تكن كما يتوهم بعض القراء ثقافة مجلات هزلية ومطارحات إخوانية ، بدليل لا يقبل الشك هو ما تركه المصري من شعر رائع رصين ، إذ كان من شعراء الفصحى يزاحم في المحافل الأدبية شوقي وحافظ ومطران ، وينشد من القصائد ما يقف جوار روائع ذوي الصدارة الأدبية ، فقد أقيم موسم الشعر في سنة ١٩٣٥ ليجمع أكبر

شعراء مصر في هذا الزمن ، وكان المصري يأخذ مكانه المستريح المطمئن في صفوة شعراء الموسم ، وقد ألقى قصيدة في بكاء الشباب ، كانت أسرع إلى القلوب وأعلق بالأذهان من سواها ، لأن حسين شفيق المصري خدع السامعين بسهولتها العذبة ، على حين ضمنّها من صادق اللوعة ، وحرارة الانفعال ما أسرع بها إلى مكامن الأهواء من طيات النفوس ! لقد أبدع المصري حين قال وكأنه يرثي صباه :

تذكر بعد أن شاب الشبابا
وأَنّ ، وقد دعاه فما أجابا
وعاوده هواه ، فكاد لولا
وقار الشيب يوسعه عتابا
ومن ظن الشباب صبيغ شعر
فإن الصقر قد أمسى غرابا
ومن يكتم حساب سنيه يوما
فصفحة وجهه تبدي الحسابا
ففيم تُلابس الأهواء نفسي
خرجت من الحياة فلا مآبا
بقاء الشيخ في الدنيا فناء
ولو ملك النواصي والرقابا
إذا متعت نفسي قيل شيخ
يضلّ ومزّقوا جلدي سبابا

وإن دافعتهـــا غــــزلـــوا شكـــوكـــا
تُحـــاك وألبســـونيهـــا ثيـــابـــا
وقـــالـــوا لم يتب ورعـــا وزهـــدا
ولكن لم ينـــل أربـــا فتـــابـــا
فمن ظن المهـــابـــة في انـــزوائي
فليس السجن إلا أن أهـابـــا
تخـــذت بيـــاض رأسي لي حـــدادا
عـــلى عمـــر الشبـــاب ، فـــوا شبـــابـــا !

هذه الزفرة الحارة لها مثيلات في آثار المصري ، كلها تبكي الشباب بأحر الدموع ، والحق أن صاحبنا قد أسرف على نفسه في شبابه فكان يعاقر الراح مصبحا ممسيا ، فأسرعت بقواه إلى الضعف ، وتطلّب بعد الخمسين ما يحب فعزّ عليه أن تتوارثه الأدواء ، وحين ضعف جسمه لم تضعف رغبته فظلت أحاسيسه متوهجة تطلب الارتواء دون قدرة عليه ، وجعل ندماؤه يعيّرونه ، وأخذ يهوّن على نفسه بمداراتهم فيعلن زهده العازف ، ولكن شيطانه يغلبه ، فيصوّر ما يحتدم في نفسه من صراع ، ويعلن صراحة في غير مواربة انه يزهد مضطرا ، كما يمتنع الغراب عن الكرم خيفة الحراس ، وأن الشيخ من أمثاله يتحمل سخر الغانيات به صابرا ، ويقدم ماله دون أن يجد استجابة ، فيعتزل اللذات في ثوب راهب وينهض للمحراب مصليا ، وفي نفسه أن يدعو ربه عند السجود كي يسهل له

حق الأديب في حريته ، فلنا أن نُعلن إنكارنا إذا أنكرنا ولنا طريق الصبوة فلا هو ديّن ولا هو بعازف ! تلك انطباعات أمينة سجلها الشاعر صادقا حين قال :

أرى الشيخ من بعد الغواية زاهدا
كما خاف حرّاس الكروم غُراب
تشوب له الغادات بالسخر ودّها
ويسخو على جلاسه ويعاب
ويعتزل اللذات في ثوب راهب
ومن تحته للمخزيات ثياب
فينهض للمحراب يسأل ربه
ثوابا ، وما للمفسدين ثواب
وفي نفسه عند السجود لو انّه
يُتاح له في الموبقات وثابُ
وقد يتمنى لو يغيب وبينه
وبين فنون المغريات جذاب
فلا هو للدنيا ، ولا هو ديّن
وقد مات ، لولا جيئة وذهاب
ألم ترني أبصرت بعد غوايتي
ومازال مغشيا علىّ حجاب
كشأن رفاق عاصروني مع الصبا
فشبت على دين المجون وشابوا

الشعر الحلمنتيشي

لم يكن هذا الضرب من الفن الأدبي كلّ نصيب المصري من الإبداع ، فقد ابتكر في دنيا النثر فنونا كثيرة ، منها (دائرة المعارف الوفدية) في الكشكول ، وكان زعيم مصر سعد زغلول حريصا على تتبّعها ، وقد استدعى صاحبها وناقشه في بعض مضمونها ، مع أنها كانت تخاصم الوفد ، ولكن زعيم مصر كان يقدر الفن الأدبيّ ، ويحرص على مودة رجاله ، كما أن شخصية الشاويش (شعلان عبدالموجوذ) التي ابتكرها حسين شفيق قد صوّرت شريحة من المجتمع تصويرًا يجسّم الأخطاء ليتداركها رجال الأمن في مرفق من أقوى مرافق الحياة ، وهي لا تقل عن شخصية (البربري) التي شغل بها علي الكسّار جمهوره حينا من الدهر ، وقد تنوعت فنون الشعر المطعّم لدى حسين شفيق فشملت السياسة والدين واللّغة والاقتصاد ، ونكتفي اليوم بأن نمثل لجانب واحد من هذه الفنون المتنوعة وهو الناحية الاجتماعية اذ كانت عين الشاعر يقظة حريصة على أن تجسّم العيوب الاجتماعية في نمط فكاهي هادف ، وقد سارت أشعاره في الشعب سيرورة ذائعة لأن جميع الطبقات على اختلاف مداركها قد هامت بها ، ورأت فيها تعبيرا صادقا عما تكن الصدور ، وتضمر النفوس ، فلديك مثلا المغالاة في أجور الأطباء وأسعار الدواء ، حين تفاقمت الأزمة الاقتصادية في عهد اسماعيل

صدقي ، وأصبح المصري لا يدري أيعتصر المال اعتصارا لينفقه على رغيف العيش أم يستدين ليملأ خزائن الأطباء ، وهي مأساة أحسها الشاعر شخصيا لأن الشراب قد أتلف معدته وأصبح يتردّد على الطبيب أسبوعيا ، وليس معه ما يفي بحاجة العيش والطب معا ! فتذكر قصيدة أبي فراس الحمداني أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر ، وأخذ ينسج على منوالها فقال :

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم أنا بردان وعندي كحّة
ولكنّ مثلي لا يطيب له صدر
وقال التمرجي هل معاك فزتّة
تخش بها ، أو ما مَعَكْشِي فتنجر
وقال أصيحابي الدخول أو الردى
فقلت هما أمران أحلاهما مرّ
ألم تعلموا أني فقير وأنّه
إذا شافني ، خمسون قرشا له أجر
بنصف جنيه نظرة فابتسامة
فقصقوصة من دفتر ، فوقها حبر
ولكن إذا حم القضاء على امريء
فليس له برّ يقيه ولا بحر !

وخمسون قرشا يوم ذاك كانت تنهض بأعباء المنزل خمسة أيام !! وكان مرتب الصحافي من التواضع بحيث يكون هذا المبلغ موضع الاهتمام من جيبه الفقير .

تابع شفيق المصري نقداته الاجتماعية ، واختص المرأة بمداعبات لا تدخل تحت حصر ، اختص المرأة جاهلة ومتعلمة وزوجة وآنسة ، وفقيرة وثرّية وسافرة ومحجّبة ، بكل ما نضح به ذهنه المتألق من معان ، وكان أكثر ما يبدع به حين يتحدث عن التي أرادت أن تتفرنج ، وأن تُسرف ، فرغبت في شراء السمن والقطائف واللحم في رمضان ، ثم ارتقت فصمّمت على أن تلبس الفستان القصير وتذهب الى التياترو ، فإذا رفض الزوج فالمشاجرة وارتفاع الأصوات ، وتدخل الجيران وزلزال البيت من جميع نواحيه .

لقد صوّر المصري هذا الجانب محتذيا قصيدة لأبي العتاهية فقال :

ألا مـــا لسيـــدتي مـــالهـــا
أدلا فـــأحمـــل إدلالهـــا
أظن الـــوليّـــة زعـــلانـــة
ومـــا كنت أقصـــد إزعـــالهـــا
أتى رمضـــان فقـــالت هـــاتـــولي
زكيبـــة نقـــل فجِبْنـــا لهـــا
ومن قمـــر الـــدين جبت ثـــلاث
لفـــائف تتعب شيّـــالهـــا

وجبتُ صفيحـــــة سمن وجبتُ
حـــوائـــج مـــا غيـــرهـــا طـــالهـــا
فقـــل لي عـــلى إيـــه بنت الـــذين
بتشكي إلى أهلهـــا حـــــالهـــــا
أتـــــدرون مـــــاذا أثـــار الخنـــاق
فـــزلـــزلت الأرض زلـــزالهـــا
تـــريـــد الـــذهـــاب معي للتيـــاتـــرو
وتـــــطلب مني إدخـــــالهـــــا
وكيف أروح معهـــا التيـــاتـــرو
إزايّ أقبـــــل إرســـــالهـــــا
يـــرون عليهـــا ثيـــابـــا قصـــارًا
تـــدوخ إذا شفت أشكـــــالهـــــا
ورب فـــإمّـــا بـــلاش التيـــاتـــرو
وإمـــا تـــــطوّل أذيـــالهـــا !!

وداء الواسطة ! مازال للآن يستشري ويشتد ! حتى أهدرت الكفاءات ، وضاعت قيم الجوائز العلمية العالية إذا لم تجد شافعًا مسموع الكلمة يمهّد لأصحابها ، وربّ صعلوك هتّاف لا يملك من المواهب شروى نقير ، ولكنّ وساطته تتقدم به الصفوف ، وقد يكون له أخ أو صهر أو خال أو عم يدفع به ليأخذ دون استحقاق حقا لصاحب كفاءة لا يجد النّصير ، وهي حال تؤرق كل مصلح ، ولا بد أن تلتفت إليها عين لاقطة مثل عين الشاعر المصوّر حسين

شفيق المصري ، وقد عبّر عن خواطر الناس حين تحدث عن هذه الآفة القاتلة محتذيا قصيدة شهيرة للشاعر العراقي عبدالمحسن الكاظمي مطلعها :

إلى كم تجيل الطّرف والدار بلقع
أما شغلتْ عينيك بالجزع أدمعُ

فقال حسين شفيق المصري :

أفتش في الديوان عن واحد له
نفوذ لتوظيفي وفكري موزّعُ
يقولون لي هل من وسيط تجيبه
شفاعته عند الحكومة تنفع
وهل كانت الليسانس حين أخذتها
شهادة تطعيم بها أتسكّع
وغيري عشان محسوبكم متوظف
أراه عليكم دائما يتدلّع
ولو لم يكن محسوبكم كان حقه
يكون حماراً أزرقا يتبردع

والحق أن تاريخ المجتمع المصري لا يكتمل على أتم صوره إلا حين نرجع لدواوين الشعراء من الذين خالطوا الشعب ، وأدركوا مآسيه ، واكتووا بنيران الظلم والاضطهاد ، وعرفوا ألوان النفاق والتزلّف والمحاباة وهم كثير ! لأن الشعر ديمقراطي ينزل الى السفوح كثيرا ، وقد يرتفع الى القمم على استثناء .

ساعة الهراوى

كان الأستاذ محمد الهراوي قد أهدى الأستاذ محمد الاسمر ساعة مضطربة لا تضبط الوقت ، فانتهز شعراء الحلمية الفرصة ليقولوا في الساعة وصاحبها ما يتندرون به ، حتى ضج الهراوي فنظم قصيدة قال فيها :

وســـــاعـــــة أهـــــديتهـــــا
إلى صـــــديقي الاسمـــــر
حسبتهـــــا في مخبـــــر
كمـــــالهـــــا في مـــــظهـــــر
حتى احتـــــوانـــــا مجلس
يـــــزخـــــر بـــــالتنـــــدر
فقـــــائـــــل حُقّ نشـــــو
ق لفقيـــــه أزهـــــري
وقـــــائـــــل محبـــــرة
من اختـــــراع بـــــرْكـــــر
وقـــــائـــــل قـــــومـــــوا بنـــــا
نســـــأل عنهـــــا السمكـــــري

والذي قال ذلك كله بلسان الفكاهة حسين شفيق ، إذ جعل يسأل الهراوي أهي حق نشوق ؟ ويسأل الاسمر : ألم تذهب بها للسمكري ويزيد فيقول : ساعة دايرة على كيفها ! معقربة بتلدغ ! الساعاتي لو شافها قلبه يدق ! قلبهـا

فاضي ! هي الساعة التي هي أدهى وأمر ، حتى استجار الهراوي به أن يسكت ومن دلائل بديهته أنه سمع قول إيليا أبي ماضي :

أفهم النـــــاس للحيـــــاة أنـــــاس
حلّلوهـــــا فـــــأحسنـــوا التحليـــــلا

فقال مرتجلا :

أوكـــــل الناس للخيـــــار أنـــــاس
خلّلوه فـــــأحسنـــوا التخليـــــلا

واقعة حال

كان حسين المصري محررا بمجلة الجوائب التي يصدرها خليل مطرهان ، وقد أعطاهُ في شهر ما ريالا واحدا ، فقال له حسين المصري يا خليل بك : الرِّيال لا يرنّ على البلاط ، الريال برّاني ، فضحك مطران وقال بكرة يرن .

ومضى عشرون عاما ، وتحدث المصري لصديقه محمد الههياوي عن ريالِ مطران ، وكانا ينظمان معا الشعر الحلمنتيشي دون توقيع ، فكتب الههياوي قصيدة في معاتبة مطران قال فيها :

وخليـــــل مـــــطران تعلّم منّنـــــا
نـــظم القـــريض فـــطظ في مـــطران
شعـــري يـــرنّ عـــلى البـــلاط وشعـــره
مـــا هـــوش يـــرن لأنـــه بـــرّاني

وقرأ المصري كلام الههياوي وهو بدون توقيع فاعتقد أنّ مطران سينسب الشعر الهاجي إليه ، فاتصل به متنصلا ، وقال له احلف لك يا بيه ما قلت حاجة فقال مطران لا تحلف يا حسين لِأصدّقك ومطران مظلوم من الههياوي فشعره شعر الدقة والعمق ، وهو كما قال شاعر العراق في شأنه :

يتحدّى السّرب في شاهقة
ويعاف السهل للناس مجالا

مع مطران

كنت وأنا طالب بكلية اللغة العربية نظمت مقطوعة قلت فيها :

ما إن أقارفُ لذّةً
إلاّ ويصحبها الألمْ
فإذا انتهيتُ وجدتني
أصْلَى تباريح الندم
فأقول ليت حوائلاً
نهضتْ تُقاومني فلمْ

ولقيت أستاذي الشيخ أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب بالكلية فقال لي : يا أخي ، بتسرق شعر حسين شفيق ليه ! فقلت وماذا قال ؟ قال :

عجبـــــا للنفس تنهى عن هــــوى
وهي تــــدعـــوني إلى أن أتبعـــه
فــــإذا مـــا جئتـــه لم أدر هــــلْ
أصبحت مـــرتـــاحـــة أو مـــوجعـــة
لا أرى اللّذة إلاّ ألمـــــا
كلّمـــا ألقـــاه ألقـــاهـــا معـــه

قلت يا سيدي أبيات المصري في القمة ، وأنا لم أقرأها من قبل .

ومن روائع حسين شفيق قوله الباكي :

أبـــاعـــدتمـــونـــا مـــا أقـــلّ وفـــاءكم
فليس عــلى ألاّ نفـــاقـــركم نـــدمْ
ولكن عهـــدًا كـــان ، يـــاليت لم يكنْ
تمـــرّ لـــه ذكـــرى ويعقبهـــا ألمْ

وهما بتان بديوان .

طرائف أدبية

(امارة شوقي)

حين احتفل جمهور الشعراء بمبايعة أحمد شوقي أميرا للشعر العربي ، كان المظنون بأنصار المذهب القديم في الصياغة الشعرية أن يكونوا جميعا من أنصاره ، واذا جاز لمثل العقاد وشكري والمازني أن يرفضوا هذه الامارة ، فان شعراء نادي الحلمية مثل محمد الهراوي وحسن القاياتي وأحمد نسيم ومن دار في فلكهم قد أعلنوا رفضهم لهذه المبايعة ، وتحدثوا مع حافظ ابراهيم ومحمد عبدالمطلب فوافقا على استهجان مبايعة شاعر ما بالامارة ، وان يكن شوقي ، ولكنهما قد ضعفا أمام الذين ألحوا عليهما ، فأنشدا أبيات المبايعة في قصيدتين طويلتين ، وخاصمهما الهراوي وقتاما ، ثم التأم الشمل بعد أمد قصير ، ومازال الأدباء يروون قول الأستاذ محمد الهراوي في هذه البيعة منفردا .

ان شــــوقي شـــــاعـــــر
كلنــــــــا أجــــــــله

غيـــــر أنـــــا معشـــــر
ليس يــــرضى ذلـــــه
وهي جمهـــــوريــــة !
لا تـــــرى محله !

إمارة ثانية

ثم مات شوقي ، ولم يكد يرتاح معارضوه من المجددين والمقلدين معا ، حتى ارتفع صوت الدكتور طـه حسين بمبايعة العقاد أميرا للشعر ، وقد دأب الدكتور طه في سنواته الاخيرة على انكار هذه المبايعة ، ولكنها حقيقة ثابتة ، سجلتها الجرائد اليومية في خطبة رنانة جهر بها الدكتور الكبير في حفلة تكـريمية ، أقيمت للعقـاد بعد خروجه من السجن ، وقد قيل في أسباب هذه المبايعة ان العقاد في تلك الايام كان كاتب الوفد الأول . وقد انضم الدكتور طه الى الوفد حديثا فآثر أن يظفر بصداقة الكاتب الجبار محاذرا أن يصطدم معه ، وهو صاحب الصوت الجهير ، منذ نشأ حزب الوفد من أيام سعد ، وبين يدي الآن جريدة « الجهاد » الصادرة في ١٩٣٤/٤/٢٩ تحمل خطبة الدكتور طه حسين ، في صفحتين كبيرتين تابعيان العقاد ، مبايعـة صريحة لا تحتمـل اللبس ، فإذا أراد القـاريء أن يقف على بعض مـا قالـه الخطيب الكبير فليسمع ، نقلا عن الجهاد :

من خطبة الدكتور طه حسين

« ان العقاد هو الصورة الناطقة ، واللسان الخالد ، والمرآة الصافية المجلوة ، التي حفظت صورة مصر الناهضة وأبقتها للأجيال القادمة ... أنا سعيد جدا في أن أعلن رأيي في صراحة وأن أقول أني لا أؤمن في هذا العصر بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد ، أنا أعرف حق المعرفة ، وأقدر كما ينبغي نتيجة هذه المقالة التي أعلنها سعيدا مغتبطا ، أعلم هذا حق العلم وأعلنه متحملا تبعاته .

اني أؤمن به وحده ، لأني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء ، وأكبر العقاد وأؤمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر ، لأنه يصور لي المثل الأعلى في الشعر ، هذا المثل الأعلى يجمع بين جمال الشعر العربي القديم وبين أمل المصري الحديث .

الى أن قال الدكتور طه حسين : ضعوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولوا للأدباء الشعراء اسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » .

هتاف واستجابة

وقد ذكرت الجهاد أن الجمهور أخذ يردد الهتاف بحياة العقاد أميرا للشعراء ، عقب كلمة طه وفي أثنائها وكانت الجهاد حينئذ تضم تلاميذ العقاد ، إذ يملأون كل يوم صفحاتها الأدبية مشيدين بابداعه ، فكانت كلمة الدكتور

طه فاتحة لمقالات رنانة تبايع العقاد ، وانصافا للعقاد نذكر أنه فوجيء بخطبة طه ، كما لم يكن دافعا لأحد من تلاميذه كي يبايعوه ، ولكن اعترافهم بريادته التجديدية قد وجد المناسبة الحافزة ، فانطلقوا محبذين ، وقد انتقل الصدى الرنان الى نادي الحلمية ، وطبيعي أن يحدث تأثيره المضاد ، لأن الذين عارضوا امارة شوقي ، وهم يسيرون معه في طريق فني واحد ، لابد أن يعارضوا امارة العقاد ، وهم أبعد الناس عن منحاه الشعري : ولكن كيف يعارضون ؟! وللأمير الجديد أوسه وخزرجه ، وأدباء الشباب جميعا يلوذون به ، ومعهم أقلامهم الجريئة المتنمرة ! واذا كان شعر شوقي قد أثخن جراحا دامية بنقداتهم اللاذعة أفيستعصى عليهم أن ينقدوا أشعار الهراوي والكاشف والقاياتي والأسمر وحسين شفيق المصري وكامل كيلاني ؟! لا مناص إذن من أن يتركوا التصريح الى التلميح ، وأن ينفسوا عن أرواحهم بمبايعة هزلية مضادة ، يقال فيها الشعر ، وتشتغل بها الصحف ، وتتناقل حديثها الأندية ، لأن اختيار أمير جديد مما يوحي بمناوأة الأمير القائم ، ولكن من يكون هذا الجديد ؟

البرنس حسين

لعل من نكد الشعر أن يكون مثل (ليلى) التي قال عنها الشاعر :

وكــــل يـــدعى صلة بليـــلى
وليـــلى لا تقــر لـــه بـــذاكــا

وهكذا كان البرنس حسين محمد من عشاق ليلى عن ادعاء لا عن أصالة ، وقد وصفه الشاعر احمد رامي حين قال انه كان منتفخ البطن قصير القامة يلبس الجبة والقفطان والطربوش ، ويتردد على الأضرحة بين السيدة زينب والامام الحسين والشافعي ، وسمى بالبرنس لأن والده كان يعلم الحروف الهجائية ، لأحد الكبار من الامراء ، وهو طفل صغير ، وكان الوالد يصطحب نجله معه الى القصر الكبير . فأخذ يطلق عليه لقب البرنس كما يطلق على تلاميذه الأمراء ، حتى اشتهر به ، ومضت الأيام فشب البرنس والتحق نساخا بدار الكتب المصرية وهي يومئذ موطن الشعراء ، ومجمع حافظ وأحمد نسيم و أحمد رامي ومحمد الهراوي وأحمد الزين وأحمد محفوظ ، وكلهم شاعر ذائع ، ينشد الشعر و يعرضه على زملائه قبل النشر ، فرأى البرنس أن يكون هو الآخر شاعرا ، وراح يردد البيت أو نصف البيت كما يردان على خاطره ، ثم جعل يتصدر للحكم على قصيدة يسمعها من أعيان دار الكتب ، وكثيرا ما كان يجابه حافظ ونسيم ورامي فيصبرون على نقده متفكهين ، وما كان يثور عليه غير الشاعر أحمد الزين إذ كان ضيق الصدر مع رؤسائه في دار الكتب ، لا يصبر على هفوة ، وقد تعرض للفصل لولا شفاعة شوقي فكيف يصبر

على دعي كالبرنس ، وكان رامي أوسع الشعراء صدرا فكان يعرض على البرنس قصائده ، متفكها لينعم بتصويباته المضحكة ، وانخدع البرنس برامي فأخذ يعلن أنه ينظم لرامي أكثر ما يقول ، ولولاه لما استوى شعره ، وقد يطول لسانه في غير تحفظ فيتعرض الى سباب الشعراء ، فيبكي ثم يجبرون خاطره فيدفعون له الشلن » وهو غاية ما يأمل ، وقد اشتهر له بيت من الشعر كان يردده دائما على من يطلب رفده ، وهو

شَلِّنْ بــــرنســـك انـــه
أضحى فقيـــرا في الـــورى

وَشَلِّنْ فعلُ أمرٍ عند البرنس حسين بمعنى أعط الشلن !
هذا البرنس الأعجوبة كان هدف الشعراء الغاضبين ، حين اختاروا من يبايعونه بالامارة ، ردا على امارة العقاد ، وقد نال تقديرهم جميعا فلم يعارض شاعر في اختياره ، وأقاموا له احتفالا كبيرا في احدى ليالي رمضان الصيفية ، فأجلسوه على كرسي عالي وجعلوا يتقدمون الى حضرته الواحد بعد الآخر مبايعين ، ثم نظموا له ما قاله ردا على هذه المبايعة ، وكان في طليعة هؤلاء المبايعين أحمد الكاشف ومحمد الأسمر ، وحسن القاياتي ومحمد الهراوي وعبدالجواد رمضان ، وكامل كيلاني وحسين شفيق المصري ، وسنلم هنا ببعض ما قيل .

من قصيدة الكاشف

لم يستطع الكاشف أن يخفي مشاعره الغاضبة نحو قضية (الامارة) حين سيقت الى العقاد ، اذ افتتح مبايعته بما يدل على أن امارة البرنس مكيدة لسواه ، وكان من حق البرنس عليه وقد جلس في حفلة التتويج ألا يجابه بما يدل على انه اختير لمهزلة مضحكة ، لا لمنزلة عالية يعترف بها المبايعون ومن لطف الله بالأمير البرنس أنه لم يفطن الى ذلك مع وضوحه الصارخ ، فقد أدركته النشوة السعيدة حين سمع أحمد الكاشف يقول :

امـارة الشعـر خـذها يـاحسين فقـد
أتـى يبـايـعـك الاخـوان والصـحـب

وأدرك اللقب المضني ســـواك بـــه
ليـــطمئن الى غـــالي اسمـــك اللقب

لم يبق من سبب لـــــلأدعيــــاء الى
مـــا حـــاولـوه ومـــا ودوا ومـــا حسبــوا

وكـــان فيمـــا تـــوليت القضـــاء عـــلى
مـــا لفقـــوه وأمـــلاه الهـــوى الكـــذب

من لي بســـــدتـــك العليـــا أقبلهـــا
ودون ســـدتـــك الأستـــار والحجب

هذا نصيبي من الفوضى ظفـرت بـه
من بعـد ما خـانني في غيرهـا الأرب

لم يغنني الجـــد في قـــول وفي عمـــل
وقـــد لعبت عسى أن ينفـــع اللعب

(من قصيدة حسين شفيق المصري)

وكان حسين شفيق أرأف المحتفلين بأميره ، لأنه لم يواجهه بتعريض مؤلم ، بل انسابت روحه المرحة في كلام موزون وكأنه نثر مسترسل ، ولا يخلو جد حسين شفيق من دعابة في أعقل الظروف ، فكيف بـه في مجال الفكاهة الضاحكة ، لئن بان للناقدين معنى الهزل في أبياته ، فان البرنس حسين كان سعيدا كل السعادة بما يسمع من المديح الجاد ، وقد هش لحسين شفيق المصري حين قال :

يـــا حمـــاة القـــريض حـــول البـــرنس
أصبـــح الشعـــر دولـــة ذات كـــرسي
وهـــــــل الحكم والامـــــــارة الا
لبـــــرنس يضحى بـــــرأي ويمسي
يقـــرض الشعـــر مثلمـــا يقـــرض الفـــأ
ر حـــبـــا لا قـــد فـتـــلت من دمـــقس
كـــان من قبله القـــريض بجلبـــاب
فـــأضحى ببنـــــطلون وجـــــرس
أيهـــا الشـــاعـــر الكبيـــر رضينـــا
ك أميـــرا ، فكنـــه ، تفـــديـــك نفسي

(من قصيدة الأسمر)

وقد وفق الأسمر في دعابته حين اعترف لأمير الشعر الجديد أن امرأ القيس بعض الأمناء في حاشيته ، والمتنبي بعض وزرائه ، وأن أبا نواس والرشيد نديماه (يخيل إلى أن اسم الرشيد هنا مقحم) وان المعري يحبو في سدته ! وان شاعرا له هذا السلطان لابد أن يباشر مسئوليته عن جدارة . فليطرد الثقلاء ، وليرحم الشعراء من القول الهراء ، وليغرد بالشعر وليهتف به من يشاء ولو اقتصر الأسمر على ذلك لبلغ من سامعيه ما يريد من الاعجاب ، ولكن ختام قصيدته قد انقلب هجوا للبرنس حين ذكر مادحه أنه ينشد الشعر حيث لا يسمعه أحد في الأرض ولا في السماء ، وحين دعا الله أن يثبت عرشه وقد قام على الهواء !

قال الأسمر فيما قال :

يـــــا أميــــــر الشعـــــــراء
أنت أولى بــــــاللواء
امـــــرؤ القيس عـــلى بـــــا
بـــــك بعض الأمنـــــاء
وأبـــــو الـــطيب في الـــدو
لـــــة بعض الـــــوزراء
والنـــــواسى وهـــــارون
معـــــا في النـــدمـــاء

دولـــــة ليس بهـــــا الا
كبـــــار الكبـــــراء

●●●

سيـــــدي لا يبق في الـــدولـــة
غيـــــر الــــظرفــــاء
سيـــــدي وليشمـــل الــطرد
جميــــــع الثقـــــلاء
سيـــــدي ولتـــرحم الشعــــر
من القـــــول الهـــــراء
فبـــــه اليـــــوم ثغـــــاء
ورغـــــاء وعـــــواء
سيـــــدي رجـع لنـــا شعـــر
ك واهتف مـــــا تشـــــاء
حيث لا تسمعـــــك الأر
ض ولا تصغى السمـــــاء
ثـبـت الـلـه لـك الـعـرش
وان كـــــان هـــــواء !

(من قصيدة عبدالجواد رمضان)

وأستاذنا عبدالجواد رمضان شاعر عازف ينطوي على نفسه في رحاب الأزهر وحده ، وله رصانة وسبك عرف بهما عند طلابه إذ كان حظ الديباجة لديه أوفر من حظ المعنى ،

وقد تجلت خصائصه الفنية في مقطوعته القصيرة ، وما كان لنا أن نطالبه بالإكثار ، وإذ كنا نعرف صراحته التي تنقلب الى هجوم مباشر في كثير من أحاديثه فانه رحمه الله لم يتخل عنها حين هاجم من سماهم أدعياء القوافي ، ورماهم بالتجارة والانتهازية حين قال مخاطبا سمو الأمير :

دعتــك وقــد تــوافــر طــالبــوهــا
وهــل يحــوي العــلا الا بنــوهــا
أميـــر الشعـــر أنت وان تغـــالي
وأســرف في الــدعــايــة مـدعـوهـا
جيـــاع تـــاجـــروا بـــاسم القــوافي
وقــد ربحــوا الحيــاة وأخســـروهــا
فقـــل لأولئـــك الحمقى رويـــدا
تلون الفـــرقـــدين ولن تلوهـــا
ســأحمي عـــرضهــا وأذود عنهــا
زعـــانف للرذيلة سخـــــروهـــا
وهـــل خلقت جـــلالتهـــا لغيـــري
فشعـــري أمهـــا وأنـــا أبـــوهـــا

(من قصيدة كامل كيلاني)

أما كامل كيلاني فجعل مدحته قضية ، حيث استعجم العرب فيما يبدعون من الشعر حين حاكوا الفرنجـة ، وحيث عاب المجترئون تقليد القدماء من العرب وانطلقوا

يقلدون سواهم حينا ، ويسفون فيما يبتكرون حينا آخر ، واذا انتشرت الرطانة ، وتغلبت العامية ، وساد الجنون فلابد أن يكون مثل البرنس أمير !!! وهنا يجب أن نقول ان الكيلاني لم يراع مقتضى الحال الذي يعده البلاغيون أكبر أسباب القوة في الأسلوب ، فالمجال مجال تكريم ، وكان في التلميح ما يسع كل نقد ، أما أن يختار البرنس أميرا لأن الشعراء جهلاء أدعياء فلابد أن يكون أميرهم كذلك فهذا هجاء سافر يضائل من روح المرح التي سادت حفلة المبايعة ، يقول الكيلاني مخاطبا أميره :

كنت البـرنس فأصبحت الأميـر فمـا
زادوك شيئا سوى التعريب مرتجـلا
استعجم العــرب حتى صــار قــائلهم
مستبهم الـطبـع صنـو البهم مكتمـلا
قــد جــدد العصـر في وزن وفي لغـة
فلست تعـرف شعـرا قـال أم زجـلا
رطــانــة لست تـدري حين تسمعهـا
أقــال محتفــلا أم قــال مــرتجــلا
فكن أميــرا لهـذا العصـر مضـطلعـا
بثقله ، واحتمـــل أعبــاءه رجـــلا
فــأنت تفهم شعــر القـوم مقتـدرا
وتـــدرك الســـر والأسبـــاب والعللا

وتوالى القائلون فأنشد الأساتذة سيد ابراهيم ، وعزيز

بشاي ومحمد الهراوي والسيد حسن القاياتي الذي قال لصاحبه :

ســـد كمـــا ســـاد صـــريـــر شـــدمـــا
أمـــــر الأقــــلام في وادي الـــــزئيـــــر

وهو ثلب صريح لا أدري كيف رمى به البرنس ، وهو بعد صنيعة القاياتي ، ونديم مجلسه بالسكرية ، وموضع بره الجزيل أما الأمير المختار فقد أنشد مقطوعتين ، تغني إحداهما عن الأخرى وقد تواضع حين قال :

عـــلى الشعـــراء قـــد صـــرت الأميـــرا
وإن كنت الخبعنشـــــــة الصغيـــــــرا
واني للرئيس بكـــــــل نـــــــاد
أحـــاكي الشمس في الـــدنيـــا ظهـــورا

وقد تطوعت الجرائد اليومية ، فنشرت قصائد الحفل ، وأخذت صور البرنس مع رعيته ، وتشاغل الناس بهذا الهزل الجاد حينا من الدهر ضاحكين متندرين .

مقاهى القاهرة
منابر سياسية ومدارس أدب

قـرأتُ التحليل الـرائع لكتـاب (القهوة والمقهى في الشرق) الذي كتبه الأستاذ مصطفى نبيل بعدد أكتوبر سنة ١٩٨٦ من مجلة الهلال ، وقد ختمهُ الكاتب الفاضل راجيا أن يحين الوقت لأن يكتب بـاحث عربي تـاريخ المقاهي ، فتذكرتُ بالأسى اللافح صديقي الفقيد العزيز الأستاذ محمد فهمي عبداللطيف ، فهو الباحث الذي امتلأ صـدره بتاريـخ المقاهي في مصر ، وقـد كـان مجلسنـا بالفيشاوي معه ، سجلا لتاريخ حافل يرويه الراحل الكريم عن مقاهي القاهرة ، وكأنه يقرأ من كتاب ، وقد دَوّنَ بعض هذا التاريخ في مجلة الرسالة وجريدة المصري وكتاب فلاسفة وصعاليك ، ولكنّ ما دُون معشار ما تُرك ، وليتني الآن استطيـع تـذكّـر مـا قـال ، وإذا فـاتني الكثيـر ، فسأستعيض ببعض ما لديّ من الأسفار ، ليرى قارئ الهلال كيف كانت مقاهي القاهرة مدارس أدب ، ومنابر سياسة ، وكيف حَدّدتْ تاريخ مصر في بعض فتراتها ، وماذا تظنُّ بمجالِسَ تجمع الصفوة من كبار المفكرين ، وفي كل صدرٍ خواطرُ ، ولكل جالس من هؤلاء لسانٌ ينطقُ وعينٌ ترىً ، وعقلٌ يحلّل وضميرٌ يستنكر ، والأحداثُ تتوالى ، والفجاءاتُ تَتَتَالَى ، وإذا تحدّث عنها العـامل والتـاجر

والصانع فهلْ يسكت الزعيمُ الموجّه ، والكاتبُ المحلّل ، والصحافي النابه ، والشاعرُ المغرّد ، وهؤلاء هم صفوة الجالسين ، وخيرة المنتدين !

ولن يسمحَ مقالٌ متواضع في الهلال أن يتسع للحديث عن مقاهي القاهرة حديثًا مستوعبا ، فالمقاهي بها لا تعدّ ، والمرتادون من الصفوة كثيرون كثيرون ، وما نُقِل عنهم أقل ممّا أهمل ، وسبيلُنا أن نَكتفي بالمثال ، فقد يكون باعثًا لدراسة مستوعبة يقومُ بها دارس متئد ، في مجال فسيح .

مدرسة الأفغاني الكبرى

حين ورد الى القاهرة حكيُم الشرق وباعث نهضته المصلح الفيلسوف الثائر جمال الدين الأفغاني ، كان صدره يغْلي بأفكاره ، فتتطّلب متنفسًا ينتقلُ بها من الضيق الى السعة ، وكان لسانه الحكيم موهبته التي لا تفارقه قَيْدَ خُطوة ، فهو يتحدثُ في المنزل والطريق والمسجد مع من اجتباهُم من تلاميذه ، وهمْ صفوةُ طلاب الأزهر ، من أمثال محمد عبده وعبدالكريم سليمان وابراهيم اللقاني وابراهيم الهلباوي وشيئًا فشيئًا ذاعَ فضلُ الرجل ، وانتمى إليه سليم تقلا وأديب اسحق وابراهيم المويلحي وعبدالله النديم ، ومحمود سامي البارودي ، وزادت الحلقة اتساعًا فخرجتْ من المنزل الى قهوة البُوسْتَة المعروفة بقهوة أنطون ، وهو على لُكْنَتِه الأعجمية ، جيّاشُ

الخاطر متدفّق الحديث ، لأن رسالته الإصلاحية ذاتُ جيشانٍ يهدر ويصطخب بين ضلوعه ، ولهُ وجْهٌ فصيحُ الملامحِ ، وعَيْنٌ وهّاجةُ البريق ، وغوْصٌ على الأعماق المستكنّة ، وخبرةٌ بكوارث الاستعمار ، ونفاقِ المستوزرين ، وغفلة النائمين ، فإذا عبّر عن كلّ ذلك فقد نقلَ الناسَ من حالٍ إلى حال ، حين يرشدهم إلى الهوّة العميقة التي توشكُ أن تتسع لتبتلع ما فوقَ الأرض من كوائن ، وفي قهوة البوستة تألّف الحزب الوطني الحُر ، وهو أولُ حزبٍ عرفتْه مصر على يد الأفغاني كما وضعت مباديء الثورةً لإصلاحٍ يعمُّ العالم الإسلامي مبتدئا بمصر ، إذْ زار الأفغاني ربوع الشرق ، وفكّر وقدر ، فرأى أنّ مصر قلب العالم الإسلامي ، وإذا نهضتْ فقد قادتْ سواها ، وحَقٌّ ما قدر ، وطبيعيٌّ أن يلتهب السامعون حفيظةً حين يكشفُ لهم الأفغاني دور الاستعمار في الاستبداد السياسي ، والنهب المالي ، والتدخل في صميم الأمور بحجة الحفاظ على سداد الدين الأجنبي ، وقد جاسر بمعاداة الخديوي اسماعيل وإقالة مَنْ يصطنعهم من أمثال نوبار ، ودعا إلى إنشاء صحافةٍ حرّة تُوقظ النائمين ، وتتحدى معضلات السياسة ، وأحابيل الاستعمار ، إذ لا يكفي أن يتحدث على القهوة في مجتمعٍ محدود ، فلابُّد أن تنتشر الآراء بين الناس ، وبتشجيع الأفغاني أصدر الكاتبُ الشاب أديبُ إسحق جريدة مصر وكان محمد عبده

وابراهيم اللقاني وعبدالكريم سليمان من كتّابها ، بل كان الأفغاني على رأس هؤلاء إذ صدرتْ مقالاتُه بتوقيع (مظهر بن وضاح) ولأول مرةٍ في تاريخ الأدب الحديث ظهرتِ المقالةُ السياسية ، واتسع المجالُ للحديث عن مَعاضِل الاجتماع ومساويء التعليم ، وأدواء الجهل والفقر والمرض ! كما عَرف المصريون أنَّ لهم الشأنَ في إدارة بلادهم وأنّ الحاكم يجبُ أن يصدرَ عن أمرهم ، وليس له أن يستبدَّ بالأمر دونَ رجوعٍ إلى مجلس نيابي يبحث ويقرر ، قال الدكتور أحمد أمين « كان الأدب قبل الأفغاني غَزَلًا في حبيب أو رسالةً الى صديق ، أو مدحًا لأمير أو استعطافًا له ، أو وصفًا لسفينة ، أو شكرًا على هدية ! أما مصرُ وحالة شعبها وبؤسُ قومها ، وظلمُ حكّامها وحقوقُ الناس فلا شيء ، فلما جاء جمال الدين قَلبَ هذا الوضع) وكانت قهوة البوستة ، هي مدرسةُ الأفغاني التي غيرتْ مهب الريح .

المضحكخانة الكبرى

في الوقت الذي كان فيه الأفغاني يشعل نار الثورة في مجالسه بقهوة البوستة ، كان هناك مجلس آخر في قهوة أخرى بحي الخليفة بالقرب من مسجد السيدة سكينة رضي الله عنها ، وإن اتجه مجلس الأفغاني إلى الجد الصارم فقد اتجه رُوّاد مقهى الخليفة إلى الهزل المازح ، والضحك

المباح ، وكان رئيس المجلس هو الفكاهي المشهور الشيخ حسن الآلاتي ، وله كتاب في ثلاثة أجزاء أسماه (ترويح النفوس ومضحك العبوس) والشيخ حسن الآلاتي نادرة عصره في النكتة الطريفة ، والبديهة الحاضرة ، أهدى إليه في مجلسه بالقهوة أحد الكبار من الرؤساء حِذاء جديدا فلمسه الشيخ بيده ، إذ كف بصره في عهده الأخير ، وقال للمُهدى على البديهة : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : (يُحشر المؤمن في ظل صدقته) وهو تعليق يدل على منبع الفكاهة في نفس الشيخ ، وقد اشتهر مجلسه اشتهارا كبيرا فوفد إليه المتعلّمون في الأزهر ، وكان الوزراء وكبار الأعيان يذهبون إليه في المقهى متنكرين في غير أزيائهم الرسمية ليُجهلَ مكانهم فلا يحتشمهم الحاضرون ، ويأخذون في التندر كما يشاءون ، غير أن عبدالله باشا فكري وزير المعارف وهو أديب بطبعه لم يشأ أن يتنكر ، فكان يحضر إلى المقهى ليأخذ في السمر على طبيعته مع رواده الأدباء والعلماء من أمثال عبد الهادي الإبياري وعلي الليثي وأبي النصر المنفلوطي ، وعثمان مدّوخ ، وما منهم إلا شاعر أو خطيب أو عالم ، وأذكر أن علي مبارك قد اشتاق لمقهى الخليفة ، وحالت صعوبات يراها أمامه دون أن يتمتع بندوة الآلاتي ، فطلب من عبدالله فكري أن ينقل الجمع إلى داره ، حيث كانت له ندوة أسبوعية آهلة ، حضرها عبدالعزيز فهمي في صباه الأول ، وتحدث عنها في

بعض ما كتب ، ولكن حسن الآلاتي لم يرغب في ترك المقهى مع جماعته ، وظلّ علي مبارك يتسمع أخبار المجتمعين عن طريق بعض رُوادها ، وقد طارت شهرة كتاب (مضحك العبوس) حين صدوره ، لأن جامعه الذكي قد انتقاه ليؤديّ رسالته في الترويح والتسرية ، وحسبُكَ أن يكون مضحك العبوس !! ومن المعروف أن جمعية المعارف حينئذ قد نشرت طائفة من كتب التراث مثل الأغاني والعقد الفريد والمستطرفْ ، وبها الرائع من النوادر ، فعكف الآلاتي على قراءتها ، وأضاف إليها من حلاوة رُوحه ، وخفّة تندره ما جعلها حلوة الموقع حين تُروى ، وحين يحتذيها بطرائف كثيرة من بنات صدره ، تصادف الارتياح والإيناس ، يقول الدكتور أحمد أمين «وأظهر ما في الكتاب من فنون المضحكات ، فن المفارقات ، فقد ارتقى على يد الشيخ حسن الآلاتي واستخدمه استخداما كبيرا ، فهو يقول في مطلع خطاب له «الى السيد المهاب ، والضبع الوثّاب ، الصادق الكذاب ، عالم العصر ، ومصلّي الظهر وتارك العصر ، الذي بنى على ظهره مائة قصر ، أعز الإخوان ، من تهابه الخرفان ، الضارب بالنقرزان ، قاهر ابن خلكان ، مولانا الشيخ رمضان» .

وقد يكون هذا القول هيِّن الوقع حين يُسردُ في كتاب ، ولكنه حين يُروى مع أمثاله في مجلس الخليفة ، ويدور حوله التعليق تنكيتا وتبكيتا ، وموافقة ومخالفة فإنه

يكسب المجلس ظرافة وبهجة ، في وقتٍ لم يكن فيه من أسباب الترويح غير الحديث الساخر ، والسمر اللذيذ .

مذكرات شائقة

أصدر العلاّمة السوري الأستاذ محمد كرد علي مذكرات شائقة عن حياته في عدّة أجزاء ، وبينْ صفحاتها حديث عن ندوات الأدب في مصر ، إذ شاهد في مقهيين شهيرين اجتماعات أدبية لأعيان الفكر في عصره ، ففي (متاتيا) تجاه حديقة الأزبكية ، كان يطيب له أن يجلس مع من سمّاهم جماعة دار العلوم كل مساء ، حيث يسمر أحمد السكندري ومحمد الخضري وعبدالعزيز شاويش وحفني ناصف ، وسلطان محمد وأحمد إبراهيم ومحمود دياب وحسن منصور ومحمد المهدي ومحمد عبدالمطلب ، وجميع هؤلاء كما يعرف المثقفون من ذوي الرّصَانةِ والتوقر ، فإذا دار الحديث فعن عيون المسائل في الدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية ، وإن مقهىً يحفلُ بهؤلاء ، أو بأكثرهم كل مساء لهو جامعة آهلة ، وقد تجمع الجامعة المتوسط والجيد ، أما جامعة دار العلوم هذه فقد جمعت نخبة ممتازة لكل عضو منها دوره البارز في فنه أدباً أو فقهاً أو تربيةً أو تاريخاً ، ولو أن بعض تلاميذهم وفّق إلى تسجيل ما يدور من الحوار ليْليًّا في صفحات متتابعة لأدْهَشَ وأعجبَ ! وليس ذلك بغريب عن تراث العربية ، فقد ألَّف

أبو حيان التوحيدي أعظم كتبه (الإمتاع والمؤانسة) مقتبسا من مجالس السمر في دار الوزير ابن سعدان ، حين احتفل الوزير بقضايا الفكر وحرص على مسامرةِ ذويه ، في ليالٍ عدة ، شهدها أبو حيان وسجّل خلاصاتها بأسلوبه البارع ! ولعمري كم فقد الأدب المعاصر حين حرم تسجيل هذه الأمسيات ، وقد كان مما يفسح لها في النفوس أنها سيقت مساق السّمر المتنقل من موضوع إلى موضوع ، ولم تُوصَمْ بالجفاف المتزمت ، وقد أَسِفَ الأستاذ كرد علي لرحيله عن القاهرة ، وغيابه عن منهل المقهى المستطاب .

أما المقهى الثاني الذي تحدث عنه الأستاذ كرد علي فهو مقهى السلام في شارع إبراهيم باشا ، وكان يحفلُ كل مساء بأعضاء البعكوكة الأدبية ، وهي جماعة من إخوان الوفاء يرأسها اللغويّ الشهير وحيد بك الأيوبي ، ويقوم المحامي الكبير إدوارد قصيري بك بنيابة الرئاسة عند غياب الرئيس ، وتتألّف جماعة المقهى كما يقول الأستاذ كرد علي من محامين وأطباء وأعضاء بمجلس النواب ورؤساء دواوين ، وصحافيّين ولا يقل المواظبون على الاجتماع الليلي الدائم عن ثلاثين رجلا ، ما فيهم إلا الممتاز بأدبه وفضله ، وكانت اجتماعاتهم للمرح والتنادر ، وتناقل الأخبار ، وناهيك بجمعية يحضرها الدكتور محجوب ثابت ذو الروح الخفيفة ، والآمال الشاسعة في السياسة والطب ، وإذا وقفت جماعة دار العلوم بمقهى متاتيا عند

الجدّ الرصين ، فإن جماعة مقهى السلام تجاوزت الجدّ إلى المرح الضاحك ، ولعل الأستاذ وحيد الأيوبي كان أحد بواعث هذا الضحك ، إذ جعل من دأبه أن يكتب في أمور اللغة دون عمق وأن يشارك فيها في عجلة ، وربما اخترع ألفاظا جديدة لأشياء مستحدثة يكثر حولها التعليق ، لقد تحدث وزير بريطاني في أيام ثورة سنة ١٩١٩ فذكر أن الانجليز يُرابطون بجيشهم في مصر لحماية الاستقلال ، ولم يسكت الأستاذ وحيد على هذا التصريح الهازل ، فكتب في الأهرام تعقيبا يقول فيه : إذن عندنا إحتلالٌ إنجليزيٌّ واستقلال مصري ، فماذا نُسمي الاحتلال والاستقلال في آن واحد ؟! لابد أن ننحت من الكلمتين كلمة واحدة ، هي (الاحتقلال) إذ نأخذ من الاحتلال حرفين ومن الاستقلال ثلاثة ! وكان اهتداء رئيس الجماعة إلى هذا اللفظ مجال تندر في الصحف والمجالس دام أسابيع ! ولابد أن ندوة مقهى السلام قد سعدت بنقاش ذوي الدربة من أعضائها ، وأن الأستاذ وحيد هاجم وهوجم ، ورضى وغضب ، وهاج واستقر ، ومن وراء ذلك أُنس السمر ، ولطافة الحديث .

ندوة الحلمية

في شارع محمد علي الصاعد إلى قلعة صلاح الدين ، وأمام مسجد قوصون كانت قهوة الحلمية ناديا أدبيا سياسيا معا إذ كان حافظ ابراهيم ومحمد عبدالمطلب

وحسين شفيق المصري وأحمد نسيم ممن يرتادونه فينشدون الشعر ، ويروون الطرائف ثم هبت ثورة سنة ١٩١٩وصارت السياسة شغل الناس جميعا ، واضطر القائمون بإشعال اللهب إلى كتابة المنشورات السياسية المتوالية في مكان بعيد عن شارع الأزهر ، فكان نادي الحلمية مأوى مصطفى القاياتي ومحمود أبي العيون ، ودراز وعلي سرور الزانكلوني ، ومن يلتف حولهم من الشباب الثائر كعبد الرحمن الجديلي وابراهيم عبدالهادي ، وطبيعيٌّ أن ترتفع الأصوات بالحوار ، وأن تدبر الخطط لمهاجمة الاحتلال ، ثم تكون النتيجة أن يلتفت المستعمر إلى مكمن الخطر ، فيطلق عليه النار ، ويأمر بإغلاق المقهى لعهد طويل ، وقد أشار الشاعر محمد الهراوي في رثائه لأبي الفتح الفقي (وكانا معاً من مؤسسي نادي الحلمية ومن أشهر مرتاديه) أشار الهراوي إلى مجالس (الحلميتيّن) الحلمية القديمة والحلمية الجديدة فقال :

سل الحلميتين وما قضينا
هنالك من ليالينا العذاب
وكنا في دجاها أو ضحاها
كزهر الأفق أو زهر الروابي
يضم شتاتنا نادٍ فنُحيي
عليه عكاظ في سوق عجاب

تمـــر الثـــورة الكبـــرى علينـــا
فنغشـاهـا مــع الأُسْــد الغضـاب
ولا نخشى السهـــام ولا العـــوالي
ولا الجنـــد المـــدجـــج بـــالحـــراب
فنقضي حق مصـــر وقـــد دعتنـــا
ونــــرجـــع للحـــديث المستـــطاب
فســـائـــل نـــاديَ الآداب عمّـــا
تضمنـــــه من الأدب اللبـــــاب
قضينـــا ربـــع قـــرن في حمـــاه
نهبنـــا صفـــوه أي انتهـــاب

ثم مات صاحب المقهى ، وبُدِّل مكان بمكان ، فانتقلت الندوة إلى مقهى آخر بالحلمية نفسها ، إذ تقدمت في الطريق إلى القلعة عدة أمتار ، وأصبح النـادي الجديـد مقهىً متواضعا أسرع إليه من ذكرنا من الأدباء والشعراء ، بل أخذوا يتزايدون فكان منهم حسن القاياتي ومحمد الأسمر وزكي مبارك وأحمد شفيع السيد وأحمد الزين ، وجلّهم شعراء يمثلون لونا خاصا من ألوان الشعر ، فهم أنصار الديباجة البيانية ، وعشّاق الجزالة الآسرة آنا ، والرقة السلسة آنا آخر ، وحين تحدث الناس عن مبايعة شوقي بالإمارة انقسم المنتدون بالحلمية شطرين ، شطـر أيد المبايعة ويتـزعمه محمـد عبدالمطلب وشطـر عارضهـا ويتزعمه محمد الهراوي ، وقد سارت له مقطوعة قال فيها :

إن شوقي شاعر كلنا أجله
غير أنا معشر ليس يرضى ذلّه
وهي جمهورية لا ترى محلّه

ثم ظهرت جماعة أبولو وناوأت أنصار القديم ، أو بتعبير أدق ، ناوَأهَا أدباء الحلمية وشعراؤها فناوأتهم وامتدت الخصومة ، وكثر الأخذ والرد ، وقيل الشعر المهاجم ، والشعر المدافع ، ودوت الصحف بكثير مما قيل ، ثم مات الهراوي ، فانفرط العقد ، وتشاغل بعض عن بعض ، وأصبحت الندوة تاريخا يُروى .

مقهى الفيشاوى

كان من الأجدر أن أبدأ الحديث بمقهى الفيشاوي ، ولكن خفت أن تتزاحم الطرائف عنه فيبتلع سواه ، لأن مقهى الفيشاوي كان إلى عهد قريب مَعْلَماً من معالم مصر ، يفدُ إليه السائح شرقيا أو غربيا كما يفد إلى أبي الهول والهرم والنيل ، وقد تجمعت عوامل شتى منذ تأسيسه سنة ١٨٦٣ في عهد الخديوي إسماعيل على إحاطته بإطار سحري يعبق بأريج التاريخ ، فالقاهرة الفاطمية تتمثل في حي الأزهر والحسين ، والسراديب المتداخلة بين البيوت

العالية ذات الشرفات المتعانقة عن يمين وشمال تجعل السائح يدور في مثل بيت جحا ، وخان الخليلي بعاجه وأبنوسه وسجاده وأوانيه الأثرية يرسم صورة الأمد البعيد ، وينتقل من مصر الفاطمية إلى مصر المملوكية حين كانت هذه التحف أنفس ما يوضع في منازل الكبار من الرؤساء ، أما المقهى نفسه فيروع بتداخل حجراته ، واختلاف ممراته ، وغرائب مَنْ فيه ، لأن جوّ الحي الحسيني يقذف إلى المقهى بطرائف لاتقف عند حد ، فحامل البخور يمر صائحا مسبحا لله ، ومجاذيب الباب الأخضر يفدون بهياكلهم الأثرية ، وأرديتهم الواسعة ذات الألوان البراقة ، والعمم السوداء التي تحيط بالوجوه ، فتكون إطارا للعيون المتوهجة ، والأسنان البارزة ، وصوت المجذوب يصيح : الله الله : فيلفت الغريب والقريب إلى شيء غير طبيعي ، على تكراره اليومي ، لأن تأثيره يتجدد بتجدد الصياح ، والقطط الأليفة تقفز على الرُّكَب والأيدي في تودد لا يخيف ، وفي السائحات والسائحين من يُحضرُ لها السمك واللحم واللبن للصغار ! ويأخذ المقهى أبهى حلله الزاهية في سهرات رمضان ، حين يجتمع القاهريون من أقصى الضواحي للسهر في المقهى ، وإحساسهم بقربه من الحسين والأزهر يحيط السهرات بروح دينيّ يكسبها معاني الرحمة والثواب والغفران ، وبخاصة إذا كان الشاي الأخضر أو الأحمر هو المشروب الدائم ، وله طابع

خـــاص لاتجـده في غـــير مقهى الفيشـــاوي ، فـــالبـــراد البنفسجي ، والصينية الصفراء ، والأكواب الرشيقـة الصغيرة ، تحمل قليلا من الماء البارد ليُصبّ عليها الشاي الساخن ، وقِطَعُ السكر ذات الحجم الضئيل تُتْرَكُ ليأخذ منها الشارب أو ليدع حسب هواه ، كل ذلك يظهر في مظهر الشيء الجديد بالمقهى ، حتى النرجيلة ذات طابع خاص منظرا وصوتا وطعما ، يجذب الالتفات ، ثم يمر بائع الكتب يحمل عبئه الثقيل في رضى وقنوع ، وبائع الفول السوداني واللب أسمـر وأبيض والحمّص في قراطيس صغـيرة ، فترحب بكل هؤلاء ، أما الذي يُغضب فماسحُ الأحذية ، حين يلح عليك ، وهو يعلم أن زميله قد سبقه إلى أداء مهمته بدقائق ، وجدّة الصبغة السوداء أو الحمراء أو البيضاء لا تزال شاهدة ناطقة ، ومع ذلك يلحُّ ، ولا ينصرف دون أن يُمنح ، والسياسيون والفنانون والأدباء جميعا من روّاد المقهى في سهرات رمضان ، ففكري أباظة ، وحفني محمود وتوفيق دياب وصبري أبو علم ، وزكريا أحمـد وبيرم التونسي والسيد بدير ، كل هؤلاء قد عُرفت وجوههم هنا في سهرات رمضان ! أما عبدالحميد الديب ومصطفى حمام وطاهر أبو فاشـا ومحمود غنيم ونجيب محفـوظ فلهم ذكريات عن المقهى لا تنقطع ، وقد كتب الأستاذ أحمد بهجت فصلا بديعا بجريدة الأهرام عن مقهى الفيشاوي تحدث فيه عن نشأته وحياة صاحبه ، وصوَّره بصورة له

فوق حصانه الأشهب ، ومما ذكره الأستاذ أحمد بهجت أن الفنانة نجوى سالم شاءت أن تسخر من بائع الفول السوداني بالمقهى ، فأظهرت حبها له حتى اقتنع ، وأخذ يُطالبها بتعجيل الزفاف ، ثم أوحت إلى سائق سيارتها أن يُهاجم البائع المسكين ، ويدَّعي أنه أخوها ، وأنه يرفض هذا الزواج ، ثم يرضي البائع ببعض عبارات العزاء ! وقد تضاءلت مكانة المقهى هذه الأيام ولكننا نفد إليه لنتذكر الماضي ونوازن بين عهدين !!

مقاه مماثلة

في كتاب (خبايا القاهرة) للأستاذ أحمد محفوظ حديث طريف عن مقاهي العاصمة وفي مقدمتها مقهى نوبار الذي كان يجذب الجمهور طمعا في رؤية عبده الحمولي وسماع صوته ، ومقهى دار الكتب وزعيم رواده حافظ ابراهيم ، ومقهى الإنجلو وزعيمه الدكتور علي باشا إبراهيم ، وبار «صولت» وقد كان شوقي يلازمه ولا يكاد يبرحه ، إلى عشرات من هذه الأمثلة التي يضيق المجال عن استيفائها ، وفي عواصم المحافظات مقاه مماثلة ، يعرفها الجمهور بروادها الأدباء ، فللزيّات مقهىً بالمنصورة ، وللرافعي مقهى بطنطا ، ولأحمد محرم مقهىً بدمنهور ، فأين من يتتبع هذه الأماكن لينقل بعض مادار ، إذ لا يزال من الأحياء في كل مكان من يحتفظ بذاكرته القوية ، فيتحدث بما كان ،

ومعلومٌ أن أحاديث الندوات تعلن من الخبايا مالا تعلنه الكتب المتداولة ، فالأديب الكبير يلزم الحيطة فيما يوقعه باسمه متقدما به إلى الجمهور العريض ، أما ما يقوله عن زملائه وأعيان عصره في مجلسه الضيق بالمقهى فيتسع للنقد الجريء ! ومن هنا تتجسد الأهمية الكبيرة لتدوين ما تردد من هذه الأحاديث ..

أدباء تصرعهم المخدرات

ليست هذه هي المرة الأولى التي يَدْهِمُ مصر فيها وباءُ المخدرات ، فمنذ عهد الدولة الإخشيدية حين كانت زراعة الحشيش مباحة في الدولة ، ومصرُ تتعرّض لهذا البلاء على فترات متباعدة ، وقاريء المقريزي يقف على سلسلةٍ من ضروب الكفاح المستمر لهذه السموم القاتلة ، وليس مِن هَمِّنا الآن أنْ نجلو صفحة من تاريخ النضال الشاق ، وإنّما نمهدُ به لنذكر أنّ ما تعانيه البلاد الآن هو أشدُّ ضروب المعاناة في تاريخها الطويل ، إذ أصبحتْ هذه السموم في هذا العهد قريبةً من أيدي النشء الصغير ، وهذا ما لم يحدثْ من قبل ، إذْ كانَ تعاطي هذه البلايا مقصورًا على الكبار وحدهم ، فتدفُّقُ المال في أيدي الجهلة جعلهم يسخون في منح التلاميذ من أبنائهم ما يفيضُ عن حاجاتهم ، فيفتحُ أمامهم باب الشّر ، وهكذا وجدت المخدرات ميادين كثيرة لِلْفتكِ بالأرواح فتكًا بطيئًا عن طريق الإدمان ، بلْ هكذا ساعد الجهلة من الآباء على انتشار هذا الداء ، بالاتجار في السم القاتل تارة ، وبتهيئة الظروف لإدمان أبنائهم ، وتحطيم قُواهم في عمر الزهر ! ولا ننكر أن الحشد الضخم من الأفْلام الهابطة الداعية عمليًّا لانتشار هذه السموم قد جعل الفن السينمائي مسئولاً عن انحداره الشائن مهما اختُلِقَتْ بواعث التبرير لهذا الإلحاح

المتواصل في عرض المشاهد المُنكرة دون حياء ! ومن المؤسف أن نفرًا من كبار الفنانين شرقًا وغربًا وقديمًا وحديثًا قد تورّطوا في الإدمان القاتل ، ومنهم من أدرك سوء مصيره ، وتحدث عن مأساته بما يقدم العبرة الناصحة ، والموعظة الأمينة ، وسنختارُ من أدباء الغرب بعض من كتبوا عن إدمانهم المزمن ، فهم بتجربتهم الصحيحة أقدرُ على الصدق في وصف الداء إذ ينقلون عن أنفسهم دون افتعال .

نبذة تاريخية

الذين قرأوا إلياذة الشاعر الإغريقي الكبير هُوميروس يعرفون أنه ذكَر بها نبات الأفيون ، وهومير لسان الشعب اليوناني يتحدث عن أهوائه بما يبرز خفاياه ، وكذلك عرف أبوقْراط أبو الطب اليوناني أثر هذه المادة في التخدير ، فأوصى بها في العلاجين الجسمي والنفسي ، إذ رآها تخدر الداء تارةً وتذهل المريض عن هواجسه الأليمة تارةً أخرى ، وطبيعيٌّ أن ينقل الرومان عن اليونان ما لديهم من شرٍ وخير ، إذ جعل أطباؤهم الأفيون مصدر راحةٍ للمَريض ، ولعلّهمْ كانُوا معذورين بعض الشيء إذ لم يجدُوا من وسائل التخدير سواه ، وقد قيل إن طبيب الإمبراطور نيرون ، وهو « اندروماكلوس » كان يحرص على وصفه لنيرون حين تَهيجُ انفعالاته ، ولعلَّ جنونه

المتقطع كان من بواعث هذا الادمان ، وقد غلبت الخمْرة على الأفيون في أحقابٍ تالية ، إذ آثرها الأطباء في التخدير على ما سواها ، حتى جاء القرن الثامن عشر فعادت السيطرة للأفيون ، واتسع الأمد لدراسته علميا على وجهٍ مُقارب ، وفي مدى مائة عامٍ تجلَّى للأطباء خطرُه الداهم ، فأصدر الطبيبُ الفرنسي موورودي تور سنة ١٨٤٥ كتابه (الحشيش والجنون) وهو خلاصة تجربةٍ أليمةٍ شاهدَها المؤلف لدى مرضاه الكثيرين ، إذ كان مديرًا لمستشفى الأمراض العقلية بباريس ، فأدرك أن أكثر مرضاه من صرعى الأفيون ، وقد جازف بنفسه حين تناوله ليدرك أثره الجسمي والنفسي ، وهي مجازفةٌ دفعته إلى شنِّ حربٍ قاسيةٍ عليه أعلنها في كتابه المشار إليه ، وحُقَّ له أن يُؤَلِّفَ مستنكرا ، إذ انتشر الأفيون في فرنسا وانجلترا لعهده على نحو مزعج ، وقد وقع في براثنه أعلامٌ من رجال الأدب منهم تُوماس دي كنسي ، وشارل بُودلير ، وتيوفيل جُويتيه ، وكلهم قد عاش في القرن التاسع عشر ، وله في الحديث عن المخدرات كلامٌ ذائع نشير إلى بعضه الآن .

توماس دى كنسى

أصدر توماس دي كنسي كتابه (اعترافات آكل الأفيون) ليبررَّ لنفسه وللناس عكوفَه على الادمان القاتل ، فقد أحسَّ إحساسًا قويًا بأثرِ المخدر في إنهاك جسمه ، وتدهوره إلى

الهاوية في عجلةٍ مريعةٍ ، كما أحسَّ بنظرات اللـوم ، وعبارات التهكم من عارفيه ، فأرادَ أن يجعل من اعترافاته وسيلةً مسترحمةً للدفاع عن المذنب لذلك نجده يسرف في الحديث عن لذّة الأفيون ضِعْفَ ما يتحدث عن عواقبه الوخيمة ، وهو انسياقٌ لا شعوريٌ إلى التبرير أكثر منه اعترافًا بفداحة المصاب ، وقد بدأ اعترافاته ليقول لقارئه إنه لا محالـة سيسائـل نفسه : كيف يستسلم العـاقل لسلطان هذه العادة مع ما فيها من شقاءٍ وتعسٍ للنوع الانساني ، وكيف يُلقي بنفسه طائعا ، مختارًا في هاويتها حتى تُثقلهُ بأوزارٍ ليس للخلاص منها سبيل ؛ وفي الاجابة عن هذا التساؤل أخذ الكاتب يُسهب في تعداد مآسيه التي واجهته في مطلع شبابه ، وكيف ائتمر به الأوصياء حتى حرموه ماله ، واضطروه إلى التشرد ، ومِنْ خلال ما ذكر الكاتب نعلم أنّه كان ذا موهبةٍ كبيرة ، وأنه أتْقن اللغة الإغريقية في الثالثة عشرة من عمره اتقانًا جعله يصحح أخطاء مُدرسه ، ويعجب لجهله الشائن بمادة الدّرس ! وقد كان يتناول الصحيفة الانجليزية ليقرأها باليونانية فورًا دون أن يشعر صاحبه أنه يترجم ، ثم كَرِه الدراسة التقليدية في المدرسة وأراد أن يكون حرا في مطالعاته فسخط عليه أوصياؤه ، وتعرض لأنياب الفقر والجوع والتشرد ، ومد يَده للصّدقة والتسول ! ويقول إنه ذاق من مرارة الجوع ما لمْ يذقْهُ إنسان إذ كان يتضوَّرُ تضورًا لا ينقطع

وخزهُ القاتل ببعض الفُتات حتى يرجع كما كان بل أشد ، وبعد إسهاب مطيلٍ في شرح ضُروب الفاقة التي عاناها ، ذكر أنه أحسَّ بضربِ مؤلم في ضرسه كاد ينزعُ روحه فخرجَ هائمًا على وجهه ليدلّهُ أحد النّاس على استعمال الأفيون كي يهدّيء ضربات الضّرس ، وقد ذاقَهُ لأول مرةٍ ، فجُنّ به جنونا ، وعزّ عليه أن يسلوَه ، وقد كتب توماس صفحاتٍ مثيرةً تصوّر إحساسه بهذا المخدر ، صفحاتٍ مُسْرفة يسوقها تبريرًا لانحداره ، يقول في بعض سطورها مصورا إحساسه به لأول مرة :

« يا للسماء ! ما هذا البْعثُ الذّي حدث ، انتقلت مرةً من أبعدِ الأغوار سُحْقًا إلى أرفع الذُّرى ارتفاعا ، شعرتُ بتغيير كلّي ، زالتْ آلامي كلُّها دفعةً واحدة ، على أن زَوَالَ الألم لم يكنْ بالأمر العظيم إذا قيس بغيره ، فقد فُتِحتْ أمامي أبواب الفردوس ، فنعمتُ بالحياة حتى خُيل إليّ أني قد تعاطيت سرّ السعادة الذّي أضاع الفلاسفة أعمارهم في البحث عنه ، أجلْ ، أستطيعُ الآن أن أشتري هذه السعادة وأنْ أحملها في جيبي « بينّى واحد ! » » .

يقولُ هذا توماس ، وقد اعترف أنه غبّ إدمانه لم يَعُدْ يصلحُ لشيءٍ ، حتى أنه كان لا يستطيع أن يخط رسائل مِن ثلاثة أسطر لأصدقائه إلا بعد جهد جهيد ! وقد قضى عمره لم يؤلف شَيئًا غير اعترافاته التي كتبها ارتجالاً وكأنه يتحدث ، ويلحظُ الناقد خَلَلاً في سياقها ، إذ يستطردُ كثيرًا

إلى ما لا يمتّ إلى موضوعه ، ثم يكررُّ ما قال ثانيةً وثالثة ! وهذا ليس بأسلوب كاتبٍ مقتدرٍ ذي موْهبة ، بل ليست هذه طاقة من كان يُخطيء أساتذته ويدلّهم على الصواب ، وهو تلميذ ! والذين يتحدثون عن نشوة المخدرات ، يستشهدون بفقرات مما كتب توماس ويُرددون كثيرًا قوله في مناجاة الأفيون :

« أيها الساحرُ العظيم ، ياذا القدرة التي لا تتلاشى ، والقوة التي لا تقهر ، يا من تجلبُ العزاء لقلوب الأغنياء والفقراء على السواء ، إذا انطلق لسانك بسحر بيانك انتزع من القلوب الحقد والبغضاء وإذا ما جَلَبْتَ الأحلام ليلةً واحدة عادت إلى المجرم التعس ذكرى أيام الطفولة بألعابها الهانئة فتغسلُ عن يده دم الجريمة » .

وهذه الأقوال التي تُنْتَزعُ انتزاعا من اعتراف توماس ، يجب أن يُضاف إليها ما قاله في عواقب هذا البلاء حين يُخمِدُ الحس ، ويُخبلُ العقل وينهك الجسم فيصبحُ متعاطيه مشلولاً جسما وعقلا وإرادة ! كان عليهم أن يستشهدوا بمثل قوله :

« إني أحاول أن أصف أو أصور حالة الخمول التي أصبحت فيها ، وهي صورةٌ لكل يوم من أيام السنين التي قضيتُها تحت سحر هذا الوباء الخادع ، أحاول ذلك فلا أستجمع إدراكًا يكفيني لكتابة ثلاثة أسطر ، بلْ لا أستطيعُ أن أكتب رسالة قصيرة إلّا بعد أشهر وأسابيع ،

فأتألم لمصيري لأن أكل الأفيون لا يفقد شعورَه بألمه النفسي ، وانحدار آماله ، بل يتزايد هذا الشعور مع انحطاطه الجسمي والعقلي فيزيده سعيرًا والتهابا ؛ يشعر أن الواجب يدعوهُ إلى النهوض ، ولكنه لا يستطيع التحرك كرَجُل أصابه الشلل ، فلزم الفراش عاجزًا عن مغادرته ، إني عاجز عجز الرضيع في يدي مُرضعته ، أذرفُ الدموعَ وأقذفُ بالآهات دون جدوى ، ويزيدُ على هذا الرهق النفسي ما أحسُّه من ألمٍ في التنفس ، وضيق في الصدر ، وفسادٍ في التخيل ، إذ كان يُخيل إليّ أني كل ليلة أنزل ثم أنزل ثم أنزل إلى أغوار مظلمةٍ سحيقة يتلو بعضها بعضا ، وأشعر أن من المستحيلَ أنْ أخرج منها فأزداد تعاسةً وأود الانتحار لأنجو » .

هذا بعضُ ما ذكره توماس عن تجربةٍ صادقة ، اعترفَ بها تلقائيا دون إلزام .

شارل بودلير

شارل بودلير صاحبُ ديوان (أزاهير الشر) شاعرٌ اسمهُ أكبرُ من شعره ، فإن غرائب شذوذه وظواهر انحلالِه دفعت أقلامًا كثيرة إلى الاحتفاء بأدبه ، فكُتِبتْ عنه الدراسات الكثيرة التي لم يحْظَ أولو الجد بأمثالها ، وكأن الذين يعكفون على دراسة هؤلاء يُروحون عن أنفسهم إذ يعبّرون عن عواطفهم الذاتية في ستار من التحليل الأدبي

المحايد ! ولا نظلمُ الشاعر حين نذكرُ أنه شاعر الرذيلة ، وقد كان صديقي الأستاذ ابراهيم المصري لا يعدلُ بـه شاعرًا آخر من أرباب اتجاهه ، وهو مَع ذلك يقولُ عنه في كتاب (الفكر والعالم) .

(والحياةُ في عُرف بودلير لا تبدو في مختلف الوانها الصارخة إلّا في الرذيلة والشر ، فقد خَلبت الرذائل لبّه ، يود أن يهبط إلى أعماقها السحيقة ، حيث تبدو الفطرة الحيوانية مجردة من العرف الاجتماعي ، والواجبـات المفروضة ، شريرَّة متخبطة عارية من كلّ دثار ، فشعرُه مفعم بالجنون الشهوي ، تتوارد فيه أبشع صور الدعارة ، يختلط فيـهـا الإلحـاد والعبـث والفـوضى الخلقيـة المجتاحة) .

ويكفي هذا لِنُقرر أن الرذائل تتتابع متـلاحقة لـدى أصحابها ، فبودلير قد عشق النساء والسواقط منهن بنوع خاص ، وعشق الخمر ، ثم قرأ كتاب (اعتـرافات آكـل الأفيون) لتوماس دي كنسي المشار إليه من قبل ، فجرّه إلى هذا المخدر ، وكتب عنه كثيرا مما أوْحاهُ تفكيرُه المنحدر ، وصحب معه الحشيش أيضًا ، فكانت الخمر والأفيون والحشيش حلقاتٍ في سلسلةٍ تَغلُّ الشاعر لتهوي به إلى الفناء السريع ، ولم يغبْ عنه أن يُغلِف فكره الهابط بغلائلَ ذات بريق يخدعُ بها قارئه حين قال عن الحشيش :

(إنّ في الانسان رغبةً مستأصلة لإدراك المُثل العليا ،

الروح ويُطلقها من سجنها الماديّ ، العائق لها عن الوصول إلى هذه الأهداف ، كذلك السعادة هي الضالة المنشودة لبني الانسان ، وبما أنها ليست في متناول الجميع ، فهو يحاول ما أمكن أن يتوهمها ويصطنعها ، فقدحُ من مدام ، وشهقةٌ من تبغ ، ومضغةٌ من حشيش ، تجد بها الروح تخلّصت وتبدّلتْ) .

يا عجبًا ! يحاولُ الصوفيون إدراك المُثل العليا والوصول الى الحقيقة فيتجردون من الشهوات ، ويُطيلون مناجاة الخالق في الخلوات ، ويخرجون من أموالهم للفقراء والمساكين عن رغبةٍ مخلصة ! وقلّما يصلون بعد ذلك ! أما بودلير فيرى إدراك المثل العليا والوصول الى الحقيقة محصورًا في قدحٍ من خمر . ومضغةٍ من خشيش ، وشهقةٍ من تبْغ ! وهو تفكيرٌ لا يُستغربُ من مدمِن مخدرات !

تيوفيل جوتييه

هذا الأديب الفرنسي اللّامع حبيبٌ لدى المثقفين مْن المصريين ، فقدسجّل تاريخ مصر الفرعونية في أدبه شعرا ونثرا إذ تحدث عن مدينة طيبة القديمة في كتابه (قصة المومياء) كما نظَم قصيدةً من أرقى قصائده على لسان المسلّة المصرية القائمة بباريس ! ولكنّ داء القرن التاسع عشر أدركه حين وقع في أسْر المخدرات ، وبلغ به الإدمان مبلغًا وصف تأثيره في كتَابٍ خاص أسماه (نادي الحشاشين) وقد استطاع أنْ يرصد أوهامه الباطنية في

لحظات تخديره ، فأعلن أنه تخيّل بعد تناول الحشيش أن جسده قد ذاب ذوبانا ، وصار شفّافا ، وأنّ أهداب عينيْه قد امتدتْ كأسلاكٍ رفيعةٍ من الذهب ، ثم أخذتْ تلتفّ حول كرات صغيرةٍ من العاج أخذتْ تدورُ حول نفسها ، وقد انفجرتْ من حول الشاعر أنهارٌ من الفضّة ، شواطئُها من الذهب ، وبعد أمدٍ عاودَه الصحو قليلا ثم أدركتْه السماديرُ ليرى نفسه بين جماعاتٍ من الطيور والفراشات وليسمع أغَاريد جميلةً لا عهد له بها ، كما رأى أكثر من خمسمائة ساعةٍ دقاقةٍ ترنّ في سمعه رنينًا يشبه الأهازيج ، وحين صَحا مرة ثانيةً أدرك أنّ هذه المناظر الجميلة قد مرتْ عليه في أقلِّ من رُبْعِ ساعة فقط ! عادَ بها إلى الفتور والهمود .

لم تكنْ هذه الخيالات الموهومةُ وقفًا على تيوفيل جوتييه وحده ، فأكثر المتعاطين يتوهّمون ما لا يُحصى من الأخيلة ، ولكنَّ ما يعقب فترة الذهول يرجعُ بالنكد الأليم فيحتسي مرارته هذا الحالُم السكران ، وقد نَقل الدكتور يعقوب صروف في كتابه (فصول في التاريخ الطبيعي) وصفًا كتبته مُدمنة انجليزية أديبة عن عذابها النفسي الشاق أثناء الأوهام وعقبَ انتهائها ، إذ كانتْ تسمع أصواتا تخترقُ جسمها حادّة كالسّهام فتمزقه تمزيقًا ، وكانت الأرض تنشقّ تحتها لتهوي فيها صائحةً مستغيثة ، وقد أومضت البروق الحمراء من كلّ الجهات أمامها ، وانطلق مدفع رهيب لم تسمعْ بأقوى من دويّه

المزعج طيلة حياتها ، وقدْ خُيل إليها أنه ينطلق متوجها إليها في وحشية ، كما تصورتْ أنها انفصلتْ عن جسدها ، وأنها رأت هذا الجسد مُلقىً طريحًا لا حراك به إذ من العجيب أنها بعد أن أفاقت تحدثت مع من أخبرها بأن صوت المدفع المدوي لا يعدو أن يكون ترجمةً عن خفقان قلبها المتكرر في فزع !

هذا لونٌ من العذاب التعس يُضاف إلى ما نعلمه من العذاب الجسمي حين ينحلّ الجسد ، وتُرهَكُ المفاصل وتُشلّ الارادة ، وينعقد اللسان .

أوهام خاطئة

على أن بعض الشعراء يقعُ في روعهم أن المخدر اللعين يُساعد على صفاء القريحة ، وروعة التصوير فالشاعر الانجليزي (كولردج) وقد كان مؤمنًا كبيرا زعم أنه أُلْهِمَ معاني قصيدته (كبلخان) بَعد أن تعاطى ما تيسر من الأفيون ، وهو لونٌ من التبرير المكشوفِ يتوجه به المدمن إلى لائميه من العقلاء ليخففّوا من تأنيبه ، كما رأينا بيْن المخمورين مِن شعراء العربية من يحاولُ أن يبريء نفسه من إثم الخمرة مدعيّا أنها تُذهِبُ الحزن ، وتجلو الهمْ ، ولئنْ صحَ بعضُ ما يُقالُ عنْ مكابرة هَشَّة تمحلا وتبريرًا في هذا المجال ، فإن شاعر الحكمة أبا العلاء المعري قد عصف بهذا الخداع حين قال :

أيـــأتي دعيّ يجعـــل الخمـــر طلقــةً
فتحمـل شطـرًا من همـومي واحـزاني
وهيهــاتَ لــو حلّتْ لمـا كُنتُ شـاربـا
مخففـــــةً فِي الحِلْم كفّــــة ميـــزاني

شكيب ارسلان شاعرا

« ١ »

أسف أبناء العروبة في كل موطن من مواطنها لموت شكيب أرسلان ، لقد قرأت نبأ رحيله دامعًا حزينا ، كأني أقرأ منعي صديق أثير تصلني به وشائج القرابة والصحبة ، إذ تتلمذت سنوات عديدة على آثار قلمه الفياض ، أدرس كتبه فأمتع ، وأقرأ مقالاته فأستزيد ، وأحفظ قصائده فأنعش ، كما أتذكر مواقفه المخلصة في دنيا الجهاد المناضل فأتمنى أن يكون لدينا من يحتذونه إيثارا وتضحية ، إذ كان في هذا المجال أمة واحدة .

وقد رأيت واجبا عليّ أن أشيد ببعض مزاياه ، فأخذت أسائل نفسي ماذا عسى أن أقول في هذا العلم الباذخ ، وقد كان جيشا يحارب في شتى الجبهات ، واذا تركت الحقل السياسي لذوي الخبرة بمواهبه النضالية فعن أي ناحية أتحدث في أدبه ؟ أتحدث عنه مؤرخا باحثا ؟ أم صاحب مقال رنّان يكون الأول دائما بين مقالات الصحف الكبرى ؟ أم ناقدا محلّلا يناقش روائع السابقين والخالفين بمنطق جزل ، وقول فصل ؟ أم شاعرا ذا ديوان ناضر تسير أوابده ، وترن قوافيه !

ثم بدا لي أن أفتتح الحديث عن شعره ، لأن الذين تكلموا عنه بعد رحيله طيلة العام الماضي لم يتعرضوا لفنه

الموهوب بما يشير إلى مكانته الشعرية ، وكأني بجهاده السياسي ، ونثره العلمي قد طغيا على جوانب إبداعه الأخرى ، فعزمت أن أتحدث عن شعره ليحفظ له أبناء الجيل الحاضر مكانه الواضح في سجل شعراء البعث إذ يقرنونه عن جدارة بشوقي وحافظ والكاظمي وأحمد محرم والكاشف ، وليدركوا فارق ما بينه وبين شعراء تخلّوا عن نصاعة البيان وقوة الفكرة ، ثم أنحوا على ذوي الأصالة هاجمين قادحين ! وكأنهم قد جاءوا إفكًا وزُورًا حين ترسموا نهج الفحُول ، فوصلوا ما انقطع في فترات الضعف مبرّزين مسعدين .

نشأ شكيب في أسرة عربية عريقة يتصل نسبها بالنعمان بن المنذر أمير الحيرة في عهدها الجاهلي ، فأوحى له هذا النسب التليد عزة واعتدادا ، وألزمه أن يحافظ على ما توحيه النحائز العربية ، من حب للمروءة ، ومسعاة للمجد ، وذود عن الحياض ، وهيام بالشعر ، يسمعه العربي فتهتز أعطافه مرحا ، ويرقص وجدانه نشوة ، لأنه يفصح عن ذات نفسه أصدق إفصاح ! وقد رأى الحياة طفلا يستهل بعد مقدم أخيه (نسيب) بعام ونصف ، فنشأ الأخوان كالتوأمين ، دخلا المدرسة معًا ، وتخرجا معًا ، وبدت مخايل شاعريتهما في سن مبكرة ، فهل سمعت أن شاعرا نشر قصائده في الصحف وهو في الرابعة عشرة من عمره قبل شكيب ؟ وهل سمعت أن شاعرا كان الأول في

مسابقة شعرية عامة وهو في السادسة عشرة من عمره قبل نسيب ؟ كان ذلك من الأخوين أثرا من آثار الوراثة العربية التي غذتها البيئة الأدبية فآتت أكلها البهيج .

وقد أسعدهما الحظ بأستاذية الإمام محمد عبده في بيروت ، إذ كان هذا المصلح الكبير في منفاه بالمدرسة السلطانية فدلّهما على شعر محمود سامي البارودي ، وكان الكثير منه مدوّنا بكتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي ، فأكبا على قصائده الحافلة حفظا واستظهارا ، ولا تسل عما يفعله الشاعر المعاصر في ناشئة جيله ، فهو يقرب إليهم البعيد ، ويخلق في نفوسهم الرغبة الحافزة إلى تسنم ذروته ، والارتقاء إلى أوجه . ومن هنا كان البارودي رحمه الله نهرا صافيا فاض على شعراء بيروت كما فاض على شعراء وادي النيل ، وما أثره في شوقي وحافظ ومحرم بمنكور ! على أن البارودي قد عارض شعراء الجاهلية وشعراء بني العباس ، فقدّم نمطا من التراث العربي في أزهى عصوره لكل ناشيء يتطلع ، وكان من حظ شكيب أن يولع بشعراء العصر العباسي فيكب على دواوين المتنبي وأبي نواس والبحتري والشريف ، وكلّهم قد عارضه البارودي وأشار إلى مواقع قصائدهم محدّدا منوها ، أما نسيب فقد هدته معارضات البارودي لأمثال عنترة والنابغة إلى حياض الشعر الجاهلي فعكف على استظهار المعلقات ، وجاء لفظه جاهليا بدويا في مبتدأ نظمه ثم شاهد إقبال القراء على

المنحى السهل ، فرأى أن يعود إلى حياض الشعر العباسي ليحتذيه ! ولا معابة في ذلك على ناشيء يترسّم خطا سابقيه في أوائل الطريق ! لاسيما إذا كانت الفترة كلها فترة البعث الأدبي لديباجة السابقين ، وقد جُمع شعر نسيب في ديوان مستقل ، جمعه شكيب وقدّمه وقام على طبعه معتزا مباهيا ، فإذا أراد القاريء شاهدا منه يصوّر منحاه الشعري فليستمع إلى حديثه العاطف عن فلّاح بائس يجهد يومه دون إنصاف إذ يقول نسيب عن ذلك المسكين :

يخد أديم الأرض خدّاً كأنما
له قبل الغبراء ثأر مخلّف

جبين بمرفض الصبيب مضمّخ
وشعر بملتصّ الغبار مغلف

وجيد خفوق الأخدعين كأنما
تبينت من أوداجه الدم ينطف

إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت
أضالعه في زوره تتقصّف

كأن أزيز الخوف عند وجيبه
حسيس هشيم والندى يتوكّف

يساقط نثر الطين عنه إذا مشى

....

كأني به إذ فرّق الترب والحصى
يفتش هل في باطن الأرض منصف

إذا استنجد الآمال عند اكتئابه
تبدّى له ستر من القار مغدف

وربما كان شكيب قبل أن يشغله النثر أغزر من أخيه شؤبوبا ، فقد والى قصائده على نحو لافت شاغل ، وقد هيئت الأسماع لتلقي إنشاده منذ كان يافعا يتنقل في حجرات الدرس ، فكان لا ينشر قصيدة في صحيفة إلّا أحدثت الشوق إلى أختها ، فتشجع إذ وجد انتباه قرائه حافزا ملهما ، وما بلغ السابعة عشرة من سنه حتى جمع ما نشره متفرقا في الصحف بديوان صغير ، أسماه (الباكورة) جاعلاً إهداءه إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، متوددا إليه في تواضع ، معترفا بضآلة الهدية إلى جانب ما يليق أن يهدي إلى حكيم الإسلام في عصره ، وقد قال في قصيدة الاهداء :

هي دون ما يُهدى إليك وطالما
قبل الكبير هدية من صاغر
أهديتها لا كي تليق وإنما
مثلي على ما فاق ليس بقادر

لقد ظهرت الباكورة وتداولها الناس ، وتحدثت عنها الأقلام في الصحف ، إذ دلّت على شاعرية غضة وعطف عليها الناقدون إذ رأوها محاكاة لأدب الفحول ، وهو المطمح الأعلى حينئذ ! وإذا كانت هذه المحاكاة قد استترت

في أكثر من موضع فإنها قد جاءت صارخة في مواضع تعلن عن أصلها دون نقاب فقد قال شكيب ـ مثلا ـ في بعض مطالعه :

بقلبي مـــا تهمي العيـــون وتـــأرق
ولِلعين مـــا يبـــلى الفؤاد ويـــرهق
ومـــا كنت ممن يـــرهق العشق قلبـــه
ولكنّ من يـــدري فنـــونـــك يعشق

وهذان من قول المتنبي :

لعينيـــك مـــا يلقى الفؤاد ومـــا لقى
وللشـــوق مـــا لم يبق مني ومـــا بقى
ومـــا كنت ممّن يـــدخـــل العشق قلبـــه
ولكن من يبصـــر جفـــونـــك يعشق

والاتفاق واضح ! وهو مغفور لفتى نـاشيء يهم أن يطير .

واصل شكيب التغريد شاعرًا ، وما كاد يفتتح العقد الثالث من حياته حتى استوى أديبا متمكّنا ، وكان خيال البارودي يراوحه ويغاديه ، والرجل بسرنديب في منفاه لا يعلم شيئا عن إعجاب تلميذه به ، ولكن شكيبا يكتب المقالات في الأهرام ، ويزينها بأشعار البارودي مستشهدا ، وتقع الأهرام في يد البارودي فيعرف أنه مذكور غير منسيّ ،

وتأخذه هزة الأديب الأريحي فيبدأ بالكتابة إلى شكيب قائلا :

أشـــدت بـــذكـــرى بـــادئَـــا ومعقّبـــا
وأمسكت لم أنبس ولم أتكلم
ومـــاذاك ضنا بـــالـــوداد عـــلى امـــريء
حبـــاني بـــه لكن تهيّبت مقـــدمي

ولم يكن الشاعر الناشيء يتوقع أن يبدأ الرائد الكبير بالمراسلة ، وأن تكون شعرا يُهدى إليه من زعيم كبير ذي تاريخ سياسي ومجد أدبيّ ، وننصف البارودي إذ نتحدث عن مروءته في هذا التشجيع ، إذ ألغى الفوارق الواضحة بين أستاذ مكتمل وناشيء مبتديء ! ولعلّ منفاه السحيق قد نال من نفسه حين انقطع حديث الناس عنه ، ورسائله الكثيرة إلى أصدقائه بمصر لم تكن تجد الرد السريع دائما ، وهو ما شكا منه في حسرة في بعض ما بعث به إلى حسين المرصفي وعبدالله فكري وغيرهما من ذوي الكلمة المسموعة في البلاد . أما الأمير شكيب فقد حمد الظروف التي واتته بمراسلة أستاذه النازح ، فتدفقت خواطره المشوقة في ردّ حار عاطفي ينبيء عن سعادته الغامرة ، ويصوّر هيبته الخاشعة أمام عظمة البارودي تصويرا حيا نلمسه في قوله :

ألى كـــلّ يـــوم فيـــك شـــوق كـــأنمـــا
طـــوى جانحَـــا منى عـــلى نـــار ميسم

والقصيدة كلها تنحو هذا المنحى ، فورة عاطفة ، وقوة ديباجة ، وصياغتها تدل على تمكّن بياني اعتمد فيه شكيب على نفسه ، وانتزعه من ذات صدره ، وقد توالت الرسائل أخذا وردًّا بين الشاعرين حتى لكأن شكيبا قد ملأ فراغا في نفس البارودي كان في حاجة إلى من يشغله ، وقد عبّر الشاعر الكبير عن صدق إحساسه ، وكأنه يحدث زميلا قاسمه صداقة الزمن الممتد ، بل كأنه يحدث خدين شبابه ورفيق رجولته حين قال مخاطبا إيّاه :

أنا أهواك فطرة ليس فيها
من مساغ للنقض والابرام

جمعتنا الآداب قبل التلاقي
بنسيم الأرواح والأجسام

وإذا الحب لم يكن ذا دواعٍ
كان أرسى قواعِداً من شمام

وإذا كانت جرائد العصر قد اهتمت بنشر هذه

المراسلات ، فإن غنمها الراجح قد عاد على الشاعر الشاب بأجزل النفع ، فهو عند الناس صاحب البارودي ومطارحه ، وذلك ما ردّ ذكره بين المشاهير في دولة الشعر ، بل ما جعله يؤثر منحى البارودي في الصوغ البياني ، وما جعله يدافع عنه على مدى عمره السعيد ، وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل .

« ٢ »

كان الجو الأدبي في مبدأ هذا القرن بمصر يبشر بمستقبل زاهر للأدب ، فهناك مدرستان قويتان للنثر والشعر ، يتزعم الأولى محمد عبده ، ويقود الثانية محمود سامي البارودي وفي تلاميذ المدرستين أشبال فتيّة تتأهب للصيال ، وقد اتخذت من الصحافة حلبة للسباق ، فتركت وراءها دويّا رنانا وكسبت الصحافة والمجلات شهرة عالية بما تنشر من أدب ، أكثر مما كسبته من الحديث عن السياسة والاستعمار ، ولك أن تذكر أسماء شوقي والمنفلوطي والمويلحي وحافظ وزملائهم الكثيرين لتعرف مكانة الأدب والأدباء حين ذاك .

لهذا أثرى الأمير شكيب أرسلان صحافة مصر بنثره وشعره ، ولم يطق صبرا عن وادي النيل ، فرحل الى القاهرة والاسكندرية في زيارات متصلة ، واشتبك في حوار جدلي حول اللغة والأدب والتاريخ ، وإذا كانت الصحافة

ذات اهتمام أكبر بالحوار الفكري فإن شكيبا قد أولى المقالات اهتماما لم يشأ أن يوليه للقصائد ! ولعل ظروف وقته كانت ذات حسم في ترجيح اتجاه على اتجاه ، وبخاصة إذا كان ذا رأي سياسي ينفح عنه ، وله معارضون مناوئون ، عى أن هيامه بالشعر لم يبارحه وإذا استترت دلائله حينا فكما يستتر الجمر خلف طبقة غير سميكة من الرماد ، وكانت قريحته تفيض بمكنوناتها حين يطالع قصائد النظراء ، وقد يتعمد معارضة ما استحسن من القصائد ، فلابد أن يستعد ويحتشد ، وبخاصة إذا كان يعارض شوقيّا ! وشوقي متفرغ للشعر لا يخلطه بسواه إلّا فيما ندر ، ولكنّ شكيبا ينهل من كل معين ، وقد قرأ قصيدة شوقي الشهيرة .

رضى المسلمون والاسلام
فرع عثمان دُمْ ، فذاك الدوام

فعارضها مبدعًا بقصيدة مطلعها :

هل لسان أقوالهُ الالهام
وبيان آياته الأحكام

وأتي بمعانٍ جيّدة حازت رضاه ، إذ أشار إلى ذلك في كتابه عن شوقي ، على أنه اعترف بسبق صاحبه حين قال :

أوأُعارِضْ فتى القريض فما عَا
رَضَ وردَ الحدائق القلّام

وقد كان الشعر السياسي والاجتماعي صاحب المقام الأول لـدى الجمهور آنئـذ ، وكان الشعـراء يجتهدون ألّا يفوتهم موقف يشغل الأذهان دون أن يعبروا عن خواطر الناس بما يبدعون ، ونزعة شكيب الاسلامية صارخة هاتفة لذلك كان صوته رنانا في الأحداث المفاجئة ، وكان اسمه يتألق مع كبار النظراء ، وهو في الاعتداء الإيطالي على ليبيا كان ذا صوت جهير ، لقد قال حافظ وشوقي ومطران قصائد شغلت الأنظار والأسماع والخواطر ، وهم الشعراء المرتقبون في كلّ مجال . وقد ترابطت أسماؤهم في عقد لا ينفصم ، كما ترابطت أسماء الفرزدق وجرير والأخطل في العصر الأموي ، ولكن شكيبا قال في الاعتداء الايطالي ما جعله نظير هؤلاء الأعلام ، وقد زادت حماسته فلم يكتف بالقول بل عجّل إلى ساحة المقاتلة مع من أخذتهم حمية الاسلام من أمثال صالح حرب وعبدالحميد سعيد وعبدالرحمن عزام وعزيز المصري من رجالات مصر ، وحين انتقل إلى ساحة المعركة وجد الجنود يردّدون قوله في الغزو الغاشم :

سلا هل لديهم من حديث لقادم
من الغرب يروى منه غلّة هائم

وهل نظروا من نحو برقة موهنا
فلاح لهم منها بريق الصوارم

تــــألق في ليـــليْ ظـــلام وقســـطل
فتنشيء سحب الدمع من طـرف شائم
مـــواطن إخـــوان تملّوا من الـــردى
كؤوسًـــا تســـاقـوهـــا بمـــلء الحـــلاقم
تهيبهم فيهــــا العـــدو مهـــاجمـــا
فجـــاء دبيب اللّص في ليـــل قـــاتم
وليّن في إقـــدامــــه من إهـــابـــه
وهـــل يخـــدع الاسلام لين الأراقم

ومضى في القصيدة مرتفع النبرة ، يصف أرانب روما متهكما ويطري آساد هاشم معجبا ، وأخذ يبدع الحكمة السائرة والمثل الشرود محاكيا شوقي وأبا الطيب في مثل قوله :

ومـــا طـــال نـــوم السيف إلاّ تنبهت
عيـون الدواهي منــه عن جفن نــائم

أما علاقته بمنافسيه من الشعراء ، فكانت علاقة الحب الخـالص ، لا يكاد يقـرأ لأحدهم قصيـدة إلا سارع الى تقريظها في مقالة مشجّع ، كما يتحيل للاستشهاد بأبياتها في مقالاته السياسية تنويها وتقديرا ، وحين كتب اليازجي بعض ملاحظاته اللغوية على شعر شوقي كان شكيب أوّل من تصدّى لنقده ، واليازجي في عصره إمام متبوع وشكيب شاب يتلمّس منافذ الإبداع شعرا ومقالا وبحثا ، وكان

ما واجه به اليازجي موضع الارتياح من شوقي ، فقويت بين الرجلين أواصر المحبّة ، ودامت مودتهما أربعين عاما حافلة بما يشتهي من الوفاء والصفاء ، حتى إذا مات شوقي أصدر عنه صديقه كتابا حافلاً بأطيب الذكريات وأجمع الآراء والتحليلات ، كما رثى أمير الشعراء بقصيدة جمعت إلى صدق اللوعة وحرارة العاطفة براعة الوصف وحسن التخيّل ودقة التعبير ، وإذا دلّت على عميق الحب وخالص الوفاء فقد دلّت من جهة مقابلة على تمكن الشاعرية ، واكتمال الأداء ، ومن فرائدها الذائعة قول الأمير :

رقّت لنغمته القلوب فكيفما
غنّى بها رقصت على نبراته
فترى الطبيعة قبل نظرته لها
غير الطبيعة وهي في مرآته
والحس يشرق في العيون بذاته
وهنا يضيء بذاته وصفاته
لو بات يعبث بالشراب أضاف من
كاساته حببا إلى كاساته
أو خاض في ذكر العذيب تشابهت
أعطاف مستمعيه مع باناته
يلقى على غمرات كلّ ملمة
قولا يزيل أجاجها بفراته

فــإذا تحــدّث بــالــربيــع ووشيــه
أنســاك بــالتحبيــر وشى بنــاتــه

وكما وصفت هذه الأبيات شعر شوقي فقد دلّت على براعة شكيب التصويرية ! وقد كان صادقا كلّ الصدق حين صدر عن نفسه دون مجاملة أو افتعال لأن مذهب شوقي الشعري كان موضع الاعجاب من نفس صاحبه ، بل كان مثله المحتذى بعد أن ودع البارودي الحياة ، وكلا الشاعرين ينزع عن قوس واحدة في الهيام بالمشرب الفني لشعراء بني العباس .

نظم شكيب في أكثر فنون الشعر من غزل ومديح وسياسة واجتماع ، ولكنه كان سباقا كلّ السبق في الرثاء والوصف ، وإبداعه في الرثاء يدل على وفاء متأصل ، ووداد نادر لصفوة الأصدقاء ، فإذا فجعه الدهر بصفى أثير كان الشعر متنفسه الأول في الإفصاح عن كامن اللوعة وساخن الدمعة ، ومراثيه الأخوية أظهرت لقارئه أنبل العواطف الانسانية حين يحرص الصديق على حب الصديق ، ويفي له نازحا ومقيما ، ولن تجد شعرا عاطفيا يبرز أحاسيس المودة كما أبرزها رثاء شكيب أرسلان لصديقه أمين فكري ! هذا الرثاء الذي تحدّر من أصْفَى الينابيع الانسانية شفافية ووجدانا ، وهز أوتار قارئه حين طالع هذه الخواطر النبيلة في مثل قوله عن صاحبه :

حملت لـــه بين الضلوع أمـــانـــة
لـــو احتملتهـــا الشمّ ذابت تصـــدعـــا
وأصفيتـــه منى إخـــاء لـــوانّـــه
أعـــار الليالى صفـــوهـــا رُقن مشـــرعـــا
ومـــازلت أرعاه عـــلى البعـــد صـــاحبـــا
وقبـــلي لنجم الأفق من قـــد تـــطلّعـــا
فـــإن يـــك هـــذا الأفق غيّب بـــدره
فـــلا زهـــرت فيـــه الكـــواكب مـــطلعـــا
فكم من يـــد أضحت تـــدق بـــأختهـــا
وكم شفـــةٍ بـــاتت تجـــاور أصبعـــا
أخلّفت ثغـــرا بعـــد ثغـــرك بـــاسمـــا
وطـــرفـــا تمنّى أن ينـــام فيهجعـــا
أنـــاديك لا راجي الجـــواب فقـــد مضى
ويـــالهف نفسي أن أقـــول فتسمعـــا
فلو صـادحـات الأيك يـدرين مَن ثـــوى
لمـــا بتن إلاّ في رثـــائـــك سجّعـــا

واللوعة في القصيدة وأمثالها أوضح من أن يشار إليها ببنان ! والشاعر في مراثي الأعلام من أصدقائه لا تشغله هذه اللوعة عن حقيقة صاحبه ، فبعـد أن يفصح عن مشاعره الحزينة في صور عاطفية مؤثرة ينهد إلى سمات الفقيد تحليلا وتصويرا ، فيبرز سماته الفكرية ومواقفه الحيوية إبرازا حيًّا يساعد القاريء على أن يرى الصورة

الكاملة للمتحدث عنه ورثاء شكيب لصديقه المجاهد الكبير الشيخ عبدالعزيز جاويش أصدق مثل لما نعنيه ، إذ صوّر الفجيعة الحارة بفقد مناضل ذاق شر الحياة دون خيرها ، ومضغ المر دون الحلو ، في رفعة رأس ، ونبالة هدف ، ثم ثنى بالحديث عن تأثيره الأدبي كاتبا ثائرا فقال :

وإذا جــررتَ عــلى الــطروس يــراعــة
بــات الصــريــر بــراحتيْــك صليــلا
تلك اليــراعــة ودّ أكبــر قــائــد
لــو أنهــا في كفّــه ليصــولا
تتجــاوب الآفــاق عن أصــدائهــا
ويــرتّلون فصــولهــا تــرتيــلا
لا فــرق بين الســامعين وقــد وعــوا
مــا قلتــه والشــاربين شمــولا
تغــدو أرق من النسيم فــإن عــدا
خــطب غدوت الصــارم المصقــولا
ليث متى يـــزأر لأمـــة أحمـــد
(ورد الفــرات زئيــره والنيـــلا)

هذا بعض ما يقال عن شعر الرثاء ! أما شعر الوصف فلم يتخلف عن المرتبة الأولى في شيء ، وأحسن ما يكون شكيب وصافا مبدعا حين يعمد إلى القصائد الطويلة الشبيهة بالملاحم فإنه حينئذ يأتي بفرائد غالية من بدائع الصور ، ونشير إلى قصيدتين رائعتين من هذا النمط

المختـار ، إحداهمـا قصيدتـه عن (حطين) والأخرى قصيدته عن (الأندلس) فإنه قد جرى حين قالهما في ميدان يؤثره بنجواه ، ويملك عليه مطارح هواه ! لقد استهل قصيدته الشرقية بوصف نهر الأردن مصوّرا تعاريجه وتدفقه ، ثم خلص الى بحيرة طبرية فذكرنا بالمتنبي حين وصفها من قبل ! ومهّد بذلك للحديث عن الملحمة الرائعة ملحمة صلاح الدين مع غرمائه المعتدين فتدفق الشاعر حماسة وامتد نفسه في القصيدة حتى جاوزت المائة والخمسين من الأبيات ، ومن قوله فيها واصفا بعض المعارك :

كـأنما قـومنا وقـد ثبتـوا
شمّ حصـون لهـا القنـا جـدرُ
كـأنما قـومنا وقـد وثبـوا
زعـازع للحصـون تهتصـر
ذاق العـدا من سـلاف طعنهمـو
كـأسا بغيـر العنقـود تختمـر
ضـراغم أجفلوا وقـد نـظروا
حمـر المنـايا كـأنهم حمـر
لم يجبنـوا سـاعـة وإن خـذلـوا
وإنمـا الليث دونـه النمـر
يـوم تـلاقى الجمعـان وانتصف الميـز
ان رهن انحـرافـه الـظفـر

عــوقب بــالأســر مــوقن بــردى
وجــل مُلكــا مــع العمى العــور

أما قصيدته الغربية فأكثر شجى وأغزر دمعا ! لأنها قصيدة الفجيعة لا قصيدة الانتصار ! ومع ما يحس القاريء من لفح النار ، ولذع الذكرى فإنه يستمر في القراءة لا ينقطع إلا ليرسل زفرة ، أو يسقط عبرة ! أي جرح كانت هذه الأندلس في قلوب الخالفين ! لقد كانت كعبة الحضارة الانسانية رحمة وعدلا وإخاء كما كانت مهبط الفن أدبا وشعرا ومعمارا ! وكل ذلك تراءى ساطع الضوء ، قويّ اللمح في مرآة شكيب ، فإذا أردت شاهدا ناطقا ببعض هذه الروائع فاستمع إلى ما قاله الشاعر عن الأعمدة الناهضة بجامع قرطبة :

تــراهــا صفــوفــا قــائمــات كــأنهــا
حــدائق نُصّت من جمــادٍ مشجّــر
من العمــد الأسنى فكــل يتيمــة
لهــا نسب من مقــطع متخيّــر
نبتْ دونهــا زرق الفؤوس وأصبحت
لدى الفرى تهــزا بالحــديد المعصفــر
ولكن لفضــل الفن ألقت قيــادهــا
فصــال بهــا الصنــاع صــولــة عنتــر
فبينــا هي الصمّ الصــلاد إذا انثنت
مقــاطــع جبن أو قــوالب سكّــر

عـــرائس للتحـــريم فـــوق رءوسهـــا
أكـــاليـــل درّ في قـــلائـــد جـــوهـــر

أما الحسرة الكاوية فتلذع في مثل قوله :

وكـــائنـــة لم يعـــرف الـــدهـــر أختهـــا
ولا حـــدثت عن مثلهـــا كتب مخبـــر
يكـــاد الـــذي يتلو غـــريب حـــديثهـــا
يـــظنّ خيـــالا أو أحـــاديث مفتـــر
يقـــولـــون كـــانت أمـــة عـــربيـــة
بـــأنـــدلس رغـــد ، وزهـــر منـــور
وكم قـــائـــد قـــرم ، وجنـــد مـــدرب
وكم ســـائس فحـــل وأمـــر مـــدبـــر
وكم بـــطل إن ثـــار نقـــع رأيتـــه
يبيـــع بـــأســـواق المنـــايـــا ويشتـــري
ومـــا شئت من علم ورأي وحكمـــة
ودرس وتحقيق وقـــــول محـــــرّر
نعم كـــان فيهـــا من نـــزار ويعـــرب
جموع تحيل الأرض في يـــوم محشـــر
فـــراحت كأن لم تغن بالأمس وانقضى
لهم كـــل ركـــز غيـــر ذكـــر معـــطّر
ولمـــا رأيت المسجـــد الجـــامـــع الـــذي
بقـــرطبـــة من فـــوق فـــوق التصـــور

عضضت علـى كفي بكـل نـواجـذي
وقلت لعيني اليـوم دورك فـاهمـري
تخيلتـه والـذكـر يتـلى خـلالـه
نـظير دويّ النحـل من كـل مصـدر
فكم أزهـرت فيـه ألـوف مصـابـح
وكم أوقـدت أرطـال عـود وعنبـر
إذا حضـرت آثـار قـومي وإن خلوا
فـإني منهـا في قبيـل ومعشـر
فـأشعـر أني في بـلادي كـأنمـا
تخـاطبني الأرواح من كـلّ مقبـر

وإذا شعر شكيب أنه في بلاده وهو يشاهد آثار قومه في الأندلس ، فقد شعر القاريء لقصيدته أنه يشاهد هذه الآثار ولم يبرح مكانه لروعة ما أضفى عليها من سحر البيان !

ولست بحاجة بعد هذه النماذج المختارة إلى أن أبيّن مذهب شكيب الفني ! إذ يكفي أن نعرف أنه أحد النجباء في مدرسة البعث وأن البارودي رائده الأثير ..

بين العقاد وأحمد أمين

يتجلى هدوء العقاد واعتداله الرزين في مجال النقاش الفكري إذا أنس من مجادله صدقا وأمانة ، ورأى فيه حرصا على الحقيقة بعيدا عن التزيد والاستعلاء ، هنا يعطي الأستاذ العقاد أشهى ثماره الفكرية في رحابة صدر ، وسكون نفس ، وهنا يكون المثل المنشود في صحة البرهان ، واستقامة الدليل ، وقد كان الأستاذ أحمد أمين أحد الذين ساجلوا العقاد في أكثر من موضوع ، وأحمد أمين أحد الأوائل الفضلاء حقا ، فهو يحرص على الحقيقة متطلبا وجهها الصحيح دون انتظار لغلبة أو نصر ، ومتى كان المناقش من هذا الطراز الأمين فإنه يضطر مجادليه إلى الالتزام بنهجه مكبرين نزاهته الواضحة ، وإخلاصه الجلي ، ومن شمائل العقاد المعهودة في معاركه الفكرية ، أنه يتعالى ويعنف ويستبد بمن يشم منه رائحة الادعاء ، ومَن يرى فيه ـ خطأ أو صوابا ـ أنه ينشد الجدل للجدل لا للحق وإيضاح الصواب ، هنا يركب العقاد الصعب في توهين مناقشه وتجريحه ، وهنا ـ والحق يقال ـ لا يكون العقاد في أفضل مواقفه الجدلية كما لا يكون غريمه أيضا وإن ضاهاه مكانة وشهرة في الموقف الأمثل ، ولك أن تضرب المثل لذلك بما قام بين الرافعي والعقاد من جدل تكررت مواقعه ، فقد كان الكاتبان الكبيران معًا من الحدة بحيث لم

يربحا شيئا يضاف إلى مجدهما الأدبي في هذا المجال ، أما ما خصصنا به هذا البحث من عرض لبعض ما كان بين العقاد و أحمد أمين من سجال فكري متعدد ، فهو ما يعطي المثل المنشود لمن يرغب في متابعة الصيال العقلي بعيدا عن مساقط النزوات ، ومهاوي الأهواء ، ومن غرائب النفس البشرية أنها تهش للجدل المشتعل أكثر مما تهش للجدل الهادئ ، لذلك تعرض دارسو العقاد لمناقشاته مع الرافعي ومندور والزهاوي وأمين الخولي وأنصار شوقي دون أن يتعرضوا لمناقشاته مع ذوي الاتزان البصير ، وفي مقدمتهم الأستاذ أحمد أمين ، فإذا حاولت أن أتحدث عن نقاش الكاتبين الكريمين ، فلكي أبسط أمام القراء صفحات رائعة شغل عنها الدارسون بغيرها لا لشيء إلا أنها لم تثر الضجيج الصاخب ، أو تبعث الرعد المجلجل ! بل سارت هادئة صافية كما يسير النمير العذب في جدوله الرقيق .

كتب الأستاذ أحمد أمين مقالا جيدا تحت عنوان (ندرة البطولة)[1] ذكر فيه أن البطولة في العصر الحاضر أقل منها بكثير في العصور الماضية ، وأننا نتلفت في أيامنا هذه فلا نجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء ولا نجد في النثر أمثال الجاحظ وابن المقفع ولا في قيادة الحروب أمثال خالد بن الوليد

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٠٠

وأبي عبيدة ولا في سياسة الأمم أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز ، وحين فقدنا جمال الدين ومحمد عبده وشوقيي وحافظ ابراهيم لم نجد منهم عوضا ، وقد كانت كل الظواهر تدل على أن الجيل الحاضر أحسن استعدادا من الجيل الماضي وما سبقه لأن يكثر فيه النابغون ، فقد كثرت الجامعات والمدارس والصحف ، وتعددت وسائل التربية والتثقيف واتصل العالم بعضه ببعض ثقافيا وحضاريا واجتماعيا ، وكان ذلك كله مدعاة النبوغ المتعدد لا مدعاة العقم والإمحال ، ويترك الأستاذ أحمد أمين هذه الظاهرة إلى تحليلها التعليلي بما عهد عنه من تأمل واطمئنان فيرى أن المعاصرين قد عَلَا مثلهم الأعلى فلم يعودوا يقنعون بمثل قريب ، وهم يضنون بوصف النابغة إلا على من حاز أروع الصفات وإذن فالعظمة المعتادة لا تبهرهم كما بهرت السابقين ، ثم أننا اليوم قد شعرنا بأنفسنا ، ومن يشعر بقيمة نفسه لا يهون عليه أن يلقى الزمام لبطل يراه ذا مواهب أكثر وأرقى ، وقد كان للمشعوذين من قبل مكان القيادة ، وهيهات أن يصل مشعوذ الآن إلى خداع الجمهور إلا في النادر ، كما أن مقاييس البطولة إذا كانت قد تغيرت وأصبحت عند المحدثين خيرا منها لدى المتقدمين فان بُعد الزمن بالقدامى قد خلع عليهم قداسة لا يجدها المعاصر ، فقد توالت صحف التاريخ على تمجيد البطل القديم وكل تال يزيدعلى

سابقه بما يفترض ويتخيّل حتى كاد البطل يخرج عن إنسانيته إلى ما فوقها ، ولذلك نجد في المعاصرين من يفوق بعض الأقدمين بمراحل ثم لا يلحق به لدى الناس .

هذه خلاصة مركّزة حاولت اختزالها بجهد كبير لتعطي فكرة الأستاذ واضحة دون تحيف ، وحديثه عن هذه الظاهرة مثل جيد لأحاديثه المختلفة عن ظواهر شتى أبدع شرحها والتمس تعليلها فجاء بخير كثير ، وقد دعا الكتاب في خاتمة مقاله الى أن يشاركوه تحليل هذه الظاهرة : فكان من نصيبه أن يبدأ العقاد السجال .

بدأ العقاد مقاله بتلخيص جيد لرأي الأستاذ أحمد أمين ثم هجم على مخالفته حين أعلن أنه يقف من رأيه موقف النقيض من النقيض إذ يرى أن العصر الحديث أحفل بالبطولة والنبوغ من أي عصر سبق ، وجاء العقاد بالجديد حقا حين قال : (ان الوجه في المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا ، وأن نحصر العناصر التي تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال)[٢] .

ولتفصيل هذه القضية بسط العقاد مقاله ليذكر أن الذين يسألون : هل نجد في الشعر أمثال بشار وابن الرومي وأبي نواس وابن المعتز وأبي العلاء يحسبون الماضي كله عصرا واحدا يقابله العصر الذي نعيش فيه وحده ، وينسون أن الزمن الذي نشأ فيه بشار والمعري يمتد في

---

(٢) مجلة الرسالة العدد ٢٠٥

أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط القرن الخامس ، أي نحو ثلاثمائة سنة ، وينسون أن المكان الذي نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام ، وينسون أن العصر الذي نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من خمسين سنة ، وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة ويعقدوا المقارنة بين الفترتين .

هذا منطق العقاد ، وهو منطق واضح السداد ، ولم يناقشه الأستاذ أحمد أمين في تحديد الزمن بالذات ، إذ سلم له هذه النظرة ، وأنا شخصيا مع إعجابي بدقة العقاد لا أرى أن تحديد الزمن يرجح ميزة العصر الحاضر على الماضي إذ قد تحدث فترة زمنية محددة تأتي بنوابغ شتى لا تجود بهم عصور متطاولة ، فإذا كان الأستاذ أحمد أمين قد باعد الشقة حين جمع بين بشار وأبي العلاء ، وجمع بين عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز فإني أحصرهما في نطاق الخمسين الذي يريده العقاد فأسأله عن العصر الأدبي الذي جمع أبا تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز ، وكلهم نوابغ أعلام في دنيا الشعر وعن العصر الذي جمع المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح وكلهم نوابغ في القيادة الحربية ، وأولئك في بغداد وهؤلاء في الجزيرة العربية ، فما رأي العقاد إذن في فترات خصبة تجود

بالنوابغ فجأة في زمن واحد ومكان واحد وقد ذكرت منهم من اعتمدت منزلته على الأصالة الحقيقية لا على الادعاء والإغراق !

ثم ذكر العقاد أن الذين يعجبون بالجاحظ أو الموصلي لا يسألون أنفسهم ما هو الكتاب الذي ألفه الجاحظ ويعجز عن تأليفه المعاصرون ، وما هو اللحن الذي أبدعه الموصلي ويعجز عن إبداعه المعاصرون ، كما ينسون أن يتقصوا عوامل الشهرة في القديم والحديث ، وإذا ذكروا أمجاد الاسكندر أو جنكيز خان فلماذا ينسون أن كل حرب لابد فيها من منتصر ومنهزم ، فإذا قامت الحرب فلابد إذن من بطل ينتصر ؟ وأن الانتصار وحده ليس بشيء إذا لم ننظر إلى عوامله ودواعيه ، كما أن مبالغات الأقدمين قد خلعت ثوبا فضفاضا على ما كان ومن كان ، وأكد العقاد رأيه بقوله :

(ليس في تاريخ بني الانسان منذ بدايته إلى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والأمم والأفراد أمثال ما يعرضه لنا العصر الذي نحن فيه) .

وقبل أن ننتقل إلى تعقيب الأستاذ أحمد أمين نذكر أن قول العقاد أن كل حرب لابد فيها من منتصر ومنهزم موضع نظر ، فقد تنتهي الحرب دون انتصار واضح لفريق على فريق ، وإنما هي خسارة مشتركة حاول الفريقان إيقافها عند حد ، ورجع كل محارب إلى قومه وعوامل إخفاقه

تضارع عوامل نجاحه دون ترجيح ، والعقاد الكبير قاريء مستوعب ولن تفوته أمثال كثيرة لما نعنيه ، كما أن حديثه عن المبالغات المعزوة للأبطال القدماء لم يفت صاحبه ، فقد نص عليه ، وأكده فيما ساقه من التحليل فهو إذن ترداد يراد به التأكيد ، وحديث المبالغات لا يختص بقديم دون حديث ، فقد شاهدنا في عصرنا الراهن وزارات للدعاية في الشرق والغرب تقوم على تمجيد الزعماء ، واختراع البطولات الزائفة ، ورأينا كيف تشوّه الحقائق ، وكيف تسخر الأقلام المأجورة لتحيل الظلام إلى ضياء ، ثم جاء وقت تكشفت فيه الحقائق عن أناس كانوا في السماء فسقطوا إلى الهاوية ، وظلّ نفر من الساذجين يخدعون بما سبقت به الدعاية إذ لهم عقول لا يفكرون بها ولا يتأملون .

وقد أسرع الأستاذ أحمد أمين بالرد على ملاحظات العقاد ، وكانت درسا رقيقا حين شكره على هدوئه المتزن ، وقال إنه سعيد بردّه المقنع ، فقد أبان جانبا من الموضوع وأوضحه أيما إيضاح ودعّمه بالبراهين والحجج ، وذلك انصاف ينتظر من قاض عادل كالأستاذ أحمد أمين ، ثم دعا الكاتب إلى أن يحتذي الكاتبون مقال العقاد في نقاشهم فقال[٣] .

---

(٣) مجلة الرسالة العدد ٢٠٦

(وحبذا لو اتخذ هذا المقال مثلاً للناقدين فيناقشون ما عرض من الأفكار في هدوء وجد ، وتفكير عميق ، وبأسلوب مهذب ، ولا يكون لهم غرض غير الوصول إلى الحق وتجليته) .

وإخال الأستاذ أحمد أمين بهذا التوجيه يدعو العقاد أول ما يدعو إلى أن يسير على منهجه الذي احتذاه في المقال ، وقد كسبه بهذا الثناء الحق ، وإخال أن أعنف المتناظرين حدة يجد في نفسه باعثا على الإنصاف لو آنس من زميله تسامحا نبيلا ، وما أثار النقع القاتم إلا التطرف المتبادل ، فأين المقسطون ؟ .

ولقد أفلح الأستاذ أحمد أمين حين حدد دائرة الخلاف بينه وبين مناظره ، فذكر أن ما يريده من النبوغ أن يفوق النابغة أهل زمانه وحدهم لا أهل من تلوه من الأزمان ، فسيبويه قد برز في النحو لأنه فاق معاصريه فعجزوا أن يلحقوه ، وليس لأنه لا يوجد فيما تلاه من العصور من يفوقه ، فإذا أردنا أن نقارن عصرا بعصر ، في كثرة النبوغ وندرته فلا نقارن معلومات بمعلومات ، يقول الأستاذ أحمد أمين لتوضيح هذه الفكرة :

(فإذا أردنا المقارنة بين العصر العباسي الأول ـ مثلا ـ وبين عصرنا الحاضر في الأدب ، وازنا بين ابن المقفع والجاحظ وبشار وأبي نواس ، وبين الكتّاب والشعراء العاديين في ذلك العصر ، وقسنا مسافة البعد بينهم ، ثم

فعلنا مثل ذلك في عصرنا الراهن فإن كانت مسافة البعد بين البارزين والعاديين في العصر العباسي أطول منها بين البارزين والعاديين في عصرنا حكمنا بأن البارزين في العصر العباسي «أنبغ» .

لقد ضيّق الأستاذ أحمد أمين الدائرة بتحديده هذا ، وتقريرا للحق نذكر أن هذا التحديد لم يكن ملحوظا لديه في مقاله الأول ، ولكنه اهتدى إليه بعد تعقيب العقاد ، وقد لاحظ ذلك واعترف به حين ذكر أنه يخشى أن يكون في مقاله السابق لم يوضح هذا القصد ، وقد تسلسل مقاله فيما يجري هذا المجرى إذ حدد الإطار العام ليندرج فيه كل ما يعن من الجزئيات ، هذه الجزئيات التي نعنى بتلخيصها ، لأن الأستاذ أحمد أمين والأستاذ العقاد معا من كتّاب المعاني الذين يؤثرون الايجاز دون الإطناب فكيف لعمري نوجز الموجز ، وقد ختم الأستاذ امين مقاله بأنه إذا كان طابع عصرنا الراهن هو الطابع المألوف المعتاد لا طابع النابغة والبطل ، فلا يمكن الرد حينئذ بمزايا العصر الحاضر والعلم الحاضر لأن غنى العصر الحاضر بالمتعلمين والمثقفين قد سلبه النبوغ فكان عجيبا أن نرى الغنى علّة الفقر ، والتخمة سبب الجوع .

ولعل القاريء في اشتياق إلى أن يسمع رد العقاد ، وما كان مثل العقاد ليفوته الرد على دفاع صاحبه وقد أحكمه وأحاطه بالتحفظ المتريث ليبلغ مبلغ الاقناع من العقاد !

ولكن العقاد قد اقتنع بشيء ، وخالف في شيء ، اقتنع بأنه لا ينبغي أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وخالف في تقدير الملكات حيث رأى أنه لا موجب لديه لأن تكون ملكات النابغين في عصرنا أقل مما كانت في عصر الأقدمين .

ولتقرير هذه الوجهة ذكر العقاد ملاحظات كثيرة رجع فيها إلى دراسة النفس الإنسانية ، فبيّن أنها لا تقدس البطولة في عصر دون عصر فربما كان إجلال الإيطاليين لموسوليني الآن ـ كان ذلك قبل أن يندحر في الحرب العالمية الثانية ـ أكثر من إجلال السابقين لنوابغهم انجذابا لما يبذله من الدعاية والتزييف ، كما أن إهمال المعاصرين ليس وقفا على هذا الزمن حيث يقول المثل القديم (زامر الحي لا يطرب) وحيث يشكو الجاحظ من كساد ما يكتب فلا يروج إلا إذا نسبه لكاتب سابق ، وقد ختم العقاد مقاله بفصل الخطاب حين قال[٤] .

(إننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ الكبير :ـ إن النبوغ في عصرنا كثرة لا ندرة ، ولا نستطيع أن نقول معه أن المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في العصر الحديث لأن ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخلق له فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التي يخلق بها النابغون الممتازون) .

---

(٤) الرسالة العدد ٢٠٧ .

هذه جولة أولى بين الكاتبين الكبيرين ، وقد تركت مجالا فسيحا للتعقيب المتصل في مجلات العالم العربي ، كما كتب الأستاذ الكبير فتحي رضوان بالرسالة مقالا للفصل في حقائقها ، وتفصيل ذلك كله مما لا يندرج تحت عنوان هذا المقال .

أما الجولة الثانية فكانت حول إحدى العبقريات التي خصها العقاد بعظماء الإسلام ، وقد بدأها الأستاذ أحمد أمين حين تعرض للموازنة بين كتاب أبي بكر الصديق لهيكل وعبقرية عمر للعقاد فكتب مقالا نقديا ممتازا يدل على أن صاحب فجر الإسلام ليس مؤرخا للحياة العقلية فحسب ، ولكنه مؤرخ ناقد معا ، فبعد أن تحدث عن ما اتفق فيه هيكل والعقاد من السمات الأدبية في كتابة التاريخ ، تحدث عما اختلفا فيه فذكر عن هيكل أنه يلون طريقته بلون المؤرخ فيعرض للروايات المختلفة في الموضوع وما حكاه المؤرخون من الأنظار المختلفة ، ويدعوه ذلك إلى الإسهاب في بعض التفاصيل ، أما الأستاذ العقاد ، فيدرس الروايات المختلفة في السر ، يدرسها لنفسه لا للقاريء ، ويطمئن لرأي ثم يجلوه ويحتج له ولا يشرك القـاريء معه في دراسته ، شأنه شأن الأديب ينظر إلى المنظر من طيارة ، ويصوره من طيارة ، والدكتور هيكل ينظر إليه من أرضه في أرضه فيلمسه ويجسه ويدور حوله وينفذ فيه ليراه في أوضاعه المختلفة ، ثم قال بعد مؤاخذات جوهرية للكاتبين

إن الدكتور هيكل لوّن كتابه بلون العلم فهو يصف الشجرة بجذورها وساقها وأغصانها وزهراتها ، وصبغ العقاد كتابه بصبغة الفنان لا يرى من شجرة الورد الجميلة إلا وردتها الجميلة ، ولهذا ذكر هيكل مراجعه لأن هذا عمل المؤرخ ، ولم يثبتها العقاد لأنه عمل الأديب[٥] .

أشهد أن هذا التصوير النقدي جد موفق ، وقد طوى من المآخذ على عبقرية عمر مالا يفوت كاتبا حصيفا كالعقاد ، ولكنه سكت عن الرد لاعتقاده أن أحمد أمين يقول ما يعتقد في أسلوب حريري دون رغبة في استعلاء يتشامخ به على صاحبه ، ثم أصدر العقاد عبقرية الإمام ، فتحدث عنها أحمد أمين[٦] ليذكر ملاحظاته الجوهرية في وضوح ، وهي ملاحظات صائبة أفرد العقاد[٧] مقالا رئيسيا للرد عليها ! وقام بتلخيصها في صدر الرسالة تلخيصا دقيقا ركزه العقاد في هذه النقاط حاكيا عن نفسه .

١ ـ إنني اعتمدت على بعض الروايات من غير كبير نقد ، كاعتمادي على رواية نهج البلاغة في وصف الخفاش والطواويس .

٢ ـ إنني اعتمدت على ما روى في حديث سوءة عمرو بن العاص ، وهي رواية لم يقرأها الأستاذ الفاضل في الطبري ويذكرها المؤرخون الأثبات بصيغة التمريض .

---

(٥) مجلة الثقافة العدد ٢١١ .

(٦) مجلة الثقافة العدد ٢٥٤ .

(٧) مجلة الرسالة العدد ٥٤٣ .

٣ ـ إن تقسيم الكلمة الذي نسب إلى الإمام في علم النحو أشبه بالتقسيم المنطقي اليوناني ، وهذا كله نابٍ عن طبيعة العصر .

٤ ـ كنت في العبقريات السابقة فنانا وقاضيا فمضيت في كتابي هذا على نهج أقرب إلى نهج المحامي والفنان .

هذا تلخيص العقاد لا يخرم مأخذا مما ذكره الأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة ، ولعل اهتمام العقاد بتفصيل الرد على هذه المآخذ في تدقيق وبراعة يدلنا على أن المآخذ قوية صائبة ، وذات أصالة توجب التلبث والتؤدة على من يحاول تفنيدها ، وقد لجأ العقاد إلى التخريج الذهني ، وهو أبرع من يتخذه سلاحا بين الكاتبين ، وقد نسي أن حقائق التاريخ الثابتة لا يجدي معها تخريج رائع يبتكره ذهن وقاد ، فالعقاد يرى أن المقياس في هذه الأمور عنده (أن يجزم بدليل قاطع أو أن ينفي بدليل قاطع ، وأما الترجيح فالمعول في قوته وضعفه على مشابهة القول المرجح للمعهود والمعقول ، فإن كان هذا القول مشابها لهما فلا ضير من الأخذ به على أية حال ، كأن نعلم أن فلانا رجل محسن ، فلا يضير بعد ذلك أن يقال أنه أحسن بدينار في يوم من الأيام وهو في ذلك اليوم نفسه لم يحسن بدينار ، أو يقال إن (فلانا) لص معروف فلا ضير أن يتهم بسرقة رجل بعينه ، وهو لم يسرق منه ، بل سرق من رجال آخرين)[٨] .

فما معنى هذا الذي يبتديء به العقاد ؟ معناه اننا لا

---

(٨) الرسالة العدد ٥٤٣ .

نملك الدليل اليقيني أولا في هذه المسائل لأن الجزم بها متعذر ، وما دامت المسألة مسألة ترجيح فقط فلا مانع من أن نرجح أن فلانا قد احسن بشيء معين و إن لم يحسن به ، متى كانت طبيعته الإحسان ،.ولا مانع من أن نرجح تهمة لص بسرقة شيء ما متى كانت طبيعته السرقة ، و إن لم يسرق هذا الشيء بعينه ؟ .

وبناء على ذلك فوصف علي للطاووس والخفاش غير مستغرب ، و إن لم نتيقن أنه قد قاله ، فهو عربي أصيل وقد اشتهر العرب بوصف الأحياء المتوحشة والإنسانية ، فإذا نسب إليه هذا القول فلا نجد حرجا في قبوله لأنه قادر عليه وعلى مثله !

وكذلك ما قيل عن صدود علي عن قتل عمرو بعد أن احتمى بسوءته ! هذا العمل غير مستغرب من أخلاق علي المعهودة لأنه كان لا يتبع موليا ولا ينظر إلى عورة ، وكان ينهي جنده أن يتبعوا المولين ويهتكوا العورات ، وليس الطبري بالمرجع الوافي الذي تتبع كل ماكان ، فيكون إهماله الحادثة دليلا على نفيها .

أما مسألة النحو فالسريان كانوا أقرب إلى اللغة العربية وإلى الكوفة من اليونان ومذاكرة الإمام لعلمائهم أقرب من مذاكرته لعلماء اليونان فمن شاء أن ينفي الروايات المتواترة نفيا قاطعا فعليه بالدليل ، وقد سلم العقاد بأنه اتخذ موقف المحامي في عبقرية الإمام لأن جو الموضوع قد اقتضى الدفاع دون سواه .

هذه خلاصة ما دفع به العقاد مأخذ أحمد أمين على عبقرية الإمام ، والعقاد قد لجأ إلى القياس المطلق ، وهو مما يلجأ إليه الأصوليون ولكن التاريخ لا يعتمد على الترجيح ، فإذا اعتمدنا على الترجيح وحده فعلى الكاتب أن يذكر أنه يرجح دون إيقان ، والعقاد لم يذكر ذلك في مقدمة عبقرية الإمام ، ولكنه ذكره في مجال الرد على ملاحظات أحمد أمين ، ويخيّل إليّ أن الذي يجمل في هذا الموقف هو تجنب المظنون المحتمل والاعتماد على الحقيقي الثابت ! فالانسان إذا اشتهر بالإحسان وأردنا أن نستدل على إحسانه المشتهر ، فلنكتف بأمثلة يقينية مادامت موجودة ومتعددة حتى سببت اشتهار صاحبها بها ، وما حاجتنا إلى مثال تحوم حوله شبهة ما ، ولدينا مالا يعتل عليه بوجه من الوجوه ، كذلك إذا اشتهر إنسان بالسرقة وأردنا أن نثبت له ما اشتهر به ، فالأقرب أن نأتي بسرقة مؤكدة لا لبس فيها في مجال الاستشهاد ، أما أن نأتي بسرقة غير مؤكدة ، ونجعلها الدليل لأنها لا تخرج عن طبيعة السارق فهذا غير الأولى دون نزاع وإن ارتضاه مفكر جاد ممتاز كالعقاد .

وفي حوار ثالث لم يكن العقاد طرفا أصيلا من أطرافه ، بل سئل عنه فأجاب ، في هذا الحوار القائم بين الأستاذ أحمد أمين والأستاذ توفيق الحكيم على صفحات الرسالة والثقافة معا ، تعرض الأستاذ العقاد لمناقشة الأستاذ أحمد أمين في بعض ما ارتآه ، ولباب الحوار لا يخرج عما عرف

بمذهب الفن للفن مقارنا بمذهب الفن للإصلاح إذ دعا الأستاذ أحمد أمين بالعدد (٢٧٥) من مجلة الثقافة إلى أن يتجه الأدباء إلى النظر في مجتمعهم كما ينظرون إلى أنفسهم ، وإلى أن يتعرف الأديب الحياة الجديدة للأمة العربية ويقودها ويجد في إصلاح عيوبها ، وإلى أن ينبع الأدب العربي من الوعي الاجتماعي كما ينبع من الوعي الفردي فيعمد إلى مجتمعاتنا المليئة بالشرور فيعالجها ويشرحها ، ويحللها ولا يقتصر على وصف ماكان ، بل لابد أن يفكر في ما ينبغي أن يكون ، ليكون الأديب داعية خير ، ورسول أمة ، وراسم هدف ، فردّ عليه الأستاذ توفيق الحكيم بالعدد (٥٦٢) من مجلة الرسالة ليقول إن أحمد أمين يريد أن يستخدم الأدب للدعايات الاجتماعية والإعلان عن السلع التجارية ، والتأثير في الدعايات الانتخابية ، ومايجري هذا المجرى ، وقد رد عليه الأستاذ أحمد أمين بأن هناك فرقا كبيرا بين الدعوة إلى أن تكون الحياة الاجتماعية والوعي الاجتماعي من مصادر الأدب وبين الدعوة إلى ماديّة الأدب وتسخيره للأغراض الوضيعة ، والنقاش مسجل في مجلتي الرسالة والثقافة ليستعرضه من يريد الاستقصاء ، وحسبنا أن نشير إلى جوهره لنعلن أن الأستاذ العقاد قد سئل عنه فأجاب بتلخيص لبعض ما قاله أحمد أمين حين حكم بأن الأدب العربي إلى الآن تغلب عليه النزعة الفردية لا النزعة

الاجتماعية فالغزل والمديح والعتاب والرثاء والفخر والهجاء ونحوها كلها في الأدب القديم نزعات فردية طغت على الأدب العربي ولونته اللون الذي نراه ، والأولى أن يتجه الأدب المعاصر إلى الوجهة الاجتماعية ، كما أشار العقاد إلى رأي الأستاذ الحكيم في أن استيحاء أساطير اليونان والرومان وامريء القيس وشهرزاد هو النوع الأرقى في كل أدب لا في الماضي وحده ولا في الحاضر ، بل في الغد وبعد آلاف السنين وأن اليوم الذي يستخدم فيه الأدب للدعاية الاجتماعية لهو اليوم الذي ينقلب فيه الإنسان طفلا .

وقد قال العقاد تعليقا على كلام الأستاذين إن وجهة الأدب والأخلاق والشريعة جميعا إنما تتقدم من الاجتماعية إلى الفردية لا من الفردية إلى الاجتماعية كما يؤخذ من كلام الأستاذ أحمد أمين . ولهذا ـ في رأي العقاد ـ كانت أغراض الأدب العربي فيما مضى هي الأغراض التي تعني القبيلة ولا تعني أفرادها ، فالفخر بالأنساب سنّةٌ من سنن القبائل البدوية ، والحماسة مطلب لا غنى عنه في حالة الصراع بين القبائل ، والمديح والهجاء سلاح للقبيلة يرتبط به العز والهوان ، وليس الغزل من المسائل الفردية التي تنفصل عن النوع والأمة والقبيلة ، وليس الرثاء مطلبا فرديا لأنهم قلما نظموه في غير السادة ، وهذا في الأدب جملة .

ومضى العقاد يؤيد أن أمل الإنسانية أكبر من أن يتعلق بحاجة الطعام والكساء ، ويحبذ كلام الأستاذ الحكيم حين شبه المجتمع الذي يستخدم الفن للرغيف بالطفل الذي يضع الحلية في فمه لأنه لا يحسن أن يتملاها بنظره ، وختم التعليق بأنه لم يخطيء أحمد أمين في حرصه على المصالح الاجتماعية لأنه مثله يحرص على هذه المصالح ، ولكن الفنون ذات هدف أقوى من النفع المادي .

ويخيّل إليّ أن الأستاذ العقاد لم يرجع إلى كلام احمد أمين في مصدره الأول لأنه لم ينكر الأدب الذاتي ولكن دعا إلى أن يكون معه أدب اجتماعي ، وهذا مالا يخالفه العقاد ، كما أن الأستاذ العقاد قد أسرف في الحكم حين نص على أن الغزل في الشعر ليس فرديا ولكنه يتصل بالنوع والأمة ! لأن اتصال كل كلام بنوع قائله لا مرية فيه ، ولكن الذي يفتخر بقومه ليحمس على القتال ليس كمن يتغزل في حبيبة يراها مهوى قلبه ، ويجزع أن يشاركه إنسان ما عاطفته نحوها ! فالغزل فردي لا محالة والرثاء في أكثره فردي ، ورثاء العظماء من السادة في الجاهلية أقل مما روى عن مراثي الأحباب من الأهل والأصدقاء ممن يخصهم الشاعر بعاطفة خاصة ! ولا أدري كيف جاز لدارس ممتاز كالعقاد أن يجعل الغزل في اختصاصه شبيها بالفخر في شيوعه الشامل للأمة والقبيلة ؟ وقد فطن بعض النقاد حين خصوا مراثي العظماء بالتأبين ، وقصروا المراثي على من تجمعهم

الروابط العاطفية وحدها ! بل إن السياسي العظيم يموت فيرثيه أخوه بقصيدة تتجلى فيها الفردية أكثر مما تجلى فيها الاجتماعية الشائعة لأن صلة العاطفة الخافقة بالدم اقوى من صلة الانتماء العام !

وقد رد الأستاذ احمد امين على تعقيب العقاد ، فذكر ما ضيق شقة الخلاف إذ قال[9] إن الفردية التي يعنيها هي الأنانية والأثرة وأن الاجتماعية هي الغيرية والإيثار ، وبهذا التحديد يتفق الأستاذان معه (أو يلزم أن يتفق الأستاذان معه) على أن الرقي الأخلاقي والاجتماعي سائر نحو الاجتماعية والفردية ! وإذا كانت المشكلة في جوهرها هي مشكلة اتجاه الأدب إلى الفن وحده بعيدا عن الاصلاح أم اتجاهه للفن والإصلاح معاً فقد حسم الأمر لدى المختلفين جميعا ، حين يوازنون بين قطعة فنية رائعة تخدم هدفا إصلاحيا ، وقطعة لا تقل عنها جودة تقتصر على الوصف الأدبي دون هدف ! على أن المدار في الفن على التاثير المستشف لا على التقرير السارد ، وقد حصر الأستاذ أحمد أمين المجال في أضيق نطاقه حين قال ببساطته الواضحة (لعل نقطة الخلاف الحقيقية بين الأستاذ الحكيم وبيني هو أنه يريد أن يقدر الفن بجماله فقط وأنا أريد أن أقدره بجماله وأخلاقياته معا)[10] .

---

(٩) الثقافة العدد ٢٧٩ .

(١٠) الثقافة العدد ٢٧٩ .

وبعد : فهل أختم هذا البحث دون أن أشير إلى هذا الترحيب الرائع الذي استقبل به العقاد كتاب (حياتي) للأستاذ أحمد أمين : لقد كتب عنه الأستاذ العقاد فصلا تحليليا خلص للثناء على غير ما اعتاد العقاد في أكثر ما يكتب حين يتخذ من أحد موضوعات الكتاب الذي يتحدث عنه مجالا لاختلاف وجهة النظر . وإيجاد الكفتين المتعادلتين من المؤاخذة والإطراء إذ قال عن حياة زميله الكبير[11] (إنها حياة مباركة جديرة بالتاريخ فقد تهيأ لها من تجارب عصرها ، مالم يتهيأ لحياة الأكثرين من كتّابنا وأدبائنا ، فعرف صاحبها نشأة المدرسة العصرية ، ونشأة المدرسة الفلسفية ، وتعلم على الشيوخ الأزهريين والشيوخ المطربشين ، وشيوخ دار العلوم ، واختبر التعليم والقضاء ، وشارك في أدب الغرب وأدب العرب ، وعاصر نهضة الاستقلال ونهضة التجديد ، وساح في البلاد الشرقية والأوربية ، وتقلب بين العسر واليسر والصحة والمرض ، ووعى من حقائق جيله ما يحفظ ويستفاد في المقابلة بين أجيال العصر الحديث .

وليس في وسع مؤلف بالبداهة أن يحصي وقائع حياته كلها ، في كتاب موجز أو مفصل ، وقد يكون الاكتفاء بالأهم من تلك الوقائع أعسر من التفصيل والتطويل ، ولكن زميلنا مؤلف حياتي قد سرد لنا تاريخا نقرؤه فيخيل إلينا أنه

---

(١١) بين الكتب والناس للعقاد ص ٣ .

متسلسل مطرد بغير فجوة في أثنائه لأنه صنع بقلمه ما يصنع المصور القدير بريشته ، لمسة بارزة هنا ، ولمسة خفيفة هناك ، وخط عريض في ناحية وخط نحيل في ناحية أخرى ، و إذا بالصورة أمامك كاملة منسقة تحسبها جمعت ملامح الوجه كلها فلم تترك منها هدبا ولا شارة و إنما براعة التصوير التي تخرج لنا صورة كاملة غير محسوسة الفجوات من هذه الخطوط المتفرقات) .

هذا التشخيص الدقيق يعطي انطباعا جديدا للأستاذ العقاد نحو الأستاذ أحمد أمين إذ تعوّد في أكثر مناقشاته إياه أن يصفه بالعالم الفاضل فحسب ! أي أنه عالم باحث لا أديب فنان ! وهاهو ذا يتحدث عنه أديبا مصورا يجيد رسم الملامح وتنويع الظلال ، وملء الفجوات بما تترك من لوامع الإيحاء ! وهل يقدر على ذلك غير أديب كبير من طراز الأستاذ أحمد أمين .

سيد قطب بين العقاد والخولى

طالعت ما كتبه الأخ الدكتور عبدالعزيز الدسوقي بالعدد (٥١) من مجلة الثقافة ، ناقلا عن مجلة (الوحي) العمانية فقرا هامة من مقال للأستاذ عبد المنعم شميس قال فيه :

(كانت لسيد قطب مواقف حاسمة في مؤازرة العقاد ومساندته نسيها بعض المعاصرين ، لكن عباس محمود العقاد لم يساند سيد قطب ، ولم يؤازره ، وهذه حقيقة للتاريخ .

عندما لمع اسم سيد قطب كالشهاب الثاقب أغمض العقاد عينيه ، ولم يكتب حرفا واحدا ، يقول إن هذا النور يستحق أن يسطع ، لأن العقاد كان يعتقد أنه العبقري الأوحد ، ولا عبقري سواه ، وهذه طبيعة تكوينه ولا لوم عليه في ذلك) .

ثم قال الأستاذ بعد كلام مشابه ، ما يفيد أن الأستاذ أمين الخولي قرأ كتاب التصوير الفني في القرآن للشهيد سيد قطب ، وأثنى عليه ووصفه بالعظمة ، فسارع الأستاذ عبد المنعم شميس إلى سيد قطب ، وأسمعه ما قال الأستاذ الخولي فأرسل الكتاب هدية إليه ، ثم قال الأستاذ شميس :

أمين الخولي الذي لا يعجبه العجب ، ولا الصيام في رجب ، يقف مشدوها أمام كتاب (التصوير الفني للقرآن)

وعباس العقاد الذي نصب سيد قطب نفسه مدافعا عنه لا يعترف حتى بوجود هذا الكتاب .

واستطرد الأستاذ شميس يقول : (كانت دعوة أمين الخولي إلى التفسير النفسي للقرآن هي البداية ، أو هي الإشارة لمحاولة الفهم ، ولكن أمين الخولي لم يطبق نظريته ، بل كان يدعو دائما إلى نظريات ثم يطلب من تلاميذه تطبيقها لو استطاعوا إليها سبيلا ، أما سيد قطب فإنه لم يتلق النظرية من شيخنا أمين الخولي ، ولكنه صنع ما كنا نحلم به من فهم للفن القرآني عندما كتب كتابه (التصوير الفني في القرآن) ، وكان هذا الكتاب هو البداية الحقيقية للفهم الواسع الرحيب الذي كتبه سيد قطب في كتاب آخر من الكتب الباقية في المكتبة الإسلامية وهو (في ظلال القرآن) .

هذا بعض ما ذكره الأستاذ شميس ، وقد عقب عليه الدكتور عبدالعزيز الدسوقي قائلا : (نحن نلاحظ أن الأستاذ عبدالمنعم شميس اكتفى بنقل مادار بينه وبين الأستاذ الخولي حول كتاب التصوير في القرآن ، ولم يقل لنا في أي مكان كتب أمين الخولي هذا الكلام الذي تحدث به شفويا إليه ، أو نشره ، وإذا كان الأمر قد اقتصر على الحديث الشفوي بينهما فإن المشكلة تبدأ من هنا ، فالأستاذ شميس لاشك يعرف المنهج العلمي للرواية ، وأسلوب تحقيقها ، وتظل شهادته يمكن أن نستأنس بها

إذا دعمها دليل آخر ، كأن يكون هناك شهود متعددون على هذه الرواية ، أو أن يكون الأستاذ الخولي قد أشار على نحو ما في دراساته أو مجلته (الأدب) إلى هذا الكتاب أو استشهد به أو نقل عنه شيئا يدل على اعترافه به ، وما لم يكن هناك شيء من ذلك فستبقى مجرد خبر يحتمل الصدق والكذب وأنا شخصيا أصدق الأستاذ شميس في روايته ، ولكن يمكن أن يشك في روايته أحد تلاميذ العقاد ، ومع ذلك فمن يثبت للأستاذ شميس أن العقاد أزور عن سيد قطب ، فربما شجعه وأشاد بعمله شفويا ، كما فعل الشيخ الخولي) .

ولي بعد هذا النقل الوافي ، أن أدلى بدلوي في الدلاء ، فأعلن للأستاذ شميس أني أشك في روايته لأسباب منها :

أولا - حين ظهر كتاب (التصوير الفني في القرآن) في مارس سنة ١٩٤٥ ، تحدثت عنه السيدة الدكتورة بنت الشاطيء في جريدة الأهرام ، حيث كانت تقدم بعض ما تخرجه المطبعة العربية ناقدة أو مقرظة ، وجاء في حديثها ما اضطر الأستاذ سيد قطب إلى التعقيب عليه بمجلة الرسالة العدد (٦٢٠) بتاريخ ٢١ مايو ١٩٤٥ أي بعد أكثر من شهرين من ظهور الكتاب فقال ص ٥٢٩ ما نصه :

(وكتب كاتب - أو كاتبة - في جريدة الأهرام «أن هذا الكتاب محاولة للبحث في جمال القرآن سبقتها اتجاهات في الجامعة» وللكتابة على هذا النحو أسباب خاصة ليس من شأني الحديث عنها ، كما أن وصف هذا العمل بأنه

(محاولة) مسألة داخلة في دائرة التقدير المتروكة للقرّاء ، إنما يعنيني هنا الحقيقة التاريخية وهي انني بدأت هذا البحث ، ونشرت فصولا منه بعنوان (التصوير الفني في القرآن) في المقتطف عام ١٩٣٨م ثم أخرجته كتابا في هذا العام ، فأين هي البحوث الجامعية في هذا الاتجاه ؟ إن كان الغرض هو البحث في جمال القرآن ، فهذا بحث قديم قديم ، وإن كان الغرض هو البحث على نحو خاص غير مسبوق ، فالواقع ينطق بأن ماكتب في الأهرام لا يطابق الحقيقية) .

هذا ماقاله الشهيد سيد قطب بعد أكثر من شهرين من ظهور الكتاب ، والذين يعرفون لحن القول من الفهماء يعلمون أن الأستاذ قطب ، كتب كاتب أو كاتبة ، معناه أن الكاتب هو الأستاذ أمين الخولي وأن الكاتبة قد أملى عليها ماكتبت !! فأين ذهبت وساطة الأستاذ شميس ؟ وكيف جاز لسيد قطب وهو الغيور الصلب أن يسارع بإهداء كتابه لمن يحاول أن يجعله تابعا لا متبوعا .

ثانيا ـ حين ظهر كتاب (دفاع عن البلاغة) للأستاذ أحمد حسن الزيات ، وضاقت به جماعة الأمناء فنقدته السيدة بنت الشاطيء نقدا هادما في مجلة الكتاب ورد عليها الزيات يتهمها بأنها تنطق عن لسان غيرها وتأخذ كلام صاحبها لتوقعه ـ وكل ذلك ثابت منشور بالجزء الثالث من مجلة الكتاب يناير ١٩٤٦ والجزء الرابع فبراير سنة ١٩٤٦ أقول : حين قامت هذه الضجة كتب الأستاذ سيد قطب بحثا

عن (دفاع عن البلاغة) نشره في ثلاثة أعداد متوالية من مجلة الرسالة وأرقامها هي (٦٧٦) ، (٦٧٧) ، (٦٧٨) وفي أول عدد منها بتاريخ ١٧ يونيه سنة ١٩٤٦ قال الأستاذ قطب ما نصه :

للمرة الأولى بعد كتابي (عبدالقاهر) في القرن الرابع الهجري تعرض قضية البلاغة على بساط البحث في هذا المحيط الشامل ، وتناقش بوصفها وحدة في بحث مستقل لا في صدد دراسة لكاتب أو كتاب ، ثم قال الشهيد رحمه الله في هامش المقال (يقال إن هذه القضية عرضت في كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وأنا لا أدري كيف عرضت هناك ، ولا في أي محيط ، وأحسب أن الناس لا يدرون شيئا عن هذه المحاولة الموضعية) .

أفيجوز أن يتصافق قطب والخولي ، ثم ينكر قطب أنه لا يعلم شيئا عن اتجاه أمين ؟ .

ثالثا ـ حين تقدم الدكتور محمد أحمد خلف الله في منتصف سنة ١٩٤٧ برسالته عن (القصص الفني في القرآن) وكان الأستاذ الخولي مشرفا عليها ، قامت ضجة كبيرة حولها ، وكتب الأستاذ الخولي يقول إنه متضامن مع مقدّم الرسالة في كل حرف منها وإنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر ، وظهرت جريدة الأخبار ، بمقال له تحت عنوان (هي حق وألقوا بي في النار) وكان ممن أسهموا في الجدل الأساتذة عباس العقاد وتوفيق الحكيم وأحمد أمين

وأحمد الشايب وعبدالفتاح بدوي ومحمد الخضر حسين ، وكلهم كان يتكلم بموضوعية لاتتجاوز العلم إلى الذات ، ماعدا الأستاذ سيد قطب فإنه نشر حينئذ بجريدة السَّوادي مقالا ملتهبا جاوز فيه الموضوعية إلى أمور شخصية نسبها للأستاذ الخولي ، وهي من الفداحة بحيث أنكرها على الأستاذ قطب كل من قرأ المقال ، وهو لا ينسى من ذاكرة من قرأه ، وأنا أدعو الأستاذ عبدالمنعم إلى مراجعة ما قال قطب في جريدة السوادي حين اشتعلت المعركة ، ليعرف أنه لم يتأكد مما كتبه حين يرى التناقض الصريح بين ما ذكر ، وماكان .

رابعا - أصدرت الدكتور بنت الشاطيء كتابها (التفسير البياني للقرآن) ، وكتبت مقدمته في يناير سنة ١٩٦٢ فأنكرت أن أحدا سبقها من الجامعيين إلى دراسة النص القرآني ، ثم زادت فقالت (والأمر شبيه فيما قرأت من مؤلفات حول القرآن لدارسين محدثين خارج نطاق الجامعة ، فليس فيها محاولة أصيلة لبيان البلاغة العربية إلا أن تكون كتاب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله عن الاعجاز) ، فالدكتورة تنكر وجود التصوير الفني ومشاهد القيامة وما صدر من أجزاء الظلال حينئذ ، وقد تعدت العشرين ، وهو إنكار لم يكن له آنذاك ما يبرره ، لأن محنة الشهيد رضي الله عنه قد وقعت بعد ذلك بأكثر من أربع سنوات ! وقد كان يصدر كتبه دون تحرج ، وأذكر أني

تعرضت بعد المحنة إلى التفسير البياني المعاصر في كتاب (خطوات التفسير البياني) وخفت أن أذكر اسم سيد قطب صراحة فتصادر مراكز القوى نسخ الكتاب ، ولكني اجتهدت في أن أعلم القارىء بما لا أستطيع ذكره فقلت ص ٣٣٩ ما نصه :

(وكان عليّ أن ألم ببعض رسائل الماجستير والدكتوراه مما أخرجته المكتبة الحديثة لمن اتبعوا القول في بعض النواحي البيانية ، ولكن يمنع من هذا الإلمام أن لدينا كتبا معروفة كشفت البيان القرآني على أكمل وجه وأبهاه ، ولكن يضيق المجال عن الحديث عنها ، وقد اختلس بعض الكاتبين كثيرا من حقائقها دون أن يشيروا إليها ، ولن يكون الحديث أمينا صادقا عن التفسير البياني المعاصر إلا إذا عرف الآخذ والمأخوذ ورجع كل حق إلى صاحبه دون انتقاص ، فإلى مجال فسيح) .

هذه أربع نقاط تقف أمام ما حكاه الأستاذ عبدالمنعم ، وبقي بعد ذلك أن نترك الوقائع التاريخية إلى البحث الفني في صميمه ، فنتساءل أكان عمل سيد قطب تطبيقا لنظرية الأستاذ الخولي في التفسير الأدبي للقرآن أم أنه منها بمكان بعيد ! لقد كان على الأستاذ عبدالمنعم - وهو الجامعي الأمين - أن يطبق نظرية أستاذه على ما كتبه الأستاذ سيد قطب ، ليطمئن على حكمه الأدبي ، وإذا كان قد أهمل ذلك فلابد أن ندرس هذه الناحية في حيدة أمينة وله أن يعقب عليها بما يشاء .

لئن كان الأستاذ الخولي قد كرر الحديث عن صلة الأدب بنفسية قائلة ، وعن وجوب الاهتداء بدراسة علم النفس لإضاءة بعض الأسرار الأدبية ، فليس سابقا مبتكرا ، لأن العقاد والمازني وشكري ونعيمة وغيرهم قد اتبعوا القول في ذلك . والأستاذ طالب ناشيء في مدرسة القضاء الشرعي ! فالاتجاه النفسي في الدراسات الأدبية المعاصرة لدينا في مصر قد سبق وجوده الأدبي في كلية الآداب بسنوات كثيرة ، وتلك ناحية هامة نقررها حين ننقل عن الخولي ما أراده بصدد هذه الدراسات ، وبالرجوع إلى ما كتبه تحت عنوان (المنهج الأدبي في التفسير) ص ٣٠٧ من كتابه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب) نجده يقرر أن هذا المنهج يقتضي أن نتناول القرآن موضوعا موضوعا لا قطعة قطعة ، وعلى هذا الأساس ـ كما يقول الأستاذ ـ يكون منهج التفسير الأدبي صنفين من الدراسة ، وهذان الصنفان هما (أ) دراسة ما حول القرآن (ب) دراسة في القرآن ، فدراسة ما حول القرآن تشمل ما دار حوله من بحوث تتعلق بالنزول والجمع والقراءة ، ثم تتجه إلى دراسة البيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها القرآن ، وكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية وبكل ما يتصل بالبيئة المعنوية من تاريخ سحيق وتاريخ معروف ، ونظام الأسرة والقبيلة والحكومة إلى ما يتجه هذا الاتجاه ، أما دراسة القرآن نفسه فتبدأ بالنظر في

المفردات وتدرج دلالات الألفاظ وتفاوت هذا التدرج بفعل الظواهر النفسية والاجتماعية وعوامل الحضارة ، ثم ينتقل المفسر الأدبي من المفردات إلى المركبات) .

هذه هي خلاصة المنهج الأدبي للتفسير ، وقد أوجزتها الدكتورة الفاضلة بنت الشاطيء حين قالت في مقدمة (التفسير البياني للقرآن الكريم) ما نصه ص ١٤ من الطبعة الثانية .

(والأصل في منهج التفسير الأدبي كما تلقيته عن شيخي هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما في القرآن عنه ، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب ، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك ، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعا من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه الى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية) .

وإذن فهذا هو مذهب الدراسات الأدبية للقرآن كما حدده الأستاذ الخولي وحاولت الدكتورة الفاضلة بنت الشاطيء أن تطبقه ، فهل هو ما انتحاه الأستاذ سيد قطب في تفسيره وفي كتاب التصوير ؟ لننظر في غير عجلة متريثين .

إن كلام الأستاذ عبدالمنعم شميس يوحي بأن صنيع الأستاذ سيد قطب في كتاب التصوير الفني قد جاء تطبيقا

لمذهب أستاذه ، وإذا كنا قد أجملنا خصائص مذهب الأستاذ الخولي ، فليقرأ الأستاذ شميس ما حكاه سيد قطب عن مذهبه في التصوير الفني حين قال :

(التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلا الى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع ، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف ، والمتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، انها الحياة وليست حكاية الحياة) .

وقد توالت فصول الكتاب لتتحدث في هذا المجال عن القصة القرآنية والمنطق الوجداني ، ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية ، وتشخيص المعاني الذهنية لينتهي المؤلف إلى أن (التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن) .

فهل هذا المنحى ما عناه الأستاذ الخولي حتى جاء الأستاذ قطب ليقوم بالتطبيق ؟ ليجب الأستاذ عبدالمنعم إذا شاء أن يتمسك بما قال !

وقد قام جدال خصب حي بين الأستاذ المؤمن عبدالمنعم خلاف والأستاذ سيد قطب حول اتجاه المؤلف في عدّه التصوير أداة مفضلة في التعبير الفني ، إذ يرى الأستاذ خلاف أن العقيدة تحتاج إلى اقناع ذهني لا إلى تصوير فني ، وقد رد الأستاذ قطب بما يدل على أن الإقناع يأتي من طريق التصوير فلا شطط ولا اختلاف ! والحوار في صميمه قد أضاف جديدا إلى معطيات الأستاذ قطب ، حين كتب تفسيره الرائع في ظلال القرآن ، حيث لم يجعل اهتمامه خاصا بالتصوير الفني وحده ، بل اتجه معه إلى كتاب الله ليرى الوجود الإنساني في صفحته أكبر من حقيقته ، وليحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون كما أبدعه الله وليرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشريّة ، وليعلن أنه لا مجال في هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة

العارضة ، وأن المنهج القرآني موضوع للمدى الطويل الذي يعلمه خالق الإنسان ، لا يحده عمر فرد ، ولا تستحثه رغبة فان ، بل يسير هينا لينا مع الفطرة يقومها حيث تميل) .

هذا هو الجودي الذي رست عليه سفينة الداعية الشهيد ، وإذا أراد الأستاذ عبدالمنعم شميس أن يصل إلى الغاية دون عناء من بحث موازن ممتد ، فليقرأ تفسير سورة من سور القرآن كما كتبتها الدكتورة بنت الشاطيء متبعة منهج شيخها وداعية إليه ، ثم ليقرأ تفسير هذه السورة نفسها في ظلال القرآن ليجد نفسه مندفعا إلى ترديد قول الشاعر القديم :

الشرق منزلنا ومنزلهم
غرب وأين الغرب والشرق ؟!

فإذا تركنا الحديث عن الصلة المزعومة بين الأستاذين أمين الخولي وسيد قطب الى الحديث عن الصلة الحقيقية بين الأستاذين عباس محمود العقاد وسيد قطب ، فاننا نعرف أن الأديب الناشيء سيد قطب الطالب بدار العلوم كان في نشأته الأولى موضع تقدير العقاد واحتفاله ، وكان انتاجه الأدبي يظهر في احتفاء في الصحف الأدبية التي كان العقاد يشرف على تحريرها ، أو يسهم في ذيوعها كالبلاغ الأسبوعي وروزاليوسف والجهاد ، وكان قطب من الاستعداد الطامح بحيث استطاع أن يهضم ما يؤلفه

العقاد من شعر ونثر ، وأن يتجاوز الهضم الدقيق إلى التأثر الفعلي في الانتاج الأدبي شعرا ونثرا كذلك ، ثم امتلأ بأستاذه امتلاء جعله يتحدث عن مذهبه الأدبي كاتبا ومحاضرا ومؤلفا ، وله مع العقاد إذ ذاك صحبة ثرية نافعة عرفها الأدباء جميعا ، ثم شاء الأستاذ سيد قطب أن يخوض معركة طاحنة حول العقاد والرافعي على صفحات الرسالة استغرقت أكثر شهور سنة ١٩٣٨ ، وكان معارضوه من ذوي النباهة كاسماعيل مظهر ومحمد أحمد الغمراوي وعلي الطنطاوي ومحمد سعيد العريان ومحمود محمد شاكر كل هؤلاء جميعا يقفون في وجه قطب وحده ! وكان له من الجدة والاعتداد والشجاعة ما جذب إليه الأنظار في قوة ! وكان قطب في هذه الآونة لا يرى في شعر العقاد أو نثره موضعا لغميزة ، فهو وحده زعيم الأدب في العالم العربي ، ولا يمكن أن يقاس به أحد من معاصريه ، وشعره هو الشعر ، ولا شعر غيره يرتفع إلى مستواه ، وماذا تقول في أكثر من خمسة وعشرين مقالا تهتف بالعقاد في إعجاب ، فهو يقول مثلا في المقال السادس من العدد ٢٥٧ من مجلة الرسالة ، السنة السادسة ١٩٣٨ :

« يخطيء الذين يحاولون أن يدرسوا العقاد ، وكل محصولهم من الثقافة كتب لغوية درسوها وكتب أدبية فهموها من آداب اللغة العربية ، فليس العقاد أديب لغة وأديب أسلوب حتى تكفي اللغة ويكفي الأدب الخالص في

فهمه ، ولكن نتاج العقاد مجتمع ثقافات ودراسات قديمة وحديثة ، عربية وغير عربية ، مصهورة في بوتقة طبيعية ممتازة ، ونفس رحبة ، وذهن مشرق ، ومواهب تنتفع بالثقافة ، وتعلو على حدود الثقافات ، ولقد رقيت إلى محاولة استيعاب العقاد وأفلحت إلى مدى على درج من دراسات شخصية جمة ، وليست دراسة الأدب العربي ولا اللغة العربية إلا أولى خطواتها ، دراسات تشمل كل ما نقل إلى اللغة العربية على وجه التقريب من الآداب الافرنجية قصة ورواية وشعرا ، ومن المباحث النفسية الحديثة ، نظريات العقل الباطن والتحليل النفسي والمسلكية ، ومن المباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة ومن صاحب علم الأحياء بقدر ما استطعت ، وما نشر عن دارون ونظريته ومن مباحث الضوء في الطبيعة ، والتجارب الكيماوية ومما استطعت فهمه عن انشتين والنسبية ، وعن بناء الكون وتحليل الذرة وعلاقته بالاشعاع) .

هذا بعض ما أهّل به سيد قطب نفسه ليدرس العقاد ، وإذا كان العقاد جبار الثقافة دون منازع ، فانه قد أورث تلميذه شرهًا للمعرفة لا يحد ، وهو صادق حين يذكر هذه الفروع الدقيقة في اطلاعاته ، لأنه يزور أستاذه في مكتبته الخاصة ويرى سعة معارفه ، فلابد أن يجاريه ما استطاع ! ويالها من همة !

ويقول في المقال الرابع عشر من العدد (٢٦٥) من مجلة الرسالة)

(ليس الحب الفنى ولا التعبير عنه من السهولة كما يتصورهما الكثيرون من ناشئة الشعراء ، ومقلدي النقاد ، إنما هو عمل عسير في الاستيعاب والتصوير ، وما تقرأ لتسعين في المائة من الشعراء إلا ضحكات وابتسامات أو صرخات وآهات يحسبونها غاية ، لا تقل إنني أحب أو أتعذب وأتألم ثم تحسب نفسك شاعرا حتى تقول لنا انني أحب على لون خاص ، واستمتع بالحب بطريقة خاصة ، أو أتعذب وأتألم على لون من ألوان العذاب والآلام ولا تقل أنني أطلب الجمال وتسكت فلابد أن تبين لنا ما نوع الجمال ؟ وما المعاني التي يشعها فيك هذا الجمال ، وماذا تفهم من الصلات بينه وبين غايات الحياة الكبرى ، والعقاد وحده في الشعر العربي كله هو الذي يقول لنا هذا في عمق ودقة وقصد ، وبأوضح وأصح ما يستطاع ، وأقول في الشعر العربي كله وأنا أعني ما أقول ، فما يوجد شاعر واحد يجتمع له في شعره العربي ما اجتمع للعقاد وتتوفر في نفسه هذه الأوتار المتعددة التي يوقع عليها الحب هذه النغمات كلها ، ويخرجها هكذا واضحة سليمة) .

والمبالغة واضحة لدى القاريء المنصف ، ولكن سيد قطب كان يعبر عن حقيقة يعتقدها ، ولا يرى بها أدنى مبالغة ، ولو رجع إلى ما كتب العقاد عن ابن الرومي لوجد

أستاذه يرى فيه من الخصائص الشعرية ما أنكره التلميذ حين سحب حكمه على الشعر العربي كله في القديم والحديث ، ولا نحب أن نستطرد إلى استشهادات أخرى يغني بعضها عن بعضها ، بل نقول إن سيد قطب كان في هذه المرحلة يرى العقاد كل شيء وكفى .

ثم والى العقاد اصدار كتبه المتتالية ، فكان الأستاذ سيد قطب لا يترك منها مؤلفا - شهد الله - دون أن يخصه بالتحليل والشرح ، تحدث عن العبقريات وعن الصديقة بنت الصديق وعن عرائس وشياطين وعن شاعر الغزل وعن هذه الشجرة في مقالات نقدية كلها إطراء وتقدير ، غير اشارة عابرة في حديثه عن ديوان (أعاصير مغرب) توحي بما يشبه النقد المقنع حين ذكر الأستاذ سيد قطب أن العقاد يعيش دائما في حالة صحو ، فهو يقول الشعر متيقظا دون تهويم ! وهذا كلام له خبيء لأنه يشير إلى تسلط الذهنية على شعر العقاد ، في كثير من أبوابه ، وقد سكت عنها العقاد دون تعقيب .

ثم جمع الأستاذ سيد قطب مقالاته فيما سماه (كتب وشخصيات) وكتب عنه الكثيرون في الرسالة والثقافة والكتاب والبلاغ والأهرام ، وكان قطب يحب أن يسمع رأي العقاد ، فلم يتح له ما أراد ، ولا شك انه طوى الضلوع على مستكنة من الألم النفسي ، ثم أخرج كتاب التصوير الفني في القرآن وهو اكتشاف لا تأليف ، حيث وفق فيه إلى ابداع فني كاد به أن يصبح ذا نظرية أصيلة في فن النقد

الأدبي ، وانتظر أن يسمع رأي العقاد ، دون طائل ، أقول ذلك اعتمادا على شكوى صريحة جهر بها الأستاذ سيد قطب بعد سنوات بالعدد (٦٣٣) من مجلة الثقافة الصادرة بتاريخ ١٠ / ٩ / ١٩٥١م حيث قال تحت عنوان إلى أستاذنا الدكتور أحمد أمين :

(ودعوني أصارحكم بتجربتي الخاصة ، التي تركت في نفسي ذات يوم مرارة ، ومن أجل هذه المرارة لم أكتب عنها من قبل ، حتى صفت روحي منها ، وذهبت عني مرارتها ، وأصبحت مجرد ذكرى قد تنفع وتعظ ، لقد كنت مريدا بمعنى كلمة المريد لرجل من جيلكم تعرفونه عن يقين ، ولقد كنت صديقا أو ودودا مع الآخرين من جيلكم كذلك ، لقد كتبت عنكم جميعا بلا استثناء شرحت آراءكم ، وعرضت كتبكم ، وحللت أعمالكم قدر ما أستطيع ، ثم جاء دوري ، جاء دوري في أن أنشر كتبا بعد أن كنت أنشر بحوثا ومقالات وقصائد ، لقد جاء دوري في نشر الكتب متأخرا كثيرا ، لأني آثرت ألّا أطلع المئذنة من غير سلم ، وأن أتريث في نشر كتب مسجلة حتى أحس شيئا من النضج الحقيقي ، يسمح لي أن أظهر في أسواق الناشرين .. فماذا كان موقف أستاذي ؟ وماذا كان موقف جيلكم كله ، ماذا كان موقف جيل من الشيوخ لا من هذا الكتاب وحده - يريد التصوير الفني - بل من الكتب العشرة التي نشرتها حتى الآن ! أراجع كل ما خطته أقلام هذا الجيل كله عن عشرة

كتب فلا أعثر إلا على حديث في الإذاعة لفقيد الأدب المرحوم المازني ، وإلا إشارة كريمة للأستاذ توفيق الحكيم في أخبار اليوم) .

وإذن فقد سكت العقاد ، وتألم قطب ، فما تعليل ذلك ؟ إن الأستاذ عبدالمنعم شميس يذهب إلى أن الأستاذ العقاد كان يرى أنه العبقري الأوحد ولا عبقري سواه ! لأن النرجسية سيطرت عليه فاعتقد أنه العملاق ، ولذلك سكت عن تقدير تلميذه سيد قطب !! ولو كان العقاد يرى أنه العبقري الأوحد ما تحدث بافاضة عن كتب زملائه الشيوخ من أمثال محمد حسين هيكل وعبدالقادر حمزة والمازني وأحمد حسن الزيات وأحمد لطفي السيد حديث المعجب المقدّر فضلا عمن دونهم من شباب المتأدبين لعهده ونحن نعد منهم ولا نستطيع أن نعدهم جميعا فسقطت علّة الأستاذ عبدالمنعم ، وبقي أن نبحث عن علة أخرى ، وقد فكرت في هذا الموقف ما فكرت ، فبدا لي أن من طبيعة العقاد حين يتحدث عن علم من أعلام الأدب في الشرق والغرب أن يخلط النقد بالتقريظ ، فلابد أن يجد ملاحظة يقولها مما تراه العين الفاحصة ذات المجهر الدقيق ، وهو يعلم طبيعة تلميذه المتحفزة التي لا تصبر على نقد ، فآثر السكوت كيلا يثور عليه تلميذه ، والحق أن في طبيعة قطب كثيرا من طبيعة العقاد ، فكلاهما لا يستكين لتوهين ، وما كان حبهما المشترك حينا طويلا من الدهر إلا لاتفاقهما في أكثر المواهب والخلال ، وأنا لا أدافع عن العقاد ، فقد

يعلم الله أني أحب الشهيد سيد قطب لدرجة تقرب من التقديس وحسبه أن بذل روحه فـداء الحق وأنفة من الطغيان ، ولكني أتخيل ما عسى أن يقف بمثل العقاد عن الإشادة بمريده العبقري ! وهو مما يحسب عليه مهما وجد المبرر الصريح .

ولا أعجب من شيء عجبي من ذكر النرجسية في هذا السياق ! لقد كانت زلة من الأستاذ عبدالمنعم أغضبت جل قرائه ، مهما نشر مقاله بعيدا عن مصر ، لأن العقاد أصبح من مفاخر الناطقين بالضاد جميعا في الشرق والغرب ، ويؤلم الكثرة الكاثرة منهم أن يعيبه كاتب ما بما ليس فيه ، وإذا كان تلاميذ الأستاذ الخولي يستنكرون أن يذمه ناقد متعجل ، فإن الذين يرون العقاد حلقة في سلسلة عباقرة العربية من أمثال الجاحظ والمعري وابن خلدون وشوقي - وما أكثرهم في القارئين - يرون أن الكاتب قد جانب الصواب في تسرعه العجيب .

محمد عبده في مرآة عثمان أمين

كانت الفترة الثانية لتولية الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي مشيخة الأزهر الشريف هي فترة الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله .. إذ أن الحديث عنه في هذه الحقبة قد ازدهر وأينع وأثمر ، فالإمام المراغي يسير في الإصلاح الديني على نهجه ، والمقالات في الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية ترسل الثناء الضافي على المفتي الراحل بعد أكثر من ثلاثين عاما على رحيله ، وطلاب الأزهر في الجامعات والمعاهد يقرءون تاريخ الأستاذ الإمام مبهورين بزعامته وإمامته ، ويرون في المراغي تلميذا ساهرا على تعاليمه ، والشيخ الأكبر لا يني يتحدث عن أستاذه الإمام في الإذاعة والأهرام والرسالة ومجلة الأزهر ، وفي خطبه التي يلقيها في شتى المناسبات ، بل إنه في حفلة تكريمه الكبرى التي أقامها الأزهر ابتهاجا بعودته ، وزخرت بصفوة الأمة من العلماء والأمراء والوزراء ورجال القلم ، قد خصص جانبا للإشادة بفضل الأستاذ الإمام حين قال فيما قال : (ومن الحق أيها السادة علينا ألا ننسى في هذه المناسبة والحديث حديث الأزهر والأزهريين ـ ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور ، الذي نهتدي به في حياة الأزهر العامة ، ويهتدي به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل لم تعرفه مصر إلا بعد أن

فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده .. رحمه الله وطيب ثراه !
وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة ، ومن الوفاء بعد مضي هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر ، أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل ، فهو الإمام المجلى المتفوق ، وعين الماء الصافية التي نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التي نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير[1]» ، هذه الفترة المزهرة في إحياء ذكرى الأستاذ الإمام ، قد سبقتها فترة مظلمة جديبة ، ذكر فيها النبهاء والأدعياء وامتلأت الصحف بأنباء الزعماء وغير الزعماء دون أن يتردد للأستاذ الإمام محمد عبده صدى يذكر . وهو إمام الجيل ، ومجدد الإسلام في عصره ، حتى أسف لهذا الإهمال الجاحد تلميذه البار الوفي الأستاذ الأكبر مصطفى عبدالرازق ، وسجل لومه الآسف في مقدمة رائعة كتبها لرسالة (الإسلام والتجديد في مصر) لتشارلز آدمس ، التي ترجمها الأستاذ عباس محمود ، ووكل تقديمها إلى الاستاذ مصطفى عبدالرازق فقال فيما قال[2] :

(في بعض سنوات الحرب ، شهدت في الجامعة المصرية ، قبل ضمها إلى وزارة المعارف حفلة جمعت جمهرة من شباب العلم ، وخطب فيها طائفة من كبار الأدباء ، وكبار

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس ٣٥٤ هـ ص ٢٨٨ .

(٢) مقدمة عبدالرازق لكتاب (الاسلام والتجديد في مصر) (هـ) .

الأساتذة ، وكان يجري على ألسنة الخطباء ذكر أئمة النهضة الحديثة في مصر ، في فروعها المختلفة من سياسية ، واجتماعية ، وعلمية ، فتهتف الجموع ، ويبلغ حماس الشباب أقصاه ، حتى إذا جرى ذكر الشيخ محمد عبده ، خفت هنالك صوت الشباب ، وفترت حدة الهاتفين ، انصرفت يومئذ محزونا حسيرا ، أكاد أتهم بقلة الوفاء بلدا ينسى فيه فضل الشيخ محمد عبده بعد سنين ، ولكن عتبي على شبابنا كان ممزوجا برحمة ، لأنهم لم يعرفوا من أمر الرجل شيئا يغريهم بأن يحبوه وأن يقدروه قدره ، ولعل قصارى ماكان يعرف طلاب العلم في ذلك العهد من أمر الإمام أنه كان شيخا مكروها هو وآراؤه من الشيوخ ، كما يكره الشيوخ المنار ، وصاحب المنار تلميذ الإمام ، ملأت هذه الخواطر نفسي ، ودفعتني إلى الخطابة والكتابة في سيرة الشيخ محمد عبده وما يتصل بسيرته وآثاره ووجهته في الإصلاح) .

عهدان مختلفان في موقفهما من الشيخ ، وقد قدر لجيلي الأزهري أن يبدأ دراسته الدينية في مفتتح عهد المراغي وأن يرى حديث الأستاذ الإمام على كل لسان ، وأن يقرأ المقالات عنه في صحف كثيرة ، ومجلات شتى ، يقرؤها لأساتذة كبار كالعقاد والزيات ومنصور فهمي وعبدالله عفيفي وعبدالوهاب النجار وابراهيم الهلباوي وأمين الخولي وأحمد أمين وعلي عبدالرازق وعلي سرور الزنكلوني ، غير أن

اسم عثمان أمين قد أخذ يقترن بالأستاذ الإمام في مقالات تتباعد وتتقارب ، حتى حسبنا أن الكاتب ممن عاصروا الإمام وشافهوه ، ثم علمنا أن عثمان أمين مدرس ناشيء بكلية الآداب ، وقد رجع وشيكا من بعثته العلمية بباريس بعد أن نال درجة الدكتوراه في بحث علمي أعده عن الأستاذ الإمام ! لقد انتظرنا أن ينال هذه الدرجة عن المصلح الكبير أزهري من أمثال الدكتور محمد البهي أو الدكتور عبدالله ماضي ممن ذهبوا في بعثة تحمل اسم الشيخ محمد عبده ! ولكن باحثا جامعيا من كلية الآداب كان صاحب هذه الحظوة ؟ فكيف انجذب إلى دائرة الأستاذ الإمام ؟! .

لقد كان من حظ عثمان أمين أن يحظى بالتلمذة على يد الأستاذ مصطفى عبدالرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة وتلميذ الأستاذ الإمام بالأزهر ، وقد كان مصطفى عبدالرازق في خلقه الأمثل ، وسمته الأكمل ، وعلمه المتواضع وحيائه النبيل ، وجوده السخي من أكمل المظاهر الإنسانية في الوجود البشري ، وقد كان فيلسوفا بسلوكه قبل أن يكون فيلسوفا بعلمه ! فيلسوف أخلاق ومثل ، لا فيلسوف تعريفات وتجريدات ومحترزات ، ولو جاز لمصلح أن يبعث في هذا القرن على سمت بشري رائع ، ما تعدى سمت مصطفى عبدالرازق ! ومن خلق مصطفى العالم أن يتوارى خلف السابقين في كل ما يقرر ، فهو يطالعك بنصوص جيدة مستورة ، أحسن استخراجها

وتحليلها وتوجيهها ليعزوها إلى أصحابها ناسبا اليهم فضل ما تحتويه ، وكأنه لم يكابد رهقا في العثور عليها في أنأى المظان ، وفي إكتشاف ما يغيب من مطوياتها البعيدة ، وأولو العلم يعرفون عناء الرجل ، وإيثاره وزهده وتستره ، وأولو التسرع لا يدركون غوره البعيد فيظنونه ناقلا فحسب ! هذا الأستاذ الملائكي كان دائم الاستشهاد بمحمد عبده علما وخلقا ، وكفاحا ونضالا ، وفقها فجذب تلاميذ الفلسفة بالجامعة إلى الأستاذ الإمام ، وكان في طليعة من تأثروا بمحمد عبده من تلاميذ مصطفى صاحبنا عثمان أمين ، وكان يعشق أستاذه مصطفى عشقا مثاليا ، وارتقى إحساسه بأستاذه فرآه في صورة الأستاذ الإمام ، أو رأى الأستاذ الإمام في صورته ، والنتيجة واحدة :

ومن دلائل هذه العلاقة الأصيلة بين مصطفى والأستاذ عثمان التلميذ ، أن أول مقال كتبه عثمان أمين عن محمد عبده كان معارضة لرأي مصطفى عبدالرازق في علاقة الأستاذ الإمام باللورد كرومر ، إذ ذهب مصطفى عبدالرازق في مقال كتبه بمجلة الشباب (١٧ / ٢ / ١٩٣٦) تحت عنوان (أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده) مذهبا غريبا حين ذكر أن صداقة الإمام للأميرة المثقفة نازلي فاضل قد ساعدت على مهادنته للإنجليز هذا ما ظنه الأستاذ مصطفى ودوّنه في مقاله ـ وكان عثمان بباريس لا يزال يعد لنيل الدكتوراه فكتب في مجلة الرسالة يقول إن عداوة الخديوي لمشروعات

الإصلاح الديني التي اقترحها الأستاذ الإمام ، وقيام طائفة من ذيول المعية في الأزهر بمهاجمة محمد عبده وتجريحه في صحيفة يومية أنشأها الخديوي خاصة بثلب الشيخ ، وتتابع الدسائس الخديوية لاحراجه ، كل ذلك قد دفع محمد عبده إلى طلب العون من كرومر ليستطيع تنفيذ برنامجه الإصلاحي ، وليست الأميرة نازلي فاضل ذات شأن ما في هذا الاتجاه ،يقول الأستاذ عثمان أمين بعد أن بسط هذه المشاكل بسطا كاشفا :

(نرى مما تقدم أن الشيخ محمد عبده لم يصادق الإنجليز عفوا ، ولا إرضاءً لهواه ، بل ألجأته إلى ذلك الظروف ، كان يريد الإصلاح حقا ، ولم يكن بمقدوره أن يمضي في إصلاحه ، وأهل الجمود والتقليد يقيمون في وجهه العراقيل ، ويحيكون من حوله الدسائس ، فكان طبيعيا اذن ، أن يلتمس موافقة الانجليز ، وكان لهم حينئذ النفوذ الفعلي في البلاد[٣] .

وما قاله عثمان أمين في هذا المقال هو ما أكده الأستاذ عباس العقاد فيما بعد بمنطق نافذ لا يقبل اللجاج ، وما نظن إلا أن الأستاذ مصطفى عبدالرازق قد سعد بتعقيب تلميذه ، فقد ذهب إلى باريس ليحضر مناقشة رسالته عن الأستاذ الإمام وليعلن فرحته به في كتاب نشره الأستاذ

---

(٣) مجلة الرسالة العدد (١٩٠) ٢٢/٢/١٩٣٧ السنة الخامسة

عثمان أمين بالرسالة ثم أعاده في مقدمة كتابه (رائد الفكر المصري محمد عبده) .

قلت إن ازدهار الحديث عن محمد عبده في الصحف والمجلات قد جذب أنظار الشبيبة إليه بعد إغفاء ، وما أنكر أن السيد محمد رشيد رضا قد ألّف ثلاثة أجزاء ضخام في تاريخ الأستاذ الإمام ، ولكني أتحدث عن نفسي وعمن هم في مثل دراستي المتبدئة بالأزهر إذ ذاك ، حين يرون ضخامة الأجزاء الثلاثة بخطها الضيق وأسلوبها الجاف وسردها الرتيب فيضيقون بها متطلعين إلى مقالات عصرية مبوبة ذات رونق واستهواء ، واشراق وصفاء . لقد كنت أخالني أمام جبل وعر ، يسد مهب الريح في كل وجهة ـ كما يقول ابن خفاجه ـ حين أهم بقراءة ما كتب السيد رشيد ، وإذا حاد عنه المراهقون من طلبة القسم الابتدائي بالأزهر ، فإن له النخبة المختارة من العصبة أولي القوة ، ولنقنع نحن بمقالات الأدباء ، وفصول الدارسين .

عاد الدكتور عثمان أمين من باريس ليتحدث في مقالات متصلة عن الأستاذ الإمام ، وكانت مجلة الثقافة أفقه الفسيح الذي يحب أن يسطع فيه ، ولا أنكر أنه نشر بالرسالة والأزهر والأهرام والكتاب ومجلة الإذاعة وغيرها عن محمد عبده ولكن (الثقافة) قد فازت منه بأكبر نصيب ! فعلى صفحاتها اتسع له ميدان التحليل التاريخي لمواقف الأستاذ الإمام ، وعلى صفحاتها هوجم كتابه (محمد عبده)

الذي صدر في سلسلة أعلام الإسلام مهاجمة قاسية من الشهيد الأستاذ سيد قطب ، اعتصم ازاءها المؤلف بالصمت ، إذ طوى كشحا على مستكنه ـ كا يقول زهير ـ ولعل القاريء يستشرف ليعلم بعض ما كان .

كان الشهيد الأستاذ قطب ينحاز لمدرسة العقاد في كتابة التراجم الذاتية ، إذ يرى طريقة العقاد وحدها هي التي تضيء معالم الحياة في نفس المتحدث عنه ، فهي توقف القاريء على مفتاح الشخصية الذي يصل به إلى شتى الدروب والمنعرجات في الباطن العميق للإنسان ، وما الأخبار المدوّنة ، والحوادث اليومية المسجلة إلا وسيلة للاهتداء إلى هذا المفتاح السحري الذي يسلط الضوء على خوافي المسارب وغواشي المنعرجات ، فلابد أن يكون كاتب الترجمة ذا طاقة إنسانية تساعده على فهم النفوس المختلفة ، وذا طاقة فنية تساعده على تصوير ما يفهمه من آمال المتحدث عنه و آلامه ومواجده وأشواقه ، وهذا النمط من الكتابة لا يتهيأ إلا لأفذاذٍ رضي عنهم الشهيد الاستاذ سيد قطب كل الرضا ، وعمد إلى تهجين كل ترجمة لا تنحو هذا المنحى النفسي المصور وطبيعي أن يكون كتاب (محمد عبده) الذي كتبه الاستاذ عثمان أمين بمنأى عما يريد من مثل فنية في تراجم الأشخاص ، لقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن كتاب عثمان أمين فقال :

(لقد جمع المؤلف طائفة صالحة في هذا الكتاب من أخبار

الأستاذ الإمام وأقوال بعض إخوانه وتلاميذه عنه ، وآراء بعض من عاصرهم أو قابلهم من الشرقيين والغربيين فيه ، تمد مَن يريد الكتابة عن محمد عبده بمادة صالحة للكتابة . ولم يكد يتجاوز هذا في كتاب عنوانه (محمد عبده) .

ونحن نعتقد مخلصين أن الإنسان ليس هو الحوادث والأخبار ، إنما هو استجاباته لهذه الحوادث ، ودلالة هذه الاستجابة على نفسيته وطبيعته ، وليست تعنيني أخبار إنسان كائنا من كان إلا بمقدار ما أعرف من هو هذا الكائن ، وإلا بمقدار ما أجد فيها مفتاح شخصيته وطبيعة نفسيته .

وشيء من هذا لم يتعرض له مؤلف (محمد عبده) إلا لماما ، إذ كان همه موجها إلى جمع طائفة من أخبار نشأته ، تعليمه وأسفاره وأعماله ، ... ولا أريد أن أقللّ من أهمية جمع هذه الأخبار والأقوال ، فهي المادة الضرورية للدراسة وجمعها هو الخطوة المبدئية ، ولكن الوقوف عند هذه الخطوة تقريبا لا يجعل هذا العمل بحثا ، ولا ترجمة ، ولا صورة حياة ولابد من الخطوة التالية ، وهي تنسيق هذه الحقائق وتلوينها ، واستنطاق هذه الحوادث وتحليلها ، وتوجيهها جميعا لاحياء الشخصية المدروسة وكشف دخائلها النفسية ، ومنحها العنوان المميز لها من بين الشخصيات) .

ويسير المقال النقدي على هذه الوتيرة المعارضة حتى ينتهي بقول الشهيد رحمه الله :

(إن موضوع محمد عبده لا يزال في حاجة إلى الدراسة على نحو جديد ، وإن كان الدكتور عثمان أمين يستحق الشكر لجمعه هذه المادة الخامة من المؤلفات المتفرقة ، والصحف الموزعة ، فقد هيأ لمن يكتب عن محمد عبده جزءا قيما من مواد الدراسة ، ووضع لبنة في هذا العمل تذكر له[٤] .

والحق أن سيد قطب رحمه الله كان ينشد مثلا فنيا أرفع ، هذا المثل في رأيي لا يصلح إلا للحديث عن بطل مشتهر قد عرفت سلفا كل مواقفه كمحمد رسول الله أو كعمر بن الخطاب أو كعليّ بن أبي طالب فمهمة الكاتب حينئذ أن يتخذ من هذا المعروف طريقا لاكتشاف المجهول ، وقاريء عبقرية محمد للعقاد لا يفهمها على وجهها الصحيح إذا لم يكن قد أحاط بسيرته صلى الله عليه وسلم في كتاب إخباري كنور اليقين للخضري مثلا ، ثم جاء إلى كتاب العقاد ولديه خلفية عن المتحدث عنه ، أما عثمان أمين فيريد أن يقدم حياة محمد عبده لمن يعرفه بصورة عامة ولمن لايعرف عنه شيئا ، فجهده هنا ـ في رأيي ـ ضروري ، هذا إلى أن لكل كاتب موهبته واهتمامه ، وسيأتي بزاد للقاريء يختلف لا محالة عن زاد غيره ، فتتنوع الطعوم والمآكل ولكل طاعم أن يشبع مما يحب !! .

على أن حديث الشهيد سيد قطب عن كتاب عثمان أمين قد

---

(٤) مجلة الثقافة : السنة السادسة العدد ٣٠٥ ـ ٣١/١٠/١٩٤٤م .

وجد مَن يعارضه في أدب ودقة لينصف المؤلف من ناقده الصارم ، فقد قام الناقد الحصيف الأستاذ محمد عبدالغني حسن بالدفاع عن المؤلف دون أن يشير إلى الشهيد سيد قطب ، فقدم الكتاب بمجلة الرسالة تقديما طيبا ، ثم قال مدافعا :

(وليس كتاب محمد عبده عملا أدبيا يضع صاحبه في مرتبة الأدباء ، وأظن المؤلف لم يقصد إلى هذا من وراء كتابه ولا عناه ، ولكنه عالم مشتغل بالفلسفة ، أراد أن يرسم للقرّاء صفحة واضحة من حياة رجل اشتغل بالحياة الفكرية الفلسفية فكان علما من أعلامها .

ومن هنا أخطأ الذين لاموا عثمان أمين على طريقته في كتابه ، ووجه الخطأ أن المؤلف استعرض تاريخ رجل كما كان ، لا كما يريده المؤلف أن يكون ، فهو يعرض الحوادث ويسوقها في تسلسل وحسن ربط ، وصحة عبارة وسلامة أسلوب ، وهذا قصارى المؤلف في تاريخ الرجال ، ومادام المؤلف قد بلغ بذلك العرض قصده من التعريف بحياة المترجم له ، فلا يعنينا أن نبحث عن (مفاتيح الشخصية) التي يتحدث عنها بعض النقاد في هذه الايام ، وما حاجة المؤلف الواضح أن يصطنع المفاتيح ، ويتكلف البحث عنها ، ويدعي لنفسه فضل العثور عليها مادامت الشخصية التي يتحدث عنها سهلة التناول ، واضحة

للقاريء ، لا يجد فيها عناء ولا نصبا[٥] .

وبعد أن دافع الأستاذ عبدالغني حسن عن صاحبه ، أخذ عليه عدّة مآخذ جيدة ، منها أنه لم يشر إلى المراجع التي وردت فيها أقوال من استشهد بهم ، وهو مأخذ تلافاه الدكتور عثمان أمين في كتابه التالي عن (محمد عبده رائد الفكر المصري) وقد يكون الدكتور عثمان مضطرا إلى اغفال هذه المراجع خضوعا لمن أشرفوا على نشر السلسلة وقدروا لها حجما محدودا من الصفحات ، وبتدوين المراجع في أسفل كل صحيفة قد يضطر الناشر إلى حذف بعض الفصول ، كما وقع لزميل فاضل قص علي حديثه في ألم .

وبعد أن أصدر عثمان أمين كتابه عن محمد عبده في سلسلة أعلام الاسلام سارع فنشر رسالة الدكتوراه عنه باللغة الفرنسية ، ومن لي بقراءتها ؟! وإذا كان فاقد الماء مضطرا إلى التيمم ، فقد قرأت ما كتب عنها بالعربية ، ووقفت طويلا عند ما خطه الأستاذ يوسف كرم بمجلة الكتاب ، فأنا أعرف فيه دقة وحذرا وأمانة ، وقد قال عن الرسالة الجامعية فيما قال :

(إنها مستفيضة دسمة ، عالج فيها المؤلف مسائل دقيقة عسيرة بمقدرة فائقة تشهد بتضلعه من الفلسفة والكلام ، وقد كان موفقا كل التوفيق في إبرازه لخاصيتين أساسيتين عند الشيخ ، هما أخذه بالنظر العقلي في جميع

---

(٥) مجلة الرسالة ، السنة الثالثة عشر العدد ٦٠٨ - ٢٦/٢/١٩٤٥م .

مواقفه ، واقتصاره في هذا النظر على المفيد في العمل ، شأن المصلح يتعجل النتيجة ويحترق شوقا إليها ، غير أننا نرى أن المؤلف قد غلا بعض الغلو في التقريب بين وجهة الشيخ ، ووجهة أصحاب البرجماتزم ، وهو يقرب بينهما في مواضع كثيرة ، فإن هؤلاء يتهمون النظر العقلي في ذاته ، ويزعمونه عاجزا كل العجز عن إدراك الحقيقة ، فلا يأخذون إلا بالنتيجة العملية مجردة عن كل تدليل على حين كان الشيخ مقتنعا بضرورة النظر ، داعيا إليه ، مدافعا عنه ، وكل ما هنالك أنه كان يرى القصد في النظر ، والاقتصار على البيّن منه النافع للناس) .

أخذت مقالات عثمان أمين تتلاحق عن محمد عبده في شتى المجلّات الأدبية والإسلامية ، فهو يكتب عن إصلاحه وفلسفته وصوفيّته وأثره في التربية والأخلاق ، ثم جمع ما كتب في مؤلف مستقل ، ظهر تحت عنوان (الإمام محمد عبده رائد الفكر الحديث) وكنت قبل قراءتي إيّاه أظنّه صياغة جديدة لا تمت إلى هذه المقالات المنشورة إلا بالفكرة العامة ذات الغرض المتحد ، ولكني وجدته جمعًا لما نشر من قبل دون تنقيح ملموس ، وهي عجلة لا ضرورة لها من المؤلف حين يتطلب الموقف أن يميل إلى آرائه ببعض التعديل ، لاسيما والتكرار واضح في بعض الفصول ، وقليلون هم الذين يعتصمون بالصبر فيراجعون ويحذفون ويزيدون حتى ليتحوّل الكتاب في طبعته

الأخيرة كتابا جديدا إذا قرن بما كان ، ولعل الأستاذ محمد عبدالله عنان أحد هؤلاء الصابرين المناضلين ، فقد دأب على تنقيح ما يظهر من طبعات كتبه وفق ما يجد له من الآراء وما يتركه من الأفكار ، وأذكر أني اضطررت إلى شراء الطبعة الأخيرة من كتابيه (مواقف حاسمة) (ومصر الاسلامية) مع أن الكتابين لديّ في طبعتيهما الأولى ، لما طرأ عليهما من تجديد كادا يتحولان به إلى شيء جديد ! ولكن الدكتور عثمان أمين قد نقل ما سبق أن نشر على أبعاد فوقع في بعض التكرار ، وقد يعذر فيما كرر لأنه بالنسبة إلى الأستاذ الامام داعية مثابر ، والتكرار إحدى وسائل الدعاة .

على أني وقفت على شيء لم أجد له تعليلا شافيا ، فقد نشر الدكتور فصلا تحت عنوان (الامام وإصلاح الأزهر) ووضع في هامشه مراجع طبعت سنة ١٩٤٩ ، وسنة ١٩٥٥م ، مع أن هذا الفصل عينه قد نشر بمجلة الرسالة العدد (٤٠٦) بتاريخ ١٤ ابريل سنة ١٩٤١ أي قبل أن تطبع هذه المراجع الملحقة بنحو من عشر سنوات ؟ فإذا كان الرجل قد كتب ما كتب قبل ظهور هذه الكتب فلم عدّها من المراجع ، وأشار إليها في الهوامش مما يشعر القاريء أنه استمد حديثه منها ؟ أيكون ما جاء في هذه الكتب قد وافق قوله ـ وهو كذلك لا محالة ـ فأحب أن يعدها من مراجعه !! لقد كنت أوثر ألّا يفعل ذلك ، بل يكتب ما يفيد

ظهور مراجع جديدة تلتقي معه في طريق واحد ! وهذا هو المنهج الصحيح .

بدأ الدكتور كتابه بمقدمة جيدة أعجبني ما جاء فيها من قوله إنه تنحى قصدا عن مسلك نفر من المؤلفين ، يعرضون لآراء من يتحدثون عنه فلا يتركون منها موضوعا إلا وقد أوسعوه طعنا وتجريحا ، لأنه لا يرى نفعا في ذلك التجريح ، بل يحسب أن تاريخ فكر ما هو نفسه عبارة عن نقد ضمني للمذاهب الفكرية السابقة عليه فليس له أن يخصص صفحات في هذا البحث لنقد نظرات الإمام في الفلسفة أو الدين أو الاجتماع مكتفيا بتوضيح آرائه وحدها ! ومادام الرجل معجبا بصاحبه فله أن يكتفي بالتفسير دون الانتقاد ، ولسواه ألّا يكتفي بما اكتفى به فلكل مؤرخ منحاه الخاص .

وبعد ، فهل لي أن أشير إلى ملاحظات يسيرة لم أشأ السكوت عليها فيما قرأت من فصول هذا الكتاب فأقف عند هذه النقاط وقوف من يتساءل ، لا من يخطيء ، فقد يكون للدكتور ملحظ لا أدريه .

١ ـ أكد الدكتور عثمان أمين أن رسالة الإمام في الاصلاح الاجتماعي رسالة خلقية أولا قبل أن تكون دينية ، وقد كرر ذلك فيما كتبه تحت عنوان (الإصلاح الأخلاقي) ص ١٤١ مبتدئا بقوله :

(ذكر أغلب من كتبوا في سيرة محمد عبده أن أهم رسالة اضطلع بها ذلك الإمام هي الإصلاح الديني الاسلامي ،

وهذا الرأي حق ، ولكن إلى حدّ ما ، فإذا التمسنا الحقيقة في نشاط ذلك المصلح المصري وإذا تأملنا على الخصوص مدى تعاليمه ، وحاولنا أن نفهم روح الرجل وعقليته ، وأن نستشف ما وراء السطور فيما جرى به قلمه أدركنا حينئذ أن كل إصلاح خطر بباله إنما مداره دواع وأسباب خلقية) .

وقائل هذا الكلام يفهم ـ على ما خيل لي ـ أن الإصلاح الديني في الاسلام شيء والاصلاح الخلقي شيء آخر ، ولعله متأثر بما دعا إليه الفيلسوف الفرنسي (دوركايم) حين نادى بفصل الأخلاق عن الدين ومحاولة تعليلها تعليلا عقليا بحتا ، ولئن جاز هذا عند (دوركايم) لأمور لاحظها في دين أمته ، فإن الدين الاسلامي قد ارتكز على أسمى الأخلاق الإنسانية ، وجاء داعيا إليها ، بحيث لا يعقل أن تنفصل عنه في شيء ، فمحاولة إيجاد فرق ما بين مدلول الاصلاح الديني والاصلاح الخلقي في الاسلام محاولة تحتاج إلى تصحيح حاسم ، وقد كان محمد عبده ذا خلق رائع لأنه يستمد عناصر خلقه من دينه ، وما كان أغنى الدكتور عن تلمس فرق لا وجود له إلا أن يكون قد قاس الإسلام بسواه ، وكيف ؟

٢ ـ أصر الدكتور فيما كتبه تحت عنوان (محمد عبده الفيلسوف) ص ٥٥ على ما قاله في رسالته الجامعية من أن فلسفة محمد عبده بدأت تأخذ شيئا فشيئا طابعا

براجماطيقيا عمليا ، وكان الأستاذ يوسف كرم قد خالفه في ذلك فيما نشره بمجلة الكتاب ، وأبدى وجهة نظر صائبة ، فإذا كان الدكتور عثمان لم يوافق عليها ، فلم لم يفندها ؟ وكيف كرر قوله دون دفع لما اعترض به عليه ؟ والاعتراض قائم يتطلب النقد ! وإذا كان محمد عبده قد التزم بالقرآن قولا وتطبيقا ، فلم لا يكون اتجاهه العملي من وحي القرآن الكريم ، وصدى لمنهجه العملي في النفع والتوجيه ! وإذا اتفق مع البرجماتية في اتجاهه العملي فهو اتفاق الطبائع الواقعية الصحيحة ! دون استهداء واحتذاء .

٣ ـ ذكر الدكور عثمان أمين في الباب الرابع أبرز مَن تأثروا بالإمام من تلاميذه فجعل قاسم أمين ممثلا للمدرسة الاجتماعية ، وسعد زغلول ممثلا للمدرسة السياسية ، والأحمدي الظواهري ممثلا للمدرسة الدينية ، ومصطفى عبدالرازق ممثلا للمدرسة الفلسفية ! وموضع النقد الصارخ هو تجاهل المراغي وإغفاله في الحديث عن المدرسة الدينية ، وهو أولى ممن ذكرهم جميعا بتمثيل الإمام في شتى اتجاهاته ، وإن الصغير قبل الكبير يعلم أن إصلاح الأزهر قد تم في عهد الظواهري تنفيذا للقانون الذي تقدم به المراغي في مشيخته الأولى سنة ١٩٢٨ ورأى القصر رفضه ، فبادر المراغي باستقالته وقامت العواصف تبعا لذلك فحاول القصر أن يهدئها ، ولم يكن أمامه غير تنفيذ قانون الإصلاح كما رسمه المراغي في مذكراته التي استقال بعد

موقف القصر منها ! فياليت شعري كيف يتصدى الدكتور عثمان أمين للحديث عن الإصلاح الأزهري وهو يغفل هذه البدائه ، فيقول : « وفي سنة ١٩٣٠ وفي عهد مشيخة الظواهري أعيد تنظيم الأزهر فأنشئت الكليات الأزهرية الثلاث وغيرها ... » وكل الناس يعلمون أن المراغي هو المفكر المصلح !؟ وإذا كانت روح الأستاذ الإمام محمد عبده قد ظهرت بوضوح في كل ما جاء في مذكرة المراغي فلماذا لا ينسب الفضل إلى ذويه ! أؤكد أني لا أعترض على أن يخص المؤلف الشيخ الظواهري بحديث يوضح جهوده ، ولكن أعترض على أن ينسب إليه ما لسواه وأن يهمل أكبر تلاميذ الإمام ، وممن ؟ من أستاذ جامعي متخصص ؟

٤ ـ ذكر الأستاذ عثمان أمين ص ٢١٩ أسماء من تأثروا بمحمد عبده من المصلحين في سوريا فعدّ من بينهم الأستاذ محمد زاهد الكوثري ! ويا لله من هذا السهو الخطير ، فالأستاذ زاهد الكوثري تركي جركسي لا علاقة له بسوريا ، وقد تولى ، وكالة المشيخة الإسلامية العثمانية في عهد الخلافة ، وأغرب ما في الأمر أنه من كبار الساخطين على تجديد الإمام محمد عبده ، وقد دأب على نشر المقالات المهاجمة له حتى آخر يوم في حياته رحمه الله ! والسؤال المحير حقا ؟ كيف كتب اسمه الدكتور عثمان دون أن يعلم عنه شيئا ؟ لقد علق الكوثري على كتاب لابن الجوزي وطبع الكتاب بدمشق ، فأصبح الرجل سوريًا لمجرد طبع

الكتاب ، كما يفهم من الهامش الذي ذكره الدكتور عثمان !! ولكن كيف أصبح في رأيه من أنصاره وهو معارضه اللدود ؟ ومقالاته بين أيدينا ؟

لقد كان الدكتور عثمان أمين قوة عاملة في ميادين شتى ، وقد ترك من الآثار العلمية والفلسفية ما يرفع قدره ، ويجدد ذكره ، ثم انتقل إلى رحمة ربه في عهد تحفظ فيه حقوق النابغين ، ففاضت الصحف برثائه ، ونشط المنصفون إلى تقديره في مقالات عاقلة أمينة فكان أسعد حظا ممن سبقوه في عهد قريب فلم تتحدث عنهم إلا نقود عائلاتهم في صحيفة الوفيات حديثا تحسب قيمته المالية بالحرف والكلمة والسطر ، ومن هؤلاء في مضمار الفلسفة وحدها أبو العلا عفيفي ومحمد مصطفى حلمي ومحمد غلاب ومَن غابت عني أسماؤهم ، وعسى أن تكون الإشارة إليهم داعية إلى انصافهم الأكيد ، فذلك واجب يقع على تلاميذهم ، وهم كثيرون .

بين هيكل وشوقي

أذكر أني قرأتُ مقالا طريفا للدكتـور سعيد عبـده ـ لا أدري زمانه ومكانه الآن ـ ولكني أعلم فحواه ، فقد ذكر الدكتور فيما ذكر أنه قرأ في جريدة السياسة نقدا شديد اللهجة لقصيدة قالها شوقي ، وكان الناقد العنيف هو الدكتور طه حسين ، فكتب الدكتور سعيد عبده ردًّا على طه ، وذهب به إلى الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة ، فقرأه مبتسما ، ثم قال لصاحبه ، إنه لا يستطيع أن ينشر النقد ، لأن طه حسين عنيف صعب لا يقبل أن يعارضه أحد على صفحات السياسة ، وتصادف أن قابل الدكتور سعيد أمير الشعراء ، فعلم بما كان من امتناع الدكتور هيكل عن النشر ، فغضب ، وطلب المقال من سعيد ، واتجه به الى الدكتور هيكل ثائرا ، فحاول استرضاءه ، ووعده أن ينشر المقال ! إذ أنّ شوقي كان يخص السياسة ببعض قصائده ، فتلقى رواجا تحسد عليه ، فإذا امتنع عن النشر بها فذلك عقاب يؤلم ويسيء ، لاسيما إذا كانت الحظوة لجريدة منافسة تنشر الشوقيات فتجد الرواج ، وقد نُشر المقال فعلاً ، ومعه تعقيب للدكتور طه ، إذ لا يجوز أن يكون في جريدة السياسة نقدٌ له دون أن

يشفع بما يعصف به ، ومهما يكن من شيء فقد استطاع الأديب الناشيء أن يهاجم الأسد في غابه المنيع .

دهاء شوقي

وبعض الناس يظنون أن صداقة شوقي للدكتور هيكل هي التي جعلته يؤثر السياسة بفرائده الشعرية ، والحق أنه اضطُرّ الى ذلك اضطرارا ، إذ أن من الجرائد اليومية كالأهرام ما هو أكثر رواجًا من جريدة الأحرار الدستوريين ، ولكن السياسة كانت تثقل على شوقي بنقدات جارحة لبعض أنصار المذهب الحديث ، فأراد أن يطفيء من حدتها بالتقرب إلى رئيس تحريرها ! وهذا ما فطن إليه الأستاذ العقاد حين تساءل كيف يُعزّي شوقي هيكلا في ولده بقصيدة رنانة ! ولا يُعزّي أمين الرافعي في ولده !! وكيف نظم قصيدةً في مدح أحمد حافظ عوض بمناسبة كتاب ألّفه دون أن يهتم بكتب أخرى تفوق ما كتب صاحب كوكبِ الشرق ؟!

يقول العقاد[1] : « إن شوقي ما برح يحتال على الصحف اليومية منذ سنة ليسكتها ، أو ليسير بها في زفة التكريم والتهليل ! لقد كرّم صاحب كوكب الشرق في داره ، ثم مات لمحرر السياسة (يقصد الدكتور هيكل) ولدٌ فرثاه بقصيدة ، فهل لمحبة كان ذلك ، أو لحزن أو لصدق في العزاء ؟ كلا !

---

(١) الصحافة السياسية ، للأستاذ أنور الجندي ، ص (٥٢٧) .

لو كان مثل شوقي يخلص العزاء لإنسان ، لعزى الأستاذ أمين الرافعي في ولده الفقيد ، وهو الذي كان يلازمه في جريدة الأخبار ، والأستاذ الرافعي أحق بالعزاء لأنه رجل نكب في ماله وفي جسمه وولده ، وأشرف على الشيخوخة ، ولكنّ شوقي هذا ، لا يفهم ذلك المعنى من معاني الصداقة والوفاء ، شوقي يعرف أن الأخبار قد احتجبت بعد الذيوع ، وأن السياسة لاتزال تظهر ، ويقرأها القارئون فمحررها إذن يُعزّي بشعره ، ومحرر الأخبار لا يستحق العزاء » .

قصيدة شوقى فى ولد هيكل

جعل شوقي عنوان قصيدته (البنون والحياة الدنيا) وقد افتتحها بوصف اللوعة التي تتقد في الضلوع ، والدمعة التي تطرد في الخدود ، وقال للوالد والوالدة الثاكلين إنهما ليسا وحيدين في مصابهما ، إذ لم يُعاف قبلهما والدُ ولا ولد ، وقد سار الذاهبون فما علم أحد أشقوا أم سعدوا ؟ وانتقل إلى الحديث عن معزة الأبناء فذكر أنهم دمنا وحياتنا ، ولا تلذّ مثلهم مهجة ولا كبد ، وهم فتنة إذا صلحوا ، محنة إذا فسدوا ، شاغل إذا مرضوا ، فاجع ، إذا فقدوا ، جرحهم لا يلمه الضماد ، ولا يجدي به العزاء ، ثم فرغ للدكتور هيكل فذكر أنه ليث المعركة ، وصاحب القلم الصارم كالسيف ، وهو الناقد الأريب ، ومثله لا يجهل

مشيئة القدر ، وسلطانه على الحياة ... هذا بعض ما قاله شوقي حين هتف بصاحبه .

قـــــل لهيكـــــل كَلِمَـــــا
من ورائهـــــا رشـــــدُ
لم يشب مهــــذبهـــــا
بــــاطــــل ولا فنـــــذُ !
قـــــد عجبتُ من قلم
ثـــاكـــلِ وينجــــرد
أنت ليث معـــــركــــة
وهــــو صــــارم فــــرد
والسيــــوف نخـــوتهـــا
في الـــوطيس تتقّــــد
أنت نــــاقــــد أرب
والأديــــب ينــتـقــد
مـــا تقـــول في قــــدر
بعض سنّـــه الأبــــد
وهـــو في الحيـــاة عــلى
كــــل خـــطوة رصــــد
ينــــزل الـــرجـــال عـــلى
حكمـــه وإن جحـــدوا
القضــــاء معضلة
لم يحلّهــــا أحـــــد

وتمضي القصيدة على سننها الهاديء ، وفي بحـرها القصير ، وموضع الصنعةةفيها واضح ، فهي لا تصدر عن لوعةٍ يحسّها الشاعر ، ولكن عن عقل حكيم ، درس الأيام مُدْبرةً ومُقبلة ، فمال إلى العزاء ودعا إلى الصبر ثاكلا وثاكلة يتلمسان السلوى فلا يجدان .

مقدمة الشوقيات

وحين جمع شوقي الجزء الأول من ديوانه ، طلب إلى الدكتور محمد حسين هيكل أن يكتب مقدمته ، ولم يتردّد هيكل في تلبية طلبه ، بل لعلّه سرّ وابتهج ، لأن ديوان شوقي مقروء مهما اختلفت وجهات النقد في تقديره ، وستطبع الشوقيات على توالي العصور ومصـدّرة بهذه المقدمة فمن الذي تتاح له فرصة الذيوع الأدبي المتميّز ثم يرفضها ! وليس معنى ذلك أن هيكلا يحتاج إلى شوقي كي يبقى اسمه ذائعا على توالي العصور ، فإن لهيكل من الآثار الأدبية الرفيعة ما يتيح لاسمه معنى البقاء الأدبي ، ولكنّ الشوقيات ستكون أشد التماعا فيما يأتي من الأجيال من أيّ أثر معاصر ! فشوقي هو شوقي ! وقد كتب الله لشعره أن يجلجل ويرن وتتجاوب به الأجيال ! إن شوقي كالمتنبي ، وقد عاش بسببه أناس كانوا نجوم عصر واحدٍ فحسب ، ولكنّ ما قاموا نحو شعره من شرح أو نقد أو جمع قد جعل لهم بقاءً متجدداً ! إن نحويّا كالعكبري قد تردّد صيته في دنيا

الأدب بسبب المتنبي ، ولولاه لظلّ خافت الصدى فلا يذكر إلّا بكتبه النحوية فحسب ، وهيهات ، أن تنتشر انتشار ديوان المتنبي ، فكم مرّة طُبع شرح العكبري لديوانه مقيسا بكتابه (إملاء ما منّ به الرحمن في إعراب القرآن) مثلا!! إن الدكتور زكي مبارك يذكر في مجلة الرسالة أن شوقي دعاه إلى كتابة مقدمة ثانية للشوقيات ، وأنه اعتذر فلامه الدكتور طه حسين ! كما سيأتي تفصيل ذلك .

ماذا قال زكى مبارك ؟

يقول زكي مبارك[1] « كانت الصلة قوية بيني وبين شوقي سنة ١٩٢٥ ، وكان شرع في طبع الشوقيات فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة لاأزال أذكر نصها بالحرف : سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية ، وستكتب أنت مقدمة أدبية » وبعد أيام تلطف فأهدى إليّ ما طبع من الجزء الأول مصححا بخطّه الجميل لأكتب ما أريد ، ورجعت إلى نفسي فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق ، وذلك ما يجمل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي مع شاعر لايزال في الميدان ، وأسرعت فكتبت إليه خطابا قلت فيه : إني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء لأني أخشى أن أقول كلاما يصدّني عن نقده إن رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد ، وهو ـ بارك الله

(١) مجلة الرسالة : العدد (٤٤٣) ٢٩/١٢/١٩٤١م .

في عمره ـ لا يكف عن مساورة الشعر في صباح أو مساء .

وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع فغضب أشد الغضب ، وقال : ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ! ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ! لو طلب شوقي مني ما طلب منك ـ وأنا خصمه ـ لاستجبت بلا تردّد فشوقي في رأيي هو أعظم شاعر عرفته العربية بعد المتنبي » .

هذا ما قاله مبارك ، وأنا أسجله لا لكي أصدّقه ، بل لآخذ منه دلالة كبرى على أهمية المقدمة الأدبية لديوان كالشوقيات ، أما أني لا أصدّق ما قال الدكتور زكي فلأني أستبعد أن يطلب شوقي منه سنة ١٩٢٥ وهو لايزال في دوره الأدبي الأول أن يكتب مقدمة ديوانه ، كما أستبعد أن يطلب المقدمة ـ جدلا ـ ثم يرفض الأديب الطامح الشاب !! أما ما ذكره من خوفه أن يترفق بالشاعر فهو أعجب وأغرب لأن زكي مبارك قد ترفق بشوقي كثيرا كثيرا فيما كتبه عنه في الموازنات الشعرية بينه وبين من عارضهم من كبار الشعراء أمثال البحتري وابن زيدون وأبي نواس والبوصيري ، وقد قال في مناسبة ما ، إنه قبض من شوقي ثمن هذا الترفق مالاً كان في أشد الاحتياج إليه !؟ فلم يخاف الترفق هنا ؟ أمّا المضحك كثيرا فهو قول زكي مبارك إن الدكتور طه حسين قد غضب أشد الغضب لأن زكيا رفض

كتابة المقدمة ! والدكتور طه لا يغضب إلا لنفسه فحسب ! وقد أسقط تلميذه أكثر من مرّة في امتحان الليسانس ، فكيف يشتد غضبه ، بل كيف يغضب مجرد الغضب ! أنا لا أستكثر على زكي أن يكون مقدما لشوقي بالنظرة إلى غده ، ولكني أستكثر أن يقدمه سنة ١٩٢٥ وهو في خطواته الأولى نحو الابداع .

عودة الى مقدمة هيكل

لقد كتب الدكتور هيكل مقدمة الشوقيات ، فبدأها بمقدمة سياسية اجتماعية تصور الحالة المصرية منذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر حتى بزغ نجم شوقي ، ثم تعرض إلى نشأة الشاعر الأدبية والسياسية بما هو ذائع مشتهر حتى خلص الى الحكم على شعره ، فذكر أن قاريء شوقي يحس أمام ديوانه أنه يقرأ لرجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر إلّا أن كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر إلى عليا سماواته ، وأن كليهما مصري يبلغ حبه مصر حدّ الاعتزاز و الفخر ، أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر ، أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان يقدس أخوة المسلمين ، ويجعل من دولة الخلافة قدسا تفيض عليه شئونه وحوادثه وحي الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها ، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل

معنى ، ولكل فكرة ، ولكل خيال ، والآخر رجل دنيا يرى المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها ، متسامح تسع نفسه الإنسانية ، وتسع معها الوجود كله ، ساخر من الناس وأمانيهم مجدّد في اللغة لفظا ومعنى ، وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر .

ثم قال هيكل ما ملخصه : ولا تقل ان الازدواج النفسي شأن الشعراء ، فأبو نواس قد مدح الخمر مبالغا ، ثم دعا إلى الحكمة الزاهدة مستغفرا ، فأبو نواس ليس مزدوجا ، بل صاحب نفس واحدة تدفعها الملذات فتهيم في واديها واصفة فنونها المغرية ، ثم يدركها الندم فتصرخ صرخات التوبة والاستغفار ، ولكنّ شوقيا يقدم صورتين من صور الحياة تقوم كل منهما مستقلة كأنما صاحبها غير الآخر فشوقي حين قال :

رمضان ولى هاتها يا ساقي
مشتاقة تسعى إلى مشتاق

غير شوقي حين قال :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

وهذان الروحان تتجاوران في نفس شوقي وتصدران عنها ، ثم يتساءل كيف جمع شوقي هذا الازدواج ، فكان

شاعر الحضارة الاسلامية بإيمانها وشاعر الحياة الغربية بقلقها ؟ ويجيب على تساؤله بأن شوقي كان شابا نشأ في باريس يستجيب إلى رسالة الحياة ، ثم قدّر عليه أن يتصل بأمير البلاد فحتم عليه ذلك أن يكون المعبر عن آمال المسلمين ومشاعرهم فاجتمع في نفسه في أول حياته ميله للحياة وحبه إياها ، وحرصه على المتاع بها مع إيمان المسلمين جميعا ، وحرصهم على وحدتهم وعلى كيانهم بإزاء الأمم الغربية التي كانت تنظر إليهم بعين صليبية بحتة ، وكانت هذه الناحية التي تمثلتها نفسه من ظروف الحياة ، ومن البيئة المحيطة به أكثر استيحاء لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه ، فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر فيصبح جنديا باسلا ويتفوق في كل مواقف الحرب حتى يصير قائدا ، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيته صديق النعمة ، السعيد بها غاية السعادة[1] .

هذا لباب ما قاله هيكل ، وهو كلام يتسع للأخذ والرد ، والدفع والجذب ، وقد دفعه كثير من النقاد بما يكاد يعصف به ، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين .

نقد الدكتور طه حسين

ذكر الدكتور طه أنه قرأ مقدمة هيكل فلم يظفر فيها

---

(١) مقدمة الشوقيات (ملخصة من صفحات : هـ ، و ، ز ، ح ، ط) .

بمذهب شوقي في الشعر ، وذلك لأن أمير الشعراء ليس له عقيدة شعرية حتى يفصح عنها هيكل ، والحرج في رأي الدكتور طه ظاهر في المقدمة كلها ، وإن شئت فقل إن المجاملة ظاهرة ، إذ استغرق هيكل جزءا ليس بالقصير ليقول إن شخصية الشاعر ثنائية مزدوجة فهو مؤمن ، وهو محب للذائذ الحياة ، أو قل زاهد ومستمتع معا ، ولكنه أعرض عن شيء كان جديرا ألَّا يغفله في منطق طه حسين ، أعرض عن الصناعة الشعرية التي تظهر للشعراء شخصيات مختلفة ولاسيما في أدبنا الحديث الذي لا يمثل نفس الأديب لأنه ليس طبيعيا ، وإنما يمثل تكلّفه ورغبته في إرضاء القراء ، فهؤلاء الشعراء الذين ينظمون في الحكم والأخلاق إنما يريدون أن يتأثروا المتنبي أو أبا العلاء فشخصيتهم هذه الزاهدة الحكيمة مصنوعة تتكلف ، كما أنهم حين يتغنون بالخمر ويتهالكون على وصفها إنما يتأثرون أبا نواس والأخطل فشخصيتهم هذه الماجنة مصنوعة ، وهم حين يمدحون الرسول يريدون أن يتأثروا البوصيري فشخصيتهم هذه مصنوعة ، فهم لا يسلكون طريقا من الشعر إلا مقلّدين مقتادين ، ومن هنا كان من الحق على مؤرخ الآداب ألّا يغلو في اتخاذ ما يصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن يقدّر تأثير التكلّف وتملق الجمهور والأفراد .

فازدواج الشخصية الذي يلمحه هيكل في رأي الدكتور

طه لا يدل في حقيقته إلّا على أن أمير الشعراء يقلّد المؤمنين والمستمتعين كما يقلّد غيرهم من أصحاب الشعر[1] .

تعقيب كاشف

والحق أن التقليد الذي عناه الدكتور طه ويسمّى أحيانا بالمعارضة لا يدل على التكلّف في كل موضع ، فإذا أراد شاعر كشوقي أن يمدح الرسول مثلا ، واختار لنفسه أن يسابق البوصيري في هذا المجال ، فإن إخلاصه الواضح لنبيّه هو الذي دفعه إلى المعارضة ، وقد وجد لديه ما يقوله مفصحا عن ذات نفسه ، والمعارضة في هذا المجال لا تنفي الصدق للتعبير عن عواطف النفس ، أمّا التكلّف فهو أن يصف الشاعر شيئا لا يحسّه ولا يعنيه لأن شاعرا سابقا قد وصفه ، ولا نظن شوقيا لم يحسّ بلوعة الفراق حين قال سينيته الأندلسية معارضا البحتري حتى نقول إنه تكلّف المعارضة تكلفا ليقرن بالشاعر العباسي ، كما لا نظن أنه افتعل عواطفه في الحنين إلى مصر من الأندلس ليقال أنه عارض ابن زيدون !! فالمنطق الصائب في تقدير المعارضات أن نبحث عن ناحية الصدق لدى المعارض ، فإذا كان القائل ذا باعث حافز فلا يهمنا إذن أن يجيء الشعر على وزن سابق أو لا يجيء ! قد يكون في بعض المعارضات افتعال كاذب لأن صاحبها أراد السبق دون صدق فنيّ ، وليس كل معارضات

---

(١) حافظ وشوقي ص ١٤ للدكتور طه حسين طـ ١٩٧٣م .

شوقي من هذا الطراز ،فالدكتور طه في رأيي قد امتد بالحكم إلى جميع المعارضات ، وكان حقه أن يبحث عن دافع المعارضة النفسي ، وأن ينظر إلى صلة الموضوع وانتمائه إلى نفس القائل ، وهنا يتبين الانفعال من الافتعال !

أمّا أن هيكل قد جامل شوقي في بعض ما قال فذلك ما لا شك فيه لأن لهيكل آراء فيما ينبغي أن يكون عليه الشعر المعاصر ، قد لا تجد تطبيقها الدقيق في كثير مما قال شوقي ! وهو في مقام التقديم لم يستطع أن يشير إلى ذلك ، ولكنه في مجال آخر آخذ الشعراء بالقصور ـ ومن بينهم شوقي ـ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى العصر وظلّوا دائرين في حلبة السابقين ، لقد كرر هذه المعاني في كتابه النقدي (ثورة الأدب) إذ حكم بأن الشعر المعاصر لم يسابق النثر المعاصر إلى الخطوات التي سبق بها النثر ، وعرض لما يقال عن أسباب ذلك من جمود الشعر عن أوزان العرب ومعانيهم وقوافيهم ، وعجزه عن مجاراة الهزات الشعرية التي تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر إلا في أبيات تتخلّل القصيدة أحيانا دون أن يتصل مجرى الإبداع .

يقول الدكتور هيكل : « وليس القصد من الشعر في رأينا هو هذه الأبيات الفذة ، وليس هو محاكاة الأقدمين ، وإنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب

النفس ، وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع ، أو تهبط وتهبط ، وأنت مندفع معها ، منساق وراءها ، متلذذ باندفاعك وانسياقك ، تلذذك بصوت المغنّي ، أو نغمة الموسيقي ، وكما يسبقك المغني إلى القرار أو السمو الذي تنساق إليه نفسك طائعة مختارة ، يجب أن يسبقك الشاعر في فيض الحسّ أو الشهوة أو العاطفة ، وأن يشعرك من ذلك اضعاف ما تشعر به لو كنت وحدك ، وكلّما بلغ الشاعر من ذلك مدىً بعيدا ، وكلما استوت له من ذلك النفوس جميعا ، اقترب من ذروة مجد الشعر وغزر له فيضه[1] .

عدد السياسة الاسبوعية

حين اجتمعت الكلمة على مبايعة شوقي بإمارة الشعر رأى الدكتور محمد حسين هيكل أن تخرج مجلة السياسة الأسبوعية عددا خاصا بشوقي يتيح الفرصة لكبار الباحثين أن يسجلوا آراءهم الفنية في أمير الشعر بهذه المناسبة .

يقول الدكتور زكي مبارك[2] : « كانت (السياسة الأسبوعية) في تلك الأيام توجه التيار الأدبي في مصر ، وفي

---

(١) ثورة الادب ص ٥٣ ، وهناك آراء صائبة لهيكل في حقيقة الشعر وجوهره أفردلها زميلنا الأستاذ الدكتور ابراهيم عوضين بحثا ضافيا بالعدد الثاني من مجلة اللغة العربية بالمنصورة. ما بين ص ٥ ، ص ٣٨ فالتراجع .

(٢ ، ٣) الرسالة العدد (٤٤٣) ٢٩ / ١٢ / ١٩٤١م .

سائر البلاد العربية ، وكان اصدار عدد خاص عن شاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف ولكن شوقي لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيرا أو قليلا من مقام أمير الشعراء » .

وقد أشار الدكتور مبارك إلى أن شوقي رأى من حقه أن ينظر في محتويات العدد الخاص به فأشار بحذف مقالات كان منها مقال زكي مبارك نفسه لأنه استكبر عليه فلم يكتب مقدمة الشوقيات !! وأنا والله في حيرة من هذا القول ، لأن المعروف أن شوقي قد غضب على هيكل وأوْحى لنفر من الكتّاب بمهاجمته المتصلة لأمور ذُكرت في عدد الاحتفال ! فكيف يتأتى غضب شوقي مع قيامه بالمشورة وإسهامه بالرأي فيما ينشر ويُهمل ؟ وإذا كان قد أشار بإهمال مقال زكي مبارك فاستجيب لـه ، فلم لم يشر بإهمـال مقالات خصومه الكبار فيستجاب له أيضا !! إن المعروف عن هيكل أنه ذو عزة وكرامة ، وما كان لمثله أن يعنو لشوقي إذا استباح لنفسه أن يقدم مقالا ويؤخر سواه ، وأين هو إذن !!

الحق اني لا أفهم ذلك كلّه ، وبخاصة إذا كان الدكتور مبارك قد واصل القول فقال[٣] :

« غضب شـوقي عـلى ذلـك العـدد من (السيـاسـة الأسبوعية) وكان شوقي إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب ، فمضى أولئك المرتزقة يقولون في الدكتور

هيكل ما تسمح بنشره الوريقـات المتّسمة زورًا بـوسم الجرائد والمجلات ، فكتب الدكتور هيكل في (السياسة الأسبوعية) مقاله المأثور (أخلاق شاعر الأخلاق) وهو مقال فصّل فيه ما كان بينه وبين شوقي ، وتوعّده توعدا أليما ، فقد نصّ على أن شوقي لن يظفر مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال » .

وجدير بالذكر أن الدكتور هيكل قد أصدر عـددا من السياسة الأسبوعية خاصا بحافظ ابراهيم ، ولكن بعد أن لحق شاعر النيل بربّه ، فحفظ للشاعرين الكبيرين مكانهما فيما أشرف عليه من أعداد ! وهكذا كان الرجل الكبير ناقدا مؤرخا وكاتبا منصفا ، ومفكرًا ذا مروءة وشمم واستعلاء رحمه الله .

ولقد ذكرتك

أكثر الكتب المدرسية تختار لشاعر الأقطار العربيـة خليل مطران قصيدة المساء في مجال التدليل على عبقريته والإشادة بتجديده ، والقصيدة رائعة حقا ، ولكن كثرة الاستشهاد بها دون نظائرها الرائعات مما يسيء إلى الاساتذة المؤلفين إذ أولعوا بالترديد المتكرر حين ينقل السابق عن اللاحق ، وأخال أكثر هؤلاء الأفاضل حين يتحـدثـون عن الشعـراء لا يـرجعـون إلى دواوينهم المشتهرة ، بل يتذكرون ما حفظوه أيام الدراسة فينقلونه من الذاكرة في غير عناء ، وربما تفضلوا بنقـل الشرح

المحفوظ أيضا ! وهو داء يتطلب العلاج .

أقول ذلك لأن أكثر الأدباء يحفظون قصيدة المساء من عهد الدراسة ، وهي قصيدة تجمع بين وصف الألم الجسمي والألم النفسي أو قل إنها تصف ألما جسميا سببه ألم نفسي ، وقد عناهما الشاعر الكبير حين قال :

يـــاللضعيفين استبــــدا بي ومـــا
في الـــظلم مثـــل تحكم الضعفـــاء
قلب أذابتــــه الصبـــابــــة والجـــوى
وغــــــلالـــــــة رثت من الأدواء
والـــــروح بينهمـــــا نسيم تنهـــــد
في حـــــالي التصـــويب والصعـــداء
والعقـــل كـــالمصبـــاح يغشى نـــوره
كـــدرى ويضعفـــه نضـــوب دمـــائي

وبعد أن توجه الشاعر العاشق بالخطاب الى حبيبته ليتحدث عن عمريه اللذين وهبهما إياها ، عمر الفتى الفاني بجسمه وعمر الأدب الباقي على الزمن مخلدا حديثها العاطر ، أخذ يصفها الوصف الحي الذي تمتزج فيه الأحاسيس الرفيعة بما يوميء إليها من مظاهر الكون ، ثم انتقل الى تشريح خوالجه الدفينة حين تفرد عن الناس بصبابته وكآبته شاكيا إلى البحر اضطراب خواطره فيرد عليه بالريح الهائجة العصوف ، ثاويا على صخر أصمّ يتمنى لو يرزق قلبا في مثل قسوته ، وتغلغل بنظره الفلسفي

إلى الغروب وما به من عبرة للمستهام ، إذ كان نزعا للنهار وصرعة للشمس بين مآتم الأضـواء ، وطمسا لليقين ، وبعثا للشك ، ومحوا للوجود إلى مدى محدود حتى يكون البعث الجديد في الصباح ، والقصيدة على عمقها الدقيق من أوائل ما نظم الشاعر في الجزء الأول من ديوانه وقد ختمها بقوله المبدع :

ولقـــد ذكـــرتـــك والنهـــار مـــودع
والقلب بين مهـــابـــة ورجـــاء
وخـــواطـــري تبـــدو تجـــاه نـــواظـــري
كلمى كـــداميـــة السحـــاب ازائي
والـــدمع من جفني يسيـــل مشعشعـــا
بسنى الشعـــاع الغـــارب المتـــرائي
والشمس في شفق يسيـــل نضـــارة
فـــوق العقيق عـــلى ذرى ســـوداء
مـــرت خـــلال غمـــامتين تحـــدرا
وتقـــطرت كـــالـــدمعـــة الحمـــراء
فكـــأن آخـــر دمعـــة للكـــون قـــد
مـــزجت بـــآخـــر أدمعي لـــرثـــائي
وكـــأنني آنست يـــومي زائـــلا
فـــرأيت في المـــرآة كيف مســـائي

وكان لنا زميل يحفظ المأثـورات من الشعر ، ويضم النظائر الى النظائر ، فأخذ حين جلسنا نتدارس هـذه

المقطوعة الساحرة ابتداء من قول الخليل (ولقد ذكرتك) أخذ ينشد أبياتا كثيرة من محفوظاته الغزيرة ابتدأت بقول الشاعر (ولقد ذكرتك) فأوقفنا على خوالج عاطفية ذات وهج ، إذ من الطبيعي أن يذكر الشاعر من يحب ، يذكرها في سروره المغتبط وفي ألمه المبرح ، وإذا كان السرور لا يكتمل إلا بالقرب ، فكل مشهد جميل من مشاهد الطبيعة يدفع الشاعر العاشق إى أن يحرص على اللقاء في اطاره البهيج المونق ، فإذا لم يتح له كما يريد ، هتف من أعماقه بمثل ما هتف به القائل :

ولما نزلنا منزلا طلّه الندى
أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه
منى فتمنينا ، فكنت الأمانينا

فقد نزل الشاعر العاشق منزلا أنيقا في بستان ناضر الزهر ، وشاهد من حسن المكان ما جعله يتمنى أن يكون مع حبيبته لتصبح جمالا ناطقا يضاف إلى الجمال الصامت ! هذا في أوقات البهجة ، وهي نادرة في حياة العاطفيين التي تفور بالألم ، وتعج بالحرمان ، ولهذا كانت أكثر ذكريات هؤلاء نائحة شاكية ، وكان أكثر ما بديء منها بقول الشاعر (ولقد ذكرتك) مما يصور لواعج الوجد الدفين .

أذكر أني نشرت منذ أكثر من عشرين عاما قصيدة أقول فيها :

ولقـــد ذكـــرتـك والمشـــارط في
كف الـــطبيب تـــذيقني الـــويـــلا
ويـــداه مـــرعشتـــان أرعـــدتـــا
خـــوفـــا فحيـــر خـــوفـــه الأهـــلا
ودمي تســـاقط من يـــديـــه ، وعن
يمنـــــاه أمي زلـــــزلت هـــــولا
وأبي يتمتم بـــــالـــــدعـــــاء ولا
ينفـــــك يســـــأل ربـــــه المـــــولى
وأخي وأختي ســـــاهمـــــان أسى
وكـــلاهمـــا يصـــلي الـــذي يصـــلي
ويقـــول قـــومي : مـــاتـــراح بـــه
فـــأقـــول : مشتـــاق إلى ليـــلى

والتجربة صادقة ، لم أزد عن أن عبرت عنها كما كانت ! إذ أغنت واقعيتها الصريحة عن كل إضافة يرفدها الخيال ، ولكن صاحبنا الذي روى الكثير من محفوظه الأدبي ، قال في ابتسام ينبيء عن نقده المستتر : إن خاطري قد اتفق مع خاطر حفني ناصف حين قال :

ولقـــد ذكـــرتـك والـــطبيب بجـانبي
والجسم فـــوق فـــراشـــه مـــطروح
وجفـــون عيني بـــالمـــلاقط فتحت
وبهـــا المبـــاضـــغ تغتـــدي وتـــروح

والخيط يجــذب في الجفــون بــإبــرة
جذبــا تكــاد تفيض منــه الــروح

واتفاق الخاطر في منطقه الخاص قد يوحي بالسرقة ، أو الاحتذاء المقلد ، إذا عمد الناقد لتلطيف المآخذ ، مع أن تصوير التجارب المتشابهة لا يمت إلى الاحتذاء بسبب ، إذ لكل شاعر منحاهَ في التصوير والتعبير ، فنحن في هاتين المقطوعتين نرى اتفاقا في الإطار الخارجي لا في الصورة الداخلية ، فصاحب المقطوعة الأولى كان يجري عملية جراحية في جسمه ، وكان طبيبه مرتعشا يتخوف العاقبة في وجل ، ودمه متقاطرا يتساقط من مبضعه ، فجعل الأم والأب والأخوة يتضرعون إلى الله في إشفاق تارة ، ويلوذون بالوجوم تارة أخرى ، أما الشاعر الثاني فمكان الجرح في عينيه حيث سلطت الآلة الجراحية على جفنيه تمزيقا وكشطا ، وتعاقبت شكات الإبرة بخيطها الممتد رتقا والتئاما ، فلكل منهما إذن جوّه الخاص ، وتجربته الشخصية ، ذات الحس الصادق ، والمعاناة الأليمة ، على أن المسألة بعد ليست مسألة جزئيات ، تختلف في إطار متفق ، لأننا نرى أنه لو اتحدت هذه الجزئيات كما اتحد الاطار ما كان ذلك مدعاة نقص يلحق المتأخر ، ويصمه بالتقليد ، إذ أن الأمر موقوف على الصدق الفني في تصوير التجربة ـ حقيقية أو متخيلة ـ مهما كانت متحدة الوقائع والأحداث ، إذ من الممكن أن يمر كلا الشاعرين بعملية

جراحية متفقة ، وأن يحيط بهما من الملابسات ما لايفترق لدى أحدهما في شيء ، ثم يعبر كلاهما عن نفسه تعبيرا حيا لا يسمح لأحد بالقول بالتأثر ، فلكل شاعر نبضه وتصويره وموسيقاه ، وإذا كان توارد الخواطر حقيقة نفسية ماثلة فلماذا نجعله أداة انتقاص تشين المجيد وتوقفه ظلما موقف الاتهام ! إن الظريف المضحك أن عشرات الكتب لدينا قد وضحت مسألة السرقات الشعرية في النقد القديم والنقد الحديث بما يكشف الالتباس ، ولكننا بعد هذه الكتب المتعددة ندور في حلقات مفرغة ونتناول ما درس من القضايا وكأنه شيء جديد ؟ أفلا يرجع هؤلاء المندفعون الى القول بالتقليد أو السطو إلى ما قاله المتخصصون ؟

على أن مما يمنع الظن الراجم بالسرقة في التجارب المماثلة أن نرجع إلى الحقيقة الانسانية الناهضة بإزاء كل تجربة ، هذه الحقيقة التي تعلن - في موضوع تذكر الحبيبة - إن فترات الهول على اختلاف بواعثها ، تجعل صاحب المأساة يفكر في آماله الضائعة وأحلامه العازبة ، فالمريض في ساعة الهول إذا كان عاشقا ملتاعا فإن تذكره الحبيب ضرورة حية من ضرورات كيانه الإنساني ، لأن حبه أقوى وآكد من سواه ، وتذكره في المحنة القاسية صرخة هائلة من نفس تعاني من لهيب البعد ما تعانيه من مبضع الجراح ، وتعدد هذه الصرخات الصادقة لا يدل على الاحتذاء ولكن يدل على تماثل الإحساس .

نعرف أن عبدالله بن الدمينة شاعر عاشق ، وقد سجن في قضية قتل نسبت إليه ، وكانت البراءة أبعد ما يتوقع وقد سيق الى السجن ، وكبل بالأغلال الثقيلة ، و أخذ السجان يضرب على يديه بالحديد تعذيبا وإيجاعا ، وعيون الشامتين تراه قريرة هانئة فتزيده ألما وحرقة ، ولكنه مع ذلك يتذكر صاحبته و يهفو إليها فإذا ما تركه السجان وقتا قصيرا جاشت خواطره فنقل عن إحساسه الصادق قوله مخاطبا حبيبته :

ذكرتك والحداد يضرب قيده
على الساق من عوجاء باد كعوبها
فقلت لراعي السجن والسجن جامع
قبائل من شتى ، وشتى ذنوبها
ألا ليت شعري هل ازورن نسوة
مضرجة بالزعفران جيوبها
وهل ألقين بالسدر من أيمن الحمى
مصححة الأجسام مرضى قلوبها
بهن من الداء الذي أنا عارف
ولا يعرف الأدواء إلا طبيبها
عليهن مات القلب موتا وجانبت
بهن نوى غب ، أشب شعوبها

فالسجن والقيد وعذاب الحداد مما لم يحل دون تذكار الحبيب ! وقصة قيس مع أهله شاهد آخر ، فقد سلب

المجنون عقله فما يرجع إليه في فترات قليلة ، وعزّ على أقاربه أن يفقدوه هكذا دون جدوى ، فاحتالوا عليه في بعض أوقات صحوه حتى أقنعوه بأن الله قادر على شفائه ، وما عليه إلا أن يحج البيت العتيق ويطوف بالكعبة ويدعو الله مع الضارعين ! وقد سار قيس مع أبيه ورأى الموكب الحاشد يعج بالتلبية والتكبير والتهليل ، فدعا ربه أن يتوب عن كل شيء إلا عن حب ليلاه ! لقد فر هاربا منها إلى ربه ، فحين أزفت ساعة الدعاء تذكرها فاستثنى حبها من أن يتوب عنه ، وحفظ له رواة الشعر قوله :

ذكـــرتـــك والحجيـــج لـــه ضجيـــج
بمكـــــــة والقلوب لهـــــــا وجيب
فقلت ونحن في بلد حـــــــرام
بـــــــه لله أخلصت القلوب
أتـــوب إليـــك يـــارحمن ممـــا
جنيت فقـــد تكـــاثـــرت الـــذنـــوب
فـــأمـــا عن هـــوى ليـــلى وتـــركي
زيـــــارتهـــا فـــإني لا أتـــــوب

وبعض المتشككين ينكر قول قيس هذا ، ويزعمه من افتعال الرواة ، ولكن ما ينكره هذا المتشكك إحساس بشري شائع إن لم يقع من قيس فقد وقع من سواه ، ألم يقل كثير عزة ؟ :

أنـــاديـــك مـــا حـــج الحجيـــج وكبـــرت
بفيفـــا غـــــزال رفقـــــة وأهلت

ثم ألم يقل عمر بن أبي ربيعة ؟

نــــظرت إليهـــا بـــالمحصب من منى
ولي نــــظر لــــولا التحــــرج عــــارم

بل ألم يقل الشاعر الفقيه المتشدد عروة بن أذينة ؟

ولهن بــــالبيت العتيق لبــــانــــة
والبيت يعـــــرفهن لـــــو يتكلم
لـــو كـــان حيـــا قبلهن ظعـــائنـــا
حيـــا الحـــطيم وجـــوههن وزمـــزم

ثم ألم يقل قيس نفسه مرة أخرى ؟

ولم أر ليـــلى بعـــد مـــوقف ســـاعـــة
مع الـركب اذ تــرمي جمار المحصب
ويبـــدي الحصى منها إذا قـــذفت بـــه
من البـــرد أطـــراف البنـــان المخضب

على ضوء هذا الفهم يمكننا أن نشير إلى وقائع مماثلة في عالم التذكر لنرى كيف تتجه العواطف الصادقة في مواقف الخطر وجهة المعشوق تتساءل عنه في لهفة ، وتطرب الى ذكراه في حنين ، وقد كان عنترة العبسي من أشهر مَن عبروا عن هذه الحالة إذ قال في معلقته الذائعة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

إذ أن المعركة ذات الرماح والسيوف لا تقل خطرا عن العملية الجراحية ذات المباضع والمشارط ، وقد اتجه عنترة إلى حبيبته ساعة الهول ، ولكنه سمح لخياله أن يشتط في التصوير حين زعم أنه كان يود تقبيل السيوف حين ذكره بريقها الساطع بثغر حبيبته ، مع أن تذكر الثغر ومحاولة التقبيل في هذا الموقف بعيد بعيد ، فالشاعر العاشق يذكر حبيبته في موقف الهول لمعنى إنساني لا للذة حسية ، وإذا كانت خطورة المعركة قد استجاشت ذكرى عبلة في نفس عنترة ، فكم من مخاطر استجاشت ذكريات الأبناء والآباء والأخوة في وقت الضيق دون أن تكون هذه الذكرى مقصورة على الحبيبة وحدها !! ومن أصحاب الشعور الراقي مَن يتذكر عدوه في ساعة الضيق إذا كان قد كابد ما كابد من الهول ، ولا أدري أية قصة قرأتها في الزمن البعيد تدل على هذا المغزى حيث صاح البطل في لحظاته الأخيرة حين فاجأه ألم السيف الهاوي على جسده : أكذا أحسّ غريمي ما أحسّه من الكرب حينما فرحت بمصرعه ! يالنا الله ! كلنا نتعادى على الفتات ولا نعقل ولا نفيق !!

على أن ذكر الحبيبة هو الأسبق دائما ، ولا أعني أنها

مفضلة على الابن ، بل أعني أنها غالبا تكون في الحياة قبل أن يولد الابن فتتفرد بالحب والهيام ، ولابن رشيق القيرواني موقف مماثل لموقف عنترة إذ ركب السفينة في بحر هائج مضطرب ، وقد أخذت الريح تعصف والمطر يهمي ، وصراخ الراكبين يرتفع ، وهنا تلوح الحبيبة في ذهن الشاعر فيناجيها قائلا :

ولقد ذكرتك في السفينة والردى
متوقع متلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف
والليل مسود الجوانب داج

والامتحان ! ما أشق الامتحان على الطالب الجامعي في سنته الأخيرة ! كان معنا زميل ينظر إلى الأسئلة دون أن يجيب ، فحدث أصحابه أن خصام صاحبته قد كدر مزاجه ومحا ذاكرته فما تذكر شيئا ، ولو كان الطالب شاعرا لسجل ذلك في مقطوعة ولكن هل كل الأحبة شعراء ؟

ولا أجد ختاما أروع وأشجى وأوقع مما قرأته للشاعر البلجيكي (موريس ماترلنك) حين قال على لسان فتاتين ، إحداهما مخطوبة تحتضر ، والأخرى شقيقة تتألم :

ـ الشقيقة : ماذا أقول لو عاد يوما ؟
ـ المحتضرة : قولي له : انتظرته حتى قضى عليّ الانتظار .
ـ الشقيقة : وإذا استوضحني كيف جدت بالنفس الأخير .

ـ المحتضرة : قولي له : لقد تبسمت كيلا يبكي إذا علم أني جزعت .

فموريس ماترلنك يجعل الحبيبة المحتضرة لا تكتفي بذكر حبيبها ساعة النزع فقط ، بل تجبر نفسها على الابتسام ليعرف حبيبها ، أنها ودعت الدنيا سعيدة مبتسمة فلا يجزع ! أي سمو هذا ؟

لقد طال بنا التطواف استيحاء لقصيدة مطران وما ظننت حين البدء أني سأجمع هذه الشوارد ، وكان قدماء المؤلفين يرحبون بهذا الاستطراد ؟ فهل يتقبله القاريء الحديث ؟

مصطفى عبدالرازق
الكاتب الموهوب

لدي بحوث تجمعت عناصرها ، واتضحت نتائجها ، ولكني أرجيء صياغتها حتى تحين مناسبة حافزة ، وموضوع مصطفى عبدالرازق الكاتب الموهوب مثل لما أعنيه من هذه البحوث ، فقد قرأت من أمد بعيد ما جمعه الأستاذ الكبير علي عبدالرازق تحت عنوان (من آثار مصطفى عبدالرازق) فهالني أن أعلم عن الشيخ الأكبر روائع ساحرة كنت أجهلها كل الجهل ، وهالني أن يكون أكثر لداتي الأدباء ممن لم يقرءوا الجريدة أو السفور أو السياسة اليومية في سنواتها الأولى يجهلون ما أجهل ، فصممت على أن أتحدث عن الكاتب الأديب ليقدره حق قدره من يعرف مصطفى العالم البحّاثة الضليع ، ومضت الأيام دون أن أجد المناسبة الدافعة ، حتى سنحت عرضا في كلمة أخيرة كتبها الأستاذ الكبير مصطفى أمين تحت عنوان (فكرة) في جريدة الأخبار (٥/٢/١٩٧٩م) إذ تحدث عن الأديب الناقد المسرحي الراحل الأستاذ محمد علي حماد رحمه الله ، فقال ما نصه :

(هذا الجيل لم يعرف حماد عندما كان الناقد المسرحي لجريدة البلاغ في عهد النقاد المسرحيين العظام أيام كان عباس العقاد يكتب في الصفحة الأولى عن موسيقى سيد

درويش ، وتوفيق دياب يكتب في الصفحة الأولى نقدا لروايات يوسف وهبي ، والشيخ مصطفى عبدالرازق يكتب وصفا لحفلة أم كلثوم ، وفكري أباظة يكتب عن سلطانة الطرب ، وطه حسين ينقد فرقة الكوميدي فرانسيز في الأوبرا) .

قرأت ما كتبه الأستاذ مصطفى أمين فعرفت أن قراء اليوم لا يجهلون العقاد وتوفيق دياب وفكري وطه ، ولكنهم إن عرفوا أن مصطفى عبدالرازق كان باحثا عالما يدرس الفلسفة في كلية الآداب ، ثم ولي الوزارة فمشيخة الأزهر الشريف ، فلن يعرفوا أن الأستاذ الأكبر كان أديبا من الطراز الأول ، كما كان ناقدا فنيا يتحدث عن الفنون بأنواعها المختلفة ، وقد وصف إحدى حفلات أم كلثوم هذا الوصف البديع الذي أشار إليه الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين ، وكانت كوكب الشرق حينئذ في مقتبل عهدها الفني ، تقف بين والدها وأساتذتها من المعممين لتؤدي دورها المطرب ، ولتدفع الأستاذ مصطفى عبدالرازق إلى أن يصف حفلها هذا الوصف البديع فيقول :

« وكلما ذكرت الشيوخ ذكرت أم كلثوم أميرة الغناء في وادي النيل ، فإن لها هي أيضا شيوخا يحفون بها في عمائمهم المرفوعة ، وأكمامهم المهفهفة ، وقفاطينهم الحريرية الزاهية اللامعة ، وجببهم الطويلة الواسعة ، عن اليمين شيخان ، وعن اليسار شيخان ، حول فتاة

معتدلة القوام ، لا يشتكى منها قصر ولا طول ، ولا يشتكي غلظ فيها ولا نحول ، تنظر بعينين فيهما شباب وذكاء ، وفيهما نزوة الدعابة ودلال الحسناء ، وفي وجه ليست تفاصيله كلها جميلة ، ولكن لجملته روعة الجمال ، تحت ذلك العقال البدوي مكفكفا على جبينها بطراز مذهب ، ومرخي وراء ظهرها منه هداب الدمقس المفتل ، في ثياب حشمة تميل إلى السواد ، وفي مظهر بساطة ، كان على سجيته يوم إذ كانت الفتاة القروية حديثة عهد بسذاجة الريف ، ثم أصبح تأنقا حضريا مقدرا تقديرا .

تظهر أم كلثوم باديء الأمر رزينة ساكنة وتشدو بصوتها الحلو شدوا لينا ، من غير أن يتحرك طرف من أطرافها ، إلا هزّة لطيفة ، تنبض بها رجلها اليسرى أحيانا ، ثم ينبعث الطرب في هيكلها كله ، فتنهض قائمة ، وترسل النغمات متعالية ، تذهب في الآفاق هتافا مرددا أو تتراجع رويدا رويدا حتى تتلاشى حنينا خافتا ، وتهزها أريحية الشباب والطرب ، فتساير النغمات في حركتها ، مندفعة بوثبات الشعور وراء مذاهب الفن ، وتتلوى عن يمينها وشمالها أعناق الشيوخ وياليت شعري ما لأم كلثوم والشيوخ ؟

أم كلثوم نعمة من نعم الدنيا ، فما بالها تأبى إلا أن تتجلى على الناس في مظهر الآخرة أ[1] .

---

(١١) ، (اب) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٤٤٤ نقلا عن جريدة السياسة ١٩٢٥/١٢/٣م .

هذا بعض ما قال الكاتب الفنان عن حفل أم كلثوم ، واللفتة الأخيرة بارعة ، وإن كان الشيخ الفاضل مصطفى عبد الرازق قد تناسى أن الفن الغنائي بُديء على أيدي أمثاله من الشيوخ وأن سلامة حجازي وسيد درويش وهما علما الغناء في مفتتح هذا القرن يذكر كلاهما بلقب الشيخ ؟ فكيف لا تظهر أم كلثوم مع الشيوخ ! ومع هذا التبرير الذي أتكلفه تكلفا لأني شيخ أيضا ، وإن كانت العمامة مستترة كالفاعل الذي يعود إلى لفظ سابق ، مع هذا التبرير المتكلف ، فالفكاهة في قول الكاتب رائعة بارعة ذات أبعاد .

هذا المقال الحي النابض الذي ختمه الكاتب الموهوب بوصف لحفلة أم كلثوم بديء بوصف ساحر كتبه الأستاذ مصطفى عبدالرازق متحدثا عن أحد وزراء المالية لعهده فقال عنه :

« كان وزير المالية يومئذ شيخا ـ وإن لم يكن معمما ـ هو شيخ في صورته ومعناه ، بل هو كبير الشيوخ ، أخضر الجلدة مغبر اللون ، ضخم الوجه مفرطحه ، ذو ملامح مبهمة لا يعرف ابتسامها من عبوسها ، وفي عينيه تكسر كأنما هو حياء أو تقى ، ولكنه يبعث في النفس معنى غير الحياء ، وغير التقى ، وفي أنفه انبطاح ، وفي فمه انفراج بين شفتين كظتين ، سفلاهما مسترخية ، والأخرى نائية ، تنهض من فوق كاهله عرتمة مترجرجة ، وتتدلى فوق

عنقه عرتمة مترجرجة تتشابه إذا نظرت إليه من خلف ، أو نظرت إليه من أمام أ[ب] .

هذا الوصف الفكاهي المصور ـ رباه ـ ألا يقف جنبا الى جنب ما وصف به الأستاذ عبدالعزيز البشري أحمد زيور ومحجوب ثابت وأحمد مظلوم وابراهيم وجيه ومحمد نافع في المرآة ! لقد جنى البحث العلمي على مصطفى فحوّله إلى دراسة مادة لا تحتاج إلى موهبة خارقة ونأى به عن أفق لا يتألق في سمائه غير العباقرة الأفذاذ ؟ فماذا كان يغنم الأدب الفكاهي المصور لو تآخى فيه قلم عبدالرازق مع قلم صاحب المرآة في جريدة السياسة ، وكيف ينسى المتحدثون عن مصطفى عبدالرازق أن أعظم مميزاته الفكرية أنه أديب موهوب .

أجل لقد نسى جيلنا ذلك ، لأننا أخذنا نتفتح على أنداء الثقافة حين كان الكاتب الكبير يوالي إصدار مؤلفاته العلمية الرصينة ، فأخذنا نقرأ الإعلانات عن كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وكتاب (الإمام الشافعي) وكتاب (الوحي والدين والإسلام) وكتاب (فيلسوف العرب والمعلم الثاني) وكتاب (محمد عبده) وكلها تنحو المنحى العلمي الدقيق ، بل ان طريقة الأستاذ مصطفى عبدالرازق في بحوثه العلمية قد أثر فيها طابعه الخلقي الرفيع ، إذ كانت النصوص القديمة ذات اعتبار قوي في بنائه التأليفي ، فلم يكن يسمح لنفسه أن يعبر عن

أفكار غيره بأسلوبه ، كما تجاوز هذه الدقة الرصينة إلى دقة أروع منها وأعمق ، فهو يقرأ في الموضوع الواحد نصوصا متضاربة ، فلا يتباهى بعرضها للقاريء محاولا تفنيد ما يظهر بطلانه ، وترجيح ما تدل القرائن على ترجيحه ، بل انه يفعل ذلك بينه وبين نفسه ، فيستعرض النصوص المتضاربة ، ويوازن بينها موازنة صامتة لا يحسها قارئه في شيء حتى إذا رجح لديه بطلان الباطل تركه دون مباهاة بسرد ما يراه من أدلّة البطلان ، واتجه الى النصوص الصحيحة لديه يسوقها في ولاء ومتابعة للتحدث عن رأيه إذ كانت موضع اختياره وموافقته ، والقاريء السطحي يظن المسألة مسألة نصوص تتوالى ، ولكن الذين يغوصون مغاص الكاتب في بحوثه المثالية ، يعرفون ما كابده جمعا وموازنة وترجيحا واختيارا ، وقد تحدث عن هذا الاتجاه من تناولوا الأستاذ الأكبر بالتحليل العلمي كالأستاذ عباس محمود العقاد[٢] وكالدكتور أحمد أمين[٣] حيث أخذ عليه الكاتبان الكبيران في رفق أقرب إلى الموافقة تستره وراء النص ، ولكل وجهة هو موليها ، أما الدكتور محمد مندور فقد تحدث عن هذه الناحية ببعض البسط حين قال في نقد كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية) .

(منهج المؤلف في الدراسة هو المنهج التاريخي وهو

---

(٢) مجلة الكتاب : السنة الثانية ابريل ١٩٤٧ .

(٣) فيض الخاطر جـ ٧ ص ٣١٦ طـ أولى .

بذلك يحل في سياق دراسته أنواعا لا تحصى من المشاكل التي يتخبط فيها الباحثون عندما يختارون مناهج أخرى ، كالمقارنة بعد التقرير ، وإنك لتتابع المؤلف فتستطيع أن تستخلص الأصيل من تفكير العرب والمستعار ، وتميز بين ما أخذ وما أضيف ، بل أنك لتماشي العقل كله في حرارة عمله ومجهود خلقه ، وهذا كسب ليس بالقليل ، وإن يكن هناك مأخذ على المؤلف فقد فطن إليه هو نفسه ، حين اعتذر عن كثرة إيراد النصوص بأن كتابه هو مجموعة الدراسات التي ألقاها على طلبته بالجامعة ، وقد حرص على أن يتركها في صيغتها الأولى بما تحوي من نصوص يحتاجها الطلبة ليتمرسوا بفهمها والتدقيق في كشف معناها ولكنها شنشنة قديمة ، فقد تلقيتُ عليه العلم ، وكان منهجه هو هو في أخذنا بقراءة النصوص والتدقيق فيها ، ولكننا كنا نجد عندئذ فيه من رحابة الصدر ما يمكننا من حمله على الوقوف معنا ، فلا نغادر نصّا في أثناء الدراسة حتى نقتله فهما ، وأما في الكتابة فقد كنا نفضل لو تناول هو الحديث مجملا الرأي ، موضحا غامضه ، ولكننا عندئذ ربما نطالبه بما يصعب على طبعه لا على عقله حتى لأذكر كلمة صادقة للأستاذ أحمد الشايب هي قوله (ان الدكتور طه حسين يقف أمام النصوص والأستاذ مصطفى عبدالرازق يقف خلفها ، أما الأستاذ أحمد أمين فيقف إلى جوارها)[٤] .

---

(٤) مجلة الثقافة : العدد ٣١٢ ـ ١٩/١٢/١٩٤٤م .

لقد أصاب الدكتور مندور حين قال « ولكننا نطالبه بما يصعب على طبعه لا على عقله » لأن التزام النصوص لدى الأستاذ مصطفى عبدالرازق موقف خلقي يرجع إلى فضيلة من فضائله النفسية حين يعرض ما وافق عليه من الآراء الصحيحة معزوّا إلى قائله بعبارته التي قالها ، ولا يصعب على عقله أن يلخص أو يبسط مسترسلا في الحديث بقلمه المطاوع المسماح ، وما تركه في مضمار النثر الفني من مقالاته التي نخصها ببعض الحديث ينبيء بأن الرجل كاتب مكين ، كاتب له منحاه الأدبي ، واتجاهه الأسلوبي ، ومثله إذا تعاطى تلخيص أقوال السابقين أو شرحها لا يعوزه أن يسترسل كما يسترسل سواه ، ولكن الطبع الأصيل حاجز يحول .

ومهما اجتهد الباحث المتعمق في اخفاء مقدرته البيانية في فصوله العلمية الدقيقة ، فإن هذه المقدرة القوية لا تستطيع أن تنكر حقيقتها في مناسبات التقديم والتعقيب على رغم ما تجده من كبت متعمد يوحي به الطبع الأصيل ، وأذكر أن هذه المقدرة وشت عن نفسها وشاية تامة حين قال الكاتب في مفتتح حديثه عن نشأة (محمد عبده) (نشأ محمد عبده كما ننشأ نحن الفلاحين حفاة عراة الرءوس ، نجري في الأزقة ، ونسبح في البرك والترع ، ونلعب بالتراب والأحجار ، لا يعني أحد بتلقيننا في طفولتنا شيئا من مباديء الفهم والذوق ولكننا ننبت كالنبات البري يتغذى

بما يصل إليه من مواد الغذاء ، ويثمر شوكه وأزهاره ولا يربي في أنفسنا إلا الشعور بتهيب الوالدين وإجلالهما واحتذاء مثالهما) .

ليت شعري أي عبارة في الدنيا تفي حق الوفاء بالتعليق على هذا الكلام النادر الساحر !! مصطفى عبدالرازق باشا نجل حسن عبدالرازق باشا ، وسليل أسرة من أعظم الأسر المصرية في الصعيد جاها ومروءة وعلما ومالا ، يقول إن محمد عبده نشأ كما نشأ هو ! حافي القدم عاري الرأس يجري في الأزقة ويلعب بالتراب وينبت كالنبات البري يتغذى بما يصل إليه من مواد الغذاء ويسبح في البرك والترع ! لقد أراد الرجل أن يتحدث عن نشأة أبناء الشعب الحقيقيين من الأزهريين ـ وهو أزهري التعليم ـ نشأ بين لداته فتأثر بمشاعرهم وتعاطف مع أحاسيسهم ثم غلبه هذا التأثر النبيل فعدّ نفسه واحدا منهم مادام يشعر بشعورهم ! هكذا صور الرجل نشأته الشعورية على حين نجد من زملائنا وأساتذتنا من نشأ النشأة التي تحدث عنها الأستاذ النبيل ، ثم جعل يتنكر لها ، ويتلمس كل وسيلة للتبرؤ منها والزراية عليها وهو منها في الصميم الصميم أو مكان الكليتين من الطحال كما قال الشاعر القديم ! ولم يكن هذا الشعور الذي سجله الأستاذ الأكبر خطوة عابرة سنحت فمرت ، ولكنه شعور عميق متأصل تحدث عنه الأستاذ مثنى وثلاث ورباع في شتى مقالاته المتناثرة في

الصحف ، كأن يقول[٥] من وجهة راضية .

« إنا نحن الفلاحين أبناء الفلاحين نبتنا في المزارع وحول جداول المياه نستنشق الهواء طليقا لا يحبسه شيء ، ونستقبل الشمس سافرة ليس من دونها حجاب ، ونرى حيث سرنا أهلا وعشيرة إذا مرض أحدهم عدناه ، وإذا مات شيعناه ، وإذا مسّه ضر مسّنا وإذا غضب قمنا معه غضابا لا نسأله على ما قال برهانا .

وكلما دخلت المدائن تمثلت المناصب ، وما تستلزمه من مداهنة الرؤساء وقلة الصراحة والمرونة في الرأي والعقيدة كأن أهل المدن كلهم موظفون تحدد آمالهم وأعمالهم دائرة ضيقة ، أما هذه الأرض البدوية فأهلها يعيشون في سعة من الأمل والعمل ، أيتها الأرض المباركة حيا الله رحابك الخصبة فقد كانت أطيب معهد لعهد الطفولة ، وأن أكبر آمالنا أن نعيش فيك إلى جانب قومنا الفلاحين سعداء بحرّيتنا ، سعداء بأخلاقنا وعصبيتنا » !!

أو يقول من وجهة ناقدة[٦] ..

« لست بحمد الله من الأعيان ولكني منذ جئت الريف أعيش عيشة الأعيان الريفيين ، أطعم طعامهم غليظا تنوء المعدة منه بحمل ثقيل ، وأنام نوما سباتا مستغرقا تضيع به أشرف ساعات العمل ثم أقطع ما بين ذلك من الوقت في

---

(٥) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٢١٥ نقلا عن السفور ١٨ / ٢ / ١٩١٦م .

(٦) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ١٧٩ نقلا عن السفور ١١ / ٩ / ١٩١٥م .

مجالس محشودة تقوم في المساحات وأمام المنازل إلا أن يشتد الريح ويشق احتماله فنأوى إلى الحجرات .

مللت هذه الحياة المتشابهة العاطلة ، وأصبحت أشفق من أثرها في إخماد عواطفي ومداركي ، كما أثرت في بنيتي التي كنت التمس لها قوة ونشاطا في هذا الهواء النقي ، وهذا السكون المَريح ، فلم تكسبه إلا ضخامة وإن كانت أعطتني مظهر الذوات ، فقد شوّهت سحنتي ومسختني مسخا .

ندعو لأغنيائنا أهل البيوت والوجاهة بالبركة في نفوسهم وأعمالهم ، فإننا نخاف كل الخوف من مظاهر الضعف التي تلوح على عائلاتنا الكبيرة ، عائلات الريف التي كانت بالأمس ذات مجد ونبل ، تجمع الى الاعتزاز بالعصبية والرزق الوفير جاه التماسك الأخلاقي والصلابة على تقاليد ممتازة أظهرها النجدة والكرم وإباء الضيم » .

إلى آخر ما ينحو هذا المنحى مما تناثر في فصول آثاره الرائعات !

ليس القول وحده مقياس السمو الخلقي لدى الانسان ، فكأين من فلاسفة رسموا المثل العليا للخلق الإنساني في أرفع معانيه ثم هبطوا بأعمالهم إلى حضيض القتلة والسفاحين ، وما كانت آراؤهم الخُلقية غير ستار خادع ضاعف مثالبهم لدى الناس ، وشوّه من روائع المعاني التي محصوها للقارئين أتم تمحيص ، إنما المقياس الحقيقي

للداعية الخلقي أن يتقيد بما قال ، بحيث تصبح حياته العملية تطبيقا أمينا لآرائه النظرية ، ومن هنا كان سلوك مصطفى عبدالرازق الإنساني متماثلا كل التماثل مع ما يؤكد من حقائق الخلق الأمثل ، أذكر أن الأستاذ الدكتور أحمد أمين قد ذكر في إحدى أمسيات الخميس بلجنة التأليف والترجمة أن الأستاذ مصطفى رحمه الله قد رجاه أحد الثقلاء في أمر خاص به ، وصادف أن جاء أحد تلاميذه المخلصين فرجاه في أمر مماثل ، فبدأ الأستاذ مصطفى بالسعي الدائب كي يحقق رجاء هذا الثقيل أولا ، وكان الدكتور أحمد أمين يعلم موقعه الجافي من نفس الأستاذ الأكبر ، فسأله عن سرعة تحقيق رجائه مع الاتئاد في تحقيق رغبة التلميذ الصديق ، فابتسم الأستاذ ابتسامة صافية وقال في هدوئه الحبيب إن فلانا كما ذكرت ، وموقعه الثقيل من نفسي هو الذي دفعني لإنهاء مسألته ، لأني حينئذ أقوم بواجب خلقي تفرضه الرجولة دون أن يتصل بأدنى سبب من شعوري الخاص ، أما تلميذي العزيز فأنا أشعر من حبي إياه أن مسألته مسألتي ، فإذا سعيت له سعيت لنفسي فلا مجال لفضل لدي في مسعاتي إليه ، لذلك بدأت بالأول كي أقوم بواجب لا يتصل بشعوري الخاص !! وهذا ما قاله الدكتور أحمد أمين عن صديقه وإنه لصادق صدوق .

أمّا ما قرأناه من نوادر المروءة الرازقية فأكثر من أن نخصه بإيضاح ! وقد قال القائلون إنه تابع أستاذه محمد

عبده في أريحيته النادرة إذ خصص مرتبات شهرية دائمة لأناس من الفقراء لا يسألون الناس إلحافا ، وهذا غير مستبعد فلنكتف بالإشارة إليه ، ذاكرين من خوارقه هذه الطرف الثلاث .

١ ـ مات خادم مسن من اللائذين ببيت عبدالرازق ، فخرج أهل الخادم يشيعونه إلى مقره الأخير ، ودهش الناس إذ رأوا صاحب المعالي مصطفى عبدالرازق باشا وزير الأوقاف حينئذ باكيا في مقدمة المشيعين على طول المسير في صحراء الإمام الشافعي دون أن يكتفي ببعض الخطوات ، فكان سيره النبيل وبكاؤه في جنازة الفقيد موضع عجب وإعجاب معا ، إذ تحدث عنهما كل من شاهدهما كأمرين مستغربين وسجلهما الشاعر الأستاذ محمد جاد الرب بقصيدة نشرها بمجلة الرسالة الغراء ، قال فيها[٧] :

يامصطفى إن المكارم لم تزل
فيكم ومنكم تستمد جمالها

إن (المعالي) عند قوم رتبة
وأراك تشرح للورى أعمالها

إشرح مناهجها على طلّابها
وأضرب لنا يامصطفى أمثالها

تمشي تشيع خادما مستعبرّا
مستشعرا عند المنون جلالها

---

(٧) مجلة الرسالة العدد ٤٠٣ ـ ١٩٤١/٣/٢٤م .

وتسير حولك زمرة من جنسه
ألفوا المذلة واكتسوا أسمالها
أنا ما عجبت، لأنني أدرى بكم
لكن رأيت الناس قالوا : يالها
إن قلت ما أديت إلا واجبا
قلنا، فمن في مثل فضلك قالها
علم، فإنك صرت خير معلم
إن المكارم أصبحت يرثى لها

٢ ـ قال الأستاذ الكبير محمد عرفة رحمه الله عضو هيئة كبار العلماء بمجلة الأزهر[٨] من مقال ضاف : وأبرز صفة في الأستاذ الأكبر الحياء والتواضع، فهو يكرم النفس الإنسانية في أي مظهر من مظاهرها سواء أظهرت في مسك غني أم مسلاخ فقير، يكرمها بحيائه فيخجل أن تقع منه على ما يكره، ويحترس منه أن يبدو ما يسوء، وانه ليجد في ذلك رياضة صعبة، فتحس منه بأخذ نفسه بالاحتراس والتشدد، فهو جمّ التواضع نبيل كريم، فما أنسى لا أنسى يوم زرته في وزارة الأوقاف يوم كان وزيرا لها، فدخلت عليه امرأة مسنّة شاكية، فقام على قدميه عند دخولها، واستمع شكاتها من وقوف، ولم يجلس حتى انصرفت، فزاده ذلك في نفسي اجلالا، وكان هذا التواضع مع كرم منبته، وعلو بيته، وشرف منصبه، أزين له في عيني من كرسي الوزارة،

---

(٨) مجلة الأزهر السنة ١٧ ص ١١٥ العدد الرابع .

وقلت في نفسي : لله هـــذه النفس التي تتـــواضـــع للمستضعفين ، ولا تذل للمتجبرين .

٣ ـ قال الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله عن نفسه في سياق من يتحدث عن غيره[٩] « حالت الحرب الماضية بين بعض الأزهـريين وبين المضي في دراسـاتـه الفلسفيـة بباريس ، فرأى أن يستأنف هذه الدراسة مـع الأستاذ مصطف عبدالرازق ، وقد تفضل بتحديد أيام يجتمع فيها مع الطالب تمهيدا لكتابة رسالته الجامعية ، وفي بعض الأيام دخل أستاذ بكلية الآداب فسأل الأخ الأزهري : هل تستطيع معرفة اللغات اليونانية واللاتينية والانجليزية والالمانية ؟ فقال : لا ، إذ اقتصر على اللغة الفرنسية ، فأجاب السـائل : كيف إذن تستطيـع دراسة الفلسفـة الإسلامية ؟ وهنا قال الأستاذ مصطفى عبدالرازق : إذا كان صـديقنا لا يستطيـع دراسة الفلسفـة الإسلاميـة لأنه لا يعرف من اللغات غير الفرنسية ، فكيف أستطيع أنا أن اكون أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة مع أني لا أعرف إلا الفرنسية مثله تماما »[١٠] .

فوجيء المعترض بتواضع أستاذه وحلمه وهـدوئه فأخذ يعتذر ويتطلف مخلصا .

لم نبعد عن مصطفى عبدالرازق الكاتب الموهوب حين ألمعنا إلى بعض فضائله الخلقية ، لأن آثاره الأدبية كانت

---

(٩) مجلة الكتاب : المجلد الحادي عشر : مارس سنة ١٩٥٢م .

(١٠) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٣٦٧ نقلا عن السفور ١٩٧/٨/١٠ .

صدى هذه الفضائل ، فكل خاطرة خطها في مقالاته كانت تصور عاطفة نبيلة تختلج في صدره ، وأنبل هذه العواطف ما اتجه إلى إبراز الضعف الإنساني الذي لا حيلة فيه لإنسان بعيد الآمال ضعيف الإمكان ، ان الكاتب في مضمار البيان يريد أن يجيد التعبير عن انطباعاته المتوالية في وضوح و إشراق ، ولكنه حين يخلص إلى يراعه مسطرا هذه الانطباعات يجد ما كتبه في الورق لا يدل دلالة مطابقة لما اختلج في صدره من نوازع ، فيتعاظمه أن يلمس قصورا لا يستطيع تلافيه ! لا شك أن كثيرا من الأدباء قد أحسّوا قصورهم البالغ عن تصوير ما جاش في نفوسهم من الأحاسيس ولكن القليل منهم من وجد في نفسه الجرأة على تصوير هذا التصور كما عبّر عنه مصطفى عبد الرازق حين قال :

« ولم أسترح منذ زمان راحة تغير مجاري الذهن فتنعشه قليلا ، من أجل هذا تعبت قوة التفكير مني ، فأصبحت حركة المعقولات تمر بها وتؤمها متثاقلة بمقدار ما يسرع الألم والهمود ، كأن خطرات الأفكار تمر من الذهن بجرح دام فهي تمسه مسًّا وجيعا .

تبطيء عن المعاني إذا نادتها الذاكرة فهي إذا حضرت أبطأ الذهن في تحليلها وتركيبها ثم يبطيء العقل في استخراج نتائجها ، وقد ذهبت لذاذة الفهم فما أجد بشاشة لفهم جديد ، و إن هو إلا السأم من فرط التشابه بين ما تدور

حول أذهاننا من صنوف التصويرات والتصديقات ، ولو استطعت لأوقفت كل حركة للذهن ، وسددت باب المعقولات عني ، وأسلمت للشعور قيادي ، أجيب مناديه وأتبع هاديه !

تطلب عقولنا التنويع والتجديد ، ويعنتها أن تُسجن في حظيرة ضيقة ، وما هي فترة الجهد تلك التي تنتاب أذهاننا ، فإن أهل النشاط العقلي منا ، وهم نزر ، لا يشقون لمتوسطي أهل النشاط من الأمم الأخرى غبارا ، ولكنها ضجرة المكظوم الذي يريد متنفسا »(١١) .

فماذا يرى القاريء في هذا الاعتراف ؟ يخيل إليّ ـ علم الله ـ أن الكاتب الكبير يعني غيره قبل أن يعني نفسه ، لأن له في البيان الرفيع سمات أصيلة يتطلب تحقيقها فيما ينشره زملاؤه المعاصرون ، وقد عزّ عليه أن يجد أكثر المنتسبين إلى صناعة البيان لا يجيدون الحديث عن أنفسهم قدر ما يجيدون الديباجة القوية ، واللفظ المرن ، وهي فترة من فترات عهد الانتقال كانت ميدان شدّ وجذب بين الكتّاب والناقدين ، ولعل الأستاذ مصطفى عبدالرازق شاء أن ينقد نفسه ليقوّم سواه ، ومثله في حيائه النبيل أقرب الى هذا المنحى في التصويب ، إذ أنه من النفر القلائل الذين فهموا رسالة القلم ، وتحدثوا عنها في خطرات كثيرة ، وقد أطالوا الوقوف حول مزية البيان وصلته

---

(١١) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٣٥٠ نقلا عن السفور ٧ يونية ١٩١٧م .

بالجمال ، ورجعوا إلى أقوال القدامى والمحدثين في الشرق والغرب ، فإذا أراد القاريء أن نطلعه على أنموذج مما عنيناه في هذا الصدد فإننا ننقل له بعض ما كتبه الأستاذ تحت عنوان (البيان والجمال) حيث قال : « الجمال لا ينتهي عند حدّ لأنه كمال تتفاوت مراتبه الى درجة الكمال المطلق ، التي يعجز الناس تصورها ، ويصعقهم تجليها ، أما البيان فهو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي وبمقدار ما في معاني الكون من التفاوت تختلف وجوه الدلالة عليها اختلافا لا منتهي لمذاهبه ، فكلاهما يرجع إلى مدركه في الذوق ، وفي كليهما اتصال بالحسّ الظاهر إلى جانب الاتصال الكبير بالحسّ الباطني ، وعند التمحيص فالحق أن البيان جمال ، ولما كان الجمال لا نهاية له ، فالبيان لا نهاية له »(١٢) .

هذا التحليل الفلسفي الدقيق يدل على أن صاحبه يطلب من الكاتب قدرة فائقة ترقى به نحو الكمال الأمثل في أوجه الرفيع ، ولن تتاح الأمثلة المنشودة لهذا الكمال الأمثل ، فالكاتب متطلع دائما إلى مستوى أرفع ، وكلما جاد يراعه بأثر ملهم تخيّله دون ما يريد ، واشتاق إلى أن يزيد ، فكيف احتراسه من هوى يتجدد ولا يتبدد !!

والحق أن نظرة الفيلسوف قد ساعدت على تهوين المسألة لدى الكاتب ، فأصبح بعد التجارب المتعددة يقنع

---

(١٢) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٤٢٨ عن جريدة السياسة ٩/٩/١٩٢٥م .

بما يجيء على قصوره ، ويرى الأدب يؤدي دوره الطبيعي في المستويات المتماثلة وإن عجز عن التحليق الصاعد فحسبه ألّا يسف إلى الحضيض الآسن ، ومن هنا راح الكاتب يتحدث عن نفسه في فكاهة ضاحكة تنتزع البسمة من فم الحزين ، وله في هذا المجال قدرة ساحرة لا أدري كيف استطاع إسكاتها حين انتقل إلى الجامعة وترك الكتابة في الصحف السيارة فخسر الأدب العربي كاتبا من طراز المازني والبشري معا ، وهما عملاقا السخرية الأدبية بين المعاصرين ، بل إن عبدالرازق يمتاز عنهما بميله إلى الإيجاز دون الاسترسال ، ومن شأن صاحب السخرية الموجزة أن تكون طلقاته النارية عاجلة قوية الإصابة حتى ولو أطلقها على نفسه ، وإلى القاريء مثل مما نعنيه :

تحدث مصطفى عن رحلته في (اكس ليبان) إلى بحيرة (اني) فذكر رعونة سائق السيارة ، وصلفه ، وعبثه ثم قال (استوى صاحبنا السواق على عرشه ، وسار ينتهب الأرض انتهابا في طرق صاعدة هابطة ملتوية ، وكانت المناظر اللذيذة تمرّ بنا ، ونحن عنها في شغل بما يساورنا من خوف هذه العجلة ، وأقبلنا على فج منبسط يشق مروجا وقرى ، فإذا فلاح وديع يقود عربة محملة يجرها حصان ، وبجانب الرجل كلبه الأمين يسايره لا يتقدم عنه ، ولا يتأخر تحسبهم جميعا يتناجون لما ترى من تدانيهم وتبادل العطف بينهم .

داس السواق الكلب بسيارته ! فتركه جثة هامدة ، ومرّ كممر البرق ، ونحن ننظر الى الفلاح واقفا بحصانه الى جانب الأشلاء الممزقة جامدا لا يستطيع تكلما ولا حراكا ولو صوّره مصور لشهدت الثكل شخصا ماثلا .

وتصايح السيدات جزعا ، فكان صياحهن تعزية يحملها النسيم الى ذلك المحزون الواقف هناك محتاجا الى العزاء سار الركب ولابد أن يتحدث السمار ، فسمعت سيدة تقول لصويحباتها ، لم يكن مقرونا باليمن طالع هذه النزهة !! قالت الأخرى : ألا يكون معنا قسيس من حيث لا ندري ؟

وجعلت السيدات يتفحصن أوجه الرجال متضاحكات .

قال الشيخ (الكاتب المعمم) هنالك تذكرت قول شاعر الأزهر .

الشيـــــخ والقسيس قسيســـــــــان
وإن تشــــأ فقـــــل همـــــا شيخـــــان

فتصببت عرقا ، وأخذت ألوي وجهي ، وأحرف ملامحه ، وأصد عن تلك النظرات اللاعبة مخافة أن يصبح لعَبها جدا[13] فهل رأى القاريء نادرة أوجع من هذه النادرة يصيب بها الكاتب نفسه ، وهو بعيد بعيد عن النحس ، لم يقربه منه إلا تذكر بيت من الرجز قاله الشيخ

---

(١٣) من إثار مصطفى عبدالرازق ص ٤٦١ عن جريدة السياسة ١٩٢٦/٢/٧ .

ابراهيم سليمان شاعر الأزهر في ثورة سنة ١٩١٩ حين اتحد المسلمون والأقباط تحت زعامة سعد زغلول وخطب القمص سرجيوس في الأزهر وخطب الشيخ علي سرور الزنكلوني في الكنيسة ، وخاب فأل الانجليز في الفرقة ، فنظم الشيخ ابراهيم أرجوزته ، وجعل الشيخ قسيسا ، وسكن البيت حينا من الدهر حتى بحثت السيدة عن قسيس بين الراكبين فلم تجد !! ولكن مصطفى تذكر البيت فاتهم نفسه متوجعا !! أرأيت أعجب من هذه النادرة !!

هذه النادرة العجيبة تذكرني بأخت لها ، حين ثار طلبة دار العلوم على العمامة ، وطلبوا الطربوش ، فكتب الأستاذ عبدالرازق عدة مقالات قال في إحداها[١٤] .

(هل أتاك حديث اخواننا طلاب دار العلوم إذ أجمعوا أمرهم أن يخرجوا من سعة القفاطين والجبب ، إلى ضيق البنطولانات والجاكتات والياقات ، يتوج جبهتهم طربوش اسطواني يموج زره حرا كلما خطر النسيم ، مكان تلك الطرابيش الكروية المضلعة التي تغيب العمامة زرها فلا يستطيع حراكا) .

كما اتجه الكاتب إلى نفسه بالملامة الرشيقة حين تحدث عن رحلته في الباخرة من أوروب إلى مصر مع نفر من الشباب المتطلع ، صادقهم وصادقوه طوال الطريق فوق الأمواج ،

---

(١٤) من آثار مصطفى عبدالرازق ص « ٤١٤ » عن جريدة السياسة .
٢٧ / ١٠ / ١٩٢٤م .

وهم يعلمون أنهَ مدني مثلهم حتى فوجئوا بما عبّر عنه الشيخ حين قال :

(كان معي في حجرة الباخرة ثلاثة من الشبان ، فيهم ظرف وأدب ، وكنا على تفاوت السن اخوانا عى سرر متقابلين ، فلما فتحوا عيونهم على شيخ يرفل في أزر مبعثرة ، وذيول مجررة ، وأكمام منشرة ، ولفائف تهفو بها الريح ، أنكروا في الصباح من عرفوا في المساء ، واستوحش الشباب الجديد من مظاهر الشيخوخة والقدم ، وشعرت أنا نفسي ، كأني خرجت من جيل إلى جيل(١٥).

إن الذي يتندر على نفسه بهذه البساطة المفرطة ، لابد أن يتندر على غيره ، وأعتقد أن حياء الكاتب قد دفعه إلى كظم كثير من براعاته الساخرة رعاية لحقوق الزمالة أو الصداقة أو الأستاذية ، أو توقيرا لجلال الشيب ، ورصانة السن ، ولكن توقيعه المستعار (الشيخ الفزاري) حينا و (م) حينا آخر قد شفع له في معابثة عالم كبير رمز له في المرة الأولى بالحرفين الأولين من اسمه ، وصرح باسمه في المرة الثانية ! هذا العالم الكبير هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي العالم الإسلامي في عصره ، وللشيخ بخيت رحمه الله دين وعلم هما مصدر تجلته وإكباره ، ولعل من مواقفه البارزة رفضه مبلغا كبيرا من

---

(١٥) من آثار مصطفى عبدالرازق ، ص « ١١٢ » ، نقلا عن الجريدة ١٩١٤م.

المال يجاوز عشرة آلاف من الجنيهات حين أصدر فتوى شرعية استحق بها أحد الأثرياء مقدارا كبيرا من الميراث ، فهرع الوارث إلى الشيخ الكبير يكافئه بالمبلغ الضخم على فتواه ، فنهره الشيخ قائلا : العلم في الإسلام لا يباع ! كما أن من مواقفه الذائعة فتواه الجريئة في مقاطعة لجنة ملنر ، وعدم الاتصال بها مما أحرج الانجليز حرجا ضاقت به الصدور ، وقد أبرق له سعد باشا زغلول من منفاه مكبرا معتزا بأكبر فقيه في الإسلام ! أمهد بذلك كله كيلا يتأثر قارىء بدعابة الكاتب فيظن الرجل الكبير على غير شيء من العلم ، ولكن مصطفى وازن الشيخ بخيت بالأستاذ الإمام محمد عبده فشالت كفته إذ لا يوازن نابغة بعبقري ، قال الكاتب :

(ذكر لي أن الشيخ (م.ب) سيقرأ بعد العصر في مسجد سيدنا الحسين كتاب المنار في أصول فقه الحنفية ، وبالغ أصحابي في الثناء على الشيخ حتى وضعوه في صف الشيخ محمد عبده وللأستاذ بين أهل الأزهر شهرة يمدها تاريخ حافل ، ذهبت عصر اليوم الى جامع الحسين ، وجلست قريبا من مجلس المدرس الذي أقبل محاطا بطائفة من الطلاب منهم من يحمل نعليه ، ومنهم من يحمل المحفظة ، وآخرون يسيرون في عرض الموكب تكميلا للأبهة ، وكان الأستاذ لابسا قفطانا أصفر فاقعا لونه ، فيه خطوط سوداء ، ويحيط بصدره الضيق نطاق من حرير أزرق مطرز

بأعلام مخضرة ، من فوق ذلك جبة تضرب إلى لون الدم ، ويرتدي بدفية من صوف برتقالي لامع .

كانت الساعة ٩ عربي فما برح العالم النحرير يردد هذه الجملة التحميدية بحثا وتحقيقا (أحمد الله أولا وثانيا) حتى أذن مؤذن المغرب ، ولما أفاض باطالته وترديد الحمد.. في تطريق الاحتمالات ، وتوجيه الاعتراضات ، قلت يا سيدنا الشيخ ألا يجوز أن يكون مراد المصنف هو التلويح إلى البيت المشهور .

لك الحمد أما ما نحب فلا نرى
ونبصر ما لا نشتهى فلك الحمد

فلوى الشيخ عنقه ، ووجم مفكرا ثم أجاب : هذا الاحتمال غير وجيه ، لأن الحمد في المتن مطلق وهو في الشعر مقيد)[١٦] .

والنقد هادف لا محالة ، والتوجيه التربوي سديدا ! ولكن أين حياء التلميذ من جلال أستاذه ! إنها الفكاهة تحكمت فقهرت واستترت بالتوقيع المستعار ؟

والمعابثة الثانية كانت بجريدة السياسة حين أخرج الشيخ بخيت كتابه الحافل في نقد كتاب (الاسلام وأصول الحكم) للأستاذ علي عبدالرازق فأراد مصطفى أن ينصر شقيقه بدعابة ساخرة قال في مطلعها ، وكان الوقت من أيام رمضان .

---

(١٦) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٤٧٤ نقلا عن السياسة ١٩٢٦/٣/٣٠م .

(إذا كان للصيام أثر في إذبال الصائمين وجسومهم فإن له أثرا أيضا في تفكيرهم وما يقولون وما يكتبون ، فإذا نظرنا في كتاب (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) من تأليف الأستاذ العلّامة الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقا . عرفت في أكثر ما يحوي ذلك السفر الضخم علامات صوم على الأقل ، ولكن الكتاب نشر قبيل شهر رمضان ، فلعل الشيخ بخيت يكون ممن يصومون الأشهر الثلاثة من حيث لا ندري ، بل إن كثيرين ممن شهدوا ملامح الأستاذ ، وألموا بكتبه ، واستمعوا لقوله يرون أنه يصوم الدهر)[١٧] .

هذه الفكاهة الضاحكة برق في غيم متكاثف لأن صفحات الشجى في آثار الكاتب الكبير متعددة متنوعة ، وقد حرت عند الاختيار فيما آخذ وأترك ، لأن المستوى الفني متفق يمنع التفاضل ، فإذا كان لابد من الاستشهاد بشيء أختم به المقال فهو ما أنقله كيفما اتفق دون ترشيح وانتخاب إذ يقول الرجل الرزين :

(أرى من الحزن معنى من معاني الإحساس اللطيف الذاهب في أعماق النفس حيث لا يبلغ السرور ، أرى الحزن كمالا ، لأنه يصرف النفس عن المظاهر الملهبة الطائشة إلى العواطف الرزينة المحكمة .

الحزن غشية من الشعور بالألم تسير في العصب

---

(١٧) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٣٤٠ نقلا عن السفور ٤ / ٥ / ١٩١٧م .

الحساس بنوع من الحذر مريح على ما فيه من لذعات موجعة ، وأهل الحزن أولئك الذين خلصت قلوبهم من كل شوب لأنها محصت بنار الجوى فعادت جوهرا مصفى .

الحزن أدخل في باب العواطف من السرور ، ومظاهره أغنى بمعاني الجمال من مظاهر هذا ، وإذا أعجبك الفم اللطيف بساما تلمح ثناياه الغر من بين شفتين غضتين كأنهما وردة فتق الربيع عنها غلافها سحرا ، فأين ذلك من عينين ساجيتين في نظراتهما الرهيبة المشتعلة مزيج من حنان وعذاب ؟ الحزن شغل الروح ، فالذين لا يعرفون الحزن أرواحهم هواء) .

حيا الله روح هذا الإنسان الأمثل ، وضاعف له من مظاهر البهجة في فردوسه الناضر ما ينسيه ما كابد من غصص مريرة دفعته إلى أن يتحدث عن أساه الدنيوي فيجيد ويمتع ويفيد .

البارودى بين التجديد والتقليد

لا نريد أن نخص حياة البارودي بالشرح والتحليل فترجماته ذائعة مشتهرة في متناول الدارسين ولكننا نشير منها إلى ما يدل على تكوينه الشعري وتأثيره الوجداني حيث أن الشاعر كان فاتحة نهضة مباركة في عالم الأدب ودراسة وسائل نبوغه مما يعين على تصور جهده الأدبي ويحدد اطاره الفني أكمل تحديد .

نشأ البارودي في أسرة ثرية مترفة ، ولئن مات والده وهو صغير فقد ترك له ثروة واقية وحسبا أصيلا فتح أمامه المدارس الخاصة بأنجال العلية في عصره ، فدخل المدرسة الحربية التي أسست في عهد محمد علي وكان ذا يقظة متطلعة في نشأته فتفتحت عيناه على كل جديد وأرهف سمعه لدراسة كل ما يلقى عليه وكأنى به وقد ظن أنه بعد تخرجه سيتدرج في مراتب الجيش مرتبة بعد مرتبة فيبلغ عن طريقه ما بلغ آباؤه وأجداده ، ولكن ظنه قد تبدد حين أوصدت المدرسة الحربية عند تولية عباس الأول فاضطر الناشيء المتطلع إلى أن يلزم بيته على غيظ أليم .

كانت هذه العزلة المفاجئة نعمة على الأدب العربي إذ رأى الشاعر أن يشغل أوقات فراغه في مطالعة كتب التاريخ وصفحات الأدب فأكب على التاريخ الإسلامي يقرأ صفحاته ويدرس أعلامه ، وكان يميل بنوع خاص إلى ذوي المجادة

الحربية من أمثال علي بن أبي طالب والمثنى بن حارثة وخالد وطارق ، ثم اتجه وجهة الدواوين الشعرية فعكف على روائع البحتري وأبي تمام والمتنبي والشريف ومهيار وأبي العلاء عكوفًا دفعه إلى الهيام بالجزالة البيانية والصياغة التعبيرية ، وكان في نفسه طرب للشعر وهيام بالموسيقى فأمدته هذه الروائع بما يرضي كلفه ويشبع هيامه ، ومن ثمَّ فقد جعل الشعر القديم شغله الشاغل وهمه الدائم ، فاتسعت ميادين اطلاعه لتشمل تراث الجاهليين والأمويين ، وكان له طبع قوي فعمل على محاكاة ما يقرأ وأخذ ينظم ما يشبه قراءاته مقلدا محاكيا في ابتداءاته لذلك تجد كثيرا من قصائده قد كتبت تحت عنوان « وقال يروض الشعر » ومعنى هذا أنه كان يشعر بطرب يدفعه للقول تقليدا أو اتباعا دون أن يحدد هدفا خاصا لغرض معين ، بل يتبع سنن العرب في قصيدة تبدأ بالغزل وتمضي إلى الفخر متحدثة عن أريحية ماجدة وهمامة كريمة وممتلئة بحوافل البيان من تشبيه رائع واستعارة منتقاة ، ومازال يرتاض القول حتى استقام له مذهب خاص ينحو منحى الجزالة البيانية في أرقى عصور العربية ، والهيام بمحاكاتها محاكاة لا يكون التقليد وحده باعثها دون شعور نفسي بمعانيها ، بل تكون مشاعره الصادقة دافعة إل القول في سياق جزل يحكي الديباجة العباسية ، فهي محاكاة الشاعر المطبوع ذي الاتجاه الهادف الذي يجد في نفسه ما يحتاج منه دون تصيد وافتعال .

هذا الاتجاه إلى الأدب العربي في أرقى عصوره وأصفى منابعه قد جعل البارودي مجددا في عصره ، لأن شعراء عهده كانوا أسرى البديع المتكلف والمحسنات الزائفة ، ولم تكن لديهم همم عالية تدفعهم إلى السبق في مضمار الأصالة الواعية ، بل كان أكثرهم يفتعل النظم ارتصادا لجناس أو تورية أو طباق ، وإن جواده ليكبو به إذا امتد به حبل القول فينبهر انبهارا عاجزا ، وقد استمع البارودي لا محالة إلى شعراء عصره أو متشاعرية إذا أردنا الدقة الواعية ، فنفر منهم نفورا تراه في ابتعاده عن مذهبهم المنحدر ، واتجاهه الصريح إلى زعماء الشعر في أخصب عصوره ، فهم أساتذته وموجهوه لذلك كانت رسالته التجديدية هي بعث الشعر العربي والقفز به إلى عهود الفصاحة الرائعة ، وهي رسالة لها دورها الخطير في تقوية الاتجاه الشعري والنهوض به من كبواته المنحدرة ، وقد كانت محاكاة الشاعر لأئمة البيان من هؤلاء موضع إجلال الدارسين من مؤرخي الأدب العربي ، لأنها ارتقاء بالشعر من مستوى إلى مستوى ، ولأنها تعفية على عهد بائد وإقدام على نهج طريف .

وقد دأب بعض المؤرخين علي عد البارودي قديما في كل ما قاله إذ أن مهمته في تقديرهم هي النهوض البياني بالشعر والصعود بالقصائد إلى مستوى الصياغة العباسية دون تجديد وراء ذلك ، وهذا ظلم من ناحيتين

مختلفتين ، لأن البـارودي كما التـزم بعض الأغـراض القديمة لدوافع ذاتية صادقة تتجه وجهة هذه الأغراض اتجاها ينبع من صميم ميوله الشخصية فقد افتتح القول في أغراض جديدة أوحت بها طبيعة العصر ولغة الحياة ، وهو في الأغراض القديمة والجديدة معا ذو براعة مبتكرة تدل على شخصية نابضة تتأثر وتؤثر أبلغ ما يكون التأثر والتأثير ، هذا من ناحية ، أما الناحية الثانية فهي أن الصياغة التقليدية التي ارتضاها البارودي شكل قديم يحمل مضمونا جديدا في أكثر مراميه ، فإذا راض القول متأثرا بقصيدة للنابغة أو المتنبي أو البحتري أو أبي نواس أو الشريف أو البوصيري ممن عارضهم الشاعر معارضة واضحة ينبيء عنها الوزن والقافية والمقدمـة الغزلية فإن وراء هذا الشكل الخارجي مضمونا جديدا يعبر عن أحاسيس جديدة ليست انتهابا لخواطر سابقيه بل مباراة أدبية يسير فيها فارسان لكل أهدافه وقـوته ووثوبه وإن اتحد الميدان الذي يتباريان فيه .

أجـل لقـد عـارض البـارودي فحـول الشعـراء من السابقين ، فظن بعض الكاتبين أن المعارضة نظم لا يخرج عن المحاكاة والتقليد ، وهو ظن قد تورط فيه الدكتور أحمد زكي أبو شادي حين قال في الجزء الثاني من مجلة أدبي :

« ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء ، بل هو محض صناعة والشعر عاطفة فكرية عميقة الجذور

قبل كل شيء لا ببهرج زائف سطحي ، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممتازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة ، ولكن الحقيقة أنه ثائر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة فأثار ذلك نفسه الشاعرة مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين ومعارضة كيتس لسبنسر » .

وهذا الكلام متضارب ينقض بعضه بعضا ، لأن الشاعر الذي يتأثر بموسيقى القصيدة غير الشاعر الذي يتأثر بموضوعها ، فالأول ذو تأثر شكلي لا يتجاوز السطح ولا يدفع من الخواطر ما يفسح له مجال القول ، أما الذي يتأثر بالموضوع فقد شارك الشاعر الأول إحساسه أولا ثم زاد عليه بإحساسات جديدة تولدت في أعماقه من تأملاته الخاصة للقصيدة ، وحينئذ يتسنى له أن يقول في معارضته كل جديد طريف ! ومن هنا كانت المعارضات الشعرية ذات وزن راجح لدى الدارسين ، ومادمنا في محيط البارودي فإننا نضرب المثل بما قاله عن هجرة الرسول ومقامه في غار ثور معارضا البوصيري في بردته الشهيرة إذ أتي في ذلك بما لم يأت به معارض من أمثال شوقي وعبدالمطلب وغيرهما ، ولو كانت المعارضة مجرد تأثر شكلي لكانت المدائح النبوية التي اتجهت وجهة البوصيري نسخا متشابهة وهي كذلك عند بعض الناظمين ممن لم يرزقوا روعة الشعر وحيوية الفن وسطوع الخاطر ، بل حاولوا النظم مقلدين ، أما أمثال البارودي

وشوقي فقد صدروا عن طبع دافق وغزارة منهلة ولمح نفاذ واقرأ إن شئت قول البارودي في حمامة الغار :

فمـــا استقـــر بـــه حتى تبـــوأه
من الحمـــائم زوج بـــارع الـــرنم
إلفـــان مـــا جمـــع المقـــدار بينهمـــا
إلا لســـــر بصـــــدر الغـــــار منكتم
كـــلاهمـــا ديـــدبـــان فـــوق مـــربـــأة
يـــرعى المســـالـــك عن بعـــد ولم ينم
إن حن هـــذا غرامـــا أو دعـــا طـــربـــا
بـــاسم الهـــديـــل أجـــابت تلك بـــالنغم
يخـــالهـــا من يـــراهـــا وهي نـــائمـــة
في وكـــرهـــا كـــرة ملســـاء من أدم
إن رفـــرفت سكنت ظلا وإن هبـــطت
روت غليـــل الصـــدى من حـــائـــر شبم
مـــرقـــومـــة الجيد من مســـك وغـــاليـــة
مخضـــوبـــة الســـاق والكفين بـــالعنم
كـــأنمـــا شـــرعت في قـــانيء ســـرب
من أدمعي فغـــدت محمـــرة القـــدم
وسجف العنكبـــوت الغـــار محتفيـــا
بخيمـــة حـــاكهـــا من أبـــدع الخيم
قد شدّ أطـــرافهـــا فـــاستحكمت ورست
بـــالأرض لكنهـــا قـــامت بـــلا دعم

كـــأنهـــا ســـابـــري حـــاكـــه لبق
بـــأرض ســـابـــور في بحبـــوحـــة العجم

اقرأ هذه الأبيات ثم قل لي : هل كانت هذه الصورة الرائعة مجرد محاكـاة ؟ أم أن لكل معـارض صولاتـه الظافرات ؟

فإذا تركنا المعارضات البارودية بعد أن عرفنا منزلتها من التجديد الذاتي ، فإننا نجد للبارودي في مضمار الإبتكار الفني اغراضا لم يسبقه إليها سابق في عصره فقد تقدم شعراء النهضة الحديثة حين تحدث عن الآثار المصرية بقصيدته الرائعة :

ســل الجيـزة الفيحاء عن هـرمي مصـر
لعلك تـــدري غيب مـــا لم تكن تـــدري

وهو سبق غفل عنه من زعم أن شوقي أول من تحدث عن الآثار ، وقد فاخر الدكتور زكي مبارك في كتاب (الموازنة بين الشعراء) بأنـه اكتشف أن أول من تحدث عن الآثـار المصرية هو اسماعيل صبري في قصيدته التي مطلعها :

لا القـــوم قـومي ولا الأعـــوان أعـــواني
إذا ونى يـــوم تمجيـــد العـــلا واني

وهاأنذا أقول له : إن البارودي هو الشاعر السباق ، فإذا تركنا شعر الآثار إلى الشعر السياسي ، فإننا نجد

البارودي رائد هذا المجال إذ كان أول من تحدث عن الحروب التركية الروسية بإفاضة و إشباع ، كما هاجم المحتلين من الانجليز هجوما كان أول صيحة سياسية في الشعر المعاصر ، و إذا حفل الأدب القديم بوصف المعارك الحربية الماضية ، فإن وصف البارودي لحروب عصره كان جديدا بالنسبة لقراء الشعر من معاصريه ، فقد وصف جنود الأعداء كلهم من همج البلغار وأوزاع الروس وعصب التتار وصفا ناطقا يقوم مقام الصورة المعبرة و يغني عن شريط سينمائي يعرض هؤلاء الذين يقول عنهم :

تجمعت البلغار والروم بينها
وزاحمها التاتار فهي حشود
إذا راطنوا بعضا سمعت لبعضهم
هديرا تكاد الأرض منه تميد
قباح النواصي والوجوه كأنهم
لغير أبى هذا الأنام جنود
سواسية ليسوا بنسل قبيلة
فتعرف آباء لهم وجدود
لهم صور ليست وجوها وإنما
تناط إليها أعين وخدود
يخورون حولى كالعجول وبعضهم
يهجن لحن القول حين يجيد

أما الناحية الاجتماعية فكان المظنـون أن البارودي بنشأته المترفة وبعده عن شغب الدهماء وضجة الرعاع ينأى عن وصف ما يمثل هذا الشغب الأرعن ، ولكن الشاعر فنان دقيق يتيقظ لخوافي مجتمعه ويعرف مناحي الشذوذ في تكوينه فغالى بصيحات خلقية تدعو إلى إعلاء النفس وارتفاع السلوك وتهيب بأبناء العـروبة والإسـلام أن يكونوا موضع الأريحية والبسالة فيستجيبوا لـداعي الكرم ويلبوا هواتف المجد والعزة والفتوة ، وكل ما قاله في هذا المنحى الرفيع جديد يحمل طابع الطرافة ويفتـح الطـريق لتلاميـذه التالين ، ومن أطـرف مـلاحظـاتـه الاجتماعية حديثه عن جارة مزعجة ذات أولاد لا يسأمون الضجيج في منتصف الليل ، بل يهيجون هيجات يفزع لها الناس من رقادهم وتتألب لها طوائف الحيوانات حتى يصير الشارع معركة ذات عجيج وصيال وذلك تلخيص شائه لما عناه الشاعر الكبير حين قال :

إلى الله أشكـــو طـــول ليـــلي جـــارة
تبيت إلى وقت الصبـــاح بـــإعـــوال
لهـــا صبيـــة لا بـــارك الله فيهمـــو
قبـــاح النـــواصي لا ينمن عـــلى حـــال
صـــوارخ لا يهـــدأن إلا مـــع الضحى
من الشـــر في بيت من الخير ممحـــال

كـــــأنهم ممــــــا تنـــــازعن أكلب

طــرقن عــلى حين المســـاء بــرئبـال

فهجن جميعــا هيجــة فــزعت لهــا

كـلاب القرى مــا بين سهل وأجبــال

فلم يبق من كلب عقـــــور وكلبــــة

من الحى إلا جـــاء بـــالعم والخـــال

وفـــزعت الانعـــام والخيـــل فـــانبـرت

تجـــاوب بعضــا في رغـــاء وتصهـــال

فقـــامت رجـــال الحي تحسب أنهــا

أصيبت بجيش ذي غـــوارب ذيـــال

فمن حـامل رمحا ومن قـابض عصـا

ومن فـــزع يتلو الكتـــاب بـــإهـــلال

ومن صبيـــة ريعت هنـــاك ونســوة

هـــوائم دون البـــاب يهتفن بــالـــوالي

فهذه قطعة قوية من الشعر الاجتماعي الدقيق الذي يصف تجربة ذاتية أرقت الشاعر وأضنته فأوحت له برائق التصوير وجيد التعبير. وبهذه الطرائف وأمثالها بـرز البارودي مجددا في الموضوع والصيـاغة ، ولـولا أنه تعرض في الثلث الأخير من حياته لبلاء النفي وشقاء المرض وقسوة الحرمان ثم بالرمد القاضي على نوره الهادي لرأينا شعره الآسر يقفز قفزات متوالية تتجاوز طور التمهيد إلى

ما بعده من أطوار النمو والازدهار مما تحقق كثير منه على أيدي تلاميذه التالين .

والغزل فن شعري إذ لا يكاد يخلو شاعر من عاطفة تدفعه إلى الافتنان فيه تنفيسا عما يحس ، وقد قال البارودي ما نعزوه دائما إلى التقليد والمحاكاة ناسين أن فروقا شتى بين مطالع ومطالع ، فإذا كان الكثيرون يبتدئون القصائد بالغزل فلن يكونوا جميعا ممن يتبعون سننا يرتضيه الناس ، بل أن فيهم من وجد السانحة تتسع للتعبير عن خوالجه فتم له أن يعبر عن ذاته في أصالة واضحة ! وليت شعري ما سرّ هذا الضرام الذي تتوقد به بعض مطالع الشريف الرضي إن لم يكن أوارا ينبيء عن مكنون الجمر طي الصدر ، وكذلك نجد في كثير من مطالع البارودي دون أن ننكر ما نلحظه في بعضها الآخر من محاكاة اضطر إليها الشاعر المبتديء إذ لا مفر من التقليد لشاعر يعتبر مدرس نفسه وتلميذ ما يقرأ دون أن يهتدي بأستاذ يراوحه ويغاديه ، على أن في الديوان مقطوعات طريفة استقلت بالغرض العاطفي دون أن تزحمها أغراض أخرى وهي لا شك وليدة تجربة حقيقية أحسها الشاعر حين قال :

قالت وقد سمعت شعري فأعجبها
إني أخاف على هذا الغلام أبي

أراه يهتف بـــاسمي غيـــر مكتـــرث
ولـــو كني لم يـــدع للظن من سبب
فكيف أصنـــع إن ذاعت مقـــالتـــه
مـا بين قـومي وهم من ســادة العـرب
فنـــازعتهـــا فتـــاة من صـــواحبهـــا
قـــــولا يؤلف بين المـــــاء واللهب
قـالت دعيه يصــوغ القـول في جمـل
من الهـــوى فهـــو آيـــات من الأدب
ومـــا عليـــك وفي الأسمـــاء مشتـــرك
إن قـــال في الشعـــر يـــا ليـــلى ولم يعب
وحسبـــه منـــك داء لـــو تضمنـــه
قلب الحمـامة مـا غنت على العــزب
فـاستأنست ثم قـالت وهي بـاسمـة
إن كـــان ما قلت حقـــا فهـــو في تعب
يـــا حسنه من حـــديث شف بـاطنـــه
عن رقـــــة ألبستني حلة الــــطرب

ولهذه المقطوعة نظائر أخرى نأمل أن تجد مَن يخصها بالتحليل الأدبي منقبا عن معدنها الصحيح .

نقولا يوسف بين ولز وطاغور

رجعت إلى مصر بعد غيبة قصيرة فسألت عن صديقي الأستاذ نقولا يوسف فعرفت أنه قد غادر الدنيا .. فعجبت كل العجب أن يصمت إخوانه الأدباء وأصدقاؤه الكتّاب عن نعيه ، وفيهم من يملك القلم المسهب والصحيفة الذائعة ، وماكان الفقيد النبيل لهم إلا أخا أصيل الود ، عريق الوفاء ينزلون عليه في الإسكندرية صيفا فيجدون الأنيس الملاطف ، والصديق الباذل ، والجليس المهذب ، يتحسس مطالبهم ليقضيها على عجل ويتلمس رغباتهم تلمسا حتى لتقع في اليد قبل أن ينطق بها اللسان ! أهكذا يسكت عن نقولا أحباؤه وكانوا يراسلونه بالشوق ويقابلونه بالعناق ، ويودعونه بالدمع ! كما شهدت ورأيت .

كان نقولا إنسانا مثاليا ، وقد اتسعت إنسانيته لتشمل ما على الأرض ، ومن عليها جميعا ، وقد كان أدبه الرائع المتنوع فيض هذه الإنسانية النبيلة يصدر عنها صافيا رائقا شفّافا لا تعلوه كدرة ، وقد بحث وألّف ، وكتب المقال وعالج القصة ، وحلل التاريخ وترك من الآثار مايضعه في الصف الأول من ذوي الفكر ، لو روعيت الكفاءة لذات الكفاءة ، وهو في كل ما نوّع من فنون أدبه يحقق إنسانيته الأصيلة ويدعو إلى ما يشرف هذه الإنسانية من خلال

الرحمة والتسامح والحب ! مع العدو قبل الصديق ، أجل مع العدو قبل الصديق ، إذ ابتلى بنفر من الوصوليين يتسولون منه أدبه تسوّلا ، فيمنحهم عن عطف ، ثم تتكاثر شواغله فيهمل حينا مع البسمة المعتذرة ، والوعد المرتقب ، ولكنه يكابد شتى صنوف الغدر ممن يلاحقونه بالاتهامات المزوّرة ، ويتعقبونه بالشكايات المجهولة ، آناً لوزارة التربية أيام كان يعمل بها ، وآناً لمباحث الدولة افتراء دون صدق ، وتارة للضرائب ادعاء دون كسب ، فإذا اطلعت على هذه المرهقات ، وحاولت ان تسليه ببعض ما يهوّن عليه ، نظر إليك مبتسما ، وقال ملاطفا : (دنيا يا أستاذ) .

كان من حظ نقولا أن اهتدى إلى رسالته الإنسانية في مقتبل شبابه ، فقد شعر وهو طالب بمدرسة المعلمين العليا أن للقلم مهمة خطيرة وأن الأديب الحق ليس من يزخرف القول في كل اتجاه ، بل من تسيطر عليه فكرة هادية يسعى لتحقيقها ، وكانت الفكرة التي ملأت خاطر الأديب الناشيء ، وتغلغلت في أعماقه ، هي فكرة الوحدة العالمية التي تجعل الكوكب الأرضي دولة واحدة فينجو العالم من أهوال الحرب ، وكوارث التدمير ، ولعل الحرب العالمية الأولى بفظائعها الشاملة وأهوالها الممتدة قد دفعت تفكير الطالب الناشيء إلى الخلاص من مثيلاتها ، ثم قرأ عن مباديء ولسن ما أوقد عزيمته ، فأخذ يبحث عمن يشاركه

همومه الإنسانية ، وأدركه هربرت جورج ويلز الإنجليزي ورابندرانات طاغور الهندي بمثله المنشود ، فعكف على آثار الأديب الغربي مقارنة بتأملات الشاعر الشرقي ، وانطلق يدعو إلى الإنسانية الشاملة فيما يرسل من نفثات ، وقد امتد به الأجل حتى جاوز السبعين وهو لا يفتأ ينادي بإنسانيته العالمية لم يترك خطه المثالي يوما ، وإن كرر وأعاد وأجمل وفصل شأن الدعاة الملحّين ، وإذا كان في الكاتبين من يحسبون الأدب كتابة دون هدف فهم يقرءون ويلخصون وربما كتبوا في يوم واحد مقالا عن الحسن البصري ومقالا عن راسبوتين ، بلهجة واحدة ، إذا كان في الأدباء من يأكل على كل مائدة ويكرع من كل قدح فإن نقولا يوسف منهم بمنأى بعيد .

لم أنس حديثه لي عن رؤيته الشخصية لطاغور دما ولحما يتكلم ! فقد قال نقولا عن نفسه إنه زار انجلترا وسويسرا وفرنسا واليونان وتركيا سائحا يتعلم ، وقد حاول أن يزور ولز في رحلته البريطانية فلم يوفق ، ثم رجع إلى القاهرة ليرى الجرائد تتحدث عن زيارة طاغور لمصر ، فعلم أن الله أراد أن يعوضه خيرا ، وإذا كانت الدنيا لا تمنح كل شيء ، فقد ضنت بولز لتجود بطاغور ، ولو اختار بينهما دون جمع لاختار طاغور ، لقد ساعده الحظ فعلا حين قدم له رؤية من يختار ، وإذا كانت باخرة الشاعر الهندي في طريقها إلى الإسكندرية فلابد أن يكون في استقبال

الفيلسوف الشاعر ! ولم يكن وحده ، إذ أن الإسكندرية كلها خرجت تستقبل طاغور ، وقد نهض من علية القوم من يهيء له القصر الفخم ، والاستقبال الحار ، والاحتفال الحاشد ، فإذا كان اليوم التالي للزيارة فقد امتلأ مسرح الحمراء بالثغر بمئات المثقفين ، ليستمعوا إلى محاضرة طاغور عن فلسفة الهند ، يقول نقولا : «وكأنما تحوّل الملهى إلى معبد يقوم بطقوسه كاهن عظيم وفد من أغوار التاريخ وقد أضفت عليه لحيته المسترسلة البيضاء ، وشعره الكث الأبيض ، وقوامه المعتدل المديد ، وعباءته الشرقية بلونها البني منزلة ومكانة ، وأخذ الرجل يتحدث والجمهور طرب فخور ، والأديب الشاب يرصد كل حركة ويسجل كل حرف ويجمع كل أحاسيسه في عينه ليرى وأذنه ليسمع ، ثم قذف بنفسه بين المتزاحمين بعد انتهاء المحاضرة ليصافح الشاعر ، ويعانقه ، وليندم على أن الزمن قد سار دون ان يتجمد فيظل طاغور واقفا متكلما ! ثم علم أن القاهرة تتأهب للإحتفال بشاعر الهند ، وأن أمير شعراء مصر قد أعدّ الاستقبال ، وهيأ الحفل ، ووجّه الدعوات ، فسرعان ما حمله القطار إلى القاهرة ليجد الصحف والناس جميعا يتحدثون عن طاغور ، وقد إتجه إلى جريدة السياسة الأسبوعية التي كان يكتب فيها ليجد من محرريها من يستطيع أن يقدم له بطاقة دعوة من شوقي ، ليكون في كرمة ابن هانيء مع المحتفلين ، ولكن أصدقاءه لم يستطيعوا أن يجدوا لأنفسهم ما يشتهي ويشتهون لأن شوقي قد اتجه إلى

القمم وترك السفوح ! قال نقولا : فرأيت أن أترامى على الأستاذ محمد توفيق دياب إذ أعرف مكانته لدى شوقي حتى ترك لي بطاقته ، وقال إنه سيتصرف ، وكانت الكرمة الشوقية ليلة طاغور بدعا من البدع إذ هيأ شوقي لها أجمل مظهر يمكن أن تتلألأ فيه ، ومن العجيبة التي يجب أن تسجل حقا أن مجلس النواب المصري أرجأ اجتماعه ساعتين ليتمكن رئيسه الزعيم سعد زغلول مع الصفوة من الوزراء وأعضاء المجلس من مشاهدة احتفال طاغور ، وأداء واجب تكريمه ، وقد حضر سعد وعدلي ومحمد محمود وثروت ليحيطوا بالشاعر الضيف ممثلين لشعب يحب الأدب ويهتف به ، ويرحب بأعلامه في كل قطر ، وقام الأستاذ توفيق دياب ليلقي كلمة شوقي في تحية الشاعر ! وأراد نقولا أن يقذف بنفسه بين المتزاحمين ليصافح الشاعر ويعانقه مجددا مشهد الأسكندرية فما استطاع ، إذ وجد طاغور محاطا بذوي الهيبة والنفوذ في مجلس لا يسمح بالتطفل ولكنه خرج بعد انتهاء الحفلة سعيدا باسما يحمد الله أن رأى وسمع وادخر لنفسه مكنونا ثريا من أنضر الذكريات ! ومع مَنْ ؟ مع طاغور !

لقد جمع نقولا يوسف صفوة مقالاته الشابة في كتاب (الحياة الجديدة) ليقدم آراءه الإنسانية في بحوث مُرَكّزة تحت عنوانات محددة مثل : مباديء جديدة لعصر جديد ، فن الحياة ، الإنسانية بين الحرب والسلم ، في الوحدة

العالمية ، مستقبل العالم في نظر العلم ، طوبى عصرية ، فلسفة التشاؤم ، وكلها تدور في فلك خاص هادف وقد يلحظ الدارس بها بعض التكرار في البحوث وتلك طبيعة المقالات الصحفية التي تجمع بعد تفرقها في المجلات ، وبخاصة إذا كانت تدور حول فكرة إصلاحية يحتاج صاحبها إلى بسطها وشرحها ، مضطرا إلى ترداد ما أسلف ليفرغ لقارئه كل ما يريد ، مفترضا أنه يقرأ مقاله دون تتبع لما سبقه من المقالات ، وكنت أفضل لهؤلاء الدعاة حين يريدون جمع آثارهم أن يقوموا بمراجعة تهذيبية تعوق التكرار ، وهذا حق يحول دونه أن كثيرا من المقالات تضيف الجديد إلى القديم وفي محاولة تهذيبها جهد جاهد يدخر إلى كتابات أخرى ، وقد يغتفر التكرار إذا جاءت المعاني في صور جديدة ، وقد أحسن مؤلفه حين بدأه بموضوع (مباديء جديدة لعصر جديد) حيث اشتمل على خلاصة ما يريد الكاتب أن يبسطه فيما يجيء من الفصول ومن أبرز ما جاء في هذا المقال اللافت قول صاحبه :

(يجب ان نتفاءل بمصير البشرية ونعتقد أنها تجتاز محنا ، وتجارب لترقى وتتقدم ، وأننا نسير إلى الأمام على الرغم مما نخوضه من أوحال ومستنقعات ، ودليلنا على ذلك ما بلغناه اليوم من تقدم في العلوم والاكتشافات ، والمباديء بالنسبة إلى العصور السالفة) ..

ونحن لا نستطيع هدم الماضي الذي يعيش فينا ، كما لا

نستطيع أن نسبق عصرنا كثيرا ، ونعيش في المستقبل الذي نتخيّل أحيانا بعض صوره ، وقد يكون التغني بالماضي جميلا من بعض النواحي إلا أن التغني بمجد المستقبل أكثر نفعا . فالذين ينادون اليوم مثلا بأمجاد الإمبراطورية الرومانية ـ يقصد الفاشست ـ ويحلمون بعودة سطوتها وسلطانها لا يجارون الحاضر الجديد المتطور ، ولا يتطلعون إلى مستقبل جديد يقول بتوحيد الشعوب وتعاونها على أساس الحرية والمساواة حتى تستطيع تحقيق مباديء العالمية الجديدة ، والذين يتغنون بأبهة الغزوات وأمجاد الحروب والفتوحات ، ويعجبون بالقوة المسلحة هم الذين لم تخلص نفوسهم من شوائب الهمجية القديمة ، ولا يدينون بالولاء للعالم ، ولابد أن يسمو المستقبل القريب أو البعيد بهذه الغرائز الوحشية الموروثة التي تتلذذ بمرأى الدماء وتخريب البلاد ويومذاك نخجل من ذكر الحروب ، ونحتقر أسماء الفاتحين والغزاة ، ونحن إزاء هذه المباديء نخدم وطنيْن لهما علينا حقوق وواجبات ، إذ لكل منّا وطنان ، وطن أصغر محصور بين حدود جغرافية معينة ، ووطن أعظم يشمل الكون كله ، هو تراث الإنسانية كلها ، الذي يجعل من البشر جميعا أخوة مرتبطي المصالح» .

هذه فقرات تلخص فكرة الموضوع ، وتلقي ضوءا على اتجاه الكتاب في مجموعه ، وبذور هذه الأفكار قد جمعها

نقولا من دعوات (ولز) العالمية إذ عكف على قراءة ما وقع في يده من آثاره ، وكان يستعير بعض كتبه ليقوم بتصويرها ، ثم يوالي تلخيصها في مقالات متفرقة ، ومن أحسن ما كتبه في ذلك مقاله في الحياة الجديدة ص ٦٢ عن كتاب ولز (يوتوبيا عصرية) وقد كتبه الأديب الإنجليزي سنة ١٩٠٥ وكان يومئذ رجلا في الأربعين من عمره ، ويقول نقولا أنه حينئذ لم يصل إلى ما بلغه من النضوج فيما تلا ذلك من أعماله ، ولكنه حدد اتجاهه الإصلاحي بما وضع في كتابه من أفكار ، وقد مهّد المحلل بحديث عن سابقي هـ.ج ولز ، ممن تحدثوا عن المدنيات الفاضلة فألمّ بأفلاطون والفارابي وتوماس مور لينتهي إلى قوله ص ٦٣ :

(وليس هنا مجال الحديث عن تلك الطوبيات التي سبقت طوبي ولز أو التي جاءت بعدها مما صوّره الأدباء كل وفق مزاجه ومبادئه ، ولكننا نذكر أن يوطوبيا ولز تفضلها جميعا لأنها لا تنطبق على مدينة واحدة تهرب بفضائلها من شرور العالم وتعتزل عزلة الراهب عن سائر إخوته من الناس ، بل هي طوبي الإنسانية جمعاء إذ نسيت الحزازات والفوارق المذهبية واللغوية متعاونة كلها على التقدم العلمي والانتفاع بثمار الحضارة والثقافة) .

ثم أخذ الأستاذ نقولا يوسف يستعرض الكتاب مسلطا أشعة التحليل على جوانب من إتجاهاته ليختم حديثه بقوله :

«هذه الصورة التي رسمتها مخيلة ولز لعالم متمدن راق تحملنا على التأمل في حياتنا الجديدة الحاضرة لنوازن بينها وبين ذلك العالم الطوبي السعيد ، ومع أن الله قد أسكننا سيارة جميلة ملأى بالصور الطبيعية الفاتنة التي تتجدد مع فصول السنة ، وهيأ لنا فيها كل أسباب الحياة الرغيدة ، ومنحنا عقولا تميّز بين الحق والباطل ، وبصائر تفرق بين الجميل والقبيح ، وميّزنا عن كل مخلوقاته الجميلة بذلك القبس من النور الإلهي الذي يسطع في نفوسنا ، ويعيننا على التطوّر والارتقاء ، مع هذا كله فقد تآلفنا على تشويه هذا العالم الجميل ، وملئه بالنقائص والفوضى ، فهذه الدنيا التي نسكنها طوبى في ذاتها ، ولكن الإنسان هو الذي عميَ عنها ، فأضاعها ثم أضاع العمر في البحث عنها فليبدأ كل منا بإصلاح نفسه ليسمو بها ، وببيئته ليرقيها ، وليملأ قلبه بالولاء للعالم ومحبة الإنسانية كلها وبالرغبة الصادقة في رقيها» .

وقد يدهش القاريء حين يعلم أن تشبع نقولا لآراء ولز هذه ، قد جلب عليه التعب الشاق في مهنته التعليمية ، وصادف من كبار المسئولين في وزارة المعارف لعهد خلا في الثلاثينات محاسبة وجزاء ، فقد كان الأستاذ نقولا أستاذا للغة الانجليزية في المدرسة الثانوية بالإسكندرية ، ثم غاب أستاذ التاريخ ، فرأت المدرسة أن تنتدب الأستاذ نقولا لتدريس شذرات من تاريخ أوربا في صف واحد ، فهو كاتب

واسع الثقافة ، وخريج المعلمين العليا ، ولابد أن يقدر على إفادة الطلاب ، وأذعن الأستاذ نقولا فرحا فخورا بتقديره وتزكيته ، وأخذ يراجع المنهج فإذا به أمشاج مضطربة يزدحم بها الكتاب المقرر عن حركات وحروب وثورات في بروسيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وكل حركة تستدعى في رأيه عاما كاملا ، وازدحام أذهان الطلبة بأسماء الزعماء والأماكن والمواقع ، دون تحليل مما يفسد وظيفة المادة ويجعل دراسة التاريخ تكديسا لمعلومات لا جدوى منها ، فاجتهد الأستاذ أن يذلل العسير ما استطاع ، وقام في رأيه أن يبعث بمذكرة نقدية إلى المسئولين في وزارة المعارف يرسم فيها خطة لتدريس التاريخ ، وكان متشبعا كل التشبع بمحاضرة لويلز عن تدريس التاريخ ، وطريقته التي يجب ان تتبع ، إذ أن الكاتب الإنجليزي ينكر أن يجمع المؤرخ بين تواريخ الأمم المختلفة ، ويضمها ضمّاً في كتاب واحد ، لتصبح تاريخ العالم ، ولكن الواجب أن يؤرخ الباحث للإنسانية من الأزل إلى الحاضر تاريخا إنسانيا ، فيبدأ بحالة الإنسان الأول مبيّنا كيف اهتدى إلى حضارته حين وفق إلى السكنى العائلية وإلى الزراعة وإلى التفاهم اللّغوي ، على أن تكون الأبواب مرتبة وفق ظهور المواد الدافعة إلى التقدم الحضاري ، فظهور الحديد مثلا وأثره في إنشاء الآلات الصلبة في الحرث والتشييد والعمارة وفي وسائل الحروب مما يحتاج إلى تاريخ يفيد

البشرية أكثر مما تفيدها دراسة تواريخ الإسكندر وقيصر وجنكيز خان ونابليون ، ثم يأخذ في دراسة المكتشفات المتتابعة للتطور البشري ، فاكتشاف الذهب والألومنيوم في القديم واختراع البواخر والقطارات والطائرات في الحديث مما يصور التقدم التاريخي للبشرية بحيث لا يقرن به تاريخها في ظلال حروب الإسكندر ونابليون وأمثالهما ممن يسميهم الكاتب بالسفاحين ، ثم إن هذا التاريخ يجب أن يشمل فصولا للطواعين ، والأوبئة والزلازل ، والبراكين وأثرها في انتكاس التقدم البشري ، كما على المؤرخ أن يدرس الخرافات والأساطير والأوهام جوار الحقائق والمسلّمات ، ليرصد أثر ذلك كله في إطراد الإنسانية على نهج التقدم العمراني !! هذا هو التاريخ الحقيقي للإنسانية كما يراه ويلز ، وكما دعا إليه في عدة محاضرات قصرها على المشتغلين بكتابة التاريخ ، وقد قرأ الأستاذ نقولا هذه المحاضرات قبل أن يعهد إليه بتدريسس تاريخ أوربا فاستشعر ضيقا بالمنهج المصري ، وأعدّ مذكرة مركزة بما يراه ، مرسلا بها إلى المسؤولين في وزارة المعارف ، وكان ينتظر المراجعة فالتقدير، وقد جاءه خطاب الأستاذ م. ع. ا. الوكيل المساعد لوزارة المعارف حينئذ مستدعيا ، فظن الخير ، وعجل بالتلبية فرحا كمن يدعى إلى عرس حافل يكون بدره المتألق !

وَيا لحسرة نفسه حين وجد السيد الوكيل غاضبا ساخطا يرميه بالجنون والهوس ، ثم يدعوه إلى الكفّ عن الكتابة في السياسة الأسبوعية التي تعطل عمله المدرسي لأن صاحب بالين كذاب ويسارع الوكيل بنقله معاقبا من الإسكندرية إلى أسيوط ! يحكي لك الأستاذ نقولا ذلك كله ، ثم يقول وهو يشعل السيجارة مبتسما ويقدمها إليك (لا تتأثر ياسيدي إنها الدنيا ! ما نصنع ؟!) .

ويخيّل إليّ أن ما يقصده ويلز هو الاقتصار على تاريخ الحضارة الإنسانية وحدها وهو ما توفرت بعض الهيئات العلمية في أوربا وأمريكا على تدوينه ، وقد ترجمت إلى اللغة العربية (قصة الحضارة) بأجزائها المتعددة كمثال واضح لبعض ما يريد ! ومحاولة استبدال التاريخ المدرسي وإحلال غيره محله ، تحتاج إلى نضوج لم يكتمل بعد ، ولكن هذا شيء ، ومعاقبة أستاذ ناهض مجدد يدرس وينقد ويقترح شيء آخر ، بل أن هذا العمل في صميمه جرأة وافتئات وعدوان !.

آن أن أعود إلى طاغور فقد كدت أنساه ، وماكان الحديث عن عالمية ويلز إلا تمهيدا للحديث عن عالمية طاغور فكلاهما إنساني النزعة ، مفتوح المذاهب ، واسع المحيط ، وقد خصّه الأستاذ نقولا في الحياة الجديدة بحديث يعلن قربه من صاحبه في منحاه وإن اختلفت نكهة طاغور الصوفية عن صرامة ويلز المادية فإن هذا الاختلاف لا يتجاوز القشر إلى

اللباب ، وإليك بعض ما قال المؤلف عن طاغور ص ٢٤١ :

(هو يبشر بالحب العام ، ويرى أول واجبات الإنسان أن يحب أخاه ، وأن يحب العالم كله ، فيعيش الجميع في الإخاء عيشة روحية يغمرها الفرح ، فالحياة النبيلة عنده ، هي تلك التي يعيش فيها المرء لأجل الآخرين ، فالفرح الحقيقي هو تلك العظمة الصادرة عن ارتباط الإنسان بالمجموع وصلته بالكون واندماجه في الايمان، والطبيعة ، وهو يرى الدنيا كلها وطنه الجميل ، وهو لا يزهد في مسراتها البريئة ، ولا يترفع عن التمتع بثمار الحضارة البشرية ، ويرى الخير أصيلا في الدنيا أما الشر فعارض متمم ، ويرى الله قوة محبوبة تحنو على الكون وتشمله بعطفها وحنانها فيناجي الهه كثيرا .

ثم يقول نقولا ص ٢٤٢ : لقد تحدث طاغور شخصيا مع ويلز زعيم العالمية في هذا العصر . فكان مما ذكره له أنه يعتقد أن وحدة الحضارة الإنسانية يمكن إيجادها بطريق أمثل إذا نحن عملنا على أن نصل بين حضارات العالم بروح الزمالة والتعاون وقد مضى زمن اللغة التي تعيش في مساحة لا تزيد على خمسة أميال ، ثم أن المواصلات السريعة تعمل لإيجاد لغة عامة ، ولكن الأرجح أن هذه اللغة لن تطرد اللغات الوطنية ، إنه مما يؤسفنا أن نعتقد في أية أمة أو سلالة أنها ممتازة عن غيرها وأن بها عناصر التفوق ، وكأنها قد رزقت رعاية الهية في نظام الخليقة) ، وحديث طاغور عن الوحدة الإنسانية ليس حديث العابر

المتعجل ، ولكنه حديث المفكر الذي أطال التفكير ، وأذكر أنه عقد الموازنات بين الأروبي والهندي فرأى الحضارة الأوربية نشأت بين جدران صناعية أقامها الإنسان ليحمي نفسه من شر أخيه الإنسان ، وقد عاقت هذه الجدران نفوس ساكنيها أن تمتزج وأن تتحاب وأن ترى تشابها بين الميول والطباع ، فشب الغربي أنانيا ، يحافظ على أرضه المحدودة ويتوجس الشرّ من هجوم أخيه ، ويقيم الخطوط الحربية والحصون والقلاع ليعتصم بها إذا داهمه الاعتداء وهو مع توجسه من الناس وخوفه من العدوان ، يتربص الفرصة بمجاوريه ويهم أن يداهمهم لو وجد السبيل الميسر ، ولذلك كانت الحضارة الغربية مادية صناعية تعتمد على أدوات الفناء والإبادة والتدمير ، وقد وجدت صناعة الحرب سوقها الرائجة بحثا عن السلاح ، فامتلأت المصانع ونفقت الأسواق ، وتكدست الأموال ، وتبع ذلك تحرش القوي بالضعيف ، واندلاع أكبر حربين عالميتين في مدى قريب ، أما الإنسان الهندي فغير ذلك لقد عاش منذ القدم في غابات فسيحة غنية بشتى الثمار والمحصولات فلم يجد أدنى مشقة في العثور على رغائبه ، وتيسر له بأقل الجهود أن يتخذ المساكن في ظلال الأشجار التي تسقط عليه الثمر دون مجهود وحول الغدران المائية التي تسعفه بالري دون تعب ، وقد اتسعت الغابات في عينه فلم يفكر في أن يستحوذ عليها وأن يخشى اعتداء مجاوريه على ما يملك ، فالأرض واسعة والثمر كثير ، والنفوس قانعة راضية ! هنا كانت الحقيقة المطمئنة إذا

قنعت النفس قنعت جيرانها ، ورأت في ثمار الطبيعة مصدر راحة فعشقتها وهامت بها . وعدت الشجر والنهر والبدر والشمس مكملات لسعادتها ، فهي ذات خير وعطف وإحسان وإذن فهي ذات حق في العيش والازدهار ، وبينها وبين الانسان وحدة متماسكة هي وحدة التعايش ، بها آمن الهندي وبهذا اطمأن فأسلم الزمام .

لقد كان آخر لقاء لي مع نقولا يوسف ـ وتلك مصادفة نادرة ـ حافلا بالحديث عن طاغور والموت ، إذ رأيته بالقاهرة على غير انتظار ، فأسرع يعانقني وكان يعلم عمق الجرح الناغر في قلبي ، وكرر لي رسائل المواساة مشكورا ، ثم أصر على أن أقضي اليوم معه ، فأخذ يحدثني عن حقيقة الموت كما يفهمها نقلا عن طاغور

أخي الأستاذ نقولا في عالمه الرحيب :

أتذكر ليلة من ليالي الصيف بالإسكندرية ، وقد اندفعت ـ في كازينو كليوباترة الناهض فوق الماء في منعطف البحر الأبيض ـ تتحدث عن أستاذك الحبيب عبدالرحمن شكري ، وكنت أصغي في استمتاع ،ثم هب نسيم «منعش» رطب ، فيه مذاق الماء العذب ، فابتسمت في هدوء وقلت : هذه النسمة الرقيقة تحمل روح عبد الرحمن شكري لا محالة ! إنها روح شاعر أطلّ من عليائه يسلم على تلميذيه !! هاأنذا الآن يا أخي أكتب عنك هذه السطور ، وها أنذا أستروح نسمة رقيقة عذبة كتلك التي كانت ! أأقول إنها روحك أنت أطلت من عليائها لتقرأ ما أكتب !! ليس ذلك بعزيز .

ذكريات عن عبدالكريم جرمانوس

وجاء الدور على أستاذي وصديقي عبدالكريم جرمانوس ، وحتم أن يجيء .

لقد صحب الدنيا أمدا طويلا يقرب من قرن ، ولكن أصدقاءه التاعوا عليه كما لو كان غادر هذه الحياة في زهو الشباب ! لأن الراحل العزيز كان حركة لا تهمد ، فهو دائم الارتحال والتنقل دائم البحث والتأليف . دائم المراسلة والاستفسار ، يجلس كل يوم إلى مكتبه في بودابست ليراسل أصدقاءه في شتى ممالك العالم فيكتب الرسالة الأولى بالعربية والثانية بالفارسية والثالثة بالتركية والرابعة بالأردية والخامسة بالإنجليزية والسادسة بالألمانية والسابعة بالفرنسية إلى غير مالا أعلم عما يعرف ، وفي كل رسالة تساؤل عن معضلة علمية أو جواب عن مشكلة أدبية ، أو بسط لمشروع أدبي أو بشارة بانتهاء تأليف منهجي ، فإذا اقتصرت الرسالة على الشوق والسؤال فللعاطفة الدافقة في صدره صور خالبة وأحاسيس نبيلة لا تصدر إلا من شاعر ملهم ، وكنت حين أقرأ هذه الصورة الخالبة أسائل نفسي ماذا يكون جرمانوس لو ترك هموم البحث العلمي وتفرغ لرصد العواطف ، وتصوير الأحاسيس ! إن كتابه (الله أكبر) الذي وصف فيه رحلته

من الأزهر بمصر إلى مكة كي يحج ويزور ليرتفع إلى قمم البلاغة الصادقة ذات النبض الحي والإيحاء الملهم ، والتصوير المعبّر ، والرمز اللافت ! ولو قدر للرجل أن يصور رحلاته جميعها إلى شتى بقاع الأرض بهذا الأسلوب الشاعر لكان نسيج وحده ، ولكن الاشتغال بدقائق المسائل العلمية ، والاختفاء في سراديب الطلاسم اللغوية قد كاد يستر هذا الجانب من إبداع الرجل الكبير ، والذين سعدوا بحديثه المسترسل في مجالسه الهادئة أدركوا قوة الشاعرية في سبحاته الملهمة ، ورقة الجمال في بديهته الحاضرة وفورة الشباب في شيخوخته القوية ، حتى ليتساءل محدثه دهشا : أهذا الرجل النشيط المتوثب في سن التسعين ؟! وكيف ؟

إني اتساءل الآن - شهد الله - أحقا قد ارتحل هذا الذي حمل أقوى دواعي الحياة من مرح وتفاؤل وأمل وإيمان ونشاط ؟؟ وإذا كان قد رحل بعد حياته العامرة المعمورة أفيجوز لي أن أسترسل في الحسرة عليه كأني لا أعلم أن الموت نهاية كل حي ثم يلوح لي طيف الشريف الرضي - وهو من أقرب الشعراء إلى نفسي - إذ أجده يبكي صديقه الكاتب المعمر أبا اسحاق الصابي بقصائد حارّة ملتهبة وكان قد تخطى التسعين بسنوات ، بكاه أولا بقصيدته الرنانة :

أعلمت من حملوا عـــــلى الأعــــواد
أعلمت كيف خبـــا ضيـــاء النـــادي ؟

فصرخ فيها صراخ المتفجع على أعز أمل وأحب منال ، واعتقد الناس أنه أفرغ شحنته الثائرة في قصيدته النائحة ، ولكنه عاود الرثاء ثانية وثالثة ، وكان في رثائه شجىً ضارع لا يقال إلا في حبيب مترف عاجله الحمام في طراوة الصبا وزهو الشباب وانه ليتساءل متحسرا .

هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا
هلالا على ضوء المطالع باقيا
وتلك البنان المورقات من الندى
نواضب ماء أم بواق كما هيا
خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه
فأصبح تعروه النوائب واديا
رثيتك كي أسلوك فازددت لوعة
لأن المراثي لا تسد المرازيا
وأعلم أن ليس البكاء بنافع
عليك ولكني أمني الأمانيا

وما بنا أن نتحدث عن الصابي والشريف ، فلنعد إلى عبدالكريم جرمانوس .

أجمل مافي حياة جرمانوس أنه واضح الصفحات ، وضيء الملامح ، باهر الطلعة ، لقد تحدث عن أسرار نفسه فيما كتب قليلا وفيما راسل به أصدقاءه وحادثهم فيه كثيرا كثيرا ، وليتني أستطيع أن أجمع كل ما راسلني به أو أستعيد كل ماتحدث فيه إذن لكتبت ما يفيد القاريء

ويجديه ، وإذا فات الاستقصاء فلا أقل من تذكر بعض الخواطر ، ليدل القليل على الكثير .

كانت اللغة التركية أول لغة إسلامية حذقها جرمانوس في شبابه الغض ، وقد أجادها إجادة أعلمته برجال الإسلام وأدبائه وعلمائه من ناحية وأرته شريعة الإسلام إعتقادًا وعملاً من ناحية ثانية فاستشعر حبا لما يقرأ وإعجابا بما ألم .. وخبر . ثم رأى الفارسية والعربية تملآن اللغة التركية بكثير من الألفاظ فشمر عن ساعد الجد ودرس الفارسية أولا حتى حذقها ودفعته الفارسية إلى العربية فأحضر معاجمها ليعرفها بنفسه ، فأخذ يفك الطلاسم ، ويحل المعميات مستعينا بجهده الخاص حتى استطاع أن يقرأ ويكتب بها ! ثم ذهب إلى الهند أستاذا بإحدى جامعاتها فرأى من أساتذتها مَن أوقفه على أسرار الفارسية والعربية معا ، وقرأ من المصادر الوثيقة عن الإسلام ما حببه إلى نفسه . فأعلن إسلامه بالهند في جامع (دلهي) بعد أن تقدم إلى المنبر يوم الجمعة ليخطب الناس متحدثا عن دوافع إسلامه وليؤمهم في الصلاة بالمسجد الجامع بعد الخطبة وليعلن أن اسمه (عبدالكريم) وقد حظي بصداقة كبار المفكرين في الهند ، زاره طاغور وأهداه مؤلفاته . واختصه محمد إقبال بودّه ، ونظم فيه مقطوعة من شعره ، وجالسه كثيرا في منزله ، وفي مجموعات جرمانوس صور شتى لمنزل .. إقبال وحديقته ومجلسهما معا ، وقد تفضل

جرمانوس فأهداني صورة إقبال التي منحها إياه مع نموذج من خط الشاعر الكبير ، ويالهما من ذخيرة ذات رفد وإلهام ! ومن الذي لا يشمخ معتزا تيّاها حين يحتفظ بنموذج شعري كتبه يراع إقبال : إنه حظ سعيد .

وحين عاد إلى بودابست من الهند صمم على أن يدرس الأدب العربي دراسة داخلية تعتمد على النصوص القديمة والحديثة لأدباء العرب وشعرائهم ، وقد بذل جهده في الإلمام بأبجدية اللغة العربية ، حتى استطاع أن يكتب بها ويقرأ ، ولم يكن يعتقد أنه أحرز نصرا كبيرا في غاياته إذ تصوّر أن البلاد العربية تنطق الفصحى بمهارة لا يتقنها مجرّى مثله مهما درس وحفظ ، وخشي على نفسه أن يأتي إلى مصر فلا يجد من يفهمه فهما مقاربا ! ثم بدا له أن يشد الرحال إلى الأزهر طالبا ينشد التعمق والاستبحار ، وكانت أول مفاجأة له (حين غادر الباخرة إلى ميناء الإسكندرية) أن تكلم باللغة الفصيحة في إدارة الجوازات فوجد الناس يضحكون منه ويردون عليه بالعامية ، ولو كان لدينا وعيٌ إنساني لأكبرنا همة مجريّ أوربي ينطق باللغة الفصيحة كما تعلمها في الكتاب ولبذلنا قصارى الجهد في تذليل ما يعترضه من العقبات . بدل أن نتخذ من حديثه فكاهة نتندر بها ! وقد صدم الرجل صدمة عنيفة لهول ما شاهد ، فما كاد يستقر في أحد فنادق الإسكندرية حتى خط رسالة تحمل ألمه النفسي إلى زوجته في بودابست ومما قاله في هذه الرسالة إنه

كان يخشى أن يصبح أضحوكة في مصر لأنه لا يتقن اللغة العربية فصار أضحوكة لأن أهلها لا ينطقون بها و يريدونه أن يتحدث بالعامية فـإذا حاول النطق الفصيـح وجد الضحك و التندر و الاستخفاف ! أذكر أن الدكتور قد حدثني بذلك ثم أضاف إليه حادثا مشابها فحواه أن أديبا عراقيا يسمى أحمد البرباع أرسل إليه قصة بالعامية ليبدي رأيه فيها ، فحاول الدكتور جرمانوس أن يقرأها فلم يفهم حرفاً واحداً ، فلجأ إلى صديق مصري قديم يقيم في بودابست كي يساعده على كشف ألفاظها فأقر بعجزه لأن الرواية تبعد بعدا تاما عن عامية مصر ! فلم ييأس جرمانوس وذهب إلى السفير العراقي في المجر كي يتولى الترجمة من العامية العراقية إلى العربية الفصيحة ، ويتساءل الدكتور بعد ذلك ما فائدة التأليف بالعامية إذا كان مما يفصم العلاقات الثقافية بين أبناء الضاد ؟ وأيهما خير للكاتب أن يقرأه أبناء العرب جميعا أم أن يقرأه أبناء دولته وحدهم ؟! وهو تساؤل جر إلى حديث طويل لي مع الدكتور جرمانوس ذكر فيه أن المبشرين من ذوي الاستشراق قد عملوا على توهين العلاقات بين الدول العربية حين دعوا إلى إحياء اللغات المحلية واتخاذها أداة لأدب إقليمي يقتصر تداوله على الدولة الواحدة دون أن يتجاوز الحدود المصطنعة إلى بلد آخر ، كما ذكر الدكتور الفاضل أنه اختلف مع أستاذه جولد زيهر حين رآه مصرّاً على الدعوة إلى العامية الإقليمية ، ولم

يمنعه اعترافه بفضل أستاذه الكبير عليه أن يجهر بمخالفته كما كاتب جرمانونس كثيرا ممن يدعون إلى التقاطع الإقليمي حين يحبذون انتشار العاميات في الدول العربية مبينا لهم خطأ ما يحاولون . وفي هؤلاء مَنْ رد على جرمانوس ومَن أهمل رسائله : والحق أن المسألة من الوضوح بحيث لا تحتمل اللجاج ، ولكن الهوى يعمي ويصم !

جاء جرمانوس إلى القاهرة سنة ١٩٣٤ ، فالتحق بالأزهر ووصفه وصفا بديعا في كتاب «الله أكبر» مقارنا حلقاته العلمية في الجامع الفسيح بما يعلم من حلقات البصرة والكوفة وبغداد والأندلس في عهود الازدهار الحضاري للإسلام ! وقد وجد من أدباء مصر مَنْ قاسموه الودّ وحفظوا له مكانة الباحث الدارس المتطلع ! لقد زار المازني والعقاد وأحمد أمين وطه حسين وأحمد حسن الزيات ولطفي السيد ومنصور فهمي ، وحظي بمعاونتهم وحمل مؤلفاتهم المهداة إليه مقرونة بالاطراء والثناء ! ولكن صداقته العريقة قد امتدت جذورها في قلوب الشباب من أمثال محمود تيمور ومحمد أمين حسونه وإبراهيم المصري ومحمد عبدالله عنان ونقولا يوسف ومحمد شوقي أمين ومحمود الشرقاوي ، وإذا حدثك جرمانوس عن هذه الحقبة المباركة من حياته المصرية فإنه لا يغفل رجلين كبيرين هما الدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عبدالوهاب النجار ، أما

الدكتور محمد حسين هيكل فقد أقام له إحتفالا عاما بإدارة السياسة الأسبوعية حضره نخبة من أهل الأدب ، وألقيت فيه القصائد والكلمات ، ثم أسعده باحتفال خاص في منزله إذ دعاه إلى الغداء والعشاء ، وقضى معه يوما طيبا وليلة سعيدة جرى الحديث فيهما عن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي ، ثم كان الدكتور جرمانوس بعد ذلك باعثا حافزا للدكتور محمد حسين هيكل كي يزور منزل الوحي مؤديا فريضة الحج ، إذ كتب الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه أن صعابا تكاءدته وأن مشقات السفر إلى أرض البيت الحرام قد تجسمت لعيْنِه فكادت تثنيه عن نيّته الدافعة إلى زيارة منزل الوحي ، ولكنه في بعض أرقه الساهد ذات ليلة ، أدار مفتاح المذياع فهداه إلى محطة المجر يسمع متكلما فصيحا يتحدث عن رحلته إلى الحج فيصف مشاهد الطواف والسعي والوقوف ورمي الجمار بأجمل أسلوب ، وألطف تعبير ! كان الحديث حديث جرمانوس بصوته وأسلوبه فأخذ الدكتور هيكل يقلب كفيه متعجبا ومتسائلا : كيف يتحمل مجريّ بعيد أعباء الزيارة ويعجز عنها مصري قريب : ثم قطع الشك باليقين فعزم على السفر ، وأنشأ في منزل الوحي فكان من أروع ماكتبه الأدباء في موضوعه إن لم يكن الأروع السباق .

أما الأستاذ عبدالوهاب النجار فقد كان وكيل جمعية الشبان المسلمين ، فأسعده أن يرى جرمانوس يدرس العربية ويؤلف في تاريخ الإسلام ، ففتح أبواب الجمعية

لاستقباله محاضراً ومطالعاً في مكتبتها ، ثم عرّفه بصفوة من رجالها الممتازين ، وفيهم عبدالحميد سعيد ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد أحمد الغمراوي ، ويحي الدرديري ، وأحمد ابراهيم ، وكلهم علم في بابه كما عمل الخضر على ترضية الأستاذ محمد الأحمدي الظواهري شيخ الأزهر حينئذ عنه ، حيث ذهب وشاة السوء إلى الشيخ الأكبر يزعمون أن جرمانوس متعصب ومثله لا يجوز أن يدخل الأزهر ويتعلم فيه ، كما لا يجوز أن ينتسب إلى كلية اللغة العربية ليتلقى بها الدراسة المتخصصة ، وقد صدّق الشيخ ما قيل وأوحى بحرمان جرمانوس من حلقات العلم لولا وساطة الشيخ النجار . وأكبر معونة قدمها الشيخ لجرمانوس هي هذه الرسائل المتعددة التي كتبها لتلاميذه في الشرق العربي كي يحتفوا بمقدمه حين غادر مصر إلى مكة ، إذ كانت هذه الرسائل كما قال عبد الكريم عصا سحرية ذللت كل عسير وبسببها وجد الزائر الكريم أكبر استقبال من عارفي الشيخ النجار فكان موضع التجلّة والتبجيل .

لقد كتب الأستاذ محمود تيمور فصلا بديعا عن عبدالكريم جرمانوس بمجلة قافلة الزيت (ذو القعدة سنة ١٣٨٩هـ) تحت عنوان (عاشق العروبة والإسلام عبدالكريم جرمانوس) تحدث فيه عن رحلته إلى الحج وعن مقامه بالأزهر وطوافه بالقاهرة وعن شذور من نشأته الأولى . نقتطف منه قوله[1] :

«وفي أثناء وجوده في القاهرة ، كانت أوقاته المفضلة هي التي يؤم فيها بيوت الله ثم يجول في حي الحسين ليلا ليستروح منه الصفاء والهدوء ويتنسم فيه روح الإيمان ويظل في تطوافه ملتحفا عباءته العربية الفضفاضة ، حتى إذا تعالى صوت المؤذن للصلاة في وقت السحر وقف متخشعا يترشف بأذن عاشق ولهان ذلك الأذان الحلو النغم فيسري في جسده سريان رحيق علوي من روضات الجنان ، وإني لمعترف بأن قصتي التي سميتها «المستعين بالله» ووصفت بها أحد من شغفوا بالشرق وأهله كان استيحاؤها في الجملة من صديقنا هذا عاشق الشرق والإسلام ، ولقد حدثني أنه كان يشتد به حنينه وهو في موطنه (بودابست) على ضفاف الدانوب ، إلى معالم إسلامية فيفتقد حينئذ من المناظر حوله ما يشفي به وجده ولا يملك إلا أن يهرع لزيارة ضريح المسلم التركي (جول بابا) أو بالأحرى (أبو الورد) .

لقد بدأ حياته محبًا للموسيقى عازفا على الكمان ، وحسب أنه يعدّ نفسه ليكون فنانا في عالم الأنغام والألحان ، على أن هواه للموسيقى أرهف من حسّه وأذكى من خياله فصاحب ذلك كفاحه الدراسي ، فجمع بين العلم والأدب ، بين الطاعة لنداء العقل والانجذاب إلى هتاف الروح بين الارتباط بالواقعية الكادحة والتطلع إلى الرومانسية الحالمة ، إنه حقا رجل دنيا ودين ، إذا قصد

المسجد ليؤدي فريضة الصلاة اندمج فيها اندماج ناسك متبتل ، وإذا تحدث إليك في علم وأدب وتاريخ انتفضت فيه شخصية محاضر متزن وقور ولكنك مع ذلك إن جاذبته حديث المفاكهة والمطايبة رفع معك ستار الكلفة وكان منك على خير ما تحب أن يكون» .

إن ذكريات جرمانوس القاهرية لم تجمع بعد في كتاب ، وإنما نجدها متناثرة فيما وعته حافظات أصدقائه الكثيرين ، لقد سمعت كثيرا منها من الدكتور نفسه ومن الأستاذة شوقي أمين ، نقولا يوسف ، ومحمود الشرقاوي ، وأظن أن أصدقاءه الكثيرين يلمون بها ويتنسمون ريحها الطيب حين يتناقلون حديثه الحبيب ولعل أخي الأستاذ وديع فلسطين يحتفظ في ذاكرته أولا وفي رسائل جرمانوس الكثيرة إليه بطرائف نادرة منها فأنا أعلم أن المراسلات بين الصديقين العزيزين لم تكد تنقطع ، وأذكر أني كتبت مقالا عن جرمانوس بمجلة الحج ومقالا آخر بمجلة الدعوة وكلتاهما لا تصدران بمصر فلم تقعا بين يدي وكنت مشوقا أن أرسلهما إلى عبدالكريم ثم كان من المصادفات السارة أن يكتب إليّ شاكرا ومقدرا ماجاء بالمقالين ، وأذكر أن الصديق العزيز وديع فلسطين قد تلطف فأرسل المقالين متتابعين إليه في بودابست ، كما أذكر أن البريد الأدبي لمجلة الأديب قد حفل ببعض هذه الرسائل الوديعة ، ومن أطرفها ما ذكره الدكتور جرمانوس من

ذكرياته الأزهرية حين قال في رسالة نشرت بعدد مايو ١٩٧٠ من مجلة الأديب بعد مقدمة طريفة لا تهمنا الآن :

«لي قصة مع الحذاء ترجع إلى أيام التلمذة بالأزهر ، إذ كان الكتاب الذي أدرس فيه الشريعة مطبوعا على ورق متهافت وكان الضوء في القاعة ضعيفا فضاع جهد جرمانوس عبثا في مطالعة الكتاب ، ولكن زميلا له يدعى الشيخ عثمان رأف به وقدم له نسخة جديدة من الكتاب قانعا بالنسخة القديمة المهلهلة ، لأنه قد حفظ الكتاب واستظهره ولم تعد به حاجة إلى معاناة قضاياه قال جرمانوس : فقبلت منه هذه الهدية لاسيما وقد كان متفوقا في الدرس بعلمه الغزير وفهمه العميق ، ولكن الشيخ عثمان كان فقيرا عاثر الحظ في الحياة ، وكانت مظاهر الفقر بادية على ملبسه ، عبقرية في حذائه ، ولدى خروجنا إلى الدرس توجّه الشيخ إلى حذائه البالي لينتعله فسبقته إلى هناك ، وانتعلت حذاءه ، وتركت له حذائي الجديد وجرت بيننا معركة وكلانا يقول للآخر مستحيل ، مستحيل ، قلت لن أقبل الكتاب إلا إذا قبلت الحذاء ثم غادرت الباب متعجلا وركبت الترام فأخذ الناس - ومنهم إبراهيم المازني ينظرون إلى حذائي العبقري في هلهلته ، وحدجني المازني بنظرته قائلا ما خطبك ، وصاح الآخرون لابد أنه تركي ، ولم يتركني المازني حتى علم بقصة الحذاء» .

وبمناسبة رسائل الدكتور جرمانوس إلى أصدقائه أذكر

أن أدبه البالغ كان يحتم عليه أن يرد على كل رسالة تصل إليه من القارات الخمس فإذا أهداه مؤلف ناشيء كتابا أكب عليه و بادر بتشجيعه فخطله رسالة تظهر التقريظ المشجع وتتغاضى عن النقد الواجب ، وأكثر هؤلاء يغفلون عن معدن الرجل النفيس و يتجاهلون تشجيعه فيحسبون أنهم على شيء و يسارعون بنشر رسائله في شتى الأماكن وفيهم مَنْ يجاهد ليطبع الكتاب طبعة ثانية و يضع رسالة جرمانوس في فاتحة الكتاب ، و يشاء له تواضعه العظيم أن يزعم أن الكتاب قد لاقى اهتمام القمم البارزة في دوائر الاستشراق ، وأنه يكتفي برسالة جرمانوس ، ولا أريد أن أذكر اسم قصاص ناشيء لايكاد ينشر قصة في مجلة حتى يبعث بنسخة سريعة إلى جرمانوس ، وحتى يطالب بالرد إن أبطأ ذات مرة ، فإذا جاءه فاخر به ونشره لدى إنسان مثالي آخر ، يفتح باب البريد في مجلته لهذه الرسائل ، وهو الآخر كجرمانوس حيي نبيل : وهكذا ينتهز الأدعياء براءة الوادعين في بودابست و بيروت .

لم أتحدث عما أبدع فيه جرمانوس حين وصف رحلته إلى مكة المكرمة وقيامه بشعائر الحج والعمرة ، وما كتب مؤلفه الرائع (الله أكبر) إلا ليفيض في تحليل مشاعره المؤمنة حين وطئت قدماه ساحة البيت الحرام ، وكنت طالعت فصولا منها نشرها الدكتور تباعا بالسنة الرابعة من مجلة الرسالة ، لأن الكتاب بأكمله قد كتب بالمجرية وترجم إلى

الإنجليزية وحرمت العربية من أصل أمين له ، وما فصول مجلة الرسالة إلا جزء من كل ، وقد يفيد التلخيص حين نوجز المعارف العلمية ، أما حين يتحدث أديب فنان عن مشاعره المؤمنة في مواقف عزيزة يعتبرها أعظم المواقف جلالاً لدى نفسه ، وموضع تحقيق الآمال الهاجسة في أعماقه فإن التلخيص هنا بتر وتشويه ، وقد كفانا جرمانوس أن نتحيّف حديثه العاطفي بإخلال حين استعاد التجربة مرة ثانية ، فقام بنشر فصل أدبي رائع بعدد ذي الحجة سنة ١٣٩٠ هـ من مجلة قافلة الزيت تحت عنوان (ذكريات من الحج) مزج فيه أحداث حياته السابقة عن الرحلة بما تلاها من مشاهدة الأماكن المقدسة في مكة مزجا أزاح الفواصل بين أمد وأمد وجعل التيار العاطفي يتخذ مجراه من عهد الصبا إلى زمان الكهولة مترقرقا صافيا ؟ ولا أدري لماذا يكثر الكاتبون من الاستشهاد بالقصائد الشعرية في تأهب واحتفال ، فإذا وقع لهم أثر نثري حاولوا اقتضابه وكأنهم يريدون التخلص من عبء ثقيل ، إننا نخالف هذا المنحى حين ندع جرمانوس يتحدث عن بعض مشاعره حين أمّ ساحة البيت الحرام فقال في رهبة وخشوع :

«في مطلع الفجر أيقظني صوت المؤذن «الله أكبر» فنهضت من نومي ، وسمعت حركة رفاقي في الغرفة إذ قاموا يتهيأون للصلاة وسمعت انصباب الماء على سواعدهم مشفوعا بأدعيتهم وتسابيحهم ، فانبسطت نفسي بهذه الأصوات

العذبة ، وتوضأت وصليت ركعتين ، ثم رغب إلينا المطوّف أن نذهب للطواف قبل ازدحام الناس ، فوصلنا إلى الكعبة المقدسة ، وفي تلك الدقيقة انفتح أمامي منظر سماوي ، إذ شاهدت هذه البنيّة العظيمة تكسوها شقق الديباج ، وحولها من النساء والرجال أمواج ، والأصوات مرتفعة إلى الله بالدعاء والاسترحام (الله أكبر) كلمة كانت هي الرباط الذي ينتظمنا جميعا ، ويوحي إليّ شعورا يخلقني خلقا جديدا فتحولت من إنسان دنيوي إلى مؤمن مفكر يستشعر عظمة الله ورخص الحياة فوقفت لحظة أفكر وأقول في نفسي : ليست هذه أول مرة أرى فيها هذا البيت المشرف المشرق ، كم وصف قرأته على صفحات الكتب ، وكم صورة رأيتها لهذا البيت وكم مرة استعرضت تاريخه منذ سجد آدم لربه الخالق ، وكم مرة قرأت مقاييسه ، طوله وعرضه وارتفاعه ، ولكن الواقع أن كل ما قرأته لم يكن يمت بصلة إلى تلك الكعبة الحقيقية التي أشهدها في هذه اللحظة السعيدة .. ورفعت يدي نحو السماء وكررت الدعاء ، وأخذت استعرض أفواج الحجاج الطائفين ، هؤلاء أهل جاوة تقدموا وعيونهم تمتلىء عبرة وهؤلاء قوم تتاريون شقوا طريقهم بعضلاتهم القوية وأولئك الصينيون تبدو عيونهم مثل اللوز وقد أظهرت ملامحهم براءة الطفولة وطهارتها ، ووراءهم الأفغان بلحاهم الطويلة ولونهم المعروف وقد جروا حول المطاف كأنهم غزاة في ميدانهم ، وخلفهم الهنود يكررون دعاء المطوف مكبرين صابرين

وهناك النساء في أكسيتهن البيض سفرات يزدحمن في (غير) محاذرة ولا يحتجن إلى كبير محافظة ، فليس في هذه الساعة رجال ونساء ولكن هنا أرواح مؤمنة تستوهب من الله الرحمة والغفران» .

ويمضي الحديث الرقيق من الطواف مستعرضا شتى المناسك في واقعية مبدعة وإخلاص أمين .. وأخيرا ماذا أريد أن أقول عن صديقي وأستاذي جرمانوس ؟! أأقول إنه قد مات وغاب فلأذرف عليه الدموع ؟! إنه نفسه لا يرى أنه قد مات وإنما انتقل من مكان إلى مكان فحسب ! لقد نشرت له مجلة الأديب (أبريل سنة ١٩٧٤م) رسالة إلى بعض أصدقائه يقول فيها : «قال الصوفيون إن الحياة حلم والموت يقظته والمسلمون لا يهابون الموت أو يخافونه .. يقولون عن المؤمن (توفي) لأنه يذهب إلى ربه . يذهب إلى جنة الله ليأخذ ثواب حياته ، ويكسب نتيجة ما قدمه من عمل . لماذا إذن يبكي المسلمون وينعون أمواتهم بصيحات الألم في علو صوت ؟ لماذا لا يطمئنون ويهدءون للمصير؟» .

ولهذا القول مذاق خاص بعد رحيل قائله يختلف في حسي عن مذاقه حين قرأته في حياته اليقينية بفحواه ، وإيماني الثابت بمضمونه .

وإني لأكرره مثنى وثلاث ورباع ! على معرفتي به ، والله عز وجلّ ذو رحمة تسع الناس ، فليرحم عبدالكريم وقد نزل في جواره ضيفا تسبقه صفحات جهاده الشاق في عمره المديد .

من إصدرات النادي الأدبي الثقافي بجدة

١ ـ قم الاولب « شعر » للاستاذ محمد حسن عواد ـ نفد .
٢ ـ الساحر العظيم « شعر » للاستاذ محمد حسن عواد ـ نفد .
٣ ـ عكاظ الجديدة « شعر » للاستاذ محمد عواد ـ نفد .
٤ ـ الشاطيء والسراة « شعر » للاستاذ محمود عارف ـ ضم الى مجموعة الشاعر الشعرية .
٥ ـ من شعر الثورة الفلسطينية « شعر » للاستاذ احمد يوسف الريماوى ـ نفد .
٦ ـ انين وحنين « شعر شعبى » للاستاذ منصور بن سلطان ـ طبع .
٧ ـ محرر الرقيق « سليمان بن عبدالملك دراسة للاستاذ محمد حسن عواد ـ نفد .
٨ ـ من وحى الرسالة الخالدة « اسلاميات » محمد علي قدس ـ طبع .
٩ ـ المنتجع الفسيح « اداب وعلوم » للاستاذ محمد حسن عواد ـ نفد .
١٠ ـ طبيب العائلة : د حسن يوسف نصيف ـ نفد .
١١ ـ مذكرات طالب (ط٣) د حسن يوسف نصيف ـ نفد .
١٢ ـ شمعة على الدرب « نثر » للدكتور عارف قياسة ـ طبع .
١٣ ـ أطياف العذارى « شعر » للشاعر الاستاذ مطلق الذيابى ـ طبع .
١٤ ـ كبوات اليراع « تصويبات لغوية » للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ طبع .
١٥ ـ عندما يورق الصخر شعر ـ للاستاذ ياسر فتوى ـ طبع .
١٦ ـ ورد وشوك «مطالعات» للأستاذ حسن عبدالله القرشي ـ طبع .
١٧ ـ في معترك الحياة مجموعة آراء ـ للاستاذ عبدالفتاح أبومدين ـ طبع .
١٨ ـ المجموعة الشعرية للاستاذ محمد ابراهيم جدع ـ طبعت .

١٩ ـ الوجيز في المبادىء السياسية في الاسلام « نظرات اسلامية » للاستاذ سعد أبوجيب ـ طبع .
٢٠ ـ اوهام الكتاب تعقبات مختلفة ـ للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ طبع .
٢١ ـ علي أحمد باكثير حياته وشعره الوطني والاسلامي ـ دراسة للدكتور أحمد السومحى ـ طبع .
٢٢ ـ نغم وألم ـ شعر الشريف منصور بن سلطان ـ طبع .
٢٣ ـ الكلب والحضارة « قصص من البيئة » للاستاذ عاشق الهذال ـ طبع .
٢٤ ـ شواهد القرآن ـ للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ طبع .
٢٥ ـ التشكيل الصوتي في اللغة العربية ـ للدكتور سلمان العاني ـ طبع .
٢٦ ـ اريد عمر رائعا ـ شعر ـ للشاعر عبدالله جبر ـ طبع .
٢٧ ـ ترانيم الليل ـ المجموعة الشعرية الكاملة ـ للشاعر الاستاذ محمود عارف ـ طبع .
٢٨ ـ حروف على أفق الاصيل ـ شعر ـ للاستاذ حمد الزيد ـ طبع .
٢٩ ـ من أدب جنوب الجزيرة ـ دراسة ـ للاستاذ محمد بن أحمد عيسى العقيلى ـ طبع .
٣٠ ـ غناء الشادى ـ شعر ـ للشاعر الاستاذ مطلق الذيابى ـ طبع .
٣١ ـ الذيابى تاريخ وذكريات إعداد الشريف منصور بن سلطان ـ طبع .
٣٢ ـ محاضرات النادى القسم الاول ـ طبع .
٣٣ ـ محاضرات النادى القسم الثانى ـ طبع .
٣٤ ـ محاضرات النادى القسم الثالث ـ طبع .
٣٥ ـ المتنبى ـ شاعر مكارم الأخلاق ـ للاستاذ أحمد بن محمد الشامى ـ طبع
٣٦ ـ هموم صغيرة ـ أقاصيص ـ للاستاذ محمد علي قدس ـ طبع .
٣٧ ـ أمواج وأثباج ـ دراسات أدبية ـ للاستاذ عبدالفتاح أبومدين ـ طبع (الطبعة الثانية)
٣٨ ـ الخطيئة والتكفير ـ من البنيوية الى التشريحية ـ للاستاذ الدكتور عبدالله الغذامى ـ طبع .

٣٩ ـ التجديد في الشعر الحديث ـ دراسة أدبية للدكتور يوسف عزالدين ـ طبع .
٤٠ ـ التراث الثقافي للاجناس البشرية في افريقيا .. دراسة علمية للدكتور عبدالعليم عبدالرحمن جعفر ـ طبع .
٤١ ـ فلسفة المجاز .. دراسة لغوية للدكتور لطفي عبدالبديع ـ طبع .
٤٢ ـ بكيتك نوارة الفال ، سجبيتك جسد الوجد ـ شعر عبدالله عبدالرحمن الزيد ـ طبع .
٤٣ ـ مصادر الادب النسائي في العالم العربي الحديث للدكتور جوزيف زيدان ـ طبع .
٤٤ ـ احبك رغم احزاني شعر الدكتور فوزي عيسى ـ طبع .
٤٥ ـ ابو تمام ـ دراسة ـ للاستاذ سعيد السريحي ـ طبع .
٤٦ ـ العبقرية العربية دراسة لغوية للدكتور / لطفي عبدالبديع ـ طبع .
٤٧ ـ أحاديث ـ الدكتور ـ محمد سعيد العوضي ـ طبع ـ طبعة ثانية .
٤٨ ـ اغتيال القمر الفلسطيني للاستاذ / أحمد مفلح ـ طبع .
٤٩ ـ التضاريس ـ شعر ـ للاستاذ محمد الثبيتي ـ طبع .
٥٠ ـ ٤ صفر ـ للاستاذة رجاء عالم ـ طبع .
٥١ ـ علم اجتماع اللغة ـ ترجمة عن الانجليزية ـ الدكتور أبو بكر باقادر ـ طبع .
٥٢ ـ اقضية وقضاة في الاسلام ـ للدكتور / كمال محمد عيسى ـ طبع .
٥٣ ـ علم الاسلوب ـ للدكتور صلاح فضل ـ طبع .
٥٤ ـ دليل كتاب النادي ـ طبع .
٥٥ ـ علي دمر ـ شعر للاستاذ علي دمر ـ طبع .
٥٦ ـ احبك .. ولكن ـ مجموعة قصص قصيرة ـ للاستاذة مريم محمد الغامدي ـ طبع
٥٧ ـ مدخل إلى الشعر العربي الحديث ـ الدكتور نذير العظمة ـ طبع
٥٨ ـ محاضرات النادي ـ الجزء الرابع ـ طبع .
٥٩ ـ محاضرات النادي ـ الجزء الخامس ـ طبع .
٦٠ ـ محاضرات النادي ـ الجزء السادس ـ طبع .

٦١ ـ محاضرات النادى ـ الجزء السابع ـ طبع .

٦٢ ـ اللغة بين البلاغة والاسلوبية ـ الدكتور مصطفى ناصف ـ طبع .

٦٣ ـ جزر فرسان ـ العقيد متقاعد صالح بن محمد بن مشيلح الحربى ـ طبع .

٦٤ ـ شواهد القرآن ـ الجزء الثانى ـ للشيخ أبي تراب الظاهرى ـ طبع .

٦٥ ـ الفكر السيكولوجى المعاصر ـ للدكتور حمد المرزوقى ـ طبع .

٦٦ ـ مذنب هالي ـ للدكتور محمد عبده يمانى ـ طبع .

٦٧ ـ مورفولوجيا الحكاية الخرافية ـ الدكتور ابو بكر باقادر ـ طبع .

٦٨ ـ طه حسين والتراث ـ مصطفى ناصف ـ طبع .

٦٩ ـ ذاكرة الأسئلة النوارس ـ عبدالله الخشرمى ـ طبع .

٧٠ ـ قراءة جديدة لتراثنا النقدى المجلد الأول ـ المجلد الأخر ـ طبع .

○ ○ ○

البلاد

طبعت بمطابع دار البلاد ـ جدة

ت : ٦٧٠٠٣٣٣ ص . ب : ٧٦١٤ جدة ٢١٤٧٢

● « ليس القول وحده مقياس السمو الخلقي لدى الإنسان ، فكأين من فلاسفة رسموا المثل العليا للخلق الإنساني في أرفع معانيه ، ثم هبطوا بأعمالهم إلى حضيض القتلة والسفاحين ، وما كانت آراؤهم الخلقية غير ستار خادع ، ضاعف مثالبهم لدى الناس ، وشوّه من روائع المعاني .. التي محّصوها للقارئين أتم تمحيص ، إنما المقياس الحقيقي للداعية الخلقي .. أن يتقيد بما قال ، بحيث تصبح حياته العملية تطبيقاً أميناً لآرائه النظرية . »